الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية



المغرب والاندلس والبحر المتوسط

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق

١٩٩٥ - ١٤١٦هـ

الجزء الثاني

مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية

(٢ ـ المغرب والأندلس والبحر المتوسط)

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

اقدم فيما يلي الجزء الثاني من كتاب مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، وذلك أخذا بالخطة الموضوعة ، وقد عالجت في هذا الجزء اوجه العلاقات فيما بين أحداث تاريخ الغرب الاسلامي واوروبة الغربية ، وإلى حد ما الشرقية ، ليس باسهاب بل بما يكفي مقاصد التاريخ للحروب الصليبية ، وكان الباعث على كتابة هذا الجزء ليس وحدة المواجهة الاسلامية مع اوروبا الصليبية شرقا وغربا فحسب ، بل للبرهنة على أن الأمة العربية تمتلك تاريخا واحدا تفاعلت أحداثه ـ وما زالت ـ وتداخلت في المشرق والمغرب ، وانه من المحال تقديم بحث تاريخي مقبول علميا انطلاقا من القاعدة الاقليمية .

واهتممت بشكل خاص بقيام دولة المرابطين وبشخصية يوسف ابن تاشفين واعماله في الأندلس بالنسبة لمعركة الزلاقة ومن ثم إزالته لدول الطوائف ، واثرت خلال البحث عدة مسائل جديدة ثم توصلت إلى إجابات فيها ايضا بعض الجدة ، ومكنني من ذلك سعة الأفق القومي وسلامته وخلوه من الشوائب مع توفر ما يحتاجه البحث من مصادر مخطوطة ومطبوعة ومراجع حديثة ، ففي اثناء إعارتي للتدريس في فاس بذلت خلال ثلاث سنوات كل جهد ممكن ليس لتعميق معارفي بتاريخ الغرب الاسلامي وإنما لاقتناء مصادر هذا التاريخ ، وعلى سبيل المثال في مكتبتي الآن ثلاث نسخ من كتاب روض القرطاس واحدة مطبوعة واثنتان مخطوطتان ، ذلك ان عبد الوهاب بن منصور تلاعب بنص هذا الكتاب حين حاول اضفاء بعض الحداثة عليه ، وصحيح انني اسهمت في تحقيق كتاب الحلل الموشية ، إنما امتلك نسخة خطية جديدة منه ، لم استخدمها اثناء

التحقيق ، ثم إنني إهتديت ـ مع من أهتـدي ـ الى معـرفة مـؤلف الكتاب يضاف الى هذا إن صلاتي بأقطار المغـرب العـربي متينة ـ والحمد لله ـ وهذا ما مكنني ـ ومازال ـ من الحصول على الجـديد من كتب التراث والدراسات الحديثة ، خاصة مطبوعات دار الغـرب الاسلامي ، حيث تربطني بصاحب الدار صداقة قوية العرى .

ولقد أوليت البحـر المتـوسط والصراعات للسـيطرة عليه وعلى جزره عنايتي ، ثم الحقت بهذا الجزء مـلاحق مفيدة فيهـا تـوثيق وتوضيح وتبيان .

الله جل وعلا يهدي الى سـواء السـبيل ، له تبـارك وتعـالى الشكر ، والحمد ، ومن كرمه وفضـله وقـدرته أسـتمد العـون واستجدي التـوفيق ، واسـتلهم الصـواب ، واطلب البـركة والمثوبة ، وصلى الله على سيدنا ونبينا المثل الأعلى بين البشر ولكل البشر ، محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه وسلم .

دمشق ١١ / ١٢ / ١٩٩٢

سهيل زكار

الفصل الأول

المغرب والأندلس من الفتح حتى العصر المرابطي

كان لفتح بلاد الشام على يد العرب المسلمين ثم اتخاذ هذه البلاد مقرا للخلافة الأموية ابعد الأثار على حركة انتشار الاسـلام عالميا فالاسرة الأموية كانت تعرف بلاد الشام من قبل، وتدرك اهمية سواحلها المتوسطية وموقعها البري الفريد الذي مكنها من الاتصال بأوروبة الشرقية عبر اسية الصغرى وبأفريقية عبر مصر وبالهضبة الايرانية وخراسان وبلاد المشرق الأقصى عبـر العـراق وبـأرمينية واذربيجان وعالم بحر الخزر وكذلك البحر الأسود مع أجـزاء مـن اوروبة الشرقية عبر الجزيرة .

وكان سكان سواحل الشام لعصور ما قبل الاسلام قد وصلوا عبر المتوسط الى حيث وصلت الفتوحات فيما بعد ، كما أن النسـاطرة والسريان كانوا قد وصلوا شرقا الى حيث وصلت الفتوحات العربية أيضا فيما بعد ، وكأني بأهل الشام الأوائل قد قاموا بحكم تواصل حلقات أحداث التاريخ بالتمهيد لنجاح حركة الفتوحات العربية ، في تقبل سكان البلاد المفتـوحة لدعوة التـوحيد الجـديدة ، فـالفارق الأساسي بين حركة الفتوحات العربية وغيرها من أعمـال التـوسع العسكري لمختلف الشعوب عبر العصور ، هو في تحول سكان البلاد التي عرفها أهل الشام قبل الاسلام الى الاسلام (١) .

ولاتعنينا الآن مسألة الفتوحات العربية في أسية بـل الذي يهمنا هو المواجهة العربية الأوروبية ، وبالتحديد المواجهة مـع الأجـزاء الغربية من اورووبة ، ذلك أنه سبق لنا الحديث في الجزء الأول مـن كتاب المدخل عن العلاقات مع اوروبة الشرقية ممثلة بـالامبراطورية البيزنطية قبيل قيام ما يعرف باسم الحـروب الصـليبية ، وسـترد

إشارات كثيرة الى استمرار هــذه العــلاقات في الجــزء الثــالث المقبل ، كما ان مختلف النصوص فيها مواد غنية عن هذا الموضــوع مع إشارات مفيدة للعلاقات مــع الكرج(جــورجيا) حيث والحــروب الصليبية مشتعلة بأرض الشام كان الصراع الصليبي مع الكرج على اشده حاملا الألوان نفسها والسمات ، وكان له انعكاساته المؤثــرة على ساحات بــلاد الشــام ،فهــذا الصراع كان وراء قيام الحــكم الأيوبي في بلاد الشام .

وتمت المواجهات بين العرب واوروبــة الغــربية في الأراضي المطلة على حوض البحر المتوسط وعلى مياه هذا البحر وفي سبيل التحــكم به والسيطرة عليه وعلى جزره ، ومما يلفت الانتباه هو أن معــاوية ابن ابي سفيان اهتم بالبحر المتــوسط ونشــط فيه منذ أن كان واليا ايام حكم الخليفة الراشدي عثمان بن عفان (٢) ، كمــا أن المتفحص بعمق لحركة الفتوحات في العصر الأموي يرى بــكل وضــوح وجــود خطة استهدفت السيطرة بشكل كامل على هذا البحر ، فبعد اكمــال فتح المغرب تم فتح الأندلس والسيطرة الكاملة على واحد من منفذي البحر المتوسط ، وأعقب هذا محاولة فتح القسطنطينية والســيطرة على المنفذ الثاني .

وانجز العرب فتح بلدان المغرب العربي بعمليات برية اســتهدفت اولا وقبل كل شيء السيطرة على سواحل المتوسط ، ولهــذا شــابها بعض المناوشات والمعارك البحــرية ، وبفضــل البحــرية جــازت الجيوش المسلمة الى الأندلس وهكذا لم يكتف العرب بتــطويق بلدان اوروبة الغربية ، بل غزوها فافتتحوا شبه الجزيرة الايبيرية ، ومن ثم جهدوا في سبيل فتح فرنسا وسواها ، وظل النشاط العســكري العربي في أوروبة كبيرا جدا حتى ما بعــد انتهــاء القــرن العــاشر للميلاد ، حيث تغيرت الأحــوال في القــرن الحــادي عشر بــــظهور النورمان وبتمزق الأندلس واشتداد حــركة الاســتغلاب الصــليبية فيها ، ومع نهاية هذا القرن تحركت الحشود الهــائلة مــن ســكان اوروبة الغربية تريد بلاد الشام ، وهــو مــا عرف بــاسم الحــروب

الصليبية ، لهذا هناك حاجة لدراسة ما شـهدته سـاحات المغـرب والأندلس وجزر المتوسط من مواجهات ، فكما أن أوروبة اجتمعـت تحت راية الصليب لتحقيق غاية واحدة متفق عليها ، فـان الذي الم بالوطن العربي ، الم به شرقا وغربـا ، فـالوطن العـربي وطـن واحد ، قطنه شعب واحد تفاعلت أحداثه وشؤونه بشكل دائم .

وهكذا كما درسنا في الجزء المتقدم أوضاع المشرق العـربي مـع عمقه الاسلامي في القرن الخـامس هـ ـ الحادي عشر عليـنا ـ حتـى تستكمل الصورة ـ أن نتولى بالدراسة أوضـاع المغـرب والأندلس وجزر المتوسط في هذه الفترة عينها ، إنما هنا أشعر بوجود الحاجة لتقديم عرض موجز لفتح المغرب والأندلس ، ثم تاريخ الأندلس حتى عصر دول الطوائف ، فبدون هذا العرض يصعب فهم العـديد مـن القضايا ، لاسيما أن الوطن العربي في المغرب لم يمتلك أنذاك عمقـا اسلاميا كما الحال في المشرق .

فتح المغرب

اطلق العرب على البلاد الواقعة الى الغرب من مصر اسم المغرب ، وهي البلاد التي تتضمن الدول العربية في الشمال الأفريقي : ليبيا ، وتونس ، والجزائر ، والمغرب وموريتانيا وتبعا لروايات المصادر العربية احتك العرب بعد قيام الاسلام ، بهذه البلاد بعد سنة ٢٢ هـ وقبل ٢٦ هـ (٦٤٣ ـ ٦٤٧ م) ، وعرف العرب سكان المغرب قبل الفتح باسم البربر ، ولعلهم حين عرفوهم بهذا الاسم قد ورثوا التسمية الرومانية « Barbari » التي استخدمها الرومان ومن قبلهم الاغريق ثم أخيرا بيزنطة ، واطلقوها على جميع الشعوب ذات الأنظمة القبلية والحياة البدوية .

وحاول الكتاب العرب تفسير هذه التسمية الشاذة على قاعدة علم الأنساب ، مع أن البربر أنفسهم لم يسموا أنفسهم هكذا بل «الأحرار» وتعرف بقاياهم الآن باسم «الشلوح» ، وهم بشكل عام عند العرب الأوائل كانوا يتألفون من كتلتين بشريتين رئيستين هما : البرانس والبتر ، وقد ضمت كل كتلة منهما عددا كبيرا من القبائل المتفاوتة الأحجام والأدوار ، ومن المرجح أن قبائل البربر جميعا قد تكونت عبر فترات التاريخ من العرب الذين هاجروا الى الشمال الافريقي بحرا من سواحل الشام مثل الفينيقيين وسواهم واهم من هذا من موجات المهاجرين عبر مصر ، فقد قيل إن «المور» هم من بقايا الهكسوس ، والهجرة من مصر الى بلدان الشمال الافريقي لم تتوقف أبدا ، ولذلك عندما قام الفتح العربي للمغرب وجد العرب قبائل البربر تشابههم في العادات وأنماط العيش والطبائع والأشكال ، وبناء عليه عدت حركة فتوحات المغرب حركة تحرير مثل تحرير بلاد الشام والعراق ومصر .

ووجد العرب الحياة المدنية في المناطق الساحلية أما الداخل

فسادتها الحياة البدوية ، وفي هذا المقام يلاحظ أن جل مــدن بلدان المغرب الداخلية تأسست بعد انتشار الاسلام هناك ، ومن المقــرر ان غالبية المدن الساحلية كانت قد تأسست على أيدي الفينيقيين .

وعانى العرب كثيرا أثناء فتح بلدان المغــرب ، وبـذلوا جهـودا كبيرة في تحريرها ثم في تعريبها بشكل نهائي ، ويمكن تقسيم تاريخ المغرب في الاسلام الى فترتين واحدة سبقت قيام الهجرة الســليمية والهلالية ، واخرى جاءت بعدها ، فهذه الهجرة كانت حدثا فيصلا في تاريخ المغرب الكبير وصبغته نهائيا بالصبغة العربية .

وجاءت المؤثرات اللغوية والحضارية والثقافية الى بلدان المغــرب من مصر والمشرق العربي ، ومع هذا جاءت بعض المؤثرات من روما ثم روما الشرقية ، إنما كانت ضعيفة وســلطوية فقــط ، ومــع أن الأمبراطورية البيزنطية كانت تدين بالمسيحية ، فــان المســيحية لم تصل الى المغــرب بــوساطتها وكانت الكنائس في المغــرب معــادية لكنيسة القسطنطينية ولكنيسة روما ، وحين طــرق العــرب ابــواب الشمال الافريقي كانت المناطـــق الســـاحلية خـــاضعة لحـــكم بيزنطة ، وهناك انتشرت المسيحية ، وعلى العموم شــابه المغــرب المشرق من حيث المواريث الدينية ، فقد كانت هناك مؤثرات مــانوية مع المؤثرات الكتابية وكانت هناك وثنية طــاغية ومنتشرة في مناطــق الداخل ، وكما في المشرق ارتبطت الوثنية في المغرب بالبداوة كنمــط للحياة .

ومن المفيد الاشارة الى انه نظــرا لأن بلدان الشــمال الافــريقي ارتبطت بشكل مباشر بأفريقيا السوداء ، فقــد وجــد فيهــا عناصر سوداء ذابت في جسم المجتمعات المغــربية ، وبلدان المغــرب تــولت دوما التأثير الكبير على سكان القارة الافريقية ، وبعد قيام الاسلام وانتشاره في المغرب منه انتقل الى شعوب القارة الافريقية ، وساعد قرب سواحل المغرب من ســواحل شــبه الجــزيرة الايبيرية في قيام هجرات بشرية احيانا كهجرة الوندال ، كما أن المواجهة القريبة من سواحل اجزاء هامة من غربي أوروبــا ـ خــاصة ايطــاليا ـ أغرت

بعض المهاجرين الأوروبيين بالقدوم الى بلدان المغرب ، لكن لم ينجم عن هذا تغييرات عرقية او اجتماعية عميقة .

وبعد هذه المقدمات العامة إذا ما انتقلنا الى الحديث عن فتوح المغرب نجد انه بعد ما فرغ عمرو بن العاص سنة ٢٢ هـ ـ ٦٤٣ م من فتح الاسكندرية زحف نحو ليبيا فافتتح طرابلس ولبدة وصبراته ، وانتزعهم من أيدي البيزنطيين ، ثم اخذ يوجه سراياه في غزوات استطلاعية للفتح الاستراتيجي ، وهكذا امتلك العرب ما احتاجوه من معلومات عن أوضاع تونس التي دعوها باسم إفريقية ، وكتب عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب يستأذنه في الزحف نحو إفريقية ، لكن الخليفة رفض خشية التغرير وقال : «لاإن إفريقية غادرة مغدور بها»(٣) .

ويستفاد من هذا النص وسواه أن العرب قد توفرت لديهم معلومات كافية عن أرض إفريقية مع السكان ، وانهم وضعوا خططهم لفتحها لكنهم تريثوا لجمع ما يكفي من قوات ولتأمين قاعدة للتقدم والزحف العسكري ، واتخذت طرابلس قاعدة ، لكن كان لها مخاطرها لوقوعها على الساحل المتوسطي ، فقد كانت بيرنطة ما تزال تملك قدرات بحرية كبيرة ، ونجد على العموم انه إذا كان فتح مصر وليبيا اشبه بنزهة عسكرية ، فإن فتح بقية أجزاء المغرب كان من اقسى المهام وأكثرها عنفا.

وكان بعدما توفي امير المؤمنين عمر بن الخطاب استخلف عثمان بن عفان ، وتبع هذا التغيير تغييرا آخر في جهاز الولاية في مصر ، فقد قام عثمان بعزل عمرو بن العاص عن ولاية الفسطاط ، وافرد ولاية مصر مع ولاية المغرب الى عبد الله بن سعد ابن أبي سرح ، وكان قبل ذلك شريكا لعمروبن العاص في الولاية ، لكن حين ابى عمرو أن يبقى «كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها» عزله عثمان ، وذكر خليفة بن خياط ان عزل عمرو جاء سنة ٢٧ هـ ـ ٦٤٨ م ، واوضح ابن عبد الحكم أن ابن ابي سرح أخذ بعد تسلمه لمنصبه « يبعث المسلمين في جرائد الخيل كما كانوا

يفعلون في أيام عمرو فيصيبون من اطراف إفريقية » ، وعندما أكملت القوات العربية أعمال استطلاعها تقرر القيام بالعمل الاستراتيجي ، فبعث ابن أبي سرح الى عثمان يستأذنه في غزو إفريقية ويستمده ، وكانت إفريقية تحكم من قبل البيزنطيين ، وكان على راس السلطة فيها قائد اسمه جرجير ، وتبعا للمصادر العربية كان جرجير هذا قد ثار على الامبراطور البيزنطي واعلن استقلاله ، واتخذ من مدينة سبيطلة مقرا لملكه ، وبعدت سبيطلة هذه قرابة السبعين ميلا عن قيروان المستقبل وكانت على درجة عالية من القوة والحصانة

واولى الخليفة عثمان الجيش الذي امد به ابن ابي سرح عناية كبيرة ، فجعله يحوي مشاهير رجال العرب واشرافهم مع عدد من الصحابة وكبار ابناء مشاهير الصحابة مثل العبادلة عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن الزبير ، وذلك بالاضافة الى مروان بن الحكم ، ومعبد بن العباس ابن عبد المطلب ، وعبد الرحمن بن ابي بكر وغيرهم كثير

وعندما التقى الجيش العربي بجيش جرجير ، وجد العرب انفسهم امام جيش اكثر عددا واحسن تسليحا وعددا ، وقامت مناوشات بين الطرفين لعدة ايام ، ثم قام ابن ابي سرح بوضع خطة محكمة للالتحام بأن قسم قواته الى قسمين قسم شارك في الالتحام بينما كمن القسم الآخر ، وعندما تعب المتحاربون خرج الكمين العربي فأوقع هزيمة ساحقة بالبيزنطيين ، وسقط جرجير بين القتلى ، ففي المشرق عندما هزم العرب جيوش بيزنطة في الشام وجيوش الفرس في العراق وإيران خلصت لهم البلاد ، ودان لحكمهم السكان المحليون ، لكن هنا في المغرب اختلفت الاوضاع ، فقد اراد العرب فتح البلاد ساحلا وداخلا ، وحين هزموا البيزنطيين سيطروا على السواحل ، وبقي عليهم خوض معارك مريرة للسيطرة على المناطق الداخلية التي لم يكن لبيزنطة سيطرة عليها،ودانت كل بقعة منها لزعامة قبلية محلية.

هذا ولم يتمكن ابن ابي سرح من استغلال نصره المبين بالتوغل داخل الأراضي المغربية ، وسبب هذا ما واجهه من قلاقل داخل صفوف جيشه ، فقد روي انه حصل على غنائم عظيمة ، وجاء توزيع هذه الغنائم بشكل غير عادل ، مما اثار حفيظة الجند ، وكان بالتالي بمثابة شرارة اولى ادت بعد تطورها الى المساهمة في الثورة على عثمان وقيام احداث الفتنة الكبرى ، ومن المرجح على هذا أن النصر على جرجير كان اخر معركة كبرى خاضها العرب في المغرب في العصر الراشدي ، وبما ان الغنائم كانت توزع بعد القتال مباشرة ، فإن القلاقل الناجمة ارغمت ابن أبي سرح على عدم متابعة زحفه واستغلال نصره ، حيث تصالح مع بقايا البيزنطيين على « ثلاثمائة قنطار من الذهب ، على أن يكف عنهم ويخرج من بلادهم » (٤) .

وتفجرت احداث الفتنة الكبرى التي أودت بحياة الخليفة عثمان ابن عفان ، وفي اثناء خلافة الامام علي بن ابي طالب ، تقلب على ولاية مصر عدد من الولاة ، لم تخلص الولاية لواحد منهم ، وعندما آلت الخلافة الى معاوية بن ابي سفيان أعطى ولاية مصر الى عمرو ابن العاص ، وفق بنود تحالفهما قبيل الحرب في صفين ، وبعودة عمرو بن العاص الى الفسطاط عاد النشاط العسكري العربي واستؤنفت حركة الفتوح ، ففي سنة ٤١ هـ ـ ٦٦١ م (عام الجماعة) «ولي عمرو بن العاص ، وهو على مصر ، عقبة بن نافع الفهري ـ وهو ابن خالة عمرو ـ إفريقية » وقام عقبة بعدة غارات في داخل إفريقية ، وفعل الشيء نفسه في العام التالي ، ثم في العام الذي تلاه ، وهو العام الذي توفي فيه عمرو بن العاص (٥) .

ويرجح أنه في سنة ٤٥ هـ ـ ٦٦٥م افرد الخليفة معاوية بن أبي سفيان لسمية معاوية بن حديج شؤون إفريقية ، وبهذا فصلها عن ولاية مصر وأفردها ، وجاء هذا نتيجة لعدة عوامل كان منها ـ كما يبدو ـ قيام واحد من قادة جرجير واسمه جناديوس بالقبض على ناصية الأمور هناك بعده ، وظل وفيا للوعد الذي قطع للعرب من قبل

بقيادة ابن أبي سرح ، إنما في اثناء انشغال العرب بالحروب الأهلية حاولت بيزنطة إعادة نفوذها الى إفريقية ، فبعثت بواحد من قادتها الى هنا لكنه أخفق بعدما التقى مع جناديوس في معركة ومن ثم اضطر الى مغادرة الشمال الأفريقي والعودة الى حيث اتى ، على انه ما لبث جناديوس نفسه أن واجه تحركا داخليا لم يستطع التغلب عليه ، لذلك غادر إفريقية واتجه نحو معاوية بن ابي سفيان ، فكان أن ارسل معه جيشا بقيادة ابن حديج قيل بلغ تعداده عشرة آلاف مقاتل ، وضم بين صفوفه عددا من مشاهير العرب كان منهم عبد الملك بن مروان ، وزحف جيش ابن حديج ـ بعد ما وصل الى مصر ـ من الاسكندرية الى برقة وطرابلس ، وتوغل هذا الجيش حتى المنطقة التي ستقام فيها مدينة القيروان ، وهناك علم بنزول حملة بيزنطية في منطقة غابات الزيتون بين سفاقس وسوسة ، فأرسل ضدها وحدة من قواته طردتها ، واحتل ابن حديج عدة مواقع واقام مدة سنة تقريبا يبث سراياه ويعمل الغارة داخل إفريقية ، وإثر هذا عاد الى مصر ، ولا ندري ما الذي حل بجناديوس الذي كان برفقته، وكل الذي نعرفه أن ابن حديج عاد الى مصر دون أن يبرم عهدا او اتفاقية مع طرف من الأطراف ذات السلطة في إفريقية ، وعلى الرغم من عودة ابن حديج الى مصر يرجح أن بعض القوات العربية بقيت معسكرة في طرابلس ، ومن هناك كانت تقوم بالغارات الاستطلاعية (٦) .

هذا ويمكن عد ماتم حتى الآن من أعمال عسكرية في الشمال الأفريقي مجرد أعمال تمهيدية للفتح الدائم ونشر الاسلام وتعريب البلاد ، وكان هذا العمل الحاسم قد بدأ مع سنة ٥٠ هـ ـ ٦٧٠ م،وارتبط باسم عقبة بن نافع الفهري ، ففي هذه السنة « وجه معاوية عقبة بن نافع الى إفريقية فخط القيروان واقام بها ثلاث سنين »، ومع أن عقبة لم يكن قائد الجيش الوحيد الذي عمل في هذه السنة في الأراضي المغربية ، حيث أن مسلمة بن مخلد والي مصر بعث معاوية بن حديج على رأس جيش توغل داخل الأراضي المغربية ، فإن الذي حققه عقبة بن نافع كان بعيد الأثر ، وعلى

راس ما حققه كان إقامة مدينة القيروان ، التـي اقيمـت بعيدا عن الساحل في موقع استراتيجي داخل البر المغربي فغدت قـاعدة عربية متقدمة للفتوح عسكريا وثقـافيا ودينيا واقتصـاديا ، والمركز الأول الذي حمل مسؤوليات اعمار الشـمال الافـريقي وتعـريب الأرض والسكان بشكل دائم وثابت.

ولهذا يحيط العرب اخبار بناء القيروان بهالة خـاصة وقـدسية فائقة ، فقد كان مع عقبة بن نافع « في عسكره خمسة وعشرون مـن اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم » وانه حينما وقـع اختياره على موقع القيروان اقبل يدعو لها ويقول في دعائه: اللهـم امـلأها علمـا وفقها واعمرها بالمطيعين والعابدين واجعلها عزا لدينك وذلا لمن كفر بك ، واعز بها الاسلام وامنعها من جبابرة الأرض » ، وبعـد هـذا وقف على واديها فقال : «يا اهل الوادي اظعنوا فإنا نازلون ، وإنا من وجدناه قتلناه» « ونظر الناس بعد ذلك الى امر معجـب مـن أن السباع تخرج من الشعار تحمـل اشـبالها والذئب يحمـل جـروه والحيات تحمل اولادها» وهنا نادى عقبة في الناس « كفوا عنهم حتى يرتحلوا عنا».

يبدو ان هذا ما كان الا تحريفا اسطوريا لما قـام بـه عقبـة حين شرع في اتخاذ معسكره حيث انه امر كما يبدو بطرح النار في البقعـة التي اختارها لتنظيف ما كان بهـا مـن اشـجار واعشـاب وغير ذلك ، وتطور هذا المعسكر الى مدينة حملت اسم القيروان ، وهـي لفظة معربة مثلها مثل لفظة فسطاط تعني معسكر الجيش او القافلة او معظم الجيش.

وظل عقبة في منصبه حتى سنة ٥٥ هـ ـ ٦٧٥م ، ففي هذه السنة أو قبلها وضع الخليفة معاوية بن ابي سفيان ولاية إفـريقية تحـت لواء والي مصر مسلمة بن مخلد ، فقام بعزل عقبة وارسـل جيشـا الى إفريقية جعل على راسه خالد بـن ثـابت الفهمـي « وامـره ان يستخلف أبـا المهـاجر دينارا » وكان الوالي الجـديد مـن

الأنصار ، وكان مؤلى لمسلمة بن مخلد ، ويبدو انه اساء معاملة عقبة عندما تسلم اعماله منه (٧) .

ولا نمتلك تفاصيل كثيرة عن اعمال ابي المهاجر ، سوى انه لم يقم في قيروان عقبة ، واتخذ لنفسه معسكرا خاصا على ميلين منها عرف باسم تيكروان ، وظل ابو المهاجر في منصبه حتى ما بعد وفاة معاوية بن ابي سفيان ، وقيل غير هذا ، لكن يرجح ان معاوية اشرك معه غيره في الولايةففي سنة ٥٧ /٦٧٧ «وجه معاوية بن ابي سفيان حسان بن النعمان الغساني الى إفريقية ، فصالحه من يليه من البربر ، ووضع عليها الخراج ، فلم يزل عليها حتى مات معاوية» (٨) .

وبعدما عزل عقبة من منصبه ، توجه نحو بلاد الشام حيث لقي معاوية بن ابي سفيان فعاتبه على عزله ، فطيب معاوية نفسه ومناه ، ومكث عقبة في دمشق حتى ما بعد وفاة معاوية واستتباب الأمور لابنه يزيد ، حيث قام بإعادته إلى ولاية إفريقية ، وربما تم هذا سنة ٦١ هـ ـ ٦٨١ م ، وفي ولاية عقبة هذه وصلت الفتوحات العربية إلى أقصى المغرب ، وفي ذروة النجاح هذه اصيب العرب بنكسة كبيرة كادت تفقدهم كل ما حصلوا عليه في السنين المتقدمه .

خرج عقبة من الشام مسرعا نحو مصر ، وكان بصحبته بعض القوات الشامية ، وعندما مر بمصر اعتذر له مسلمة بن مخلد من فعل ابي المهاجر « فقبل عقبة منه ومضى سريعا لحنقة على ابي المهاجر حتى قدم إفريقية ، فأوثق ابا المهاجر بالحديد ، وامر بخراب مدينته ، ورد الناس إلى القيروان » .

ثم عزم بعد هذا على الغزو ، وعندما تحرك ترك في القيروان جندا استخلف عليهم زهير بن قيس البلوي ، وتحرك عقبة فاجتاح في تحركه المغرب الأوسط فهزم من تصدى له من بقايا القوات البيزنطية والقبائل البربرية ، ودخل المغرب الأقصى فهزم كل من اعترض سبيله ، ودخل طنجة « فلقيه رجل من الروم يقال له اليان » وبعدما حصل عقبة على بعض المعلومات توجه نحو السوس

الأدنى فهزم من قاومه من البربر » ومضى كذلك حتى دخل السوس الأقصى فاجتمع به البربر في عدد لايحصى فلقيهم فقاتلهم قتالا شديدا ما سمع أهل المغرب بمثله ، وقتل منهم خلقا عظيما وأصاب منهم نساء لم ير الناس في الدنيا مثلهن » .

وكان هدف عقبة الأساسي في حملاته دعوة الناس إلى الاسلام ، ويرجح أن كثيرا من قبائل البربر أعلنت إسلامها ، وحين قال المؤرخون العرب إن عقبة قد وصل إلى السوس الأقصى ، وهناك اقتحم المحيط بفرسه حتى وصل الماء إلى تلابيبه وقال · يارب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهدا في سبيلك ، هذا يعني أنه كان يرنو ببصره نحو أوربة ، ولم يفكر قط في التوغل داخل افريقيا السوداء ، أضف إلى هذا أن المقصود بالسوس الأقصى هنا مصب نهر السنغال في المحيط الأطلسي .

ولقد كانت الانجازات التي حققها عقبة عظيمة جدا ، وكانت الغنائم كبيرة، وعندما فكر عقبة في العودة نحو القيروان أرسل القسم الأكبر من قواته مع العيال والغنائم ، وأبقى لنفسه قوة صغيرة ، وكان معه أحد زعماء البربر واسمه كسيلة ، وقد استطاع كسيلة هذا أن يهرب ، ومن ثم قام بحشد رجال قبائله ، وبالوقت نفسه تحالف مع بقايا بؤر المقاومة البيزنطية ، وقبل أن يصل عقبة إلى منطقة القيروان سعى للاستيلاء على مدينة تدعى تهودة ، ويبدو أن حصاره لهذه المدينة أتاح الفرصة أمام كسيلة للتحرك وقطع الطريق على عقبة، وعلى مقربة من تهودة، وعلى حين غرة وجد عقبة نفسه أمام جموع كسيلة ، فلم يتردد في الاشتباك مع هذه الجموع في معركة انتحارية سقط فيها هو وجميع من كان في صحبته ولعل هذا كان سنة ٦٨٤ م ، ودفن عقبة حيث استشهد ، وبعد فترة غلب اسمه على الاسم القديم للمدينة ،فاصبحت تهودة تعرف بسيدي عقبة،وقبر عقبة له مكانة عالية في نفوس أهل المغرب العربي الكبير، وصورة عقبة هناك صورة المثل الأعلى للبطل العربي المسلم·

وعقب مصرع عقبة زحف كسيلة بجموعه نحو

القيروان » فخرجت العرب منها ولم يكن لهم بقتاله طاقة لعظيم ما اجتمع معه من البربر والروم ، واسلموا القيروان ، وبقي بها اصحاب الذراري والأثقال ، فأرسلوا إلى كسيلة يسألونه الأمان فأمنهم واجابهم ، واقام كسيلة حتى نزل القيروان ، واقام اميرا على إفريقية ، وقد بقي من بقي من المسلمين تحت يده ، فما زال على ذلك إلى أن ولي عبد الملك بن مروان » (٩) .

ولقد توافق مصرع عقبة مع الفترة التي تمخضت عن وفاة يزيد بن معاوية والحروب الأهلية في الشام والعراق والجزيرة العربية ، لكن ما إن استقرت الأمور وخلصت الخلافة لعبد الملك بن مروان حتى بادر بالايعاز إلى زهير بن قيس البلوي نائب عقبة في القيروان ، والذي كان قد انسحب منها ورابط في برقة فبعث إليه « بأمره بالخروج على اعنة الخيل إلى إفريقية ليستنقذ القيروان ومن فيها من المسلمين ، وكتب له زهير بن قيس يعرفه بكثرة من اجتمع إلى كسيلة من البربر والروم ويستمده الرجال والأموال » واستجاب عبد الملك لطلبه فأوعز إلى اخيه عبد العزيز بن مروان والي مصر بتوجيه الامدادات إلى زهير وقام هو بدوره « فوجه إليه وجوه أهل الشام .... وبعث إليه الأموال » وكان هذا سنة ٦٩ هـ / ٦٨٨ م ، وزحف زهير باتجاه القيروان وعندما دنا منها انسحب كسيلة من قربها إلى مكان يدعى ممش على مسيرة يوم واحد من القيروان ، وكانت قوات كسيلة اكبر من قوات زهير ، والذي دعاه إلى الانسحاب خشيته أن يخرج عليه أهالي القيروان من العرب فيقع بين فكي الكماشة ، والتقى الجيشان في ممش والتحما « في القتال ، ونزل الصبر ، وكثر القتل في الفريقين حتى يئس الناس من الحياة ، فلم يزالوا كذلك حتى انهزم كسيلة وقتل » وقامت قوات زهير بملاحقة فلول جيش كسيلة وبإعادة السيطرة العربية على المغرب ، واستمر هذا حتى سنة ٧١ هـ/ ٦٩٠ م حيث « رحل زهير قافلا إلى المشرق » وكان السبب في عودته ما بلغه من اخبار عن قيام بيزنطة بإنزال قوات اغارت على برقة وغيرها عن المناطق مستغلة غياب زهير ، واصاب البيزنطيون سبيا واموالا للمسلمين كثيرة ، وعندما

شرع زهير بالعودة « امر العسكر أن يمضوا على الطـريق ، واخـذ على ساحل البحر في عدة من اشراف الناس مجدين مبادرين رجـاء أن يدرك سبي المسلمين ، فأشرف على الروم ، فرأهم في خلق عظيم فلم يقدر على الرجوع ، واستغاث به المسلمون وصـاحوا ، والروم يدخلونهـم المراكب ، فنادى بـأصحابه « النزول رحمـكم الله » فنزلوا « وكانوا رؤسـاء العـابدين واشراف العـرب ، فنزل إليهم الروم فتلقوهم بعدد عظيم ، والتحم القتـال واعانوا بعضـهم بعضا ، وتكاثر عليهم الروم فقتلوا زهيرا ومن معه مـن المسـلمين جميعا فما أفلت منهم رجل » .

ووصلت انباء مصرع زهير وصحبه إلى الشام إلى عبد الملك « فعظم ذلك عليه ، وبلغ منه لفضله ودينه ، وكانت مصـيبته مثـل مصـيبة عقبة » وكانت جهود عبد الملك مصروفة انذاك كليا للقضاء على ابـن الزبير ، لذلك كان لابد من الانتظار لاعداد حملة جـديدة ، وسـتأتي هذه الحملة مع استتباب امور الدولة الأموية في المركز ، مما سيمكن من صرف الجهود لتثبيت السلطة العربية ولنشر الاسلام بين سكان المغرب (١٠) .

وبعدما توطدت الأمور لعبد الملك ، وتم له القضاء على ابن الزبير التفت نحو قضية المغرب ، فجهز جيشـا كبيرا ، عهـد بقيادتـه إلى حسان بن النعمان الغسـاني ، ويبـدو أن هـذا كان سـنة ٧٢ هـ / ٦٩٢ م ، وبعدما وصل إلى مصر غادرها إلى طـرابلس ، ومن هنا قرر التوجه نحو قرطاج طبقا لخطة جيدة وواضـحة . فقـد اراد اولا القضاء نهائيا على الوجود البيزنطي في المغرب ، وكان هذا القضاء يزيل من الوجود القوى العسكرية الأجنبية النظامية ، ولعل حسان ظن انه إذا نجح بذلك سهل عليه مـا بقـي ، وهـو القـوات البربرية للقبائل المتمردة .

وفعلا نجح حسان في فتح قرطاج ، وذلك بعـد جهـود كبيرة ، بيد انه ماكاد يخيل إليه أن المغرب قد دان له حتـى عرف بقيام تحـالف بين قبائل الأوراس تحت زعامة امـراة عرفـت بـالكاهنة والتقـى

بقواتها في معركة عنيفة انهزم فيها حسان بعدما فقد عددا كبيرا من افراد قواته ، وقام بالانسحاب نحو طرابلس ، وهكذا تخلى العرب مرة اخرى عن إفريقية ، واقام حسان في طرابلس ما يقرب من خمس سنوات حتى وصلته إمدادات كبيرة من الشام ، فعاود اخذ طريق إفريقية ، والتحم مع قوات الكاهنة فاستطاع أن يوقع فيها الهزيمة ويقتل الكاهنة نفسها ، ولقي حسان في صراعه مع الكاهنة مساندة بعض البربر وغيرهم من السكان المحليين ، ذلك أن الكاهنة عمدت إلى سياسة تدميرية مريعة للعمران في إفريقية ، فقد قالت لاتباعها « إن العرب إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة ، ونحن إنما نطلب منها المزارع والمراعي ، فما نرى لكم إلا خراب إفريقية حتى ييأسوا منها، ويقل طمعهم فيها » .

وبعد القضاء على الكاهنة خلص المغرب للعرب ، ودخلت أعداد كبيرة من سكانه في الاسلام ، ونعمت البلاد بقسط وافر من الاستقرار ، وبدأ العرب ينظمون احوال البلاد ويقيمون إدارة خاصة بها ، وكان حسان بعد هزيمته للكاهنة قد تخلى عن مدينة قرطاج ــ العاصمة القديمة لافريقية ــ وبعد هذا قام ببناء مدينة جديدة ، على مقربة منها ، جعلها مركزا جديدا لافريقية ، ودارا لصناعة المراكب ، وعرفت هذه المدينة باسم تونس ، واستعارت هذا الاسم من قرية كانت قريبة منها عرفت باللاتينية بـ tynis

ويبدو أن نجاحات حسان وإنجازاته بالمغرب قد ضايقت عبد العزيز بن مروان ، اخو الخليفة وولي عهده وحاكم مصر ، فقام عبد العزيز بعزل حسان وولى مكانه موسى بن نصير ، ولعل هذا كان سنة ٨٤ هـ / ٧٠٣ م (١١) .

ولئن عد حسان بن النعمان الفاتح الذي أوجد شخصية المغرب العربي ، فإن موسى بن نصير ثبت ملامح هذه الشخصية ووضحها ، هذا وتختلف المصادر حول تحديد سنة استلام موسى بن نصير لولاية المغرب ، فبعضها يذكر انه استلمها ايام عبد الملك بن مروان ، اي قبل وفاة عبد العزيز بن مروان ، وكان عبد العزيز قد توفي سنة

٨٤ هـ / ٧٠٣ م ، وكان ذلك قبل وفاة عبد الملك بعـامين ، ويمـكن القول إن موسى ولي إفريقية لعبد العزيز ، ثم وليها منفصلا عن ولاية مصر منذ سنة ٨٦ هـ / ٧٠٥ م ، اي منذ بداية خلافة الوليد بن عبد الملك .

وجاء حكم موسى للمغرب حدثا حاسما في تاريخه ، فقد نشط هذا الوالي المجرب نشاطا عسكريا كبيرا إلى اقصى المغـرب ، إلى حيث وصل عقبة من قبل ، وتمكن هكذا مـن الحصـول على طـاعة جميع قبائل المغرب وإعلان قبولها للاسلام ، كما أنه استطاع تصفية جميع ما تبقى من جيوب المقاومة في المدن والقلاع والحصون ، ولم يقتصر نشاط موسى على البر فقط ، بل قـامت بعض قـواته بغـارات على سواحل صقلية وشبه الجزيرة الايبيرية ، وبعدما دان المغرب جميعه لموسى ، وبعدما تجمعـت لدى مـوسى الامـكانات البشرية والمادية ، وبعدما غدا بإمكانه تجنيد بعض القوات مـن البـربر الذين دخلوا في الاسلام ، شرع في تنفيذ خطط جديدة تتواءم مـع أهـداف الخـلافة بالسيطرة على البحر المتوسط ، وتماشيا مع ما تفرضه الجغـرافية على التاريخ ، فما من قوة وحدت المغرب إلا وحاولت السـيطرة على شبه الجزيرة الايبيرية ، هذا من جانب ومن جانب اخر عندما كانت قوى شبه الجزيرة هذه تخفـق في التـوسع داخـل القـارة الأوربية تنعطف نحو الشمال الافريقي (١٢) .

فتح الأندلس والتوسع في أوربة

من المقرر أن فتح الأندلس قد جاء مثل غيره من الفتوحات العربية تنفيذا لخطط الفتح التي اعتمدت في أيام الوليد ، واستهدفت فيما استهدفته السيطرة على حوض البحر المتوسط وعلى منفذيه مضيق جبل طارق والبوسفور ، ومع ذلك إن هذا الفتح يختلف بعض الشيء عن الفتوحات الأخرى ، ولهذا السبب نحن بحاجة للبحث فيه ضمن أطر خاصة وموازين ذاتية ، ذلك أنه إذا كانت الفتوحات في اسية وافريقيا أعمال توسع للدولة العربية ونقلا للاسلام الى اراضي متاخمة للأراضي الاسلامية ومتصلة بها ومتداخلة معها ، فإن ما تم هنا هو الانتقال من قارة الى قارة ، ويواجهنا هنا سؤال هو: لماذا قصر العرب فتوحاتهم على الشريط الجغرافي المقطون بسكان بيض البشرة ، ولماذا لم يتوسعوا في وادي النيل للوصول الى الحبشة ، ثم لم يتوسعوا داخل أفريقيا السوداء بعد اكمال سيطرتهم على الشمال الأفريقي؟

وقبل أن نقدم الاجابات المعللة لهذا السؤال من المفيد الاشارة الى أن هناك من ذهب في ايامنا الى القول إن العرب لم يفتحوا بلاد الأندلس ، ولم يكن هناك أعمال عسكرية بقيادة طارق أو موسى ، بل الذي حدث هوتوسع حضاري وعقائدي ، والحجج المقدمة هنا فيها ثغرات كبيرة واغفال لحقيقة أن فتح الأندلس مثل غيره من الفتوحات ما كان لينجح ويكتب له الاستمرار والعطاء بدون الاسلام عقائديا وحضاريا وثقافيا ونظما.

وجاء انكار عملية الفتح في كتاب حمل عنوان« العرب لم يغزوا الأندلس رؤية تاريخية مختلفة» (١٣) وهذا الكتاب ترجمة ممسوخة لكتاب الف بالاسبانية وصدر عام ١٩٧٤ لباحث اسباني اسمه اغناسيو اولاغي وتولى الترجمة بتصرف واختصار اسماعيل الأمين ومـــــن

الواضح ان المترجم يمتلك معلومات فقيرة جدا عن التاريخ العربي بشكل عام والتاريخ الأندلسي بشكل خاص ، ولهذا عجز عن ضبط جل الأسماء العربية ، واستهدف الترويج عن طريق الاثارة على قاعدة مخالفة المألوف ، وليس من اجل خدمة الحقيقة العلمية ، ثم إنه ليس لديه خبرة بعلم التاريخ عند العرب في المشرق ثم الأندلس ، مع جهل بما حدث خلال العصور الوسطى الاسلامية.

وإذا ما عدنا للاجابة على السؤال نجد ابن خلدون يروي في تاريخه « أن البربر ارتدوا اثنتي عشرة مرة من طرابلس الى طنجة ، ولم يستقر اسلامهم حتى أجاز طارق موسى بن نصير الى الأندلس ، بعد أن دوخ المغرب ، واجاز معه كثيرا من رجالات البربر وامرائهم برسم الجهاد ، فاستقروا هناك من لدن الفتح ، فحينئذ استقر الاسلام بالمغرب وأذعن البربر لحكمه ، ورسخت فيهم كلمة الاسلام وتناسوا الردة ».

هذا وفي الوقت الذي جعل فيه ابن خلدون فتح الأندلس حلا لمشاكل المغرب نجد قبله الرقيق القيرواني يجعل هذا الفتح يقوم لحماية المغرب من مخاطر هجوم يأتي عن طريق الأندلس ، فجاءت ـ هكذا حملة المسلمين على الأندلس بمثابة هجوم وقائي ، وليس توسعا مثل بقية الفتوحات.

إن في كل من هذين التعليلين الكثير من الصواب ، إنما يمكن أن يضاف إليهما تعليلات اخرى يجلها المؤرخ المعاصر ويستخرج ادلتها من سياق الحوادث ، فبالاضافة لسياسة العرب تجاه البحر المتوسط نلاحظ أن التوسع في الشمال الأفريقي كان حركة تحرير للجزء الأفريقي من الوطن العربي ، الذي تمتد جذور وجوده في اعماق التاريخ ، وتحددت معالمه وترسخت بفضل الاسلام ، وتعليل هذه الظاهرة مرتبط بانشطار العالم الاسلامي الى شطرين: عربي وأعجمي ، ثم إن العرب لم يتوسعوا داخل افريقية السوداء لأسباب اقتصادية واجتماعية بشرية حضارية ، ثم هناك مشكلة التصور الجغرافي والمعرفة بأقاليم الأمم الأخرى وبلدانها ، فلقد كانت

افريقيا السوداء عالما مجهولا بالنسبة للعرب ، كما انه كان عالما في غاية الفقر ، مرابحه قليلة ، يحتاج نشر الاسلام بين شعوبه الوثنية الى وقت طويل وجهود متواصلة ، يضاف الى هـذا أن فتحـه كان سيكون على درجة عظيمة من الصعوبة بالنسبة للعرب الذين اعتادوا على الأرض المكشوفة والأقاليم المعتدلة ، فهناك مـن يقـول: يعيش العربي حيث يعيش الجمل وحيث ينبت الزيتون ، هذا وكان للعـرب تجارب مريرة غير مشجعة حينما حاولوا التـوسع في اراضي النوبـة والتوغل في وادي النيل ، وبالمناسبة انتشر الاسلام في افريقيا بفضل قوة وفعالية معطياته العقائدية والحضارية مع نظمه ، ولهـذا جـاء هذا الانتشار بدون تعريب ، لكن الذي حدث بالأندلس كان تعـريبا كاملا لقرون طويلة.

وفي الوقت الذي جهل فيه العرب الى حد كبير افـريقيا السـوداء كانت لديهم معلومات جيدة عن أوروبة وخاصة عن الأندلس وصقلية وبعض جزر المتوسط ، فمنذ أن فرغ العرب من بناء قوتهم البحرية في عهد عثمان بن عفان اخذت اساطيلهم تجـوب البحـر المتـوسط وتعمل الغارات وتخوض المعـارك ضـد اسـاطيل بيزنطـة وغيرها ، ولهذا كانت لديهـم معلومـات عن الأحـوال السـياسية والاجتماعية والبشرية والاقتصادية والدينية لشبه الجزيرة الايبيرية وصقلية ، والواقع أن هذه الأوضاع هي التي دعتهم الى العبور الى شبه الجزيرة الايبيرية ، وهي التي سببت لهم النجاح ، وهنا نجـد انفسنا بحاجة للقيام باستعراض لأحوال شـبه الجـزيرة الايبيرية وتاريخها قبل قيام الفتح الاسلامي وايام حدوث الفتوح.

كانت شبه الجزيرة الايبيرية تحـت حـكم الفيزقـوط (القـوط الغربيون) الذين كانوا قد دخلوها في سنة ٤١٤م ، وذلك بعد هجرة الفندال اليها ، وقد تملكوا المنطقة الشمالية الشرقية من البلاد ، ثم مدوا نفوذهم عليها جميعا وتسببوا في هجـرة الوندال الى الشـمال الافريقي ، ومن الوندال نالت الأندلس تسميتها (فندلسـيا) وكان القوط مثـل غالبية القبـائل ذات الأصـل الجـرماني ، يؤمنون

بالنصرانية إنما تبعا للعقيدة الاريانية ، التي اختلفت عن غيرها من العقائد بنظرتها الى طبيعة السيد المسيح وتأليهه ، هذا في حين كان السكان المحليون (الهسبورومان) يؤمنون بالكاثوليكية ، لذلك كان الوفاق منعدما بينهم وبين الفيزقوط ، ولم يكن في شبه الجزيرة الايبيريةوحدة وطنية أو اجتماعية ، وفي عام ٥٨٩ اعتنق ملك الفيزقوط الكاثوليكية ، وهكذا أمكن بعد ذلك قيام دولة موحدة تسيطر على جميع شبه الجزيرة الايبيرية ، اي اسبانية اليوم مع جزء من جنوب فرنسا الحالية.

في هذه البلاد كان هناك طبقة من النبلاء العليا احتكرت لنفسها السلطات الزمنية مع الكنيسة ، وكانت الدولة دولة ملكية ، لكن المؤسسة الملكية فيها كانت ضعيفة ، لأن الملك كان ينتخب من بين رجالات طبقة النبلاء وبوساطتهم ، وهكذا لم يكن هناك قانون ثابت للملكية ، ولا مبدأ مقرراً لوراثة العرش ، وقد جرت بعض المحاولات من قبل عدد من الملوك لتأمين العرش لابنائهم بعد موتهم بوساطة إشراكهم في الحكم ايام حياتهم او بالتنازل عن العرش ، ولم تمر هذه المحاولات دون معارضة شديدة من قبل النبلاء أصحاب المطامع والنزعات السلطوية والاستقلالية ، مما كان يسبب الاضطرابات الدائمة والقلاقل المستمرة ، وكان هناك مؤامرات مستمرة لتولي الحكم بعد وفاة الملك.

يضاف الى هذا أن ملوك الفيزقوط كانوا يعانون من الضعف بسبب طبيعة جيوشهم وأحوالها ، فقد كان – نظريا – على كل حر قادر على حمل السلاح القيام بخدمة الملك ، لكن بسبب تركيب طبقة النبلاء وعلاقاتها بالعرش واسباب اخرى نجد الملوك من الفيزقوط ، يجدون – فعليا – منذ القرن السابع من الصعب جدا جمع جيش قادر.

والى جانب النبلاء ، تشكل شعب شبه الجزيرة من الأحرار الذين انحدروا من أصل اسباني – روماني ، اي كانوا نتاج المستعمرات الرومانية في اسبانيا أيام الامبراطورية الرومانية ، وبالاضافة الى

طبقة الأحرار وجد الكثير الكثير من الأقنان والفلاحين الفقراء التعساء ، وكان هناك ظلم اجتماعي واستغلال وبالتالي كانت هناك شكوى مع تذمر دائم ، ولا شك أن هذا سهل عملية الفتح العربي حيث نظر الناس الى المسلمين كمحررين ، ويرجح أن أخبار ما أحدثه الاسلام في الشمال الأفريقي مع مؤثرات اسلامية قوية قد وصلت الى شبه الجزيرة الايبيرية قبل وصول الفاتحين ، ولهذا ساعد بعض الاسبان العرب ، وقبلوهم عموما ولم يقاوموهم ، كما كانت الكنيسة الاسبانية مستبدة تتميز بالطغيان والجهل وشدة التعصب ، وكانت المدن الاسبانية أيام الفيزقوط تعيش في أحوال متردية ، ذلك أن هؤلاء المتسلطين كانوا قوما بدائيين مهملين للتجارة والصناعة والثقافة ، بل لكل ما هو متصل بالحضارة ، وكان في المدن الاسبانية جاليات كبيرة من اليهود ، وقد أساءت السلطات الاسبانية مع الكنيسة معاملة اليهود ، ونظرت اليهم نظرة سوء وأصدرت عدة قوانين وقرارات لتنصير اليهود ، وهكذا جعلتهم في أوضاع أصبح فيها من المستحيل عليهم متابعة ممارسة العمل بالتجارة وغيرها من صناعات المال ، وقيل: جعل هذا يهود اسبانيا يتآمرون مع يهود شمال أفريقيا ضد الحكم الفيزقوطي ، لكن لم يكن لهؤلاء اليهود أي سلطان أو نفوذ من أي نوع على السلطات العربية في المغرب ، إنما يلاحظ أن يهود اسبانيا قدموا للعرب ما احتاجوا اليه من معلومات عن اسبانيا ، وبعد ما نزل العرب الى البر الأندلسي وقهروا الفيزقوط قدم اليهود لهم بعض المساعدات المفيدة وعملوا بمثابة أدلاء لجيوشهم.

وحين نستعرض أخبار العرش الاسباني قبيل الفتح نجد حسب المواريث الجرمانية أبا وابنا يحكمان شبه الجزيرة الايبيرية منذ عام ٦٨٧ م ، وقد أراد الابن واسمه ويتزا أن يخلفه أحد أولاده واسمه أخيلا فقام بتعيينه دوقا على القسم الشمالي الشرقي من المملكة ، وعندما مات ويتزا في عام ٧١٠ م رفض فريق من النبلاء الاعتراف بأخيلا ، وقيل إنهم انتخبوا رودريك (عند العرب لذريق) ملكا ، ومع هذا احتفظ أخيلا بدوقيته حتى أنه ضرب نقوده

الخاصة ، واعتبر رودريك مغتصبا ، وسعى الى خلعه عن العــرش واعتلائه هو بنفسه.

وخاض رودريك ضد أخيلا اكثــر مــن معــركة ، وعندمــا نزل المسلمون في شبه الجزيرة الايبيرية كان رودريك منشغلا في الحــرب بالشمال ، هذا وحين تتحدث المصادر العربية عن فتح الأندلس نرى بعضها يذكر أن أخيلا ، أو واحدا من اخوانه ، اتصل بــطارق بــن زياد الذي كان معسكرا في طنجة مع قوة مــؤلفة مــن اثني عشر الف مقاتل ، وقال له: «ان ابي مات ووثب على مملكتنا بطريق (اي نبيل) يقال له لذريق ، وبلغني أمركم فجئت اليكم ادعوكم اليها (اســبانيا) واكون دليلكم عليها» ولاقت هذه الدعوة اذنا صاغية من طارق وقوت عزيمته «على غزو الأندلس ، واســتنفر البــربر......وجعل يحمــل البربر في مراكب التجار التي تختلف الى الأندلس ، ولا يشعر بهــم اهل الأندلس ، ولا يظنون الا انها تختلف بمثل ما كانت تختلف بــه من منافعهم ومعايشهم ومتاجرهم ، فجعل ينقلهم فوجا فــوجا الى ساحل الاندلس....فلما لم يبق الا فوج واحد ركب طارق ومــن بقــي معه فجاز الى اصحابه ، فنزل بهم جبلا من جبال الاندلس حــريزا منيعا ، فسمي ذلك الجبل من يومــئذ جبــل طــارق ، فــلا يعلم الا به ، وموسى بن نصير بافريقية لا يعلم شيئا من هذا» وتذكر روايات أخرى اكثر عددا أن الذي اتصل بالعرب هو حاكم ســبته البيزنطــي واسمه اليان (يوليان.جوليان) وانه هو الذي حرض المســلمين على غزو شبه الجزيرة الايبيرية لأسباب شخصية بحتة ، فهو قد اراد ان ينتقم من رودريك لأنه كان قــد أودعه في بــلاطه ابنتــه ، فــاعتدى رودريك عليها ودنس شرفها ، فعادت الى ابيها فشكت اليه ما بليت به ، وبما أن يوليان كان في وضع لا يملك فيه من القــوة مــا يكفــي لينتقم من رودريك ، فقد حرض العرب على حــربه ، وامــدهم بمــا ارادوه من معلومات عن الأندلس ، ثم أعارهم سفنا عبروا بهــا الى شاطىء الأندلس.

وتكمن مشــكلة هــذه الرواية في طــابعها الخيالي ، فيوليان كان

بيزنطيا ، إن تبع لبلاط فلبلاط القسطنطينية ، وهكذا هو لم يتبع بلاط رودريك ان وجد لديه بلاط وكان من غير المعقول لبيزنطي في الشمال الأفريقي أن يرسل ابنته الى عند القيزقوط البدائيين ، ويترك القسطنطية البلد الحضاري المتقدم ، ولنتذكر أن سبتة مدينة ساحلية مغربية ، وان ارض المغرب بأكملها دانت بالطاعة للعرب ، وعلى هذا ان وجد يوليان فقد أصبح من اتباع الدولة العربية ، يضاف الى ذلك ان العرب ملكوا قوة بحرية خاصة بهم منذ قرابة سبعة عقود من الزمن ، وخاضوا بهذه القوة عددا كبيرا من المعارك وهاجموا صقلية وقبرص وغيرها من جزائر المتوسط ، هذا البحر الذي بدأ يتحول الى بحر شامي اسلامي.

ولقد شك بعض المؤرخين الحديثين في أن تكون شخصية يوليان شخصية تاريخية ، هذا وحين نرجع الى اخبار عقبة بن نافع نسمع باسم شخصية بيزنطية اسمها اليان ، اتصلت به قرب طنجة وامدته بمعلومات عن بحر الأندلس « بأنه محفوظ لا يرام» كما أمدته ببعض المعلومات عن بربر السوس الأدنى.

ونحن إذا ما عدنا الى القصة الأولى يصعب علينا أن نصدق قيام طارق بالعبور الى شبه الجزيرة الايبيرية دون الرجوع الى راي موسى بن نصير واوامره ، ثم ايضا يصعب علينا أن نتصور أن يقدم موسى على المغامرة بغزو شبه الجزيرة الايبيرية دون أخذ موافقة الخليفة في دمشق ، ولعل الذي حصل هو أنه تجمع عند العرب معلومات جيدة عن احوال الأندلس ، كما تلقوا دعوات ووعود بالعون من قبل التجار اليهود وسواهم ، كما شجعهم الوضع المتردي في شبه الجزيرة الايبيرية سياسيا واجتماعيا ودينيا ، وكانت هناك عمليات فتوح على جميع الجبهات وفق خطط سبق وضعها.

وقيل عن موسى بن نصير حبه الشديد للغنائم ، وشهوة طاغية للشهرة واكتساب المجد ، لذلك حين وجد نفسه وقد دان له المغرب ، وتجند في صفوف قواته عدد كبير من البربر ، اراد أن يقوم

بمغامرة مربحة ، فكان أن أخذ موافقة دمشق ، ثم قام عام ٩١هـ ـ ٧١٠ م بارسال أحد قادته واسمه طريف بن مالك على راس قوة تتألف من اربعمائة مقاتل للقيام بغارة استطلاعية على شواطىء جنوب اسبانية ، ونجحت غارة طريف التي وقعت في مكان مايزال يحمل اسم طريف ، وعاد طريف يحمل الغنائم والمعلومات ، وشجعت المعلومات موسى على الاقدام ، ومع ذلك لم يترك موسى جانب الحذر ، فقام في عام ٩٢ هـ ـ ٧١١ م بارسال طارق بن زياد ، وكان قائدا بربريا أدخله موسى في قواته ، قام بارساله على راس سبعة الاف مقاتل ثم أمده بخمسة الاف مقاتل اخرين من البربر لغزو شبه الجزيرة الايبيرية ، ولم يرسل موسى جندا عربا مع طارق ، لأنه اراد أن لايضحي بعربه ، وأن ينتظر فإن كان النصر ، استغله لصالحه وصالح جنده العرب ، وهذا ما كان .

في هذه المقولة وصم لموسى بالانتهازية واللامسؤولية ، وقصر النظر لأن إرسال الجند البربر لوحدهم والتغرير بهم يدل على انعدام الشعور بالمسؤولية ، وأن هؤلاء إذا ما أخفقوا وقتلوا سيثور أهليهم وقبائلهم وموسى الذي كان شيخا مجربا ما كان له ليقدم على مثل هذا العمل ، ثم اين أمراء جيشه واعوانه من التابعين المسلمين الاتقياء ، وهل لنا أن نتجاهل رقابة إدارة دمشق وصرامتها ؟ ! وهكذا نقرأ في مخطوط مجهول المؤلف حمل عنوان « ذكر بلاد الأندلس »«لما انتهى ملك الأندلس إلى لذريق القوطي ، وانتهت خلافة المسلمين إلى الوليد بن عبد الملك بن مروان ، وكان الوليد حازما فاضلا مواظبا للجهاد ناظرا في ضبط ثغوره ومصالح رعيته ، فلما ولي واستقام له الأمر ، أمر قواده بغزو الروم في البر والبحر ، وولى على إفريقية موسى بن نصير اللخمي ، فخرج موسى غازيا من إفريقية إلى طنجة ، فلما وصل إلى بلد طنجة فرت قبائل البربر أمامه إلى المغرب والسوس الأقصى خوفا منه ، فسار في اثرهم يفتح البلاد والحصون ويؤمن من آمن ويقتل من كفر حتى فتح جميع بلاد السوس الأقصى ، ثم رجع إلى إفريقية وقد استقام له أمر المغرب ،

وترك واليا على طنجة مولاه طارق بن زياد وبصحبته ... من العرب وإثني عشر الفا من البربر وكانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم ، وترك معه جماعة من القراء والفقهاء يعلمون البربر القرآن وشرائع الاسلام ، فأقام طارق بن زياد بطنجة ففتح الأندلس ، وكان طارق من البربر من قبيل جذزه ، وكان محبا في الجهاد ، فعزم على غزو الأندلس ، فدعا برجل اسمه طريف ويكنى أبا زرعة ، فعقد له على اربعمائة رجل ومائة فارس ، وجوزهم إلى الأندلس في اربع سفن برسم الجهاد والتطلع على أحوال الأندلس ومن بها ، فجاز ابو زرعة ، ونزل بطريف ، وبه عرفت طريف إلى اليوم ، فلما نزل بطريف أغار على الخضراء ، فغنم وسبى وقتل ورجع إلى طنجة ، فأخبر طارقا بسعة البلاد وكثرة نعمها وخيراتها ، فأخذ طارق في إنشاء السفن والاستعداد إلى الجواز إليها – يعني الأندلس – برسم غزوها ، فجاز إليها في شهر رمضان المعظم من سنة اثنتين وتسعين للهجرة في جيش من اثني عشر الف مقاتل : عشرة الاف من البربر والفين من العرب وسبعمائة من السودان .... وقيل إنه لما جاز طارق وجيوش المسلمين نزلوا في أصل جبل طارق ، وهو جبل الفتح ، ثم صعد إلى الجبل فبنى بقمته حصنا منيعا ، فتحصن به هو ومن معه من المسلمين » .

على هذا لم تكن العملية مغامرة فيها تغرير ، بل تمت وفقا لتحضير طويل ، ففي طنجة تعرب الجند البربر وحسن اسلامهم ، وجازوا إلى الأندلس ومعهم الفين من العرب وسبعمائة من السودان ، وذكر السودان له دلالاته التي قد تفيد انهم قد جندوا من أطراف السوس الأقصى أو غير ذلك من الأطراف ، وانه توفر لدى المسلمين ما احتاجوا إليه من وسائل العبور .

هذا وفي بعض مصادرنا العربية المتأخرة ، خاصة نفح الطيب للمقري ان طارقا عبر مع جنده على سفن قدمها له يوليان ، وبعد العبور قام طارق بخرق السفن أو بخرقها ، ثم وقف بجنده خطيبا بعربية على درجة عالية من الوضوح والفصاحة ، وكان مما قاله : « البحر من

وراءكم والعدو امامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر » .

وشكك الباحثون في أيامنا في صحة هـذه القصـة وقـالوا إنهـا مصنوعة ، ولعل صانعها استعارَها مـن قصـة مشـابهة وردت في الاغاني في اثناء الحديث عن غزو الأحبـاش لليمـن ، هـذا وإن كنا نشكك بصحة حرق السفن او خرقها لانستبعد قيام طارق بالخطبة في جنده ، لأن الجيوش الاسـلامية كان مـن عادتهـا وجـود المذكرين فيها ، وقيام الخـطباء بحض الجند وتشـجيعهم وشـحذ هممهـم
ونقرا في سراج الملوك للطرطوشي ، وهو مؤلف اندلسي صنف كتابه في مصر في القرن الخامس هـ / الحـادي عشر للميلاد : « ولما عبـر طارق مولى موسى بن نصير إلى بلاد الأندلس ليفتحها ، ومـوسى إذ ذاك بإفريقية ، خرجوا في الجـزيرة الخضراء وتحصـنوا في الجبـل العظيم ، فطمعت الروم فيهم .... ولقيهم طـارق ، وعلى خيله مغيث الرومي مولى الوليد بن عبد الملك ، فاقتتلوا ثلاثة أيام أشـد قتـال ، فرأى طارق ما الناس فيه من الشدة ، فقام فحضـهم على الصـبر

ورغبهم في الشهادة وبسط في آمالهم ثم قال : أين المفر البحـر مـن ورائكم والعدو أمامكم ، فليس إلا الصبر منكم ، والنصر من ربكم ، وأنا فاعل شيئا فافعلوا كفعلي ، فوالله لأقصدن طـاغيتهم فإمـا أن اقتله وإما أن اقتل دونه ، فاستوثق طـارق مـن خيله ، وعرف حلية لذريق وخيمته وعلامته ، ثم حمـل مـع اصـحابه عليه حملة رجـل واحد ، فقتل الله لذريق بعد قتل ذريع في العدو ، وحمى الله المسلمين فلم يقتل منهم كثير شيء ، وانهزم الروم » .

ومهما يكن من أمر لقد نزل طارق في جنوبي الأندلس في نيسـان ، أو مايس من سنة ٧١١ م ، وكان التوقيت قد اختير بشكل دقيق ، فقـد كان رودريك انذاك غائبا في الشمال ومعه قـواته ، وقـد خلف وراءه بعض الحراسة على الشاطيء ، يقـول ابـن الكردبـوس : في نص فريد : « ووجد بعض الروم وقوفا في موضع وطيء كان قد عزم على النزول فيه إلى البر ، فمنعوه منه ، فعدل عنه ليلا إلى مـوضع وعر

فوطأه بالمجاذف وبراذع الدواب ، ونزل منه في البر وهم لايعلمون ، فشن غارة عليهم وأوقع بهم وغنمهم ورحل نحو قرطبة».

وهكذا تمكن طارق وجنده من تأسيس قاعدة لهم في منطقة الجزيرة الجنوبية ، وشرعت القوات المسلحة في أعمال الاستطلاع البعيدة والاغارة على المناطق الداخلية ، وبذلك انتشرت اخبارهم في ارجاء شبه الجزيرة كلها ، وحين سمع رودريك بخبر طارق أسرع نحو الجنوب فالتحم مع المسلمين في معركة في ١٩ تموز ، اي بعد انقضاء قرابة الثلاثة اشهر على جوازهم ، وهي فترة لاشك انها كانت كافية بالنسبة لهم لاكمال خططهم ومشاريعهم وجلب النجدات والمؤن والمعدات وشراء الأعوان او العملاء .

واستمر القتال بين رودريك والمسلمين قرابة الأسبوع ، وتعرف المعركة باسم معركة وادي لكة — اي وادي البحيرة — ويقال ان قسما من جنده تخلى عنه أيام القتال ، وكانت المعركة معركة حامية اقتتل فيها الطرفان «قتالا شديدا ، فوقع الصبر حتى ظن الناس انه الفناء ، وتواخذوا بالأيدي، وضرب الله عز وجل وجوه أعدائه ، فانهزموا ، وادرك لذريق فقتل بوادي الطين وركبت اثارهم ، وكان الجبل وعرا ، فكان البربر أسرع منهم على اقدامهم ، ووضعوا فيهم السيف» لعدة أيام فأبادوهم .

لقد قضى طارق في هذه المعركة على القوة العسكرية الرئيسية للفيرقوط ، كما دمر نظامهم واجهز على جهاز مؤسسة الحكم في شبه الجزيرة الايبيرية ، ولاشك انه لاحظ ان الأندلس اصبحت بلدا مفتوحا امامه ، لن يحول بينه وبين تملكها قوة لها اثر يذكر، فاندفع أولا نحو مدينة قرطبة فأخذها ، ثم قرر الاندفاع نحو طليطلة عاصمة البلاد ، وأهم المراكز الاستراتيجية فيها ، ونال في تلك الأثناء بعض المساعدات المحلية ، كما واجه بعض المقاومة ، واحتل طارق طليطلة دون مقاومة كبيرة ، وبعد ذلك أرسل بعثات استطلاعية نحو سرقسطة .

وكان موسى بن نصير يتابع أخبار طارق ،، وقد اتخذ استعداداته

للتدخل ، وهكذا عندما بلغه ما تحقق لطارق من انتصارات تحرك هو بدوره من إفريقية نحو طنجه ، ثم عبر على راس قوة عربية قوامها ثمانية عشر الفا من الرجال ، وكان ذلك في تموز سنة ٧١٢م ، وهنا لم نسمع بأخبار مشكلة تعلقت بوسائل العبور من سفن وسوى ذلك .

واندفع موسى نحو مدينة اشبيلية فافتتحها بعد مقاومة، ثم افتتح مدنا اخرى صغيرة ، وبعد ذلك اتجه شمالا ضد بقية من القوط كانت قوية تجمعت بعد انسحابها في ماردة ، حيث تحصنت وظلت تقاوم الحصار الاسلامي حتى يوم الفطر لسنة ٩٤ هـ ـ ٣٠ حزيران لسنة ٧١٣م .

وبعد ما اتجه موسى نحو ماردة يرجح انه التقى بطارق ، ولعل هذا اللقاء وقع في جهات طلبيرة ، وتعطي مصادرنا هذا اللقاء لونا دراميتيكيا خاصا ، حيث تذكر غالبيتها ان موسى عاتب طارقا ووبخه ، لابل عاقبه بضربه ، ويبدو أن شيئا من هذا القبيل لم يحصل ، وكل الذي كان لم يتجاوز عتاب لطارق على توغله دون الوقوف عند أوامره ، فترضاه طارق بقوله «إنما هذا الفتح لك وانما انا مولاك» ، فقبل موسى منه ، وسار بعد ذلك الاثنان الى طليطلة حيث امضيا شتاء ٧١٣ ـ ٧١٤ م ، وفي هذا الوقت بالذات بدأت اولى الأعمال التنظيمية للبلاد المفتوحة ، وضرب موسى أول النقود الاسلامية في أوروبا .

ومن طليطلة أرسل موسى التابع علي بن رباح مع مولى الخلافة مغيث الرومي الى دمشق ليخبرا الخليفة الوليد بن عبد الملك بأخبار الفتح ، وفي السنة التالية سار موسى ومعه طارق شمالا فافتتحا سرقسطة ، ومن المحتمل انهما ارسلا من هناك حملة استكشافية وصلت حتى أربونة ، لأن المملكة الفيزقوطية كان من ضمنها اراضي من جنوبي شرقي فرنسا ، بما في ذلك أماكن واقعة على البحر المتوسط .

ويبدو ان موسى ارتأى هنا أن مشاكل المناطق الغربية لشبه

الجزيرة الايبيرية كانت اكثر الحاحا واهمية ، ولهذا تحرك نحو هذه المناطق فتوغل في منطقة استوريش الساحلية ، وكان في تلك الأثناء قد قام طارق باحتلال ليون واستورقة كما اخضع ارغون ، وتشير بعض المصادر الى ان موسى اخذ يعد العدة للتوغل في داخل اوروبا ، وذهب بعض المعاصرين الى القول انه كان في راسه خطة للوصول الى القسطنطينية وحصارها وبالتالي فتحها ، يقول المؤرخ الفرنسي رينو في كتابه عن غزوات العرب وفتوحاتهم في فرنسا وايطاليا وسويسرا : «ان خطة موسى بن نصير كانت تقضي بان يعود هو وجيشه الى دمشق عن طريق المانيا ومضيق القسطنطينية وآسيا الصغرى بحيث يحيط بالبحر الأبيض من كل جانب ويصبح بحيرة اسلامية توفر طرق المواصلات بين مختلف الولايات الاسلامية» .

وهناك من يرى ان هذا القول ضرب من الخيال يشير بالبنان الى جهل القائلين فيه بجغرافية أوروبا ، ولاشك أن موسى كان يعرف مالديه من قوات ، وكان لايعرف ما وراء البيرنيه من اراضي وشعوب ، ولايدرك مدى قوتها .

ومع قوة هذه الحجة ، علينا أن نتذكر انه بعد موسى بعدة قرون تمكنت جحافل الصليبيين من العبور من أوروبا الغربية ووصلت الى فلسطين على الرغم مما لاقته من مقاومة ، اضف الى هذا انه إثر وفاة الوليد بن عبد الملك أرسل أخوه وخليفته سليمان حملة برية وبحرية لحصار مدينة القسطنطينية ، ومما لاشك فيه أن قطع الاسطول التي اشتركت في هذه الحملة مع المعدات وربما القوات جرى اعدادها منذ ايام الوليد ، ففكرة الفتح هذه كانت موجودة ، ثم ان امتلاك المسلمين للمعلومات الكافية عن أوضاع اوروبة أمر لاريب فيه ، لهذا يمكننا ترجيح امكانية تفكير موسى بمتابعة الفتح ، ويقول رينو : «من المؤكد أن المسيحية قد واجهت أعظم الخطر في ذلك الوقت ، وإن المرء ليرتعش عندما يفكر فيما كان يمكن أن يحدث لو لم يقع الشقاق في وقت مبكر بين المنتصرين» .

وقصد رينو هنا بمسألة الشقاق ، ماروى عن حدوث خلافات بين موسى وطارق ثم المشاكل التي وقعت فيما بعد في بداية عصر الولاة ، وتذكر المصادر العربية أن موسى بعدما «انتهى الى أربونة أراد لقاء ملك افرنجة ، فأخذ حنش الصنعاني ـ وكان من كبار التابعين ـ بلجامه وقال سمعتك أيها الأمير تقول حين فتحت طنجة : لم يكن لعقبة ولا لأبي المهاجر من ينصحهما ، حتى أتيت انصحك اليوم ، فارجع فقد توغلت بالمسلمين» .

ولاشك أن رينو ارتعش تعصبا ، مع أن عدم فتح أوروبا حرمها من نعمة نور التوحيد والحضارة والقيم الاسلامية وابقاها تعيش في ظلام العصور الوسطى لقرون مديدة ، اضف الى هذا أن جل أوروبا لم يكن مسيحيا بعد بل كان وثنيا .

والذي حدث انه في نهاية صيف ٧١٤ م تم استدعاء طارق وموسى الى دمشق ، ونحن لانملك معلومات مؤكدة عن أسباب هذا الاستدعاء ، ويرجح أن الوليد بن عبد الملك أراد أن يعرف من موسى اخبار ما فتح الله على المسلمين ، ويدرس معه خطط المستقبل ، ولعله اراد ايضا ان يحاسبه على ما حصله من غنائم وما انفقه ، يضاف الى هذا لعل الوليد خشي من النزعات الاستقلالية لدى موسى ، خاصة بعد ما رآه يعين ولده عبد الله على افريقية وولده عبد الملك على المغرب ، ثم ولده عبد العزيز على اشبيلية ليحكم شبه الجزيرة الايبيرية منها ، وبعد ما سمع عن تصرفات موسى التي تشابه تصرفات الملوك وعن انفاقه كميات كبيرة من الأموال ، متذكرين في هذا المقام أن موسى كان زبيري الهوى ، شارك في معركة مرج راهط ضد مروان بن الحكم .

خلاصة القول سار موسى مع مولاه طارق من شبه الجزيرة الايبيرية في خريف ٧١٤ م ، وكان بصحبته قافلة كبيرة أفرط الكتاب العرب في وصف ما حوته من أموال وتحف وجواهر وجوار حسان وزعماء بربر وقوط واسبان

وتتحدث المصادر غير الشامية أنه بعد ما جاوز موسى مصر وكان

«بالعريش جاءه كتاب الوليد يستعجله ، وجاءه كتاب سليمان يأمره بالتربص، وكان سليمان ولي عهده ، وكان الوليد مريضا بدير من غوطة دمشق ، فأسرع موسى ولم ينظر في كتاب سليمان ، ودفع الأموال الى الوليد ... فلما رأى ذلك طارق دخل على الوليد وهو مريض ... وأخبره ان موسى تعدى في أموال المسلمين وانفقها ... فصدقه الوليد ... وكذب موسى وأمر بحبسه ... ولم يلبث الوليد الا ثلاثة ايام حتى مات ..

وبويع لسليمان بن عبد الملك بالخلافة حين توفي الوليد ، فسخط على موسى ، وقال له : يا يهودي كتبت اليك فلم تنظر في كتابي ، هلم مائة الف، قال : ياأمير المؤمنين قد اخذتم جميع ما في يدي ، فمن أين لي بمائة الف ؟ قال : لابد من مائتي الف دينار ، فاعتذر اليه ، فقال : لابد من ثلاثمائة الف ، وأمر بتعذيبه ، وعزم على قتله ، فلجأ موسى بن نصير الى يزيد بن المهلب فاستجار به ، وكانت ليزيد ناحية من سليمان فاستوهبه دمه ، فقال : يؤدي ما عنده» .

والثغرات في هذه الرواية عديدة ، فمحورها من حيث المبدأ مسألة الخلاف بين طارق وموسى ، ومحاولات طارق للانتقام من موسى باتهامه بالتصرف بالأموال وغير ذلك ، ثم كيف لنا أن نصدق توقعات سليمان بن عبد الملك وفاة الوليد الذي كان دون الخمسين من عمره ، الا اذا اعتقدنا بأنه تآمر على حياته ، وهذا ما لم يرد ذكره ، أضف الى هذا أن سليمان بن عبد الملك الذي كان يعيش في فلسطين بعيدا عن دمشق لم يمتلك جهازا اداريا ولم يتمتع بأية صلاحيات حتى يراسل الولاة والقادة ويتدخل بشؤون الخلافة ، واكثر ثقة من هذه الرواية ما اورده ابن عساكر في تاريخه في ترجمته الموسعة لموسى ، قلت اكثر ثقة لأن موسى قضى السنوات الأخيرة من حياته في دمشق ، والمصادر الشامية لهذا مرجحة على غيرها ، وفي رواية ابن عساكر ليس لطارق بن زياد سوى اشارة عرضية ، ولم يعرف رواة ابن عساكر على كثرتهم وقدمهم شيئا عن خلاف بين طارق وموسى ، أو عن كتابة سليمان لموسى وغير

ذلك ، فهناك اجماع على أن موسى» سار متوجها الى الشام حتى قدم على الوليد وتحين يوم الجمعة ، فلما جلس الوليد على المنبر اتى موسى بن نصير وقد ألبس ثلاثين رجلا تيجانا على كل رجل منهم تاج وثياب ملك ذلك التاج ، ثم دخلوا المسجد في هيئة الملوك ، وأمر بملوك الجزائر اكابر الروم فهيئوا وابناء ملوك البربر وملوك الاسبان ، واقبل موسى بن نصير بالثلاثين الذين ألبسهم التيجان حتى دخل بهم مسجد دمشق والوليد يخطب ، فلما راهم نهض اليهم ، فأقبل حتى سلم على الوليد ، ووقف الثلاثون على يمين المنبر وشماله بالتيجان ، فأخذ الوليد في حمد الله والثناء عليه والشكر بما أيده وفتح عليه ونصره ، فأطال حتى فات وقت الجمعة ، فصلى وانصرف ، واجاز موسى بجائزة عظيمة ، واقام موسى بدمشق حتى مات الوليد » .

ويرجح أن وصول موسى الى دمشق قد كان بعيد اكتمال بناء الجامع الأموي ، هذا ولم يترجم ابن عساكر لطارق بن زياد ، غير أنه ذكر أن سليمان بن عبد الملك طالب موسى ابن نصير ببعض الأموال وعندما حج سليمان سنة سبع وتسعين ، حج معه موسى ، فمات موسى بالمدينة في هذه السنة ، وقيل توفي بوادي القرى» وهو ابن ثمان وسبعين سنة ، وذلك أنه ولد سنة تسع عشرة .

هكذا كانت نهاية موسى ، ولاندري بشكل اكيد ما حل بطارق ، ولاشك ان الزمن قد طواه بعدما طوى موسى لكن ما كان للتاريخ أن يطوي اخبار جليل ما حققاه من فتوح (١٤).

عصر الولاة:

دعا العرب البلاد الجديدة التي فتحوها باسم الأندلس ، وكما سلف بي القول يعتقد أن هذا الاسم صدر عن كلمة Vandalicia نسبة الى الغزاة من قبائل الفندال ، وقد استخدم هذا ليشمل ما فتحه العرب وحكموه من شبه

الجزيرة الايبيرية ، وهو يطلق الآن على الجزء الجنوبي الشرقي من اسبانيا حيث عاش بقية العرب في الفترة ما بين القرن الثالث عشر والخامس عشر م.

وجادل بعض الذين بحثوا في تاريخ الأندلس وقالوا إن العرب لم يتركوا الأندلس بعدما فتحوها ، الأمر الذي تخيله بعض الذين دعوهم اليها وحرضوهم على فتحها ، واثارة هذه المسألة فيها مغالطة وتشويه فالعرب ذهبوا الى الأندلس فاتحين مجاهدين في سبيل الله ولم يذهبوا كمرتزقة ، وليس في تاريخهم ما يشير الى انهم تقبلوا فكرة الارتزاق ، والذي أشرف على فتح الأندلس هو الخلافة الأموية التي كانت أعظم دولة في عصرها واكثرها رقيا وتنظيما وثقافة ، لهذا تحولت الأراضي المفتوحة في شبه الجزيرة الايبيرية لتشكل جزءا من ولاية من ولايات دارالاسلام ، وقاعدة لمزيد من الفتوح في اوربا الغربية وجزائر المتوسط ، والولاية التي غدت الأندلس جزءا منها هي ولاية إفريقية او المغرب ،وشملت الآن الشمال الأفريقي مع شبه جزيرة ايبيريا ، وكانت الدولة العربية دولة تمتد من حدود الصين الى شواطىء عدن ، ومن شواطىء المتوسط في بلاد الشام حتى جنوب فرنسا ، وكانت هذه الدولة الشاسعة هي التي جمعت لأول مرة في التاريخ اراضي وشعوب من القارات الثلاث للعالم القديم تحت لواء أسرة واحدة وعقيدة توحيد واضحة الأسس والمعالم ولغة مقدسة فيها حيوية وامكانات للعطاء غير محدودة ، محققة بذلك للمرة الأولى الأممية العقائدية.

ومعروف ان هذه الدولة قد اديرت من قبل خليفة كان مقره الرسمي مدينة دمشق ، لكن على الرغم من ذلك ، ولأسباب عديدة ، كان بلاط هذا الخليفة متحركا ، وكان النظام الاداري لهذه الدولة بسيطا في طور التطور ، لكن بكفاءة عالية وحزم وسداد ، وكان كل شيء في هذه الدولة الشاسعة متعلقا بالخليفة ، وتميز الخلفاء من بني امية بشكل عام بالرجولة وبالقدرات الادارية والسياسية المتميزة وكان لكل منهم جهاز

استشاري واسع الخبرة والفهم ، ومع هذا تـأثر اشراف الخليفـة على الادارة والسلطات في الولايات بـطبيعة العصر وبمـا تـولد عن أحوال المواصلات وعن حـال العـلاقات بين الخليفـة وبين القـوى الفعالة التي أحاطت بعـرشه ، أو كان لهـا وزنهـا السـياسي والعسكري ، وأعني بهذا القبائل العـربية واشرافهـا ، ولم يسـد الوئام بين هذه القبائل وعاشت دوما في صراعات أطلق عليها اسـم العصبيات القبلية.

وعين الخلفاء عددا من الأعوان لممارسة بعض الوظائف المختلفة بالدولة ، وكان أهم هذه الوظائف وظيفة أمراء الجند ، وكان قـائد كل جيش يتحول بعد انتهاء عملية من عمليات الفتوح قام بهـا ، الى حاكم مدني يعاونه جهاز اداري يتولى أمور المال والقضاء وغير ذلك من الوظائف ، وكانت الخلافة تعين احيانا الجبـاة والقضـاة ، أو تترك أمر تعيينهم الى القادة ، وكان كل واحـد مـن هؤلاء القـادة يعرف بالعامل أو الوالي ويحمل لقب امير ، ونظـرا لطبيعـة الدولة والعصر كان كل واحد من الولاة حاكما مستقلا الى ابعد الحدود.
وفي الدولة الاسـلامية منح حـق المواطنة للمسـلمين ، وعرفـت الجماعات غير المسلمة باسم الذمة ، وكان للذمـة اوضـاع خـاصة وادارة شبه ذاتية ، فقد أديرت الشـؤون الداخلية لكل طـائفة مـن طوائف الذمة من قبل رئيس الطائفة ، الذي غالبـا مـا كان رجـل دين ،وكان على كل فرد من اهل الذمة دفع ضرائب محددة عن النفس والأملاك مقابل حماية الدولة له ورعايته من جميع الجوانب.

وشكل العرب نواة المسـلمين في كل ولاية جـديدة ، وكان هؤلاء العرب بالوقت نفسه هم الجند ، وعلى هذا غالبـا مـا انحصر حـق المواطنة في كل ولاية جديدة بالعرب ، والمستعرض لتـاريخ الولايات المشرقية وغيرها يرى كم هو حجم المشاكل التي قد تولدت بعد دخول اعداد من السكان المحليين في الاسلام ومـطالبتهم بحقـوق المواطنة الكاملة.

وكان لكل واحد من الجند وعيالاته عطاء خاص كان هو الأعلى في

العالم في حينه وذلك مع نصيب محـــدد شرعيا في الغنائم ، كمـــا كان يحق للحاكم منح ـ أو اقطاع ـ بعض الأراضي ذات الوضع الخاص للمسلمين ، وعلى هذا شكل العرب منذ البداية شريحة عليا في السلم الاجتماعي في كل ولاية واستمروا كذلك حتـــى بعــد تـــوقف حـــركة الفتوحات ، حيث حازوا ملكيات الكثير من الأراضي الغنية ، وتحول الأشراف منهم الى ملاك كبار ، وحين صار قادة الجند ـ مع بعض الجند ـ ملاكا انصرفوا عن التفرغ لخـــدمة مهنتهـــم الأولى ، وغدا العطاء بالنسبة اليهم ليس بذي بال أو كبير اعتبار ، وبات كل واحد منهم يعمل جاهدا في سبيل زيادة رقعة املاكه على حســـاب امـــلاك غيره ، وخلق هذا تنافسا او صراعا داخليا صرف الطـــاقات نحـــو الداخل وحولها عن الخارج.

وجعل ما ناله الجند وما تمتعوا به رجالات هذه الفئة لا يشجعون سكان البلاد المفتوحة على الدخول في الاسلام ، لا بل وجدت حالات حيل فيها دون الدخول بالاسلام ، وقد دفع تملك الأراضي الجند الى سكنى المدن ، ونظرا لاستمرار الحاجة الى جيش وقوات مقاتلة فقد قام مبدأ قبول تجنيد غير العرب في الجيش إنما على اساس قـــاعدة الولاء ، فقد بات على غير العربي أن ينال النسب العربي بعد دخوله بالاسلام على اساس عرفي اسمه الولاء وكان الولاء مـــوجودا قبـــل الاسلام ، ثم تطور بعده تطورا خاصا ومنح الولاء والاســـلام المولى حق المواطنة إنما بدرجة أدنى مـــــن درجـــــة المســـــلم العـــــربي الصريح ، ونشد الموالي رفع درجتهم وطـــالبوا بـــالمساواة ، وكانت هناك حركات وثورات سعت نحو هذا الهدف.

وإذا كانت هـــــذه الحـــــالة العـــــــامة في جميع ولايات الدولة الأموية ، فإن الحالة في الأندلس قد اختلفـــت بعض الشيء ، ذلك ان كل من موسى وطارق بن زياد كانا من الموالي والجيوش التي تـــولت فتح الأندلس كانت عربية وبـــربرية وهـــكذا كان الفتـــح اســـــلاميا صرفا ، فـــأكثرية الذين تحملوا أعبـــاء الفتـــح الأولى كانوا مـــــن البربر ، وجاءت اكثرية العرب فيمـــا بعــــد لتشـــــارك في قـــــطف

الثمار ، وهكذا اضطر العرب منذ البداية لمشاركة البربر ، وعليه صارت أسس الصراعات الأولى ليس صراعا عربيا عربيا على قاعدة العصبية ، بل صراعا عربيا بربريا ، ثم ترافق هذا بصراع عربي عربي على قاعدة العصبية ، وكان لهذا دوره المقرر لمصير الوجود الاسلامي في أوروبا ، يضاف الى هذا إن أوضاع بلاد الأندلس الخاصة وما أحاط بها من قوى فرضت على العرب اعطاء بعض التنازلات حتى وإن خالف ذلك الرائج من أحكام الاسلام وقواعده ، فبعد ما نزل العرب في شبه الجزيرة الايبيرية تعذر عليهم في البداية فتح مدينة المرسية التي عرف صاحبها أنذاك باسم تدمير Theodemir ، وقاوم تدمير العرب ورفض الدخول بالاسلام ، كما رفض دفع الجزية وقبل حكم السيف ، وبعد ما هزمه العرب لم يعاملوه معاملة المقهور بل عقدوا معه معاهدة سنة ٧١٣ م تعهد المسلمون بها بالمحافظة له على نفسه وماله مع نفوس رعيته وأموالهم مع السماح بممارسة الحرية في العقيدة والعبادات.

وكان سليمان بن عبد الملك قد عزل ولاة الوليد بن عبد الملك واستبدلهم بولاة جدد وهكذا عزل موسى بن نصير وعين مكانه محمد ابن يزيد مولى قريش واليا على افريقية ، ويروى أنه بعدما تسلم ابن يزيد منصبه كتب سليمان اليه «أن يأخذ آل موسى بن نصير وكل من التبس بهم حتى يوفوا ثلاثمائة الف دينار ، ولا يرفع العذاب عنهم ، فقبض على عبد الله بن موسى فحبسه في السجن » ثم قتله بناء على تعليمات أخرى وردت اليه من الخليفة.

وكان عبد العزيز بن موسى يحكم الأندلس منذ رحيل أبيه ، وقد اتخذ عبد العزيز اشبيلية قاعدة لحكمه متخليا بذلك عن طليطلة العاصمة القوطية للبلاد ، وذات افضل موقع حصين متوسط لحكم شبه الجزيرة الايبيرية ، وقام عبد العزيز باكمال اعمال ابيه الحربية في الأندلس ، كما أكمل تنظيمات الولاية الادارية ، وتذكر مصادرنا انه تزوج بامرأة فيزقوطية اختلفوا في تحديد اسمها

الحقيقي ، واتفقوا على انها عرفت باسم « أم عاصم » وذهب بعضهم الى القول إنها كانت أرملة رودريك الملك الفيزقوطي المقتول ، وقال بعضهم الآخر إنها كانت ابنته ، ومهما كان وضع هذه المراة ومنزلتها الاجتماعية ، إن زواج عبد العزيز منها له عدة دلالات أولاها أن العرب الذين عبروا الى الأندلس فاتحين لم يجلبوا معهم اهليهم او زوجات لهم ، اي أن الفتح هنا تميز عن سواه في انه لم يأخذ شكل هجرة بشرية ، وعلى هذا تزوج الجند العرب من نساء الأندلس المحليات ، وسيكون لهذا اثاره الواضحة على حوادث مستقبل الأندلس والتكوين الاجتماعي هناك.

وقيل « بلغ عبد العزيز بن موسى ما نزل بأبيه واخيه واهل بيته ، فخلع طاعة بني مروان وخالفهم ، فأرسل إليه - سليمان - يتهدده فلم يرجع الى الطاعة »،وهنا راسل سليمان وجوه العرب في الأندلس وطلب منهم قتله ، فاغتاله احدهم وهو يؤدي صلاة الصبح ، وكان ذلك في سنة ٩٧ هـ - ٧١٦ م .

وانهى اغتيال عبد العزيز بن موسى مرحلة الفتح من تاريخ الأندلس وابتدأ مرحلة جديدة عرفت باسم عصر الولاة ، وقد دام هذا العصر اكثر من اربعين سنة توالى على الحكم خلالها قرابة العشرين من الولاة ، حكم بعضهم أكثر من مرة ، وفقط ثلاثة منهم حكم كل واحد منهم لمدة زادت على خمس سنوات ، وكانت ولاية بعضهم قصيرة جدا ومؤقتة حيث غالبا ما تسلموا مناصبهم بعد مصرع أحد الولاة المعينيين في حرب خارجية جهادية أو في فتن أهلية ، وقد تبع هؤلاء الولاة والي القيروان وارتبطوا به لكن نظرا لبعد الشقة مابين الأندلس والقيروان عاش هؤلاء الولاة في الأندلس شبه مستقلين ، لكن هذا الاستقلال لم ينج ولايتهم من انعكاسات ما كان يجري في الشمال الأفريقي بشكل خاص وفي دار الخلافة بشكل عام ، ومع أن الفتح الاسلامي للأندلس قد ربط هذا الجزء الأوروبي بعالم المشرق الآسيوي إلا انه استمر يتأثر من جميع الجوانب بما كان يجري في الغرب ويؤثر فيه. وعندما اغتيل عبد العزيز بن موسى لم يكن قد تم للمسلمين إخضاع جميع اجزاء شبه الجزيرة

الايبيرية ، ففي الشمال الغربي من البلاد بقيت مساحات واسعة لم يدخلها العرب ، كما أن بعض اطراف البلاد كان الحكم الجديد فيها غير راسخ القواعد ويحتاج إلى تدعيم .

هذا ولما كان الفتح الاسلامي في الأندلس لم يمر دون إحداث أصداء واسعة في الغرب مع ردات فعل عنيفة ، فقد كان على ولاة الأندلس بعد عبد العزيز أن يكملوا السيطرة على أراضي شبه الجزيرة الايبيرية ، وان يدعموا الحكم الاسلامي حيثما كان ضعيفا وكان عليهم تمتين الوشائج ووسائل التعاون مع الشمال الأفريقي وبقية اجزاء العالم الاسلامي بشريا واقتصاديا وعسكريا بالدرجة الأولى ، لأن إمكانات العالم الاسلامي وحدها هي التي كانت كافية لمواجهة إمكانات أوربا الغربية ، فقد توجب على مسلمي الأندلس متابعة اعمال الفتوح المنظمة الهادفة او على الأقل التصدي بالهجمات الوقائية لردات فعل أوربة الغربية التي كانت قد شرعت منذ بعض الوقت في اكتشاف نفسها والتحول من بلاد محور الحياة فيها حوض البحر المتوسط إلى بلاد تتجه نحو الشمال ونحو شعوب الشمال ذات الامكانات القتالية الهائلة ، يضاف إلى هذا كله كان على حكام الأندلس مواجهة مشاكل إنشاء مجتمع إسلامي جديد في جزء من أوربا الغربية . (١٥) .

وسنرى أن ولاة الأندلس قد عجزوا عن إكمال الفتح ، كما انهم لم يستطيعوا تحقيق النجاح في التوغل داخل اوربا ، فكان ذلك من مقدمات الخسران وفقدان الأملاك .

وبعدما اغتيل عبد العزيز بن موسى قدم اهل الأندلس أيوب بن حبيب ، وكان ابن أخت موسى بن نصير ، قدموه ليؤمهم في الصلاة ويدير أمورهم ريثما يصلهم عامل معين بصورة رسمية من قبل والي إفريقية ، وبقي أيوب في منصبه بضعة اشهر إلى أن وصل الحر بن عبد الرحمن الثقفي في ذي الحجة من سنة ٩٧ هـ ـ آب ٧١٦ م ، ولعل اهم ما حدث أيام أيوب هو تحويل مركز إدارة الأندلس من إشبيلية إلى قرطبة ، وحين فعل العرب ذلك كانوا كمن يحدد مصيره في أي بقعة من الأرض سيكون .

وشغل الحر بن عبد الرحمن الثقفي منصبه حتى رمضان سنة ١٠٠ هـ - نيسان ٧١٩ م ، ويبدو أن ما من شيء له أهميته قد وقع في عصره ، وقد جاءت نهاية ولايته في موكب التغيرات التي المت بالدولة الأموية بعد موت سليمان بن عبد الملك وتسلم عمر بن عبد العزيز لمنصب الخلافة ، وقام عمر بن عبد العزيز بفصل الأندلس عن ولاية إفريقية حيث جعلها ولاية تتبع دار الخلافة مباشرة ، وعين عليها السمح بن مالك الخولاني « وامره ان يحمل الناس على طريق الحق ولايعدل بهم عن منهج الرفق ، وان يخمس ماغلب عليه من ارضها وعقارها ، ويكتب إليه بصفة الأندلس وانهارها ، وكان رايه نقل المسلمين منها وإخراجهم عنها لانقطاعهم عن المسلمين ، واتصالهم بأعداء الله الكفار ، فقيل له إن الناس قد كثروا بها وانتشروا في اقطارها فأضرب عن ذلك » .

وما أن تسلم السمح منصبه حتى أخذ يعمل على توطيد اركان الولاية الجديدة ، والعناية بمدينة قرطبة التي صارت حاضرة لها ، ولعل اهم عمل قام به في قرطبة بناء جسر على نهرها ، على انه يبدو من مصادرنا أن السمح قد أوقف معظم جهوده على الجهاد في سبيل إكمال الفتح العربي لشبه الجزيرة الايبيرية ، ولقد تقدم بنا القول إن المملكة القوطية كانت تشمل رقعة كبيرة من جنوبي فرنسا ، وبعدما سقطت هذه المملكة اصبح الجنوب الفرنسي فارغا مع منطقة واسعة حملت اسم « غوثيا » نسبة إلى القوط أو سبتمانيا ، واتصلت بما يعرف اليوم بالريفيرا الايطالية ، وكانت مدينة أربونة (نربونة) حاضرتها ، ومن المرجح أن السمح قد استولى على هذه المدينة سنة ٧١٩ م ، وقيل قد فتحت من قبل العرب قبل السمح ، ومن اربونه زحف السمح سنة ١٠٢ هـ - ٧٢١ م ضد مدينة طولوشة (تولوز) عاصمة أكوتين وحاصرها مدة شهر وضربها بالمنجنيقات ، وظلت هذه المدينة تقاوم حتى وصل الدوق أود الفرنجي حاكم المقاطعة لنجدتها ، ووقعت معركة صليبية عنيفة كان السمح خلالها يشد من ازر جنده بتلاوته قوله تعالى: « إن ينصركم الله فلا غالب لكم » وكان الرهبان ورجال الدين النصارى يثيرون

حماس اتباعهم بتعاويذ وتمائم باركها البابا ، وأصيب السمح أثناء القتال بطعنة أودت بحياته ، ففت ذلك مــن عضــد الجند المســلمين فتراجعوا مرتدين إلى أربونة .

ولم توقف هذه الانتكاسة المســلمين عن العمــل في ســبيل فتــح الأجزاء الجنوبية من فرنسا (الأرض الكبيرة) وتابعوا نشاطاتهم من أربونة في عدة محاور ، واندفعــوا في وادي الرون ، واســتهدفوا بالدرجة الأولى الأديرة ، وروي انهم وصلوا إلى مقربة سانت جايل (سيكون كونت سانت جايل صنجيل من أبرز قادة الحملة الصليبية الأولى) قرب آرل .

ومفيد أن نذكر انه بعدما نال السمح بن مالك الشهادة اختــار الجند عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي أميرا مؤقتا يدير شؤونهم ، حتــى يتم تعين أمير رسمي ، وبقي عبد الرحمن في منصــبه المؤقــت مــن كانون الثاني لسنة ٧٢١ م حتى شهر آب من العام نفسه ومرت إثر هذا عشرة أعوام تقلب فيها على ولاية الأندلس سبعة ولاة كان بينهم عبد الرحمن الغافقي للمرة الثانية ، وكان هؤلاء الولاة هم :

١ ـ عنبسة بن سحيم الكلبي :
من صفر ١٠٣ إلى شــعبان ١٠٧ هـ ـ آب ٧٢١ ـ كانون ثــاني ٧٢٦ م

٢ ـ عذرة بن عبد الله الفهري :
مــــن شــــعبان ١٠٧ إلى شــــــوال ١٠٧ هـ ـ كانون ثاني ٧٢٦ ـ آذار ٧٢٦ م

٣ ـ يحيى بن سلمة الكلبي :
مــن شــوال ١٠٧ إلى ربيع الأول ١١٠ هـ ـ آذار ٧٢٦ شــــباط ٧٢٨ م

٤ ـ حذيفة بن الأحوص :
من ربيع الأول ١١٠ إلى شعبان ١١٠ هـ ـ شــباط ٧٢٨ ـ تشرين ثاني ٧٢٨ م

٥ ـ عثمان بن ابي نسعة :
من شعبان ١١٠ إلى محرم ١١١ هـ ـ تشرين ثاني ٧٢٨ ـ نيسان ٧٢٩ م .

٦ ـ الهيثم بن عبيد الكناني :
من محرم ١١١ إلى ذي القعدة ١١١ هـ ـ نيسان ٧٢٩ ـ شباط ٧٣٠ م

٧ ـ محمد بن عبد الله الأشجعي :
من ذي القعدة ١١١ إلى صفر ١١٢ هـ/ شباط ٧٣٠ ـ نيسان ٧٣٠ م

٨ ـ عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي :
من صفر ١١٢ إلى رمضان ١١٤ هـ / نيسان ٧٣٠ ـ تشرين اول ٧٣٢ م .

وفي ايام عنبسة استأنف العرب نشاطهم بشدة وحماس اكثر من ذي قبل وأرسلوا كتائبهم في مختلف الجهات ، وتميز العرب بالبراعة والحنكة ، واتت المصادر المسيحية على ذكر عدد كبير من الأديرة التي استولى عليها العرب ايام عنبسة وبعده ، تهمني الاشارة منها إلى اسمين هما أسقفية بوي Puy وكليرمونت Clermont ، فمن كليرمونت دعا البابا اوربان الثاني الى الحروب الصليبية ، وقد اناب عنه أدهمر اسقف بوي في مرافقة جيوش الحملة الأولى والاشراف عليها.

وعلى الرغم من وفرة اخبار النشاطات العربية في الأرض الكبيرة ، فانهم لم يصرفوا طاقاتهم كلها في سبيلها ، حيث يلاحظ انه في فترة السنوات العشرة التي اشرنا اليها اعلاه عاشت الأندلس في ظل بدايات الصراع الدموي بين العرب من جهة والبربر من جهة أخرى ، ثم الصراع بين المجموعات القبلية العربية ، وقد تطرف المستشرق دوزي في بحث جوانب هذا الصراع حتى جعل منه محورا ادار عليه جميع حوادث تاريخ الاندلس وفسرها ، وقد فات دوزي أن مادعاه

باسم العصبية القبلية ما كان صراعا بين قبائل لاختلاف انسابها ، بل كان صراعا بين مجموعات من الناس رافقت الفتح واستقرت كل واحدة منها في مكان أو بقعة محددة وادعت لانفسها نسبا جامعا يمت الى احدى القبائل العربية المعروفة ، ولقد قام صراع بين المجموعات المتجاورة بالموطن المتباعدة المصالح من أجل ملكية الأرض ومن أجل السلطة في ولاية الأندلس وفي سبيل المزيد من المرابح.

وفي الفترة ما بين ولاية عبد الرحمن الغافقي الأولى والثانية دافع اود عن نفسه وعن اراضيه مستغلا احيانا النزاعات بين العرب والبربر وبين العرب انفسهم ومسهما فيها أحيانا اخرى ، وخلال ذلك الوقت صنع زواجا « دبلوماسيا » مع عثمان بن أبي نسعة ، حيث زوجه ابنته ، وعقد معه معاهدة سلم ومهادنة امن بها من غارات العرب ولكن الى حين.

وبعدما تسلم عبد الرحمن الغافقي لمنصبه في الأندلس قام بالطواف على جميع مقاطعات الولاية حيث نظم شؤونها ، وكان عبد الرحمن صاحب كفاءات عالية ، وقد تمتع بسمعة عالية وبشعبية واسعة بين صفوف الأندلسين لشجاعته وزهده وكرمه ، ولما أدرك عبد الرحمن استقرار أحوال ولايته ، راى أن يقوم من جديد باستئناف حركة الفتوحات واكمالها ، وذلك انسجاما مع خطط الخلافة أنذاك التي ظهرت بشكل خاص على جبهتي الخزر والأندلس.

وقرر عبد الرحمن الغافقي ان يوجه طاقاته ضد أود ، وبدأ تحركه بأن بعث الى عثمان ابن أبي نسعة ، وكان قائدا لمنطقة الحدود مع اراضي حميه كونت اود ، بعث اليه بأن يشاغل العدو بالغارات الى ان يكون هو قد أطل بمعظم الجيش ، ويروى أن هذا الأمر قد وقع من عثمان موضع الكراهية الشديدة حسدا لعبد الرحمن وضنا بحميه والد زوجته الحسناء التي كان يحبها حتى ما فوق درجة الهيام ، وعندما وصل أمر عبد الرحمن الى عثمان « وقع في حيص بيص » وراجع الأمير عبد الرحمن قائلا له إنه لايقدر أن يخفر

جواره ولا أن يخرق العهد قبل انقضاء اجله ، وغضب عبد الرحمن من مراجعة عثمان له ولم يرضه التلكؤ الذي بدا منه ، فأرسل اليه يشدد عليه بتنفيذ أوامره ، وهنا لما قطع عثمان امله من منع عبد الرحمن عن اشعال الغارة في بلاد اود أرسل الى حميه يخبره بما وقع حتى يأخذ حذره ، ويتخذ لنفسه وسائل الدفاع ، فبلغ عبد الرحمن ما فعله عثمان ، فأرسل جيشا الى مقر عثمان بقيادة واحد من أوثق رجاله وامره أن يأتيه بعثمان حيا كان أم ميتا ، وبغت الجيش مقر عثمان فهرب في الجبال ومعه بعض اعوانه وزوجته ، واستطاع الجيش ملاحقته وقتله ، واخذت زوجته الحسناء الى عبد الرحمن ، فكان أن بعث بها الى دمشق.

ولما وصل خبر مصرع عثمان الى كونت اود أيقن ان الحرب واقعة لامحالة ، فتأهب للدفاع ، واندفع عبد الرحمن يقود جيوشه من جبال البيرانية ، فاحتل عددا من المواقع وحصل على كميات من الغنائم ، قالت المصادر الغربية إنها كانت هائلة ، وحاول أود ايقاف الزحف العربي فلاقى الاخفاق ، وهنا التفت مرغما نحو خصمه شارك مارتل ، الذي عرفه العرب باسم « قارله ـ كارل » ، وعندما وصل العرب قريبا من تور الواقعة على نهر اللوار ، علم عبد الرحمن أن جيشا عظيما يزحف للتصدي له ، وهنا تفحص عبد الرحمن احوال جيشه ، وقد بات بعيدا جدا عن قواعده ، فرأى هذا الجيش مثقلا بالغنائم والأعتدة وأن الحفاظ على الغنائم هو الشغل الشاغل للجند ، وادرك في هذا مخاطر لاحصر لها ، ولعله هم باعطاء الأمر للجند بتخليف الغنائم الثقيلة وراءهم ، لكنه خشي الفتنة ، ولعدم امتلاكه لقاعدة ثابتة ، ولايثاره الحفاظ على جميع قواته أثر المغامرة ، فتابع الزحف ، وبعدما اقتحم بقواته مدينة تور عسكر على مقربة منها ، وفيما بين تور وبواتيه ناجز عبد الرحمن بقواته شارل مارتل وقواته ، واستمرت المعركة عدة أيام تخلخل فيها وضع الجند العربي ، لأن قوات شارل مارتل كانت أكثر عددا ، مرتاحة تقاتل في أراضيها ، وفي اليوم الأخير للقتال دب الخلل وسط الجيش العربي ، وحاول الفرنجة مهاجمة مؤخرة هذا

الجيش ، وهنا ألقى عبد الرحمن بنفسه في وسط المعمعة ، فنال الشهادة ، ومع حلول الظلام توقف القتال ، وعندما حل صباح اليوم التالي فوجىء الفرنجة بمعسكر العرب قائما كما كان ، لكنه خاليا من الجند ، فاعتقدوا أن في الأمر خديعة ، ثم عرفوا فيما بعد أن العرب انسحبوا تحت جنح الظلام ، فاكتفوا بذلك ولم يجربوا ملاحقتهم . هذا ولاقت أخبار هذه المعركة عناية كبيرة من مؤرخي العصر الحديث في أوربا وعدوها احدى معارك التاريخ العالمي الفاصلة ، وقالوا إنها ابقت نصرانية اوربة وحالت دون انتشار الاسلام فيها ، وفي هذا الكثير من التطرف والشطط ، ذلك أن الفتح العربي كان في كثير من الحالات شيئا وانتشار الاسلام شيئا أخر ، فقد حكم العرب ، وبعدهم بعض القوى المسلمة اقاليم كثيرة لفترات طويلة دون أن يؤدي ذلك الى انتشار العقيدة الاسلامية والأخذ بها.

إن الذي ربحته فرنسا وأوربا هو الحفاظ على حالة التخلف الحضاري والاجتماعي ، وكسبت التعصب واستبداد الكنيسة الكاثوليكية بشؤونها ثم صراعها مع الساسة والملوك والحكام ، ونماء نظام الاقطاع وتحويله الناس الى اقنان.

يضاف الى هذا إن هذه المعركة لم تغلق بوابات فرنسا في وجه العرب ، فقد تابع العرب غزواتهم داخل فرنسا وتوغلوا فيها ، كما أنهم وصلوا الى مابعد بحيرة جنيف في سويسرا ، انما كانت العمليات العربية منذ الآن ، على مستوى صغير ، وبامكانات متدنية ، غير مدعومة من حكومات أو دول قوية كافية الموارد ، ولعل من بين دروس هذه المعركة القاسية انه من الصعب الحصول على غنائم من فرنسا ، وهنا ينبغي أن نقف قليلا عند مسألة الغنائم ، التي غالى الأوربيون في رفع شأن تأثيرها ، لنبين قائلين إن فرنسا القرن الثامن لم تكن بلدا غنيا او ناميا يمكن للمغير عليه أن يحصل منه على غنائم ثمينة ، ولم تمتلك الكنائس والأديرة ثروات واسعة ، فعبادة الأيقونات لم تكن قد قامت بعد ، ولم يكن

هنالك ثروات أو ذهب وفضة ومجوهرات ، لقد توفرت امكانات جمع الأرقاء للبيع والاستخدام ، هذا وماكان عرب القرن الثامن ـ وقد فترت حمية الجهاد في أنفسهم بعض الشيء ـ ليغامروا داخل فرنسا ويتحملوا الشدائد والمصاعب دونما مقابل وارباح كبيرة مضمونة ، ولقد أدرك العرب أن نفقات أعمال الفتوح داخل فرنسا أعلى بكثير من المرابح ، لهذا ركزوا اهتماماتهم على بعض المراكز الساحلية ، ثم إن العرب لم يعجبهم مناخ فرنسا البارد ، وآثروا دوما العيش في المناخ المتوسطي ، اضافة الى كل ما تقدم واعلى أهمية عاني العرب في الأندلس وأفريقيا الشمالية والمشرق بعد معركة بواتيه من مشاكل كثيرة مزقت صفوفهم وشتت قواتهم، وانتشرت الفتن بينهم ، لذلك لم يحاولوا الثار لما لحقهم في معركة بلاط الشهداء وظلوا يعانون من المشاكل والانقسامات والحروب الداخلية حتى قامت الثورة العباسية ، فنجم عن ذلك تغيير كبير الم بشؤون السلطة في الأندلس ، وانعكس على علاقاتها مع أوربا.

لقد كانت معركة بواتيه أو بلاط الشهداء نهاية لتيار المد العربي الفاتح في فرنسا ، وبعدها تحول اتجاه التيار ، ولم تكن الغزوات التي توغلت بعيدا داخل فرنسا وكذلك سويسرا إلا امواجا شاردة ذهبت قواها وانهدرت محصلاتها حيث وصلت دون أن تترك اثرا دائما ، وبالمقابل استمر مع الأيام تيار الجزر المعكوس حتى غطى الأندلس بقعة بقعة (١٦).

ولما وصل خبر مصرع عبد الرحمن الغافقي الى مسامع والي افريقية أنفذ عبد الملك بن قطن الفهري واليا جديدا على الأندلس ، وانفذ معه قوة من خيل ورجل ، وبعث الى الخليفة الأموي يعلمه ويستمده ، ويبدو أن عبد الملك اخفق في اثارة همم الناس ودفعهم الى الغزو من جديد ، وهنا عزل من منصبه وكان هذا في سنة ١٢١ هـ/ ٧٣٩ م ، وعين مكانه عقبة بن الحجاج السلولي ، وتم هذا التعيين من قبل والي افريقية عبيد الله بن الحبحاب.

وكانت جموع كبيرة جدا من بربر المغرب قد دخلت الاسلام ، غير ان ابن الحبحباب اساء معـاملة البــربر، فقــد كان فــظا ثقيل الضرائب ، شديد التحصـيل ، وفي الوقـت نفسـه انتشرت افـكار الدعوة الخارجية بين صفوف قبائل من البربر ، وجاء هذا الانتشار لأسباب عديدة ما مــن واحــد منهــا كانت مضــامينه نزعات استقلالية ، وكان ما ان تهيات الفرص حتى ثار خوارج البربر سنة ١٢٢ هـ/ ٧٤٠ م بــزعامة احــد هــم وعرف بــاسم ميسرة المدغري ، وبذل عبيد الله غاية جهـده للقضـاء على هــذه الثــورة واستنجد بوالي الأندلس ، ومع ذلك لاقت جهوده الاخفـاق ، وقـام بعض خوارج البربر بــاغتيال زعيمهــم ميسرة المدغري وانتخبـوا زعيما جديدا اسمه خالد بن حميد الزناتي ، واستطاع خـالد هــذا الحاق هزائم ماحقة بــالقوات العــربية التــي كانت مــرابطة بالمغرب ، وهكذا زالت السـيطرة العــربية عن معــظم اجــزاء المغرب ، واضطر ابـن الحبحبــاب الى مغــادرة المغــرب الى دمشق ، حيث أخبر الخليفة هشـام بـن عبـد الملك بمــا الت اليه الأمور ، فانفعل وتأثر كثيرا حتى قال :« والله لأغضبن غضبة لهـم عربية ولأبعثن اليهم جيشا اوله عندهم واخره عندي ».

وكان لثورة البربر في المغرب انعـكاسات مبـاشرة على اوضــاع الأندلس ، حيث تأثر بربر الأندلس وقاموا بالثورة بـدورهم ، وكان من مسوغات الثورة أنهــم تحملوا العــبء الأكبــر في فتــح الأندلس ، لكن على الرغم من هذا كان مانالوه مــن ثمـرات الفتــح أدنى بكثير مما ناله العرب ، ذلك انه عندمــا وزعت اراضي الأندلس على الفاتحين أعطي البربر اراضي جبلية مع بعض الأراضي الواقعة في مناطق الحدود ، هذا في حين نال العرب أحسن الأراضي الأندلسية واكثرها خصبا ، وكانت الأحوال السيئة التي عاشها بربر الأندلس - مقارنة مع أحوال العرب-وراء تحركهم وقيامهم بالثورة .

وكان عقبة بن الحجاج قد قام عند تسلمه لمنصب ولاية الأندلس بايداع سلفه واليها المعزول عبد الملك بن قطن مـع اعوانه ومـؤيديه السجن ، وقد مثــل عبــد الملك حــزب اهــل المدينة المنورة في

الأندلس ، وحين أخفق حاكم المغرب في القضاء على ثورة البربر ، وبعدما أعلن بربر الأندلس ثورتهم ضعف موقف عقبة بن الحجاج ، واصيب عام ١٢٣ هـ/٧٤١ م بمرض شديد حتى أرجف الناس بموته ، وهنا قامت جماعة الحزب المدني فأرغمته على استخلاف عبد الملك بن قطن ، وهكذا وللمرة الثانية تسلم ابن قطن منصب ولاية الأندلس انما بموجب ارادة قوى اندلسية ، وليس تبعا لارادة والي افريقة أو الخليفة الأموي ، وستنمو هذه الظاهرة في المستقبل القريب الى حد قيادة الأندلس الى الانفصال السياسي عن جسم الخلافة .

ومع تسلم عبد الملك لولاية الأندلس استشرت ثورة البربر وكان الخليفة هشام بن عبد الملك قد بعث جيشا كبيرا على رأسه كلثوم ابن عياض القشيري ، وعهد اليه بولاية افريقة ، وامره أن يعمل على القضاء على الثورة الخارجية فيها ، وزحف كلثوم نحو المغرب وجعل على مقدمة جيشه وعلى الفرسان ابن أخيه بلج بن بشر وكان في بلج رعونة وحمق وتعصب لقومه من قيس ، وقد نجم عن تصرفاته وسلوكه وقوع خلافات بين صفوف العرب من قوات كلثوم وقوات العرب التي بقيت مرابطة في افريقة ، لذلك عندما التقت القوات العربية بقوات الثورة البربرية حلت الهزيمة بالعرب ، وفر بلج مع ما يقارب من عشرة آلاف مقاتل من جنده نحو سبته ، وهناك اتخذ موقف الدفاع . وتحت الحصار ضاقت الحال ببلج وجنده ، وحينئذ طلب بلج من عبد الملك أن يعينه على القدوم الى الأندلس ، ولم يكن ثم من يميل لتلبية مطلبه هذا ، وعبثا حاول استدرار عطفه عليه ، بما كان يذكره في رسائله من انه هو رفاقه يموتون جوعا في سبته ، وانهم قبل كل شيء عرب مثله ، فلم يلن بؤسهم قلب ذلك« الشيخ المدني العجوز » أعني عبد الملك الذي ربما حمد الله تعالى ان اتاح له ، وهو في التسعين من عمره ، فرصة تذوق لذة الانتقام بمشاهدة أبناء الجفاة القتلة وهم يشرفون على الموت جوعا ، او ليسوا هم الذين قتلوا في وقعة الحرة رفاقه وابناء عشيرته ، والذين أوشكوا أن يذيقوه ـ هو نفسه الموت

بسيوفهم ، والذين نهبوا المدينة المنورة واستباحوها ودنسوا حرمة قبر النبي صلى الله عليه وسلم ومسجده ، افيطمع ابناء اولئك العتاة الرعناء أن يرق لهم عبد الملك ؟! وهل لروح الانتقام أن تموت عند ذلك المدني ، وهل يمكن لآلام الشامي أن تحرك شفقة من عاش ينتظر يوم الثأر، وهكذا لم يكن لعبد الملك سوى هم واحد ورغبة فريدة ، وشغل شاغل وحيد ، هو الحيلولة بين من هم دونه كراهية لأهل الشام وبين مدهم بالميرة أو اي نوع من المساعدات ، وعلى الرغم مما اتخذه من الاحتياطات ، استطاع شريف رؤوف من قبيلة لخم أن يفلت من رقابته ، وأن يرسي في ميناء سبته مركبين مشحونين بالحنطة ، فلم يكد يتناهى خبر ذلك الى عبد الملك حتى قبض على اللخمي الكريم وجلده سبعمائة جلدة ، ثم أمر بسمل عينيه وقتله متهما إياه بتضريب الجند عليه ، ورفعت جثته على سارية وقد صلبوا الى يمينها كلبا إيغالا في النكاية به والشماتة ، وهنا خيل للشاميين أنه قد حكم عليهم بالموت جوعا ، غير أنه جد فجأة أمر لم يكن في الحسبان ، ارغم عبد الملك على تغيير مسلكه .

فلقد استثمرت ثورة البربر في الأندلس ، وزاد بربر الأندلس حماسا صعوبة وضع العرب في المغرب بعد الانتصارات التي حققها البربر هناك «وتحرج موقف عرب الأندلس إذ ذاك ، وأصبح حالهم ينذر بالخطر ، وأوشك ملكهم على الزوال حتى وجد عبد الملك نفسه – على الرغم مما يجيش في جوفه – مضطرا لالتماس معونة أهل الشام المحاصرون في سبتة ، أهل الشام ذاتهم الذين تركهم حتى هذه الساعة يكابدون مصيرهم التعس دون أن تأخذه فيهم شفقة أو رحمة ، إلا أنه اتخذ لنفسه الحيطة ، فوعدهم أن ينفذ إليهم مراكب تنقلهم على شرط أن يقطعوا العهد على انفسهم بمغادرة الأندلس حالما يتم القضاء على الثورة ، وأن يسلمه كل فريق منهم عشرة من شيوخهم يضعهم في إحدى الجزر رهائن تكون رؤوسهم ضمانا لصدق تنفيذ الاتفاق ، واشترط الشاميون من جانبهم على عبد الملك

أن ينقلهم جملة الى افريقة وان ينزلهم على ساحل ليس للبـربر فيه سلطان ».

واقر الجانبان الاتفاق . وهكذا ابحر اهل الشام من سبتة ودخلوا الأندلس «عراة لا يواريهم إلا دوابهم ، وقد بلغ بهم الجهـد غايتـه ، وكانوا نحو عشرة الاف من عرب الشام ، فلما دخلوا كسـاهم عرب الأندلس »، وبعدما استقر بهم المقام في الأندلس ونقهوا زحفوا ضـد البربر فهزموهم في اكثر من معركة ، وغنموا منهم غنائم كثيرة ، وفي تلك الأثناء تعرف عرب الشـام على الأندلس ، فـأعجبتهم البـلاد ، وأعجبهم غناها ، وادركوا مدى قوتهم وقوة عبد الملك بن قطن .

وما أن تلاشت ثورة البربر في الأندلس وقضي عليها ، حتـى طلب عبد الملك من بلج وصحبه تنفيذ الاتفاق ومغادرة الأندلس والعـودة نحو افريقية ، وهنا اختلق بلج اسبابا للبقاء والخلاف مع عبد الملك ، وتمكن من الاستيلاء على مقاليد الأمور في قرطبة ، واودع عبـد الملك السجن **وأثناء هذا حدث أن مات بعض رهائن الشاميين ، فثار جند بلج ، وأخرجوا عبد الملك من السجن« كأنه فرخ نعامة مـن الكبـر ، وهم ينادونه: أفلت من سيوفنا يوم الحرة ، فـطلبتنا بثـأرنا في أكل الدواب والجلود ثم** اردت ا**خراجنا الى القتل ، ثـم قتلوه وصـلبوه ، وصلبو خنزيرا عن يمينه وكلبا عن شماله».**

ولم يمض حادث استيلاء بلج على السلطة وقتله لعبد الملك دونمـا جـــرائر ، فقـــد انقســـم عرب الأندلس الى قســـمين متصارعين : شـاميين وبلديين قـدماء ، وقـامت معـارك بين الطرفين ، ولقـي بلج مصرعه في الحـرب ، لكن اصـحابه حققـوا لأنفسهم النصر ، فاستمروا متسلمين لمقـاليد الأمـور ، وخلف بلج ثعلبه بن سلامة العاملي ، وكان هذا سـنة ١٢٤هـ/٧٤٢م ، وجـاء اختيار ثعلبة بسبب «أن هشام بن عبد الملك كان قد عهـد أن يتـولى امر الجيش اذ جهزه من الشام كلثـوم ، فـان اصـيب فـابن اخيه بلج ، فان أصيب فثعلبة» ،

واستمرت الحرب الأهلية ايام ثعلبة ، وكانت ساعة صراعا بين العرب والبربر ، واخرى بين العرب انفسهم شاميين وبلديين ، وبقي النصر حليفا للشاميين ، ووقع اثناء هذه الحروب في ايديهم عدد كبير من الأسرى كما اقدم ثعلبة على اقتراف إثم لم يعهده العرب في تاريخهم الا وهو سبي نساء المهزومين واسترقاق اطفالهم ، وكان ذلك حدثا لاسابقة له ولهذا جاء في منتهى الفظاظة والقسوة .

واخاف تدهور اوضاع الأندلس عقلاء المسلمين من شاميين وبلديين والتمسوا مخرجا لذلك ، فتوجهوا بابصارهم نحو المغرب ، وكانت الأوضاع قد عادت الى الاستقرار النسبي ، بعدما وجه اليها الخليفة هشام بن عبد الملك حنظلة بن صفوان واليه على مصر ، وحدث ذلك بعد ما بلغه ما صار اليه جيش كلثوم بن عياض ، ولما اتصل عقلاء اهل الأندلس بحنظلة سألوه أن يندب اليهم واليا يكون قادرا على اعادة النظام والأمن والطمأنينة الى الأندلس ، فاستجاب لطلبهم ، واستعمل ابا الخطار الكلبي حسام ابن ضرار ، ووصل ابو الخطار الى قرطبة على حين غرة ، فالفى ثعلبة بن سلامة «وهو يبيع السبي بالنداء ، ويعبث ويبطر ، فكان يبيع الشيوخ والأشراف ممن ينقص لاممن يزيد» .

وتسلم أبو الخطار ولاية الأندلس دونما معارضة ، وقام بمعالجة مشاكل ولايته بأن انهى الحرب الأهلية ، فنفى عددا من شخصيات القوى المتصارعة وكان من جملة المنفيين ثعلبة بن سلامة ، واعاد النظر في توزيع اراضي الأندلس على العرب ، فاعطى طالعة بلج الشامية املاكا اندلسية خاصة ، فصار رجال هذه الطالعة من اهل الأندلس وسكانها الدائمين .

ونجح أبو الخطار في ادارته فجمع سكان الأندلس من العرب حوله ، وكسب طاعتهم ، لكنه لم يمتع نفسه بذلك طويلا ، حيث ما لبث أن تخلى عن مصالحه ورزانته وتعصب لليمانية ضد الجماعات القيسية وبهذا اعاد الانقسام من جديد الى صفوف عرب

الأندلس ، وتزعم الجماعات القيسية الصميل بن حاتم الكلابي ، وكان حفيدا لشمر بن ذي الجوشن قاتل الحسين بن علي في كربلاء ، وكان اعرابيا عنده عنجهة البداوة وصلفها ، ولم يكن صاحب ثقافة اوحتى معرفة بالاسلام ، كما كان لايحسن القراءة والكتابة ، ويروى انه (مر بمؤدب يقرئ ولدا له القران فسمع منه الآية «وتلك الأيام نداولها بين الناس » فوقف الصميل وقال للمؤدب : نداولها بين العرب ، فقال له المؤدب :« بين الناس» فقال الصميل وهكذا نزلت الآية ؟قال له : نعم ، هكذا نزلت ، فقال الصميل : والله إني أرى هذا الأمر سيشركنا فيه العبيد والسفال والأراذل) .

وجمع الصميل أعوانه من قبائل قيس ، ووثب بأبي الخطار فانتزع منه ولاية الأندلس ، وبعد شي من الفوضى والصراع عين الصميل يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب الفهري ، وكان من أحفاد عقبة بن نافع ، عينه واليا على الأندلس ، ولم يلق اتباع الحزب اليماني السلاح فخاضوا بزعامة ابي الخطار عدة معارك ضد القيسيين ، كان اشهرها واحدة وقعت سنة١٣٠هـ /٧٤٧م بمكان عرف بشقندة ، وكان على مقربة من قرطبة ، وقد تلاقى رجال الفريقان المتصارعان «حين صلوا الصبح ، فتطاعنوا على الخيل حتى تقصفت الرماح ، وثبتت الخيل وحميت الشمس ، ثم تداعوا الى البراز فتنازلوا بالسيوف حتى تقطعت ، ثم تقابضوا بالأيدي والشعور ، ولم يكن في الاسلام صبر مثله» وعندما اصيب الطرفان بالانهاك اسرع الصميل نحو قرطبة فاستنجد بأهل سوق المدينة من عمال وجزارين وسواهم ، وحسم هؤلاء بحضورهم المعركة لصالح الصميل وصحبه ، وأعقب المعركة تصفية دموية لرجالات الحزب اليماني .

وحين وقعت هذه الأحداث كانت الخلافة الأموية في المشرق تمر بدور الحشرجة النهائي ، لذلك سارت الأمور في الأندلس دون ان يكون للخلافة أو والي افريقية أي دور في ايقاف المذابح التي

وقعت ، وازدادت أحـــوال الأندلس ســـوءا أنه حـــل بهـــا سنة ١٣١ هـ / ٧٤٨ م وسـنة ١٣٦ هـ / ٧٥٣ م قحـط شـديد ومجاعة دفعت بالعديد من سـكان الأندلس مـن العـرب الى هجـر الأندلس والعودة الى المغـرب ، وكان ذلك فـرصة اهتبلهـا رجـال المقاومة الاسبانية ، فبدأوا حرب الاستغلاب التي سـتستمر اجيالا طويلة ، وتنتهي بسقوط الأندلس وطرد العرب منها .

لقد تهيات الظروف للعرب منذ ولاية عبد الملك بن قـطن للانتقـام لفاجعة بلاط الشهداء واستئناف حركة الفتوحات ، لعـدة أسـباب كان منها توفر عناصر كثيرة في بروفانس وسواها تعاونوا مع العرب لكراهتهم لشارل مارتل ، ولانشغلال شارك مـارتل نفسـه في نشر سلطانه في أماكن أخرى ، لكن حالة التمزق التي سادت بين صفوف العرب والمسلمين في الأندلس ،وعدم تـوفر قـوى بحـرية كافية لدى العرب ، واخيرا الفوضى التي حلت بـالشام والمشرق منذ اسـتيلاء يزيد الناقص على الخلافة ، وبعد هذا أحـداث الثـورة العبـاسية حرمت العرب من فرصهم ، ومعروف انه كان مـن بين نتـائج قيام الدولة العباسية توقف الحركة الهجـومية للفتـح وشروع المسـلمين باعتماد خطط الدفاع .

وبالفعل جرى تحصين بعض المواقع الاسلامية في جنوب فـرنسا ومقاطعة بروفانس ومع هذا نجح الفرنجة والاسبان بالاستيلاء على بعض المواقـع الاسـلامية مثـل افينون Avignon «صـخرة أبينون» لكنهم لم يتمكنوا من أخذ نربونه ، حتى شارل مارتل نفسه أخفق في الاستيلاء عليها مع انه حاصرها لبعض الوقت (١٧) .

وكان لسقوط الدولة الأموية في المشرق وحلول الخلافة العبـاسية محلها أوسع الآثار واكثرها حسما بـالنسبة للأندلس ، فتـاريخيا أنهى الانتصار العباسي العصر الذي كانت فيه الأندلس ولاية وسبب قيام عصر جديد ، غدت فيه بلاد الأندلس أول قطر اسـلامي يخـرج عن الاجماع الاسلامي بالطاعة لخليفة واحـد ، واضـطرت هـكذا الأندلس للاعتماد على طـاقاتها الذاتية لمواجهـة طـاقات القـارة

الأوروبية ، مضاف الى هذا أحيانا دسائس ومؤامرات حيكت في دار الاسلام ، لذلك لاعجب أن ترافق وصول الأندلس الى ذروة القوة مع الانهيار السريع .

عصر الامارة الأندلسية

بعد معركة شقندة خلصت ولاية الأندلس الى يوسف بن عبد الرحمن ، لكن ذلك ظاهر فقط ، ذلك أن يوسف لم يكن له من منصب ولاية الأندلس إلا لقب الأمير الاسمي فقط لاستئثار الصميل بن حاتم بالسلطة الفعلية ، ومع مرور الأيام تبرم يوسف وأظهر انزعاجه لمكانته الثانوية ، ففكر في التخلص من الصميل ، واستطاع ذلك بأن أبعده عن قرطبة الى سرقسطة في الشمال ووصل الصميل الى هذه المدينة سنة ١٣٣هـ/٧٥٠م ، وكانت غالبية سكان سرقسطة من العرب من جماعات الحزب اليماني.

ولم يلق الصميل وقت وصوله الى سرقسطة معارضة تذكر ، ويعود سبب ذلك الى أن وصوله تزامن مع احتدام القحط والمجاعة هناك وعمل الصميل طوال فترة المجاعة على تقديم العون من طعام وكساء ومأوى الى جميع المحتاجين دونما تمييز ، وهكذا مضت حقبة من الزمن ساد فيها الهدوء والتفاهم وانعدام الشغب والنزاعات بين القيسية واليمانية. لكن ما أن زال الجفاف وعاد الخصب ، وزال الجوع حتى تحركت النفوس بأحقادها من جديد ، وعقدت عدة تحالفات ضد الصميل ومؤيديه من قيس ، وما لبثت الثورة أن تفجرت ضد الصميل في منطقة سرقسطة ، وبالوقت نفسه واجه يوسف بن عبد الرحمن تحركات مضادة له في قرطبة وما جاورها ، وحين وقع الصميل في الضيق ، اتخذ موقف الدفاع ، ثم اعوزته الحاجة الى التماس العون من يوسف فطلب منه انجاده ، ولم يكن يوسف في حالة تمكنه من تلبية طلب الصميل ، كما أنه لم تكن لديه الرغبة في تلبية هذا الطلب ، ذلك أنه كان يرغب فعلا في التخلص من الصميل ومن نفوذه.

وضاق الحصار على الصميل واضر به حتى يئس من الحياة وهم

بالالقاء بيده ، وعندما لم يلق من يوسف الاستجابة ، كتب الى زعماء قيس ، فتحرك هؤلاء الزعماء بفعل الروابط القبلية وبفضل عوامل جديدة دخلت الى مسرح أحداث الأندلس ، وتجيشت قوة من قبائل قيس ، ومن جماعة عرفت بموالي بني امية ، وانطلقت نحو سرقسطة ، وكان برفقة هذه القوة رجل طرق الأندلس حديثا ، عرف ببدر مولى عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك.

وتخلص الصميل من الحصار ، وتوجه مع القوة التي جاءت لنجدته نحو قرطبة ، وفي سرقسطة قام بدر بالاتصال بالصميل وأخبره أنه رسول مولاه إليه ، وعرض عليه أن يعاون ابن معاوية على تسلم الحكم في الأندلس ، واحياء الملك الأموي بعد انقطاعه في المشرق ، واستجاب الصميل في البداية « واتفق مع الأمويين على نصرة ابن معاوية وأن يزوجه من ابنته ، ثم رجع في قوله ، وقال: تأملت الأمر فوجدته صعب المرام » وهنا انقطع رجاء بدر من قبائل قيس وزعيمها الصميل.

وتحول بدر نحو عناصر القبائل اليمانية التي كانت تعاني من القهر والتحكم القيسي فوجدهم « قوما قد وغرت صدورهم ، يتمنون سبيلا لطلب ثارهم ، وأعدت العدة ورتبت الأمور لدخول ابن معاوية الى الأندلس ، وعاد بدر الى مولاه ومعه خمسمائة دينار وبعض الرجال مع مركب خاص ليعبر به مضيق جبل طارق.

وانتظرت الفرصة المناسبة لتنفيذ العبور، وجاءت هذه الفرصة سنة ١٣٨ هـ ـ ٧٥٥ م عندما تغيب يوسف بن عبد الرحمن ومعه الصميل وقوات الولاية ،عندما تغيبوا عن قرطبة حيث توجهوا الى طليطلة لامضاء البعوث ضد البشكنس وسواهم ، وفي أول ربيع الأول سنة ١٣٨ هـ ١٤ ـ اب من سنة ٧٥٥ م نزل عبد الرحمن بن معاوية في ميناء المنكب بين المرية ومالقة ، وعلى الفور اتخذ لنفسه مقرا في قرية قريبة دعيت بُطُرّش ، ومن هناك بدأ نشاطه ، وهنا لابد لنا قبل متابعة الحديث عما آلت اليه أمور عبد الرحمن مع امور الأندلس بعد نزوله فيها من الوقوف قليلا كيما نعود الى الوراء

لنتعرف الى شخصية عبد الرحمن مع الأسباب التي حملته على ترك المشرق والقدوم الى الأندلس.

عبد الرحمن الداخل

هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، يرجح أنه ولد في منطقة دمشق سنة ١١٣ هـ /٧٣١ م ، وكانت أمه بربرية من سبي المغرب تسمى « راحا » أو « رواحا » وقد توفي ابوه وعبد الرحمن ما يزال طفلا صغيرا ، فعني به جده هشام عناية خاصة ، وفي مصادرنا كان سبب ذلك أن عبد الرحمن ذهب مرة الى قصر هشام بن عبد الملك ومعه أخوته الاطفال ، وعندما كانوا بالباب ، جاء عم أبيه مسلمة بن عبد الملك الى القصر ، وعند دخوله سأل عن الأطفال ، فأخبر بأنهم أيتام معاوية بن هشام ، فنظر اليهم متفحصا واستعرضهم واحدا واحدا ، وعندما مر به عبد الرحمن احتضنه وضمه الى صدره بحنان ، وصادف أن خرج ساعتئذ الخليفة هشام فرآه يفعل ذلك بحنان فسأله:« من هذا يا أبا سعيد ؟ فأجابه مسلمه: ولد لمعاوية ابنك ، ثم مال عليه وأسر اليه بصوت سمعه عبد الرحمن ، وكان مما قاله: دنا الوقت ، وهذا هو ، فسأله هشام:« أهو»؟ فأجابه مؤكدا:« اي والله وقد عرفت العلامات والامارات بوجهه وعنقه».

والقبول بهذه الرواية يعني أن هشام بن عبد الملك كان لا يعرف احفاده ، وهذا أمر من الصعب تصديقه ، وتفسير الرواية:إن بني امية كانوا يعرفون عن طريق النبوءات ان ملكهم أيل الى الزوال في المشرق،لكنه سيبعث في المغرب على يد رجل صاحب صفات معينة ، وكان مسلمة بن عبد الملك اكثر اهله معرفة بما سيحل بملك بني امية وبما ستكون عليه الأحوال فيما بعد.

وتبعا لهذه الرواية لقي عبد الرحمن عناية جده ، وعندما زال ملك بني امية ، وقامت الدولة العباسية تذكر ، فتوجه الى المغرب ليعمل على إحياء الحكم الأموي ، ونجح في ذلك.

لا شك ان طابع الصنعة والتزوير واضح على هذه القصة التي

استهدفت اضفاء الشرعية النابعة عن الارادة الالهية على نجاح أعمال عبد الرحمن ، ولا ريب أن مثل هذه الأقاصيص كانت تلقى بعض القبول في المجتمع الاسلامي ، وقد وجد من روج لها ، ففي عصور الاسلام المبكرة كثرت النبوءات وتعددت الى حد عجيب غريب ، وكان هناك من أمن بحتمية الأقدار وأن الانسان مسير محكوم عليه بقدر لا يتغير ولا يتبدل ، ولو صحت مثل هذه النبوءات لاختلف موقف بني أمية من الحركة العباسية وثورتها حين اندلعت.

لكن يقال هنا: يؤيد هذه النبوءة توجه عبد الرحمن نحو المغرب فالأندلس ، والاجابة هنا: ليس عبد الرحمن وحده من بني امية الذي توجه نحو المغرب ، ولو كان هناك نبوءة أخذ بها لما أمضى ـ كما سنرى ـ فترة طويلة بالمغرب قبل أن يجرب حظه في الأندلس.

لقد فر عبد الرحمن الى المغرب لأنه لم يجد سبيلا اخر ، وكان عبد الرحمن وقت تفجر الثورة العباسية قد تخفى في إحدى القرى القريبة من الفرات ، والذي دفعه الى التستر هو البطش العباسي وعمليات الابادة الشاملة التي مارسها العباسيون ضد جميع افراد الأسرة الأموية ، واقام عبد الرحمن قرب الفرات بسبب إقامة هشام عبد الملك أيام خلافته في رصافة الرقة ، وحدث انه في أحد الأيام فوجيء عبد الرحمن بثلة من الجند العباسي تقتحم القرية التي كان فيها ، فهرب من وجهها مع اخ له والقى بنفسه في الفرات فاجتازه سباحة ، في حين لم يستطع أخوه متابعة السباحة فوقع في يد الجند العباسي فذبحوه على الفور ، ومن هناك هرب عبد الرحمن نحو فلسطين ، ولعله تخفى عند احد أنصار بني امية او مواليهم ، وفي فلسطين لحق به مولاه بدر مع سليم مولى أخته أم الأصبغ ، وهناك زوداه بمال ومجوهرات بعثت بهم إليه اخته ، ومن فلسطين توجه الى مصر فاجتازها الى المغرب.

وكان المغرب لم يدخل بعد تحت السلطة العباسية ، وكانت اموره بيد عبد الرحمن بن حبيب الفهري من احفاد عقبة بن نافع ، وكان

عبد الرحمن بن حبيب هذا قد استولى على امور المغرب واستبد بالسلطة هناك استيلاءالا تفويضا ، فقد كان بالأصل من اهل الأندلس ، هرب منها الى المغرب ، ثم تدبر اموره فأحدث انقلابا استولى فيه على حكم المغرب كله.

وشجع بعد المغرب ووضعه السياسي أفراداً من البيت الأموي على اللجوء إليه ، ويبدو أن عبد الرحمن رحب في البداية بالعناصر الأموية التي وصلت الى المغرب ، وقدم لها المساعدة ، ولعل عبد الرحمن بن معاوية كان احد هؤلاء الأمويين الذين وصلوا الى المغرب ولقوا مساعدة ابن حبيب ، لكن ابن حبيب ما لبث أن غير سياسته تجاه الأمويين ، ذلك أنه كان فيمن قدم عليه من الامويين ولدان للوليدبن يزيد بن عبد الملك ، يقال لأحدهما القاضي والآخر المؤمن.....فأنزلهما عبد الرحمن بدار....وكانت معهما عجوز في الدار ، فدس إليها عبد الرحمن بن حبيب أن توصله إلى موضع تسمعه منه كلامهما ، فقالت:إن البيت الذي هما فيه ، في سقفه غرةفإن شئت فأنا أوصلك ليلا إلى ظهر البيت حتى تطلع عليهما ولا يعلمان ، فقال: افعلي ، فلما كان في الليل أطلع عليهما وهما على نبيذ لهما ، ومولاهما يسقيهما ، إذ قال القاضي: ما أغفل عبد الرحمن ، أيظن أنه يتمنى معنا ولاية ونحن أولاد الخليفة «؟! وبعدما سمع عبد الرحمن هذا الكلام بطش بالأميرين الامويين ، وأخذ بملاحقة بقية الأمويين فبادروا الى الفرار والتجأ بعضهم الى القبائل البربرية ، وكان ممن فعل ذلك عبد الرحمن بن معاوية .

قد تكون قصة التصنت هذه مخترعة وهي مجرد صدى لتغيير ابن حبيب لسياسته تجاه من لجأ إليه من بني أمية بسبب خشيته من مطامح بعضهم مع رغبته في التقرب إلى العباسيين ، الذي يعنينا هنا هو أن عبد الرحمن بن معاوية مضى» ينتقل من قبيلة إلى أخرى ، ومن بلد إلى أخر ، وذرع إفريقية الشمالية من ادناها إلى اقصاها ، فاختفى حينا في برقة ، ولاذ حينا أخر ببلاط بني رستم

ملوك تاهرت (من المغرب الأوسط) كما ذهب إلى قبيلة مكناسة البربرية ، ولجأ إليها مستظلا بحمايتها ، وهكذا انقضت خمس سنوات ــ وهي فترة غير قصيرة ــ دون أن يخطر ببال عبد الرحمن أن يجرب حظه في إسبانيا ، بل كانت إفريقية هي شغل هذا الشاب البهي الطلعة ، المملق ، العديم الأصدقاء ، وداب على اصطناع كل وسيلة للحصول على أنصار له ، فطردته مكناسة من أرضها فتركها إلى قبيلة نفزه البربرية التي منها أمه ، وكانت تسكن قرب سبتة » .

ومن هناك تعرف عبد الرحمن إلى أحوال الأندلس ، وكان طموحا ، لاتنقصه روح المغامرة ، فأرسل مولاه بدر إليه ، فاتصل بدرهناك بجماعة كانت من موالي الأسرة الأموية ، وكان هؤلاء الموالي زهاء أربعمائة أو خمسمائة شخص ، ونجحت جهود بدر ، وأعدت العدة لجواز عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس ، وكان أبرز الزعماء الذين تعاونوا مع بدر يدعى عبيد الله بن عثمان .

وتلفت شخصية بدر الانتباه ، ويبدو أن نشاطه في الأندلس والاستعدادات التي عملت من اجل عبور عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس لم تكن سرا البته ، والذي كان سرا هو وقت العبور وموضعه ، ذلك أنه بعدما نزل عبد الرحمن ساحل الأندلس ووصل خبر ذلك إلى قرطبة ، كتبت زوجة يوسف بن عبد الرحمن إليه تقول : « ابن معاوية قد دخل ونزل بطُرُّش عند الفاسق عبيد الله بن عثمان ، واصفقت بنو امية معه ، وإن خليفتك على إلبيرة زحف إليه بمن خف من أهل الطاعة ليخرجه ، فهزم وضرب أصحابه » .

وشاع الخبر بين صفوف جند يوسف فانفض اكثرهم عنه ، وعاد بعضهم إلى مواطنه وانضم بعضهم الآخر إلى عبد الرحمن بن معاوية ، وبذل يوسف غاية جهده لجمع قوة مناسبة تسير معه ضد عبد الرحمن ، وكان الوقت موائما لذلك ، فأخفق على الرغم من بذله المال والوعود ، وعاد يوسف إلى قرطبة وحل الشتاء فصار من الصعب عليه القيام بأي تحرك عسكري ، ولقد سعد عبد الرحمن بن معاوية بضعف يوسف و بالتمزقات السياسية في الأندلس ، ولم

يضع الفرصة التي واتاه بها حلول الشتاء ، فـزاد مـن نشـاطه ، وصار يبيت في المناطق الجبلية ويتحرك بسرعة غير مفوت لفرصة من الفرص ، وهكذا ازداد عدد أعوانه ويبدو أن حركته قد اخذت بعض السمات الاجتماعية ، ولعلها بذلت الكثير من الوعود الاصـلاحية ، فلاقت التجاوب وانضم إليه الكثير من الفقراء والمظلومين مـن عرب وبربر ، ونستخلص هذه الصورة من نص رسالة وجهها يوسف إلى عبد الرحمن جاء فيها : « أما بعد فقد انتهـى إلينا نزولك بسـاحل المذكب ، وتأبش من تـأبش إليك ونزع مـن السراق وأهـل الختـر والغدر ، ونقض الايمان المؤكدة التي كذبوا الله فيها وكذبونا ، وبـه جل وعلا نستعين عليهم ، ولقـد كانوا معنا في ذرى كنف ورفـاهية عيش حتى غمصوا ذلك واستبدلوا بـالأمن خـوفا ، وجنحـوا إلى النقص ، والله مـن ورائهـم محيط ، فإن كنت تـريد المال وسـعة الجناب ، فأنا أولى بك ممن لجأت إليه ، اكنفـك وأصـل رحمـك ، وانزلك معي إن اردت ، او بحيث تريد ، ثم لك عهـد الله وذمتـه الا اغدر بك ، ولا أمكن منك ابن عمي صاحب إفريقية ولا غيره » .

وعرض يوسف على عبد الرحمن أن يزوجه ابنتـه ، ولاشـك أن عروض يوسف هذه ابتغت تضليل عبد الرحمن والتغـرير بـه ، لكن عبد الرحمن كان اكثر نباهة وحذرا ، فرفض طلب يوسف ، وأهمـل عروضـه ، وطلب منه التنازل عن حـكم الأندلس ، وخيره بين ذلك وبين المحاكمة إلى السيف .

ومع الأيام ازداد أتباع عبد الرحمن ، فأخذ يعد العـدة للزحـف على قرطبة ، وعندما تحرك نحوها حاول يوسف إيقافه فأخفق ، وفي مشارف قرطبة التقى جيش عبد الرحمن بجيش يوسف والصـميل ، فاستطاع عبد الرحمن إيقاع هـزيمة مـاحقة بهمـا وبقـواتهما واجبرهما على الفرار ، وهكذا تمكن عبد الرحمن من دخول قرطبة ، وكان ذللأصـباح يوم عيد الأضـحى لسـنة ١٣٨ هـ/ ١٤ ـ أيار ٧٥٦ م .

وقام جند عبد الرحمن اليمنيون بنهب قـرطبة ، وعندمـا حـاول

إيقافهم عن النهب ومنعهم من القيام بعمليات الانتقام من خصومهم القيسيين غضبوا غضبا شديدا ، دفعهم إلى التآمر على عبد الرحمن ومحاولة التخلص منه ، ولحسن حظ عبد الرحمن انه علم بخبر المؤامرة عليه ، فاحتاط لنفسه ودبر حمايتها ، مما دفع المتامرين للتخلي عن خططهم .

وبعدما صار عبد الرحمن سيد قرطبة ، القيت الخطبة باسمه يوم الجمعة ، ولم يتم الدعاء في هذه الخطبة للخليفة ، ذلك أن الخليفة كان انذاك هو ابو جعفر المنصور وكان المنصور عدوا للأسرة الأموية ، لذلك كان من غير المنطقي أن تتم الخطبة باسمه ويعترف بخلافته ، وخلق هذا حالة جديدة ذلك أن عبد الرحمن احتفظ لنفسه بلقب امير ، فكان بذلك مثله مثل من سبقه في حكم الأندلس ، ولم يعلن عبد الرحمن نفسه خليفة ، ذلك انه لم يكن في وضع يمكنه من فعل ذلك ، مع أن عبد الرحمن لم يكن اول حاكم في تاريخ الأندلس يستولي على السلطة استيلاء اولا ثم يتم تعيينه من قبل السلطات الاسلامية الشرعية ، إلا أنه كان أول أمير للأندلس يقوم بفصل هذه الولاية عن جسم الدولة الاسلامية فصلا سياسيا كاملا ، ويسعى إلى تأسيس حكم أسرة وراثية مستقلة فيها ، والجديد الجديد في هذا الأمر هو الجانب النظري التشريعي اكثر من الجانب العملي ، فعمليا كانت الأندلس دائما مستقلة ، يربطها خيط واهي بالسلطات الشرعية لافريقية أو دمشق ، فقام عبد الرحمن بقطع هذا الخيط ، فابتدأ بذلك عهدا جديدا في تاريخ الأندلس ، وخط سابقة خطيرة في تاريخ الاسلام ووحدة أراضيه السياسية ، ورسم بداية النهاية للوجود العربي في شبه الجزيرة الايبيرية ، لأن المواجهة الآن باتت بين قارة وحدها الصليب وبين فئة صغيرة دانت بالتوحيد لكن نادرا ما التزمت بوحدة الصف،وبعدما صار عبد الرحمن سيد قرطبة واجه العديد من المسائل الفائقة الأهمية ، فلقد كان عليه أن يكمل سيطرته على بقية أجزاء الأندلس وان يقوم بمعالجة قضايا الصراع بين العرب والبربر وبين العرب انفسهم من قيسية ويمانية ، كما كان عليه أن يقوم بمعالجة المشاكل الاجتماعية والزراعية لولايته ، فلقد

وافق تسلم عبد الرحمن لحكم الأندلس بداية حدوث تحولات كبيرة في المجتمع الأندلسي ، وخاصة بين صفوف السكان الأصليين ، ذلك أن أعدادا لابأس بها من هؤلاء بداوا بـالتحول إلى الاسـلام ، وكانت اسباب التحول هذه أسـبابا نجمـت عن قناعات خـاصة حـركتها المطامح والمصالح المالية والسياسية مع هزيمة الكنيسـة الاسـبانية وإفلاسها أمام الدعوة الاسلامية والحضارة العربية الناشئة المتدفقة بـالحياة والتجـديد ، ودعي هؤلاء الذين دخلوا في الاسـلام بـاسم المولدين ، وشكلوا جماعة خاصة تميزت بعض الشيء عن جمـاعات الموالي في الشرق كما شابهتها في بعض الوجوه .

وبهرت قوة العرب ، وحيوية لغتهم ، وجوانب الابـداع في ثقـافتهم وحضارتهم معظم بقية السكان الأصـليين للأندلس ، فتخلى هؤلاء عن تراثهم ولغتهم وعاداتهم لما قبل الفتح الاسـلامي وتبنوا كل مـا كان للعرب إلا دينهم ، وعرف هؤلاء باسم المستعربين .

لقد ضمت كل فئة من فـئات سكان الأندلس جماعات راضـيـة وجماعات ساخطة ، لذلك واجه عبد الرحمن وخلفـاؤه العـديد مـن الثورات ، ولجأ عبد الرحمن إلى اعتماد وسيلة العنف للقضـاء على مناوئيه ، وسعى في البـداية للابقـاء على نوع مـن التـوازن بين القيسيين واليمانيين وفي الوقـت نفسـه أخـذ في إعداد جيش مـن المرتزقة والعبيد ، وهكذا بدأ بنسـف نظـام الخـدمة العسـكرية السالف ، كما أن تجنيده لجيش خاص جعله يختلف عن متقدميه من حكام الأندلس ، إذ استغنى عن الاعتماد على واحد مـن الحـزبين العربيين ، وبدلا من أن كانت العصبية هي الرابط الذي يشد قـوى الحكم والمعارضة ، صارت الآن شخصية الأمير هي محـور العمـل السياسي في الأندلس والرابط الذي يجمع القـوى ،واسـتدعى هـذا إنشاء بلاط ، وإضفاء صفات خاصة على الأمير .

وكان لانشاء البلاط واقـامة الجيش المحتـرف نتـائج سياسية وحضارية كبيرة ، كما أن ذلك كان يحتاج إلى نفقات كبيرة ممـا دعا إلى العناية بموارد البلاد الاقتصادية وإلى تنويع الضرائب وزيادتها

وكل هذا لم يكتب له أن يقوم دون ردات فعل ، ومشاكل مستحدثة معقدة .

وبسبب ان عبد الرحمن كان قد استولى على قرطبة بفضل مؤيديه من رجالات الحزب اليماني فقد وجد أن عليه أولا أن يعالج مشكلة الحزب القيسي ، ذلك انه بعدما دخل قرطبة ، سيطر على عاصمة الأندلس ، لكن ليس على جميع أجزاء البلاد ، فقد هرب يوسف بن عبد الرحمن إلى طليطلة ومضى الصميل إلى عشيرته في جندجيان ، واخذا يعدان العدة لجولة ثانية مع عبد الرحمن ، وقام عبد الرحمن بدوره بالاستعداد ، وسار أولا ضد يوسف ، وبعد اشتباكات عدة كسبها عبد الرحمن ،استطاع عبد الرحمن أن يجبر خصماه على الاستسلام له ، وجلبهما معه الى قرطبة ، حيث عاملهما بمعاملة كريمة وكان يشاورهما احيانا ويستعين بخبرتهما ، وعندما تمكن عبد الرحمن من خصميه يوسف والصميل صار سيد الأندلس بدون منازع ، ولو كان ذلك لفترة من الزمن ، ولم يستطع يوسف تحمل اقامته الجبرية في قرطبة فهرب سنة١٤١هـ ـ ٧٥٨ م منها ، واخفق جند عبد االرحمن في تعقبه والقاء القبض عليه ، وقام عبد الرحمن باعتقال الصميل وحمله وزر هرب يوسف والقاه في السجن مع ولدي يوسف ، ولقي الصميل حتفه في السجن بصورة اختلفت اخبارها .

وتمكن يوسف من جمع جيش كبير قدر بعشرين الف من عرب وبربر ، وزحف على قرطبة ، وكان أن اصطدم أولا باشبيلية ، وهناك هزم ولوحق فقبض عليه قبيل طليطلة وهناك قتل ، واثر ذلك اجهز عبد الرحمن على ابي زيد بن يوسف وابقى الولد الآخر حيا في السجن .

وكان هذا الولد يعرف بابي الأسود ، وقد تظاهر بفقدانه بصره فانطلى ذلك على سجانيه ، وهيأ له الفرصة للهرب ، وقد اثار هربه بعض المتاعب لعبد الرحمن وهذا ما سنأتي على ذكره فيما بعد .

ولم ينعم عبد الرحمن بالاستقرار طويلا بعد تفرغه من معالجة مشاكل الحزب القيسي فقد إنجر نحو معالجة مشاكل الحزب

اليماني، فقد ساعد رجالات هذا الحزب عبد الرحمن لا حبا بـه بـل سعيا وراء الانتقام من الحزب القيسي وحبا لنيل السلطة ، وكان من حسن حظ عبد الرحمن وجود تنافس بين زعماء الحزب اليماني حال دون اتفاقهم ، وكان عبد الرحمن يدرك نوايا اليمـانيين ، إلا أنه كان مضطرا للتعاون معهم ، ولهذا نجده يلجأ إلى سـياسة التـوازن فلم يحاول ابادة الحزب القيسي ، وكانت غالبية العناصر اليمانية تسـكن في الجنوب الغربي من أراضي الأندلس وخاصة في منطقة سرقسطة ، وواجه عبد الرحمن عدة ثورات يمانية أخمدها واحدة تلو الأخرى .

ولعل أخطر الثورات التي واجهها عبد الرحمن وأهمها تلك التـي قادها العلاء بن مغيث الجذامي سنة ١٤٦ هـ ـ ٧٦٣ م بتحـريض من الخليفة أبي جعفر المنصور وتأييد منه ،وكادت هـذه الثـورة أن تقضي على جهود عبـد الرحمـن وتعيد الأندلسس ولاية مـن ولايات الخلافة ، لكن حزم عبد الرحمن وشجاعته مكناه مـن تحقيق النصر على أصحاب الرايات العباسية السود ، فقتل العلاء كما قتل أعدادا كبيرة من الثوار وبعث بعـدد مـن رؤوس القتلى فـرميت بسـوق القيروان ، ويقال أنه بعث ببعض الرؤوس الى مكة ، وكان المنصـور حاجا انذاك فرميت قريبا من خيمته ، فلما رآها وعرف رأس العـلاء بينها أصابه الذعر وقال : «إنا لله ، عرضنا بهذا المسـكين للقتـل ، الحمد لله الذي جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان »

وفي سنة ١٤٩ هـ ـ ٧٦٦ م واجه عبد الرحمـن ثـورة يمـانية أخرى بقيادة سعيد اليحصـبي ،الذي عرف بـالمطري ، واسـتطاع المطري احتلال اشبيلية ، فسار عبد الرحمن ضده وهزمه وقتله ، وفي السنة نفسها قتل عبد الرحمن زعيما يمانيا اخر هو أبو الصباح بن يحيى اليحصبي ،وفي سنة ١٥٦ هـ ـ ٧٧٢ م واجه عبـد الرحمـن ثورة يمانية أخرى في منطقة اشبيلية بقيادة عبد الغـافر اليحصـبي فقضى عليها أيضا وقتل العديد من الثوار .

ولقد تورط في الثورات التي واجهها عبـد الرحمـن الكثير مـن البربر ، كما خرج البربر في ثورات منفردة قضى عليها عبد الرحمـن جميعا ، وقد دفع الحقد على عبد الرحمن بعض العناصر المتنافرة لا

الى التحالف ضده فقط بل حتى إلى طلب العون الخارجي واستعداء قوى غير عربية وغير مسلمة ، فقد تحالف سليمان بن يقظان العربي الكلبي حاكم برشلونة مع عبد الرحمن بن حبيب الفهري صهر يوسف الذي عرف باسم الصقلبي «لأنه كان طويلا ،اشقر ،ازرق امعر » وابي الأسود بن يوسف الذي تظاهر بالعمى وهرب من سجن عبد الرحمن ، وقام الثلاثة بالسفر الى بلاط شارلمان وكان ذلك سنة ١٦٠ هـ - ٧٧٧ م ،فاتفقوا معه ووضعوا معه خطة محكمة تمكن شارلمان من اخذ سرقسطة كما تمكنهم من اشغال عبد الرحمن في مناطق اخرى من البلاد حتى تتم هزيمته والقضاء على حكمه .

وعبر شارلمان جبال البرانس بقواته وفق الخطة الموضوعة ، وعندما دخل الأندلس عرف بأن الصقلبي قد لاقى حتفه ، وأن ابا الأسود لا حول له ولا طول ، ومع هذا سار نحو سرقسطة التي كا ن سليمان بن يقظان قد استولى عليها ، يريد اخذها منه حسب الاتفاق المعقود .

وحين علم عرب سرقطسة بخطط سليمان بن يقظان وقفوا ضده واستعدوا للدفاع عن مدينتهم ، وفر سليمان من سرقسطة إلى شارلمان ووضع نفسه تحت تصرفه ، وبينما كان شارلمان يتأهب للشروع في حصار سرقسطة تسلم خبرا قضى بالاخفاق على جميع خططه ودفعه نحو العودة مسرعا الى مملكته ، فقد عاود السكسون الثورة ضده مغتنمين فرصة غيابه .

لكن كيف تمكن شارلمان من الوصول الى سرقسطة مباشرة ؟ لقد تمكن من ذلك بسبب أن العرب كانوا قد فقدوا سيطرتهم على مقاطعة سبتمانيا وخسروا حصنهم المنيع في اربونه ، فقد توفي شارل مارتل سنة ٧٤٧ م ،فخلفه ابنه بيبن ، وقد اعترف البابا ببيبن ملكا شرعيا الأمر الذي لم يحظ به شارل مارتل نفسه ،وسعى بيبن في السنين الأولى من حكمه للسيطرة على اكيتانية وانتزاع حكمها من ابناء أود ، وهيأ هذا النزاع فرصة ثمينة امام العرب ، غير ان ما شهدته

ساحات الأندلس من الصراعات الأهلية لم تحـل فقـط دون اغتنام الفرصة بل دفعت نحو توريط حاميات الثغور في الصراعات ، وعندما خلت المنطقة اهتبل الفرصة بقايا القوط واخذوا يسعون للاستقلال ، وانتز ع الفرنجة عدة مواقع هامة من العرب ثم حـاصروا اربـونة ، وعجزت نجدة أرسلها عبد الرحمن الداخل عن التفـريج عنهـا ،وفي سنة ١٤٢ هـ ـ ٧٥٩ م اسـتسلمت هـذه المدينة لجيوش بيبـن ، وبذلك لم يعد للعرب وجود في سبتمانيا وغيرهـا مـن أجـزاء المملكة الفرنجية .

واخذت قوة مملكة الفـرنجة تـزداد مـع مـرور الأيام ،وغيرت سياستها تجاه عرب الأندلس من الدفاع الى االهجـوم ، وزاد الطين بلة أن بعض زعماء العرب وضعوا أنفسهم تحـت تصرف الفـرنجة واستدعوا شارلمان ليستولي على سرقسطة وسواها ، واخفقت حملة شارلمان واضطر الى الانسحاب .

وفي طريق العودة اثناء عبور شارلمان وقواته للممر الجبلي الوعر في جبال البرانس انقض رجال البشكنس ومعهم بعض العـرب على مؤخرة قـواته حيث مـؤن الجيش وذخـائره ،فـاتلفوا المؤن وقتلوا القوات التي كانت تتولى حراستها ، وهـكذا أوقعـوا كارثـة كبيرة بجيش شارلمان ،وكان بين القتلى عدد من النبلاء مـن بينهـم رولاند الذي قيل انه كان ابن اخت شارلمان نفسه وحاكما لمنطقة الثغور .

وعبر عدة قرون ظلت الأجيال الأوربية تتناقل اخبار الكارثة التي حلت بجيش شارلمان ،محيطة ذلك بهالة خـاصة اثـرت على الفـكر الأوربي للعصور الوسطى ودفعت نحـو كتـابة واحـدة من أشـهر ملاحم العصور الوسطى الا وهي الملحمة المعـروفة بـاسم «نشـيد رولاند» وكان للحظ الفضل الأكبر في حماية عرش عبد الرحمن هـذه المرة ،وكانت حملة شارلمان اخر محنة خـطيرة يتعـرض لهـا عبـد الرحمن فيما بقي من سني حياته حيث تـوفي في ٢٥ ربيع الأخـر سنة ١٧٢ هـ ـ ٣٠ ايلول ٧٨٨ م عن عمر قارب الستين ، وذلك بعدما قضى حوالي ثلث قـرن يعمـل على تـأسيس ملك لبني أمية في

المغرب بعدما انقطع في المشرق ،وقد جلب نجاحه اعجاب معاصريه به فدعاه المنصور بصقر قريش ، كما اثار هذا النجاح اعجاب الكتـاب والمؤرخين الذين وجدوا وما زالوا يجدون في حياته الكثير مما يمـكن الكتابة عنه (١٨) .

هشام الرضا

وبعدما توفي عبد الرحمن تولى حكم الأندلس ولده هشام ، ويعرف هشام هذا عادة بلقب الرضا ، ذلك أنه يوصف بالتقوى وبعلو الثقافة ودعوته بالرضا لا شك انها كانت متصلة بتيارات الربع الأخير للقرن الثاني السياسية والدينية مع النبوءات وتطلعات الأمة الاسلامية ،فالفترة هذه بالذات هي الفترة التي ظهر فيها الامام الرضا بين الشيعة الاثنا عشرية ، والذي عينه المأمون وليا لعهده فترة من الزمن .

فهشام أراد أن يقطف ثمار ما صنعه والده ، ويتمم العمل في احلال رابطة الأمير محل رابطة العصبية ، وجعل شخصية الأمير محور الأمور في الأندلس تدور حوله وليس حول سواه ، ولقد كان من الضروري أن يتسم خليفة عبد الرحمن بالتدين والتقوى ومحبة السلم وكراهية البطش ، فالأندلس كانت بحاجة الى الهدوء والأمن بعدما فقدت ذلك فترة مديدة .

ويشبه هشام الرضا بعمر بن عبد العزيز ،وهو قد نال بتقواه شهرة كبيرة وصلت إلى المشرق ،حتى تمناه بعض المشارقة ان يكون إمامهم بدلا من الامام العباسي ،فهذا مالك بن أنس يقول : «وددت أن الله زين موسمنا - أي موسم الحج - به» .

وشهد عهد هشام الذي امتد حتى سنة ١٨٠ هـ - ٧٩٦ م الكثير من التطورات في المجتمع الأندلسي أعطت جوانب عدة دينية وحضارية وسياسية ، فهو قد نجح في البداية في التغلب على منافسة أخوته له وسعيهم لنيل الملك وانتزاعه منه كما روي أن قواته تمكنت من استرداد مدينة اربونة ، واستأنف النشاط داخل اوربة في فرنسا وسويسرة واهتم هشام بقرطبة فأكمل ما كان والده قد شرع فيه من بناء جامع قرطبة ، كما شيد قنطرة على نهر قرطبة ، ورمم اسوار

المدينة ، ولعل من أهم الحوادث التي حصلت في عصره واحـــدة كانت تتعلق بـــانتشار المذهـــب المالكي في الأندلس وحلوله محـــل مـــذهب الأوزاعي وغيره ، وكان للأخذ بهذا المذهب نتائج كبيرة على مستقبل الأندلس والمغرب معا ، كما انه يمكن ان يقوم ضمن اطار الســـياسة الدينية لهشام ،والســياسات الدينية للدول التـــي عاصرت هشـــام ، فمعظم الدول التي كان للأندلس بها علاقة ما ، مثـــل الامبـــراطورية الكارلونجية ، والامبراطورية البيزنطية ، واخيرا الخلافة العباسية ، اتجه حكامها نحو تبني مذهب ديني واحد تجتمع عليه الأمـــة ســـواء اكان ذلك قسرا ام تم بـــالرضا ، وممـــا يثير الانتبـــاه أن الســـياسة الدينية لهشام نالت حظا اكبر من النجـــاح ، ممـــا نالتـــه محـــاولات اباطرة بيزنطة بشأن توحيد الكنيستين الشرقية والغـــربية وايجـــاد صيغة مقبولة لدى الجميع حول عبادة الايقونات وغيرها من المسائل ومما نالته ايضا سياسة المأمون العباسي بتبنيه للاعتـــزال واعلانه عن أن القرأن مخلوق ، وسعيه لاجبار الناس للأخذ بهذا الراي .

وحين توفي هشام كان ما يزال في مقتبل الشباب ، كان لتـــوه قـــد جاوز سن الأربعين ، فهـــو كان قـــد ولد ســـنة ١٣٩ هـ ـ ٧٥٦ م، وكانت امه أم ولد تدعى جمال ، ومن ينظر في تاريخ الأسرة الامـــوية في الأندلس يجد ان غالبية افرادها انحدروا من إماء ، وهذه الظاهرة كانت إحدى سمات مجتمـــع الأندلس بشـــكل عام ، فـــالعرب الذين دخلوا الأندلس دخلوها رجالا بـــدون نســـاء ، وحين تـــزوجوا كانت زوجاتهم في غالب الأحيان من شقراوات أوربة تم الحصول عليهن من أسواق النخاسة ولم يؤثـــر هـــذا على مـــلامح واعراق الأندلســـيين فحسب ، بل كانت له أثـــار خـــطيرة على بنية البيت الأندلسي ، وعلى مجتمع الأندلس وعادات افراده في الملبس والمطعم وحتـــى في طـــرق التفكير وتقدير الأمور وتقويمها (١٩) .

الحكم الربضي

قبلما يتوف هشام الرضا أوصى بالحكم مـن بعـده لابنه الثـاني الحكم ، ولم يوص به لابنه الأكبر عبد الملك ، ويعـرف الحـكم عادة بلقب الربضي ، نسبة إلى ربض قرطبة ، حيث واجه ثورة عارمـة فيه سنتحدث عنها ، وقضى عليها وبطش بعناصرها وسـفك دمـاءهم ، ولعل أهم سمات عهد الحكم حمـامات الدم التـي أقيمـت ، وكثـرة الثورات التي وقعت ، وقد قاد بعض هذه الثورات عما الحـكم اللذان كانا قد ثارا على ابيه واجبرا بعد إخفـاقهما على مغـادرة الأندلس إلى المغرب .

فعندما بلغ خبر وفاة هشـام إلى المغـرب عاد اخـواه عبـد الله وسليمان ، إلى الأندلس ، ودخل عبد الله أولا ، حـيث تـوجه نحـو سرقسطة ومن هناك رحل نحو بلاط شارلمان يستنجده ويسـتعديه ، وكان هذا سنة ١٨١ هـ/ ٧٩٧ م، وفي سنة ١٨٢ هـ/٧٩٨ م عاد سليمان (وبعضهم يقول عاد قبل ذلك) وأعلن الثورة ضـد الحـكم ، وخاض ضد قوات الحكم عددا من المعارك هـزم فيهـا ، وكان اخـر المعارك سنة ١٨٤ هـ ـ ٨٠٠ م ، حيث أسر فأتي بـه الى الحـكم فقتله ، وفي السنة التي قتل فيها سـليمان عاد عبـد الله مـن بـلاد شارلمان فأعلن الثورة في منطقة سرقسطة ، فلم يصب النجاح ، ومـع ذلك تابع نشاطه ضد ابن أخيه حتى سـنة ١٨٧ هـ ـ ٨٠٣ م حيث تم عقد تسوية بينه وبين الحكم أوقفت نشاطه وأنهته .

واهم من هذه الثورات ما حدث في كل من طليطلة وربض قرطبة ، وكانت طليطلة عاصمة الأندلس قبل الفتح الاسـلامي ، كمـا انهـا تميزت بحصانة موقعها وسهولة الدفاع عنها ، وجعلها هـذا مـأوى لذوي الأهواء والمطامح ، وأوجد فيها الاستعداد للثورة بشكل متواتر ويروى أن ثورة اعلنت فيها سنة ١٨١ هـ ـ ٧٩٧ م بزعامة رجل عرف بعبيد بن حميد ، وقام الحكم بارسال جيش بقيادة قـائد عرف

بعمروس بن يوسف ، واخفق عمروس في الاستيلاء على طليطلة بالقوة ، وهنا لجأ الى الخديعة ، فاستطاع تدبير اغتيال عبيد وتخلي أهل طليطلة عنه ، واستطاع بعد هذا ان يقنع اهل المدينة بفتح باب المدينة له وادخاله إليها ، وتذكر المصادر الأندلسية انه بنى قصرا عند مدخل طليطلة ، وعند ما قدم الناس لتهنئته أعدم أشرافهم ورجالاتهم ، وبلغ عدد الذين أعدمهم ما بين « ٧٠٠ الى ٥٣٠٠ » وبحمام الدم هذا ضمن طاعة طليطلة واستقرار الحكم الأموي فيها .

وأهم من ثورة طليطلة واكثر شهرة ثورة ربض قرطبة ، والربض هو الضاحية التي تقوم قرب المدينة ، فمدينة قرطبة كانت محدودة المساحة ذلك انها كانت مدينة مسورة ، وبعدما صارت عاصمة الأندلس وفدت إليها عناصر كثيرة من السكان لتستوطن بها ، وعادت الهجرة الداخلية إلى المدن المركزية أمر مألوف ، ويبدو ان غالبية العناصر التي هاجرت الى قرطبة اضطرت إلى السكنى خارج الأسوار ، وكونت مع الأيام ما يشبه ان يكون مدينة جديدة عرفت بربض قرطبة ، وتميزت المدينة الجديدة بعناصرها ومجتمعها عن قرطبة .

وحين نقوم بالبحث في ثورة الربض لا بد لنا من أن نأخذ بعين الاعتبار شخصية الحكم وطبيعة عصره ، فلقد تسلم الحكم مقاليد الأمور وهو في ريعان الشباب ، في السادسة و العشرين من عمره ، وكان أشبه الناس بجده عبد الرحمن بن معاوية باقدامه ، وبأخذه بمبدأ العنف ، ولم يكن مثل أبيه في تقاه وتمسكه بأمور الدين من حيث الباطن والظاهر ، ومن الملاحظ ان مجتمع الأندلس كان قد اخذ في ايام هشام الرضا بالتحول نحو الأخذ بأسباب الدين ، ولقد راينا كم نال هشام من التوفيق والشهرة بسبب تقاه وتمسكه بالاسلام ، ووصف ابن عذاري الحكم بأنه كان «شديد الحزم ، ماضي العزم ، ذا صولة تتقى ، ...وكانت له الف فرس مرتبطة بباب قصره على جانب النهر ، عليها عشرة من العرفاء ، تحت يد كل عريف مائة فرس ، فإذا بلغه عن ثائر في أطرافه امر ، عاجله قبل استحكام امره، فلا يشعر حتى يحاط به ».

واكمل الحكم عملية تطوير اسس الحكم في الأندلس مع ربط الوحدة بشخصية الامير ، كما استخدم العنف للاحتفاظ بسلطانه ، وبدات التحركات ضد الحكم في الربض منذ فترة مبكرة ففي سنة ١٨٩ هـ - ٨٠٥ م كشف مؤامرة استهدفت الاطاحة به ومبايعة احد اقربائه ، وقد قام هذا القريب بإفشاء سر المؤامرة ودل الحكم على المتآمرين ، فألقى القبض عليهم ، وكان عددهم اثنان وسبعون رجلا وأعدمهم جميعا جملة واحدة ،ثم"اتقن سور قرطبة ، وحفر خندقها».

وجلب هذا الاعدام السكينة والهدوء ولكن إلى حين ، فقد لجأت عناصر الثورة الى المقاومة السلبية ، وكان فقهاء قرطبة وربضها على رأس هذه العناصر ذلك انهم «انكروا عليه أشياء رابتهم فأرادوا خلعه »، واحدث هؤلاء الفقهاء «انشاد أشعار الزهد والحض على قيام الليل في الصوامع ،أعني صوامع المساجد ورأوا أن يخلطوا مع ذلك شيئا من التعريض به مثل أن يقولوا : «أيها المسرف المتمادي في طغيانه ، المصر على كبره ،المتهاون بأمر ربه أفق من سكرتك وتنبه من غفلتك ».

ولم يستطع الحكم تحمل هذا التعريض ، ولعله احتار في ايجاد السبيل لايقافه ، فلقد كان من الصعب التدخل في شؤون الصلوات ومنع الناس من التعبد ، ويبدو انه القى القبض على بعض المحرضين مما أدى إلى شحن الأجواء وتوترها .

وفي سنة ٢٠٢ هـ - ٨١٧ م تفجرت الثورة في الربض ضد الحكم وكانت ثورة عارمة ،ولئن كان من الصعب الحديث عن مؤثرات خارجية حرضت عليها ، فمن السهل وصف نتائجها على مناطق خارج الاندلس .وحاول ثوار الربض قطع الجسر الواصل بين الربض وقرطبة ، وبعد جهد طويل مضني استطاعت قوات الحكم دفعهم عن الجسر ثم تمكنت بعض هذه القوات من الالتفاف حول الثوار ، فهاجموا مساكنهم وأهليهم ، وبلغ خبر ذلك الثوار فتفرقت عناصرهم عائدة نحو بيوتها للدفاع عنها ، وهنا أطبقت قوات الحكم

على الربض وطوقته ، وجرى حمام دم هـائل ، فقتـل فيه الاف مـن العشرين الف الذين كانوا يسكنون الربض حسب بعض التقديرات ، وعندما تم اطفاء الثورة ، فرق الحكم ما بقي من عناصر الثورة على اقاليم الأندلس ، كما سـمح للقسـم الأكبـر بمغـادرة الأندلس إلى المغرب حيث اسهموا في تأسيس مدينة فاس وفي المغرب لم يسـتطع جميع هؤلاء العيش طويلا ، فتوجه قسم منهم نحـو الاسـكندرية « فملكوها وذلك في أول ولاية الرشيد ، وسطوا بأهلها سطوة منكرة » ، وقامت الدولة العباسية بتوجيه واحد من كبـار قـادتها إلى مصر ، منعهم من الاستيلاء على مصر وحصرهم في الاسكندرية ، وتفـاوض معهم بعد ذلك على ترك الاسكندرية على أن يزودهم بـالسفن والمؤن والسلاح ويدعهـم يذهبـون حيث شـاءوا ، وغادروا الاسـكندرية ، وتوجهوا نحو جزيرة كريت فاستولوا عليها ، واقاموا فيهـا حـكما عربيا استمر قرابة القـرن والنصـف حيث قـام في سـنة ٣٥٠ هـ ـ ٩٦١١ م الأمبراطور البيزنطي نقفور فوقاس بمهاجمة كريت وانتزاعها من العرب .

لقد تـم الاسـتيلاء على كريت سـنة ٢١٢ هـ ـ ٨٢٧ م ،وكان الحكم قد توفي منذ عدة سـنوات ،اي في سـنة ٢٠٦ هـ ٨٢٢ م، وكانت ثورة أهل الربض اخر ما واجهه من مخـاطر داخلية ، وبعـد وفاته خلفه ابنه عبد الرحمن .

وسلفت الاشارة إلى التجاء عبد الله عم الحكم إلى بلاط شارلمان وإلى إخفاقه ، لكن هذا الحدث لم يكن خاتمة المطاف في العلاقات مع الفرنجة ومع حكام جليقية ، فقد قام الملك الفونسو (ادفـونش) ملك جليقية بحملة ضد لشبونة وأسر جمـاعة من المسـلمين ، وفي سـنة ٨٠٠ م،السنة التي كان شارلمان يستعد فيهـا في رومـا لنيل تـاج الامبراطورية اعلن لويس بن شارلمان عن نيته في انتـزاع بـرشلونة عاصمة كتالونية في شمال اسبانية من المسلمين ، وبالفعل حـوصرت هذه المدينة وقطعت المنافذ إليها لمنع النجدات من الوصـول إليهـا ، وبعد حصار طويل ودفاع مستميت استسلمت برشلونة سنة ٨٠١ م

بعدما بقيت بأيدي العرب تسعين سنة ، وعلى الفور حولت مساجد المدينة إلى كنائس حسب قاعدة حرب الاستفلاب وارسل لويس إلى أبيه ببعض الغنائم والأسرى ، والمثير للانتباه ان المصادر غير العربية تذكر انه في السنة التي استولى فيها الفرنجة على برشلونة استقبل شارلمان سفارة من هارون الرشيد ، الخليفة العباسي الشهير ، وتحدثت المصادر عن تحالف فرنجي - عباسي ضد الحكم الاموي في الأندلس ، قابله تحالف أندلسي بيزنطي ضد العباسيين والفرنجة معا .ومفيد أن نذكر انه مع قيام الحكم الاموي بالأندلس انشأ عبد الرحمن الداخل عدة دور لصناعة السفن ، وما لبثت الاندلس أن امتلكت اسطولا قويا للدفاع عن سواحلها وللنشاط داخل البحر المتوسط ، ففي أيام الحكم هاجم الاسطول الأندلسي جزيرة سردينية سنة ١٩٣ هـ/ ٨٠٨ م ثم هاجم سواحل بروفانس وجزيرة كورسيكة (٢٠) .

عبد الرحمن الثاني

وكان عبد الرحمن الثاني هذا في الثلاثين من عمره ، وعندما تسلم الحكم «الفى الملك قد مهد ووطد ، فخلا بلذاته وانفرد بشهواته ، فكان كداخل الجنة التي جمع فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين .»

لقد قطف عبد الرحمن ثمار نتائج التحول الحضاري الذي بدأ في عهد اسلافه ، فنعم بالاستقرار ونعمت الأندلس بقسط كبير من الأمن والازدهار ، وفي الواقع باشر عبد الرحمن الحكم في الأندلس في ايام ابيه الأخيرة التي قضاها بالمرض، وكان انسانا متحضرا ، ورجلا لينا، طيب الأخلاق مرنا ، كما كان عالي الثقافة ، يجيد قرض الشعر ، ويمكن القول انه قد تم في عصره التحول السياسي الذي بدأ مع عبد الرحمن الأول ، وابتغى القضاء على العصبية القبلية واقامة الوحدة حول شخصية الأمير .

ولم يخل عصر عبد الرحمن الثاني من بعض الثورات ، إنما لم تكن اي من هذه الثورات بدرجة ما حدث ايام ابيه ، ولعل من ابرز دلائل الرفاه والأزدهار في عصره قيام حركة عمرانية كبيرة في الأندلس في قرطبة وغيرها .

وفي زمن عبد الرحمن الثاني استقرت حدود الأندلس، وبنيت اماكن دفاعية على هذه الحدود ، واهتم عبد الرحمن بتحصين شواطيء الأندلس ، لأن عصره كان عصر نشاط شعوب الشمال (الفايكنغ)، كما اهتم بانشاء اسطول خاص بالأندلس

وقام عبد الرحمن باعادة بناء الهيكل الاداري لدولته . فعدد مناصب الوزراء وجعل لكل وزير وظيفته الخاصة ويومه المحدد الذي يقابل به الأمير ، وشعر عبد الرحمن الثاني اذذاك انه من القوة بمكان سمح له بالتدخل في شؤون المغرب .

وفي زمن عبد الرحمن شهدت الأندلس نشاطا فكريا كبيرا خاصة

في مجالات الفلسفة والدين وعلم الكلام ، ولعل من ابـرز الشـواهد على رقي بلاط قرطبة وشهرته ان زرياب ، مغني الأمين ، ترك بغداد إثر مقتل الأمين ، ووفد على امير قـرطبة ، الذي اسـتقبله بحفـاوة بالغة واكرمه خير اكرام

وكان الامبراطور شارلمان قد توفي سـنة ٨١٤ م ، وخلفـه ابنه لويس التقي ، الذي افتقر الى مؤهلات ابيه وحزمه ، لهذا فـان عرى الامبراطورية التي شيدها شارلمان بعد جهود مضنية شرعت بالتفكك، وكان لهذا اثره بالنسبة للضغط الفـرنجي على الأندلس ولنفـاذه وتأثيره

فقد بدأ المسيحيون من سكان الشمال الاسـباني يشـكون مـن تعسف التسلط الفرنجي فثاروا ولقوا التأييد من قرطبة ، وبـالمقابل حاول لويس الانتقام فانتهز قيام ثورة في ماردة فأرسل إلى سكانها يقول : «باسم الرب وباسم منقذنا المسيح ، نحـن لويس بعناية الرب امبراطور .الى القساوسة وإلى شعب مـاردة تحية بـاسم مـولانا المسيح :

بلغتنا محنتكم وما تحملتموه على يد عبد الرحمـن الذي لم ينفـك عن اضطهادكم وعن الطمع في ثرواتكم ، انه يصنع مثلما كان يصـنع معكم ابوه (ابو العاصي) الذي كان يريد ان يرغمكم على دفع مبـالغ غير مستحقة من المال ، والذي جعـل مـن اصـدقائه اعداءا ومـن الطائعين ثوارا ، إنه يريد ان يحـرمكم مـن حـريتكم ويرهقـكم بـالضرائب مـن مختلف الأنواع ويهينكم بجميع الطـرق ، ولكنكم لحسن الحظ قمتم برد ظلم ملوككم وعدوانهم بشجاعة ، ولقد قاومتم ببسالة وحشيته وجشعه ، وهـذا الخبـر وصـل إلينا مـن مختلف المصادر ، ونتيجة لذلك اعتقدنا أن من الواجب كتابة هـذه الرسـالة لمواساتكم ، واحثكم عل مواصلة النضال الذي بـدأتموه مـن اجـل الدفاع عن حريتكم ، وبالنظر إلى أن هذا الملك المتوحش عدونا بقـدر ما هو عدوكم ، فإننا نقترح عليكم التعاون والتنسيق لمحاربة ظلمـه ، ونحن ننوي ان نرسل في الصيف القادم بعون الرب ، جيشـا ليعبـر

جبال البرينيز ونضعه تحت تصرفكم ، وإذا وجه عبد الرحمن جيشه إليكم ، وحاول هذا الجيش الزحف عليكم فإن جيشنا سيقوم بتحركات واسعة لصرفه عنكم ، ونحن نصرح انكم إذا خلعتم طاعته واعلنتم طاعتنا فسوف نرد إليكم حريتكم التي كنتم تتمتعون بها من قبل دون ان تمس ، وإننا لن نفرض عليكم اقل ضريبة ، ولكم ان تختاروا القانون الذي تودون العيش في ظله ، وسنعتبركم اصدقاء يريدون ان يشاركوا في الدفاع عن امبراطوريتنا ، ندعو الرب ان يحفظكم في صحة وعافية »

والملفت للانتباه انه على الرغم من توجه لويس بالخطاب إلى رجال الدين المسيحي في ماردة لم يكن في مقدوره توجيه تهمة للتعصب ومنع الحريات الدينية إلى المسلمين ، علما ان الفرنجة كانت هذه سياستهم والاسبان في حروب الاستقلاب ، وامضى اهل ماردة ثلاث سنوات في الثورة على قرطبة ، وكانوا يأملون في وصول النجدات التي وعدهم بها ملك الفرنجة ، وعندما لم يصل منه اية قوة استسلموا وفتحوا ابوابهم لجيوش قرطبة .

وتردت الأوضاع في امبراطورية لويس التقي وتهيأت الفرص امام المسلمين لاسترداد ما فقدوه ، لكن طاقات الأندلس لم تكن لتسمح وحدها بذلك ، لا سيما إذا ما ذكرنا استمرار العلاقات التحالفية ما بين الفرنجة والعباسيين ، وقد ساعد على تسهيل هذه العلاقات قيام حكم الأغالبة في إفريقية (تونس) منذ ايام الرشيد .

وتحدثت المصادر الفرنجية عن علاقات تجارية ما بين مصر وسورية من جهة وامبراطورية الفرنجة من جهة ثانية ، وانه وصل في سنة ٢١٦ هـ / ٨٣١ م سفارة مكونة من ثلاثة اعضاء ، ارسلهم الخليفة المأمون الى فرنسة ، وقد حمل هؤلاء الرسل هدايا إلى امبراطور الفرنجة كان من بينها اقمشة حريرية وعطور

لقد قام المسلمون أيام عبد الرحمن الثاني بعدة غزوات برية لأراضي مقاطعة بروفانس واستولوا لبعض الوقت عن طريق البحر على مرسيليا،غير أن غزواتهم لم تكن منظمة وشاملة ، بل عابرة ،

وكان من بين اسباب ذلك ما تعرضت إليه الأندلس من مشاكل بعد وفاة عبد الرحمن الثاني

ففي سنة ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م توفي عبد الرحمن الثاني ، وكان عمره اثنتان وستون عاما وقد خلف من البنين الذكور خمسة واربعين ومن الأناث ثلاثا واربعين ، وبعدما توفي خلفه ابنه محمد الأول ، وبوفاته انتهت مرحلة من مراحل تاريخ الأندلس (٢١) .

من الامارة الى الخلافة

عندما توفي عبد الرحمن الثاني خلفه ابنه محمد بن عبد الرحمن ، وكان شابا ، ذلك انه ولد سنة ٢٠٧ هـ / ٨٢٣ م ، وكانت امه ام ولد اسمها بهير ، وعندما كان عبد الرحمن الثاني حيا وعند وفاته اوحت المظاهر الخارجية للدولة بأنها كانت تنعم بالقوة والاستقرار ، لكن الحوادث التي وقعت بعد وفاته برهنت على أن هذه الصورة كانت خداعة ، وان بناء الدولة كان متماسكا لكن بروابط ضعيفة ، وكان فقط ينتظر حدوث بعض الأزمات الحادة لتعصف بهذا البناء ولتأتي عليه .

وحين يفحص المرء تاريخ الأندلس بعد عبد الرحمن الثاني يجد فترة مميزة حكم فيها ثلاثة امراء ، واحدا تلو الآخر ، وكانوا :

أ- محمد الأول : ٨٥٢ - ٨٨٦ م

ب- المنذر : ٨٨٦ - ٨٨٨ م

ج- عبدالله : ٨٨٨ - ٩١٢ م

فبنهاية فترة هؤلاء الأمراء أطلت الأندلس على عهد جديد ، وهو عصر الخلافة والوصول إلى ذروة القوة والمجد والحضارة ، وشهدت الأندلس في عصر هؤلاء الأمراء عددا من الثورات ، ولقد سارت هذه الثورات على المنحى نفسه الذي انتحته الحركات الثورية منذ عهد الحكم الربضي ، اي ان الثورات قامت في المدن ومن قبل سكان المدن ، وقامت هذه الثورات لأسباب اجتماعية وسياسية واقتصادية وغير ذلك ، ذلك ان سكان المدن كانوا غير راضين لسبب او لآخر ، وكان التعبير عن عدم الرضى يتم بالثورة ضد السلطة المركزية ، ومع وضوح أسباب الكثير من الثورات ، ونيلها الكثير من التأييد نراها تخفق في النهاية لأنها عجزت عن تقديم افكار اصيلة يمكن ان تحل محل افكار الوضع القائم والنظام الحاكم ، والعجز في تقديم مثل هذه

الأفكار وانعدام البرامج الواضحة الطويلة وسم الثورات بأنها ما كانت إلا ردات فعل لبعض الأمور استغلت من قبل بعض الشخصيات ذات المطامح الواسعة ، وقبل نهاية القرن التاسع للميلاد ظهر على مسرح احداث الأندلس عدد من الشخصيات الطموحة التي استفادت من عدم الرضا الشعبي ، واستغلته لماربها في سبيل إقامة حكومات مستقلة أو نصف مستقلة عن قرطبة .

ويبدو ان اول اعمال التمرد ضد السلطة المركزية قد بدات في مناطق الثغور ، خاصة مناطق الثغور الجنوبية والجنوبية الشرقية ، وساعد على ذلك وضع الثغور البشري والعسكري ، والجغرافي ، فمن الناحية البشرية كانت مناطق الثغور كثيفة السكان ، كما كان سكانها اخلاطا ، صلاتهم اكثر متانة وتفاعلا مع الجانب الأوربي اكثر من الجانب المسلم من البلاد ،ثم إن هذه المناطق كانت من الناحية العسكرية حصينة ، فيها المنعة والسلاح والجند المدرب ، يضاف إلى هذا أن وضع الثغور العسكري كان يمنح بشكل دائم ، حكام الثغور صلاحيات استقلالية واسعة وكبيرة ، وغالبا ما كان قادة الثغور افراد أسر توارثت السلطة واحدا تلو الآخر ، ويرى بعضهم أن نظام ثغور الأندلس تأثر بشكل واسع بالنظام الاقطاعي الأوربي وهذه مسألة تحتاج إلى بحث مفصل ، وسنفعل شيئا من هذا بعدما نبين ان منطقة الثغور في الأندلس كانت مقسمة إلى ثلاثة اقسام هي الثغر الأعلى ، ويبدأ في الشمال الشرقي بمدينة سرقسطة ، ثم الثغر الأوسط ويشمل منطقة طليطلة ، واخيرا الثغر الأدنى و كانت مدينة ماردة مركزا له ثم حلت محلها مدينة بطليموس

وكانت اشهر اسر الثغور أسرة القسي ، وكانت في الثغر الأعلى وقد برز من هذه الأسرة عدد من الرجال كان أشهرهم موسى بن موسى .

وقد بدأ بتحركه الاستقلالي منذ اواخر ايام عبد الرحمن الثاني ، وبعد وفاة عبد الرحمن اعتبر نفسه مستقلا وبدرجة الملك الثالث للأندلس ، وكانت له علاقات زواج مع الأسر الاسبانية النبيلة ، وكان له أقرباء عدة من الاسبان وخاصة مع افراد الأسرة التي كانت تؤسس مملكة ستعرف فيما بعد باسم مملكة نافار ، وكانت هذه

الأسرة تؤسس مملكتها حول مدينة بامبلونا ، وأعطت علاقات الزواج مع آل القسي هذه الأسرة الشيء الكثير من القوة في وقت كانت فيه في غاية الضعف ، وهنا لا بد لنا من وقفة نتبين فيها أسس هذه العلاقات ، إذ كيف لنا أن نفهم قيام رابط زواج بين أسرتين واحدة مسلمة واخرى نصرانية ، خاصة وان الأسرة المسلمة لم تكن في مركز ضعف ؟ لقد راق لبعضهم ان يفسر هذه العلاقات على اساس النظام الأقطاعي الذي كان سائدا انذاك في أوربة الكارلونجية ، وفي ظل هذا النظام كانت هناك علاقة مصلحة بين سيد وتابع ، والمصلحة هي التي ربطت السيد بالتابع ، وعلى هذا اعتبر أثر الدين ومكانته في درجة أدنى من مصالح الطرفين ومنافعهما المتبادلة ، وعلى هذا الأساس يمكننا القول بأن تغيير الدين في تلك المنطقة لم يكن يشكل مشكلة خطيرة ، وبذلك نستطيع ان نفهم بعض ما اورده المؤرخين عن تحول بعض المسلمين إلى النصرانية .

وهذا الأمر يقودنا الى طرح سؤال اكبر هل سياسة الدولة الأموية في الأندلس كانت سياسة لا تعتمد الدين رابطا اساسيا يشد ازرها ، كما انه ما مدى سعي هذه الدولة إلى نشر الأسلام ؟ ولقد رأينا ان امراء الأندلس قد سعوا نحو جعل شخصية الأمير محور الحياة في الأندلس والرابط الذي ترتبط به الأمة ، وفي الوقت نفسه لم يتخذ امراء بني امية القابا دينية كما لم يقوموا بالسعي الدعائي نحو إحاطة انفسهم بهالة من القدسية كما صنع خلفاء بني العباس ، لذلك كثرت الثورات ضد أمراء قرطبة ، ذلك انه عندما كان يحدث ما يعكر صفو العلاقة القائمة على العقد بين امير قرطبة واحدى الشخصيات حتى كان صاحب هذه الشخصية يسارع إلى نقض العقد واعلان عدم الاعتراف بسيادة امير قرطبة ، ويلاحظ ان عددا من امراء قرطبة ادركو خطورة الحال ، فعملوا من اجل احلال رابطة الاسلام محل الروابط الأخرى ، فأحاطوا انفسهم بعدد كبير من علماء الدين ورجالاته ، واثر هؤلاء العلماء على سياسة الدولة وساعدوا على نشر الاسلام ، ولا شك انهم هيأوا السبل نحو تبدل

الوضع السياسي في الأندلس بالتخلي عن لقب أمير وابداله بلقب إمام وخليفة .

وفي الوقت الذي بدات فيه هـذه السـياسة ، قـام بين صـفوف الأسبان حركة معارضة دينية ، أو بالحري حركة إحياء ديني جديد ، واعتمدت هذه الحـركة على ظهـور عقيدة تعـرف بعقيدة القـديس جيمس كومبـوستلا ، وكانت هـذه العقيدة مسـيحية بـالأساس ، اعتمدت على افكار دينية ايبيرية قديمة ، وكانت هذه تـؤمن بـالتوأم الألهي ، وهكذا اعتبرت هذه العقيدة جيمس اخا توأما للمسيح .

ولقد قدمت هذه العقيدة قوة إيمانية شديدة للاسـبان ، ذلك انهـم اعتقدوا بأن الله ارسل جيمس مع مسـاعدة سـماوية للاسـبان في حروبهم ضد المسلمين ، وأنه حتما سينتصر الاسبان ، وقد اعتبـرت هذه الحركة اساس القوة الروحية لحرب الاستغلاب الاسبانية .

وعجز أمراء قرطبة عن هزيمة موسى بن موسى القسي فـظل سـيد سرقسطة والثغر الأعلى حتى سنة وفـاته في ٢٤٨ هـ / ٨٦٢ م ، وحاول من بعده ثلاثة من أولاده ثم عدد من احفاده الاحتفاظ بأملاكه فلم يوفقوا كثيرا .

وفي الوقـت الذي كانت فيه اسرة آل القسي صـاحبة السـيادة في الثغر الأعلى كانت أسرة الجليقي صـاحبة النفـوذ في الثغـر الأدنى وظلت كذلك حتى استردت حكومة قرطبة قوتها زمن عبـد الرحمـن الثالـث .

ومهما بلغت ثورات اسر الثغور من خطر فإن ذلك لم يعادل جزءا مما نجم عن ثورة عرفت بثورة ابـن حفصـون تفجـرت ايام الأمير محمد الأول واحتاجت الى وقت مديد حتى قضي عليها ، وتمثل هـذه الثورة احدى حركات جماعة المولدين في الأندلس ، ومع اننا سبق لنا وعرفنا هذه الجماعة ، لكن لا بأس من أن نقوم مرة أخرى بالتعرف إليها مع غيرها من جماعات المجتمع الأندلسي ، فعندما قـام الفتـح الاسلامي للأندلس ، اصبح مجتمع هـذا البلد يضـم : (١) العـرب (٢) البربر (٣) السكان الأصليون ، ومع الأيام خاصة بعد تأسيس

الأسرة الأموية انضاف عنصر جديد من الرقيق الذي استخدم في الجيش وكان ابيض واسود ، ولقد حدث تمازج بين العرب والبربر او بين العرب والسكان الأصليين ، وجاء من هذه النماذج فئة جديدة عرفت بالأبناء ، ثم إن بعضا من السكان الأصليين اعتنق الاسلام ، وبعض تبنى الثقافة العربية وبقي بعضهم الأخر على حاله ، ودعي الذين اعتنقوا الاسلام باسم المولدين ، كما دعيت الجماعة الثانية بالمستعربين ، وحينما يستعرض المرء أخبار الأندلس يجد أن كل جماعة من جماعات مجتمع الأندلس قامت بأكثر من حركة ، ولقد قمنا حتى الآن بالتعرف إلى حركات الجماعات العربية مع نشاط البربر وسنسعى للحديث عن حركات بعض الجماعات الأخرى ، وسنكتفي بحركة ابن حفصون كنموذج لأهميتها وشهرتها .وابن حفصون هو عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن شتيم بن ...... ويعود به نسبه إلى احدى أسر اسبانيا المحلية التي صارت اسرة ذمية بعد الفتح الاسلامي ثم قام احد افرادها ولعله جعفر بتبني الاسلام .

وبدأ ابن حفصون حياته بداية غير مرضية ، حيث كان رجل شر وعصابات ، شارك في العديد من اعمال القتل والسلب ، مما جعل السلطات تقوم بملاحقته فاضطر إلى مغادرة الأندلس والهرب إلى المغرب ، وعاش هناك عدة سنوات ثم رجع إلى الأندلس وحل بجبل بيشتر ، وكان هذا سنة ٢٦٧ هـ ــ ٨٨٠ م ، ويوصف جبل بيشتر بالحصانة وتوفر الماء والأشجار والعديد من القلاع الحصينة فيه ، هذا وقد اختلف تحديد مكانه الآن ، وأقام ابن حفصون بهذا الجبل فترة وجيزة حيث ألقي القبض عليه وسيق إلى قرطبة فظل بها حتى سنة ٢٧١ هـ ــ ٨٨٤ م حيث هرب منها وعاد الى بيشتر .

وكان ابن حفصون صاحب شخصية مميزة ، فقد تمتع بصفات الزعامة والقدرة على تجنيد الأنصار واصطناع الرجال وتأمين ولائهم ، وكان يعرف كيف يتحبب إلى اتباعه ، كما استطاع تأمين النظام والأمن في منطقته وبين صفوف انصاره .

ولا نملك الآن معلومات عن مضـامين افـكار ابـن حفصـون وشعاراته ، إنما نعلم أن حركته لاقت تأييدا شـديدا مـن المولدين ، وبهذا فهي تذكرنا بثورات الموالي في المشرق ، ذلك أن الشـبه شـديد بين موالي المشرق ومولدي الأندلس .

ومع الأيام ازدادت ثورة ابن حفصون اتساعا ، وعجزت سلطات قرطبة واخفقت في التصدي لها ، وإذا مـا صـدقنا مـا كتبـه بعض المؤرخين العرب ، نستنتج أن ثورة ابن حفصون كانت حـركة وطنية اسبانية محلية ، مصبوغة بالصبغة الاسلامية ، ابتغت الانتقام مـن العرب ، وارادت التخلص من حكمهم ، ومن هنا نجدها تشبه حركات الموالي المشرقية التي تأثرت بأفكار الشـعوبية ، هـذا وان عمليات الانتقام والثأر تختلف عن عمليات الاصـلاح الاجتمـاعي ، كل ذلك على الرغم مما تلقاه من تأييد ، لكن يحكم عليها بالافلاس والخسارة النهائية .وبالفعل استجاب كثير من الناس لدعوة ابن حفصـون كما أوى إليه زعماء العصابات ، وكان يسلم زعيم كل عصابة حـكم حصن من الحصون أو منطقة من المناطـق التـي دخلت في حـوزته ، وكان يحسن فيه التعامل مع الناس وارضاء جميع الرغبات ، ولقـد ترك زعماء العصابات احرارا واعطاهم صلاحيات جمع المال والنهب كيفما شاؤا ،ولكن بما أن غالبية زعماء العصـابات يتصـفون بمـا يسمى «الشهامة» ، فقد استغل ابن حفصون هـذه الناحية لحمـاية الأخلاق وعدم التعرض للنساء ،وكان صارما للغاية بالنسبة للنسـاء حتى يقال بأن المرأة كانت تسافر ، وهي محملة بالحلي والمتاع ، من حصن إلى اخر فلا يعترضها معترض .

وواتت ابن حفصون العديد مـن الظـروف المشـجعة ، كان اهمهـا الأزمات التي قامت في اواخر حكم محمـد الأول ثـم في عهـد المنذر القصير ، فقد حكم المنذر قرابة العامين فقط ، وكان التبـدل السريع في الأمراء وعدم استقرار السلطة داخل قرطبة من الأمور المشـجعة والمساعدة لابن حفصون .

وكان ابن حفصون عندما يشعر بقوة وتمـاسك سـلطة قـرطبة ،

ينكمش ويتخذ موقف الدفاع ، وحينما كان يشعر بضعف هذه السلطة كان يمارس سياسة الهجوم .

و في عهد الأمير عبدالله ارتفع شأن ابن حفصون وازدادت قوته ، في حين ازداد فيه حال الأمير عبدالله ضعفا وتدهورا ، والذي ساعد على بقاء الحكم الأموي وسانده تحرك العرب الذين قامت بين صفوفهم ردات فعل شديدة ضد حركة المولدين الموجهة ضدهم ، فاتحد هؤلاء العرب ، وتجمعت قواهم حول الأمير ، فمتنوا سلطة قرطبة وساعدوها على البقاء ثم على التحرك نحو القضاء على ثورة ابن حفصون .

لقد حقق ابن حفصون نجاحات كبيرة ووصل إلى حالة كان بإمكانه أن يقضي بها على امارة قرطبة ويقيم حكما جديدا فيها ، لكنه لم يقدم على ذلك ، ولعل السبب في ذلك يعود إلى انه لم يملك من المطامح ما يدفعه لتسلم إمارة الأندلس ، ثم إن تركيب قواته واعوانه وعدم وضوح خطط وعقائد ثورته ، وعجزها عن تقديم الحلول الدائمة ، وأخيرا لكن ليس اخرا انعدام النظام العقائدي الهادف ، كان كله من المهالك التي أودت بثورته ، ذلك انه لم يكتب لأي ثورة في التاريخ النجاح حين اعتمدت على رجال العصابات ذوي الأهواء الشخصية ، وتنجح الثورات عندما تعتمد على رجال مؤمنين بها ، ملتزمين بخطط واضحة لها ، وعاملين على تطبيق مبادىء معينة لها كما كان الحال بالنسبة للثورة العباسية

اما في حال ابن حفصون فقد ظل زعماء حركته من رجال العصابات ملتفين حوله ما دام بإمكانه تحقيق الربح والغنائم لهم ، ثم ما دام يتمتع بالقوة وخصمه ضعيف متفكك ، لكن مع اول بادرة ضعف وانقسام ، وضرب لمصالحهم ، او اضرار بها كان العقد سينفرط ، وهذا ما حصل

فلقد بلغت ثورة ابن حفصون الذروة زمن الأمير عبدالله بن محمد ، وقام هذا الأمير بمراسلة ابن حفصون يطلب منه أن يقدم له الطاعة ، فرفض ، فراسله مرة اخرى طالبا منه تقديم الطاعة له شرط ان

يسمح له الأمير بأن يحتفظ بجميع الأراضي والأماكن التي كانت بحوزته ، ومرة أخرى رفض ابن حفصون وركب رأسه وتمادى في غروره وشططه ، واخذ يعمل غاراته ويوجهها ضد قرطبة ، وجعل هذا الأمير عبدالله اسير قصره ومدينته ، وعندها لم يحاول ابن حفصون قطف ثمار ما حققه .

وفي سنة ٢٧٨ هـ /٨٩٠ م يئس الأمير عبدالله من الحال التي كان فيها ، وقرر ان يقوم بعمل انتحاري ضد ابن حفصون فجمع جيشا وقاده نحو منطقة عرفت ببلاي ، وهناك التحمت قواته بقوات ابن حفصون التي ركبها الغرور وحل بين صفوفها التناقض ، وحقق الأمير عبدالله في هذه الملحمة نصرا ساحقا ، كان له أثره المحول على حركة ابن حفصون ومستقبل تاريخ الأندلس ، فقد اخذت الحياة تدب من جديد في جسم الادارة المركزية في قرطبة ، وتحسن من جديد وضع امير قرطبة ، واخذ عقد ابن حفصون بالانفراط ، فقد بدأ الكثير من اتباعه بالتخلي عنه ، حيث قامت سلطات قرطبة بشراء بعضهم واستدراجهم ، وعندما بدأ الضعف يحل بابن حفصون وضاقت به الأحوال ، تطلع نحو الحصول على مساعدات خارجية ، وكان امامه افريقية وامراء الثغور واوربة ، فاتصل بالاغالبة ومناهم بأن يدعو للخليفة العباسي ، لكنه لقي الأهمال وعدم الاستجابة وحاول الاتفاق مع ال القسي والتحالف معهم فلم يوفق ، كل هذا في الوقت الذي اخذت فيه أعداد كبيرة من المولدين بالتخلي عنه ، ونجحت قرطبة في تثبيط الثوار ، وضرب فئاتهم بعضها ببعضهم الآخر ، ووصل الضيق بابن حفصون إلى حال دفعه للعمل على الاستعانة بالمستعربين مع نصارى الأندلس ، فقام في سنة ٢٨٦ هـ /٨٩٩ م بإعلان نصرانيته وردته عن الاسلام ، ومع أن ذلك اكسبه عطف بعض المستعربين وتأييدهم ، لكن جعله يخسر جميع المولدين وأعطي الذريعة الكاملة لسلطات قرطبة لاعلان الجهاد ضده ، واستمر حكام قرطبة في ارسال الحملات ضده ومضايقته عسكريا ، وفي سنة ٢٩٢ هـ / ٩٠٤ م حاول ابن حفصون ان يهاجم قرطبة فهزم ومزقت قواته ، واستمرت

الحملات ضده ، فانتزعت اراضيه قطعة تلو الأخرى ، وضعف شأنه وتضاءل خطره .

وفي سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م توفي الأمير عبدالله فخلفه حفيده عبد الرحمن الثالث الذي كان شابا في الحادية والعشرين او الثالثة والعشرين ، فاستطاع عبد الرحمن هذا أن يصفي حركة ابن حفصون ، وان يعيد الحياة والقوة والوحدة إلى جسم الأندلس ، وان يقلب الامارة الى خلافة .

وفي سنة ٣٠٥ هـ /٩١٧ م توفي ابن حفصون ، واحتفظ أولاده ببقايا ملكه الصغير مدة عشر سنوات حيث استطاع عبد الرحمن الثالث ، الذي سيعرف بالناصر ، ان يصفي هذه الحركة نهائيا (٢٢) .

ولئن كانت الصورة في الأندلس قبل وفاة الأمير عبدالله مضطربة وبدت تسير لغير صالح الحكم الاموي هناك ، فإن الأوضاع في الشمال الأفريقي وحوض البحر المتوسط وفرنسا وسويسرا وايطاليا قد شهدت تغييرات جمة سيكون لها جميعا انعكاساتها على عصر عبد الرحمن الثالث والعصور التي تلته ، فقد كان العرب قد افتتحوا منذ أمد طويل كل من جزيرتي كريت وصقلية – الأمر الذي سنقف عنده في فصل مستقل – وكانت دولة الأغالبة قد زالت من افريقية وحل محلها الخلافة الفاطمية بمشاريعها التوسعية التي لم توفر الأندلس من حساباتها ، وكانت دولة الادارسة في فاس قد بدات بالتلاشي ، ولنقتصر حديثنا أولا عن نشاطات العرب في فرنسا وسويسرا ، وذلك قبل العودة إلى سياق الحديث عن عصر عبد الرحمن الثالث واعلان الخلافة في قرطبة .

توفي الامبراطور لويس التقي سنة ٨٤٠ م ،فوقع صراع مرير بين أولاده من بعده وحروب طويلة كان لها اثرها المأساوي على أوربا ، وزاد من اضطراب أحوال اوربا الغربية تعرض سواحلها وبعض مناطقها الداخلية لغزوات الفايكنغ المدمرة ، والذي يعنينا هنا هو استيلاء العرب على مقاطعة بروفانس الفرنسية ، وتوسعهم حتى ما بعد جنيف في سويسرا والى حدود المانيا ايضا ، وسأدع الحديث

عن النشاطات العربية في جنوبي إيطاليا إلى حين البحث في افتتاح صقلية وما اعقب ذلك من احداث .

دخل العرب إلى مقاطعة بروفانس عن طريق البحر، واغاروا على بعض المواقع فيها ، وخاصة على مرسيليا مع نهاية النصف الأول من القرن التاسع للميلاد ، لكن بعد هذا التاريخ شرعوا في تنفيذ خطة استهدفت الاستيلاء على المنطقة بشكل كامل .

والمثير للانتباه أننا لا نملك معلومات كافية في مصادرنا العربية بشأن هذا الموضوع وعلينا الاعتماد على الروايات الأوربية ، ويبدو أن العرب الذين اجتاحوا بروفانس لم يتلقوا توجيها حكوميا او مساندة او تغطية سلطوية ، ويفسر هذا طبيعة الأحداث والنتائج .
في حوالي سنة ٨٨٩ م كانت بروفانس ودوفيني تخضعان لزعيم اسمه بوزون Boson ،ولم يكن من اسرة شارلمان ، ومع هذا حصل على لقب ملك ارل ، في ايام هذا الملك قام عشرون من الملاحين العرب على ظهر سفينة بالانطلاق من الأندلس ، وقد اضطرتهم عاصفة شديدة الى الالتجاء الى خليج غريماد Grimad ،وصعدوا الى البر دون أن يعترضهم احد ، وكانت هناك غابة كثيفة قرب الخليج ، والى الشمال منه امتدت سلسلة من الجبال الصالحة لبناء القلاع ، ويبدو أن هذا كان في كونتية نيس ، وقام على قرية هناك ثم اسسوا قاعدة لهم واخذوا باستدعاء الأعوان من الأندلس وإفريقية ، وكثر عدد العرب ، وما لبثوا ان تحكموا بأهم ممرات وحصون بروفانس ، وفي العقد الثاني من القرن العاشر شرعوا يشنون الغارات على سهول بيمونت ومنتفرات Montferrat، وعندما سنقرأ اخبار الحروب الصليبية سنجد ان بارونات مونتفرات كان لهم الدور المبرز فيها .

لقد غدت بروفانس كلها خاضعة للعرب ، ومن ثم غدت سويسرا مسرحا لنشاطاتهم ، وكان من بين المدن الفرنسية التي استولى عليها العرب مدينة غرينوبل Grenoble وهذه المدينة يكتب لها

اقامة مؤسسة جامعية مبكرة فيها سيكون للعرب القادمين من الأندلس دورا عظيما فيها

واخذ الفرنسيون وسواهم يجمعون قواهم لاخراج العرب من سويسرا وبروفانس ، وحالفهم الحظ بعد وفاة عبد الرحمن الناصر خليفة قرطبة ، ففي سنة ٩٦٥ م تم اجلاء العرب من غرينوبل ، وكانوا حوالي سنة ٩٦٠ م قد اخرجوا من مضيق سان برنارد الجبلي ، وحدث في سنة ٩٧٢ م ان اسر العرب القديس مايول رئيس رهبان ديركلوني الشهير ، فاثار ذلك مشاعر المسيحيين وتجمعت قواهم واخذت تسعى لاجلاء العرب ، ولم تأت نهاية العقد الأول من القرن الحادي عشر حتى كان العرب قد فقدوا ممتلكاتهم الفرنسية وسواها ، ومع هذا لم تتوقف البحرية الأندلسية وغيرها عن الاغارة على شواطيء فرنسا حتى سنة ١٠٤٧ م ، اي حتى قبيل جيل واحد من مؤتمر كلير مونت ودعوة البابا اوربان الثاني للحروب الصليبية (٢٣) .

عبد الرحمن الثالث واعلان الخلافة

عندما وصل عبد الرحمن الثالث إلى العرش كانت «الفتنة قد طبقت أفاق الأندلس والخلاف فاش في كل ناحية منها ، فاستقبل الملك بسعد لم يقابل به احدا ممن خالفه أو خرج عليه إلا غلبه واستولى على ما في يديه ، فافتتح الأندلس مدينة مدينة ، وقتل حماتها ، واستذل رجالها ، وهدم معاقلها ... حتى دانت له البلاد وانقاد له العباد ».

لقد كان على عبد الرحمن أن يواجه المخاطر الداخلية للأندلس وان يتصدى للمشاكل الخارجية التي جاء أشدها من إفريقية حيث قامت الخلافة الفاطمية ، وجاء ثانيها من مملكة ليون ،ومع ذلك فقد تمكن عبد الرحمن بقوة شخصيته ، ثم بطول المدة التي حكم فيها ليس فقط من القضاء على الثورات والفتن الداخلية ، وتوحيد الأندلس وابعاد المخاطر الخارجية ، بل أوصل الأندلس الى ذروة المجد والرفاه والحضارة والقوة .

وعبد الرحمن هو ابن محمد بن عبدالله ، كان أبوه محمد قد قتله اخوه مطرف ، فقتله أبوه عبدالله به.وقام الأمير عبد الله بضم حفيده اليه ، واخذ يعده منذ صباه لخلافته والحكم من بعده ، فكان يجلسه في مجلسه وكان يسكن قصره ، وبعد وفاة جده بويع بالامارة وكان هدفه الأول بعد تسلمه لمنصبه اعادة إقامة الوحدة الداخلية للأندلس ، وفي سبيل ذلك قاد في السنتين الأول من حكمه عددا من الحملات كما وجه العديد وكانت هذه الحملات جيدة التنظيم والخطط ، وقد وجه بعضها ضد بعض مؤيدي ابن حفصون فأوقعت الهزيمة بهم ، كما قام في الوقت نفسه بمصالحة من أمكن مصالحته من هؤلاء المؤيدين ، ووضع عبد الرحمن القلاع والحصون التي استولى عليها في ايدي أمينة مخلصة له .

واستطاع سنة ٣٠١ هـ / ٩١٣ م استعادة مدينة اشبيلية ووضعها مرة أخرى تحت الحكم المركزي لقرطبة ، وضعف مركز ابن حفصون ضعفا شديدا ، وبعد وفاته سنة ٣٠٥ هـ / ٩١٧ م تنازع أولاده من بعده فتمكن عبد الرحمن من انتزاع أملاكهم قطعة تلو الأخرى حتى تم له القضاء عليهم نهائيا سنة ٩٢٨ م.

وخلال هذا كله أولى عبد الرحمن مناطق الثغور اهتماما شديدا وسعى نحو إعادة سيطرة قرطبة عليها ، وقام عبد الرحمن سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م باعلان نفسه خليفة ، وشجعه على القيام بهذا العمل ضعف الخلافة العباسية بالمشرق ، ونجاح الاسماعيلية في المغرب وإعلانهم عن اقامة الخلافة الفاطمية ، وبعد قرابة عامين على اتخاذه هذه الخطوة الحاسمة استطاع إعادة السيطرة على الثغر الأدنى ، ثم توجه بهمته نحو طليطلة فحاصرها عامين واستولى عليها سنة ٣٢٠ هـ /٩٣٢ م ، بعد هذا توجه بأنظاره نحو الثغر الأعلى فتمكن من استعادته .

ويلاحظ المرء أن عبد الرحمن الثالث ، الذي لقب نفسه بالناصر بعد عامين من اتخاذه لقب خليفة ، استطاع خلال العشرين سنة الأولى من حكمه اعادة توحيد الأندلس ، وقد استهلك هذا جل نشاطه ووقته ، ومع ذلك نجده خلال هذا الوقت لا يغفل الحرب ضد النصارى على الأخص في مملكتي نافار وليون.

وكانت هذه الممالك قد انتابها الضعف بعد تمزق الامبراطورية الكارلونجيه (امبراطورية شارلمان) ، وفي البداية استطاع عبد الرحمن أن يوقف نشاط النصارى ضد الأندلس ، ونحن حين نتحدث عن مملكة ليون ....نقصد بذلك المملكة التي شملت منطقة أشتورش....... التي وقعت في أقصى الشمال الغربي لشبه الجزيرة الايبيرية ، وكان ملك ليون منذ سنة ٩٣٢ م حتى سنة ٩٥٠ م يعرف برذمير .... ،وتصدى رذمير هذا لحملات عبد الرحمن ضد مملكته ويذكر أنه انتصر عليه انتصارا ساحقا سنة ٣٢٧ هـ / ٩٣٩ م مع أن جيش عبد الرحمن ضم أنذاك حوالي المئة

الف مقاتل ، وعلى الرغم من هـذا فإنه لم ينجم عن هـزيمة عبد الرحمن نتائج كبيرة ، فقد انشغل رذمير بمشاكل داخلية مما مكن عبد الرحمن من استعادة قوته ونشاطه ، وبعد وفاة رذمير سنة ٣٣٩ / ٩٥٠ م أضعفت الخلافات الداخلية الدول النصرانية ، فازداد نفوذ عبد الرحمن عليها ، وتحول هذا النفوذ فيما بعد إلى اعتراف بالولاء وقبول بالتحكم ودفع الجزية •

ويمكن القول إنه منذ منتصف القرن العاشر للميلاد وحتى نهايته سيطر المسلمون لأول مرة تماما على جميع أجزاء شبه الجزيرة ، وعلى الرغم من ذلك لم يستطع المسلمون الاحتفاظ بما سيطروا عليه ، فقد جاءت سيطرتهم على أطراف الجزيرة قهرا وليس فتحا ، ذلك أن المسلمين لم يستوطنوا أراضي الممالك النصرانية في الأطراف ، وهكذا بقي حكام هذه الممالك تابعين لقرطبة القوية مستعدين للعمل ضدها عندما تسنح الفرصة ، ولم يستقر العرب في الأراضي الشمالية لشبه الجزيرة الايبيرية ، لعدم وجود الرغبة في سكنى المناطق القريبة من فرنسا ، لصعوبة العيش في هذه الأراضي ، ولعدم وجود المكاسب ولطبيعة المناخ الصعبة ، والعرب كما هو ملاحظ احبوا سكنى المدن الكبيرة ذات المناخ المتوسطي ، واستقر بعض البربر في هذه المناطق ، لكن صعوبة الحياة الجبلية ووجود الخطر الدائم دفعاهم الى الانسحاب نحو داخل شبه الجزيرة •

ولم يقتصر نشاط عبد الرحمن على الاندلس فقط بل اخذ بالتوسع في شمال أفريقية ، فشجع على الثورة ضد الخلافة الفاطمية ، ونجح بعد بذله لبعض الجهد في السيطرة على أجزاء من المغرب الأقصى ، وفي زمن المعز لدين الله الفاطمي (٣٤١ ـ ٣٦٥ هـ / ٩٥٣ ـ ٩٧٥ م) استطاع قائده جوهر الصقلبي استرداد معظم أملاك قرطبة ما عدا طنجة وسبته ، وبقي الحال هكذا حتى وفاة عبد الرحمن الثالث ذلك أن الفاطميين انصرفوا نحو مصر وشغلوا بمشاغل الشام والمشرق فضعف نفوذهم

في المغرب ، ومع هذا كان للصراع الفاطمي - الأندلسي على المغرب أثاره الحضارية والثقافية مثل السياسية وأكثر ، فازدياد اهمية المغرب الأقصى كان له بعض انعكاساته على الصحراء الكبرى وقبائلها ، وهذا ما سنرصده في قيام حركة المرابطين ، ودور الأندلسيين في ادارة المرابطين ثم دور المرابطين في الأندلس وتحويلهم هذه البلاد الى ولاية مغربية ٠

ومن الواضح ان اتخاذ عبد الرحمن الثالث للقب الخلافة له علاقة واضحة بظهور الفاطميين ، وتسمية نفسه بلقب الناصر لدين الله له معاني الرد على الفاطميين ، ولقد ساعد هذا ثوار إفريقية وأعطاهم الفرص والمجال للتحرك ٠

وبصرف النظر عن كل هذا فإن نجاحات عبد الرحمن وتوسعه الامبراطوري مع اتخاذه لقب الخلافة قد فرض عليه اوضاعا جديدة وقاده نحو الأبهة والأخذ بمظاهرها من بناء ورسوم ، فالخليفة غير الأمير ، صار عليه الاحتجاب والتعالي واتخاذ الحرس والسير بالمواكب الفخمة ، وبالوقت نفسه ايكال الأمور الى رجال الادارة وعدم مباشرة الأعمال بنفسه ، وهذا ازدادت قوة الادارة ، مع قوة الجيش المحترف ، ذلك أن روح الجهاد كانت قد خبت منذ زمن وكادت تختفي وحل محل المتطوعة جند من المرتزقة والعبيد ، ومع ازدياد قوة الادارة والجند تهيأت الفرص لاضعاف قوة الخليفة وانتقاص نفوذه ثم حبسه في قصره والتحكم به ، ولما جاء اتخاذ لقب الخلافة متأخرا وحيث أنه لم يقرن بدعاية دينية طويلة مثلما حدث بالمشرق مع العباسيين ، فإنه حينما مرت خلافة الأندلس بما مرت به خلافة بني العباس من التحكم والحجر على الخلفاء نجد انه سهل القضاء على الخلافة الأموية ، وصعبت إزالة الخلافة العباسية لأنها نالت صفة القدسية والشرعية المرتبطة بالسماء ٠

واستطاع الناصر خلال النصف قرن الذي قضاه في الحكم ان يوطد اركان الادارة في قرطبة وان يقطف ثمار ما صنعه من امن واستقرار في الاندلس ، ولقد عاشت الأندلس ذروة مجدها ايامه ثم

أيام ابنه الحكم التي كانت امتدادا لأيام الناصر ونتيجة مباشرة لما تحقق فيها ٠

ووقع الناصر سنة ٣٤٩ / ٩٦٠ م مريضا وظل المرض يلازمه حتى توفي سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م ، وعقب وفاته خلفه ابنه الحكم الثاني٠(٢٤) .

الحكم الثاني

لقد جاءت خلافة الحكم الثاني ، الذي عرف بالمستنصر بالله ، استمرارا لخلافة ابيه ونتيجة لها ، فقد استمرت الأحداث تسير على المناحي نفسها ، ففيما يتعلق بالثغور تابعت قرطبة السيطرة على شؤونها وشؤون ممالك ليون ونافار كاستلا ، وحالت دون هذه الممالك ودون التحرك نحو الاستقلال ٠

واهتم الحكم بأسطول بلاده خاصة من أجل حمايتها من غزوات شعوب الشمال (الفايكنغ) ، كما تابعت سلطات قرطبة التدخل في شؤون المغرب والصراعات من أجل السيطرة فيه بين قوى كانت تابعة للأدارسة وأخرى للخلافة الفاطمية وسواها ٠

ولعل أهم الانجازات التي تمت ايام الحكم المستنصر تلك التي تعلقت بالجوانب الثقافية ثم الاقتصادية والعمرانية ، فلقد كان الحكم مغرما بالعلم ، شغوفا بجمع الكتب ، له عناية فائقة بالعلماء ونشر الثقافة بين عامة الناس وخاصتهم ، استطاع ان يكون مكتبة ضمت بين خزائنها من الكتب ما لم تضمه مكتبة اخرى سواء اكان ذلك من ناحية الكم او النوع ، وجاء الى بلاطه عدد من علماء المشارقة كما نبغ في هذا البلاط عدد كبير من العلماء ، وكان من ابرز علماء المشارقة القالي صاحب الأمالي ، ويمكن القول بأن الفكر الأندلسي شبه المستقل والمتميز عن الفكر المشرقي بدا يترعرع زمن الحكم ، ونمت الحركة العمرانية زمن الحكم ، ولعل اهم المنجزات العمرانية التي تمت في عصره ، تلك التي اقيمت في قرطبة ، وفي مسجدها بالذات ٠

وكانت ابرز الشخصيات السياسية والعسكرية ايام الحكم وزيره وحاجبه جعفر بن عثمان المصحفي ثم قائده غالب بن عبد الرحمن

وفي زمن الحكم كان ابتداء ظهور محمد بن أبي عامر ثم ارتفاع شأنه .

كما ازدادت أيام الحكم اهمية رجال الدين ، وعظم تأثيرهم على مجرى الأحداث ، وتوفي الحكم سنة ٣٦٦ هـ/ ٩٧٦ م ، وعندما مات كانت الخلافة الأموية في ذروة قوتها ، لكن أحداثا كثيرة ابتدأت ساعة موته وتعلقت بمسألة الحكم من بعده ، كان لها تأثيرا مفاجئا ومحولا على مستقبل هذه الأسرة وبالتالي مستقبل الأندلس السياسي (٢٥) .

هشام الثاني والاستبداد العامري

وجاءت وفاة الحكم بعد مرض الم به واقعده مدة من الزمن عن مباشرة الأعمال بنفسه ، وقد ناب عنه اثناء مرضه وكفاه مؤونة الحكم وزيره المصحفي ولم يكن المصحفي هذا يرغب في الاحتفاظ بمكانته فقط بل كان يسعى لرفعها ، وعلى هذا الأساس بنى خططه في حال وفاة الحكم •

ولم يكن المصحفي صاحب المطامح الوحيد بين رجالات السلطة ، فقد كانت هناك قوى عدة منها غلمان القصر وخصيانه وكان هؤلاء صقالبة الأصل ، وكان يؤيدهم العديد من ابناء جنسهم الذين كانوا يعملون في الجيش ويتسلمون قياداته ، وكان ابرز صقالبة القصر يعرفان بفائق وجؤذر ، واخفى جؤذر وفائق خبر وفاة الحكم عند حدوثه ، وارادا تولية الخلافة المغيرة بن عبد الرحمن الناصر ، اخي الحكم ، حيث كان شابا يستطيع ان يباشر الأمور ، في حين كان هشام بن الحكم ولي عهده صبيا في الحادية عشرة من عمره ، وخطط جؤذر وفائق لقتل المصحفي واعلان خلافة المغيرة بشرط ان يكون هشام بن الحكم ولي عهده •

وعندما علم المصحفي بأخبار هذه الخطة تحرك بسرعة ، يعاونه شاب كان في الثامنة والثلاثين من عمره ، وكان صاحب مواهب ومطامح واسعة ، وعرف هذا الشاب بابن ابي عامر ، وارسل المصحفي ابن ابي عامر مع قوة من الجند الى دار المغيرة بن عبد الرحمن فقتله خنقا ، وهنا سهل تنصيب هشام بن الحكم خليفة، وبقي المصحفي سيد الاندلس ، ولكن إلى حين ، واستطاع المصحفي في البداية الحد من نفوذ صقالبة القصر واثرهم ، وساعده في ذلك ابن ابي عامر ، وقد تم التخلص من الصقالبة بالبطش وبالتامر معا، ولما تم لابن ابي عامر تدبيره في الصقالبة جعل يتوصل

الى تقلد جيش المملكة » فحقق ما صبا له ، واخذ يرقــى في مصــاعد السلطة والشهرة حتى وصل الغاية وتفرد بســيادة الأندلس٧ ، ولعله من المفيد الاكتفاء هنا بهذا الموجز عن ابن ابي عامر لانني ســأعود للحديث عنه بشيء من التفصيل في مكان آخر.

لم تكلل محاولات دمج العناصر البشرية في الأندلس لانتاج مجتمع عربي واحد ، وعلى هذا ما أن الغيت الخلافة الأموية حتى تمــزقت البلاد شر ممزق ، وظهــر فيهــا أعداد لاتحصى وأنواع لاتعــد مــن المغامرين والطامحين لنيل السلطة ، وانغرست في النفــوس طبــائع الفرقة وعادات التمزق ، ونادرا ما أصــاخ الأندلســيون الى نداءات الوحدة وهجر الفتنة ، وباتت ساحات الأندلس لاتعرف غير الحروب والصراعات وأعمال التامر ، وأفاد من هذا الحال حــكام اســبانيا النصرانية ، وزادوا من نشاط حــركة الاســتغلاب وانتــزعوا مــن المسلمين المدينة تلو الأخرى وابتذوهم بدون رحمة ، ولا شك أن هذا كله انعكس على الأوضاع الاقتصادية العــامة والخــاصة لمســلمي الأندلس ، واشتملت اسبانيا النصرانية في الشمال على ثلاث ممالك هي : ليون، ونافار ، واراغون ، ومنذ مــطلع القــرن الحــادي عشر للميلاد تقدمت نافار بين هــذه الممــالك ، ولايعنينا هنا الحــديث عن ملوك نافار وسواهم ولا عن نشــاطاتهم ، بــل المهــم الاشــارة الى أن الفــونسو الســادس (الفنش) ابـــن فـــرناندو الأول (٤٦٥ ـ ٥٠٢ هـ / ١٠٧٢ ـ ١١٠٩ م)، استدعي لتســلم الحــكم سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م بعد وفاة أخيه شانجة ، وكان آنذاك ملتجئا الى مدينة طليطلة ، حيث أمضى فيها تسعة أشهر ، وســتكون هــذه المدينة الحصينة أولى ضحاياه في معارك حــرب الاســتغلاب التــي خاضها .

وحينما تمزقت الأندلس قام في كل مدينة من مدنها متغلب» وذهب اهل الأندلس من الانشــقاق والانشــعاب والافتــراق الى حيث لم يذهب كثيرين من اهل الاقطار ، مع امتيازها بالمحل القريب والخطة المجاورة لعباد الصــليب ، ليس لاحــدهم في الخــلافة ارث ، ولا في

الامارة سبب ، ولا في الفروسية نسب ، ولا في شروط الامامة مكتسب ، اقتطعوا الاقطار ، واقتسموا المدائن الكبار ، وجبوا العمالات والامصار ، وجندوا الجنود ، وقدموا القضاة ، وانتحلوا الالقاب ، وكتبت عنهم الكتاب الاعلام ، وانشدهم الشعراء ، ودونت باسمائهم الدواوين وشهدت بوجوب حقهم الشهود ، ووقفت بابوابهم العلماء ، وتوسلت اليهم الفضلاء ، وهم مابين مجبوب ، وبربري مجلوب ، ومجند غير محبوب ، وغفل ليس في السراة بمحسوب ، مامنهم من يرضى ان يسمى ثائرا ، ولالحزب الحق مغايرا ، وقصارى احدهم ان يقول : اقيم على ما بيدي حتى يتعين من يستحق الخروج به إليه ، ولو جاءه عمر بن عبد العزيز لم يقبل عليه ، ولا لقي خيرا لديه ، ولكنهم استوفوا في ذلك آجالا وأعمارا ، وخلفوا آثارا وإن كانوا لم يبالوا اغترارا من معتمد ومعتضد ومرتضى وموفق ومستكف ومستظهر ومستعين ومنصور وناصر ومتوكل----------» (٢٦) .

وكان اهم دول الطوائف :

مملكة سرقسطة ـ الثغر الأعلى : بنوهود

إمارة قرطبة ـ وسط الأندلس : بنوجهور

مملكة طليطلة ـ الثغر الأوسط : بنوذي النون

مملكة بطليوس ـ الثغر الأدنى : بنو الأفطس

مملكة إشبيلية ـ غربي الأندلس : بنو عباد

مملكة بلنسية ـ شرقي الأندلس : تداولها اكثر من حاكم

مملكة غرناطة ـ جنوبي الأندلس : بنوزيري

وقد تدهورت قرطبة التي كانت حاضرة الأندلس ودار الولاية والخلافة ، وتقدمت عليها وعلى سواها اشبيلية ، وحكمت اشبيلية من قبل أسرة بني عباد التي ادعت الانتساب الى ملوك الحيرة ، وتأسست الأسرة من قبل القاضي ابي الوليد اسماعيل بن محمد بن عباد ، الذي شهر بحزمه وقوته ، وقد توفي سنة ٤٣٣ هـ / ١٠٤٢ م وورثه ابنه أبو عمرو عباد الذي تلقب بالمعتضد ، وكان المعتضد على

درجة كبيرة من الدهاء ، سعى الى توسيع ملكه بشتى الوسائل ، وصرف في هذا السبيل جهودا عسكرية وسياسية ومالية كبيرة ، لكن في سبيل الصالح الفردي المحض ، فهو استخدم طاقاته ضد اهل الأندلس ، لكنه تذلل لفرناندو الأول وذهب بنفسه الى معسكره ليترضاه ويطلب منه الصلح والمهادنة مقابل مبلغ كبير من المال ، وأمضى المعتضد في الملك ثمان وعشرين سنة حيث توفي سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٩ م وخلفه ابنه ابو القاسم محمد الذي عرف بالمعتمد على الله ، وكان شاعرا مجيدا» من الملوك الفضلاء ، والشجعان العقلاء »« اجتمع له من الشعراء واهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك الاندلس .... ولي امر اشبيلية بعد ابيه وله سبع وثلاثون سنة ، واتفقت له المحنة الكبرى بخلعه واخراجه عن ملكه في شهر رجب الكائن في سنة ٤٨٤ »(٢٧) .

واتسم جل ملوك دول الطوائف بالبذخ وتبديد الأموال والرعونة والصغار مع انعدام الشعور بالمسؤولية ، وقد تحدث ابن بسام في الذخيرة طويلا عن بعض هؤلاء الملوك ، وكان منهم المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة ، فقد اراد المأمون يوما أن يبني قاعة خاصة به ، ارادها ان تكون على درجة لانظير لها من الجمال والأبهة ، ووقع اختياره على بناء ماهر فيه دل وصلف لتنفيذ هذه المهمة ، واستطاع هذا البناء ان يذل المأمون اكثر من مرة ، وبينما المأمون مهتم ببناء القاعة « اتفق اثناء ذلك أن ضربت خيل الطاغية فرذلند (فرناندو الأول) على بلاد المظفر بن الأفطس ، وطئها وطأة محت رسومها ، واستباحت حريمها ، واجتاحت حديثها وقديمها .... وايأست من البقاء ، وآذنت بشمول البلاء ، فأخبرت عن وزيره ابي المطرف بن مثنى انه كان يومئذ بمنزله بين الوجوم والاطراق ، وعلى نهاية الحذر والاشفاق ، إذ وردت رسل المأمون عنه تترى ، وهجمت عليه زمرة بعد أخرى ، فدخل عليه فوجده قد استشاط حنقا ، حتى كاد يتميز شققا ، فظن أن ذلك الضجر ، لما كان ورد به الخبر من ضرب الخيل على بلد المظفر ، واخفار الذمم ، وزلة القدم ، وانتهاك الحرم ، فطفق ابن مثنى يبسطه ويقبضه ،

تارة يسليه وتارة يحرضه ، وطورا يقول له : فيك الخلف مما فات ، ومرة يقول : قد أن لك أن تنكر على الطاغية هذا الافتيات ، فلما فهم منحى ابن مثنى منه ، أعرض عنه ، وقال · الا تـرى هـذا الضـالع الفـاعلي الصـانع ـ يعني عريف بنيانه ـ صـبرت له واغضـبت ، وفعلت به كيت وكيت ، فمـا زاد إلا تنغيصـا للذتـي ، واسـتخفافا بإمرتي وتصغيرا لشاني ، واجتراء على سلطاني » وحـاول الوزير مداراته وتهوين الأمر عليه ،ثم خرج لمقابلة البناء ، فلم يأبـه بـه ، واخذ « يداوره ويداريه ، والصانع مقبـل على شـأنه ، مـا أمـره بالجلوس ، ولا زاده على التجهـم والعبـوس » ثـم عاد الوزير إلى المأمون ووعده خيرا وخرج بعد ذلك من عنده وهو « لايدري مـن أي الثلاثة يعجب : أمـن اغتـرار ابـن ذي النون وجهله ، أم افضـاء الضرورة بنفسه إلى خدمة مثله ، أم من جراة ذلك الصانع القصـير اليد ، النزر العدد ، على ذل ابن النون ودله ·

قال ابن بسام : فتبارك من احاط بالاشياء ، ولم يخف عليه شيء في الأرض ولا في السماء ومن جعل اليوم ذلك القصر العجيب بنيانه ، الهادم ـ كان ـ للدين والدنيا شانه ، مربطا للأفـراس ، وملعبـا للأعلاج الأرجاس ، من رجال الطاغية أذفونش ابن فرذلند ، بدد الله شيعته »(٢٨)·

لقد استجاب الله تعالى لدعاء ابن بسام فبدد قوى الفونسو السادس بعد ما كاد أن يلتهم الأندلس جميعا ويأخذها من ملوك الطوائف (٢٩) استجاب جل وعلا بأن أرسل المرابطين فخـاضوا معـركة الزلاقـة وغيرها من المعارك فأخروا بذلك سقوط الأندلس عدة قرون ، وقـد آن الأوان للحديث عن المرابطين وقيام حركتهم ·

الفصل الثاني

قيام حركة المرابطين

يظهر البحث في تاريخ الاسلام أن قضايا هذا التاريخ قد تفاعلت **وتشابكت على الرغم من سعة الرقعة الجغرافية والمسافات الطويلة بين المناطق والبلدان ، وعلى هذا إن الواقعة التي حدثت** مثلا في المغرب قد نجد أسبابها المباشرة في بلد اسلامي وغير المباشرة في بلد اسلامي اخر ، ونضرب هنا مثلا بتاريخ الدولة الفاطمية ، حيث أن هذا التاريخ مرتبط في مرحلة مبكرة بتاريخ التشيع حتى منتصف القرن الثاني للهجرة ، ثم بحوادث بلاد الديلم والعراق ، فالشام فاليمن فمصر فإفريقية فسجلماسة فمصر والشام من جديد ، لذلك من العبث البحث في أي قضية تاريخية اسلامية دون اخذ هذا الأمر بالحسبان .

وتنطبق هذه القاعدة على حوادث قيام حركة المرابطين في قلب الصحراء الافريقية الكبرى ثم تأسيس دولتهم في المغرب الأقصى وإثر هذا تدخلهم في شؤون الأندلس ،فالبحث في تاريخ المرابطين ترتبط بداياته بحوادث الاستفاقة الاسلامية السنية أولا في المشرق الاسلامي ثم انتقالها الى بلدان المغرب العربي خلال القرن الخامس ، وذلك مثلما ترتبط بواقع الحياة القبلية اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا في الصحراء الكبرى وفي البلدان المجاورة في المغرب الأقصى وافريقية ، والمثير للانتباه ان الاستفاقة السنية للقرن الخامس توافقت في المشرق مع هجرة البداة التركمان من بلاد ماوراء النهر وتأسيس السلطنة السلجوقية في المشرق ، وكان أيضا من جملة نتائجها في المغرب هجرة قبائل الصحراء نحو المغرب الأقصى والأندلس وتأسيس دولة المرابطين ، وتعلق هذا كله بتعميق التبدلات الكبرى على صعيد العلاقات مع أوربة بشطريها الشرقي والغربي ،

ففي الشطر الشرقي كانت ـ كما رأينا ـ معركة منازكرد التي عدت فيما بين أسباب قيام الحروب الصليبية ، وفي الغرب معركة الزلاقة وازالة دول الطوائف من الأندلس وتوحيد هذه البلاد تحت راية المرابطين والاستعداد ليس فقط لاسترداد ما فقده المسلمون من بلدان الأندلس بل لاستئناف حركة الفتوحات داخل اوربة من جديد مما كان له أبعد الآثار في قيام الحروب الصليبية ايضا ، فهذا كله قد هيأ الأجواء الأوربية حتى جاءت ساعة الانفجار ٠

في الحقيقة ماتزال مسألة قيام حركة المرابطين وتأسيس دولتهم من الأحداث التي تحتاج الى المزيد من الابحاث المعمقة ، ذلك انه على الرغم من الدور التاريخي المشرق الذي شغله المرابطون في الغرب الاسلامي ، وبرغم كثرة عدد المؤرخين الذين دونوا اخبار أحداث هذا الدور ، فإن ما آلت إليه نهاية المرابطين المأساوية بقيام دولة الموحدين ، قد أدى إلى طمس آثار المرابطين وأخبارهم طمسا كاد ان يكون كاملا ٠

ومع هذا لايفقد الباحث الأمل ، فبين يوم واخر يكتشف اثر مرابطي مباشر ، أو غير مباشر ينقل عن احد الآثار المحجوبة عنا ، وبذلك تتضح الصورة اكثر فأكثر ، وعلى كل حال حين تتحدث المصادر عن قيام حركة المرابطين نراها تجمع على أن الحركة كانت دينية اسلامية تولي قيادتها بالاساس داعية اسلامي بعث من المغرب الى قلب الصحراء ، هو عبد الله بن ياسين ، بيد أن ابن ياسين توجه الى الصحراء مرسلا اولا من قبل عالم اسمه ابو عمران الفاسي ثم ثانيه من قبل عالم آخر اسمه واجاج بن زلو ، وتحت اشراف ابن زلو وتوجيهه عمل ابن ياسين حتى لاقى النجاح ٠

وابن زلو لم يبادر الى ارسال ابن ياسين من عنده بل جاء هذا ايضا بناء على توجيهات من شيخه ابو عمران الغفجومي الشهير بالفاسي ، وعلى هذا بين ايدينا في البداية شخصيات دينية ثلاثة يتوجب علينا التعرف إليها واحدا تلو الآخر ٠

وكان من أقدم من ترجم لأبي عمران الفاسي القاضي عياض في مداركه ، وتتميز هذه الترجمة مع قدمها بكونها وافية من كثير من الجوانب وعظيمة الفائدة فهو : موسى بن عيسى بن أبي حاج ---- الغفجومي « وغفجوم فخذ من زناته » وفي رواية أخرى« من هوارة ---- أصله من فاس وبيته بها مشهور ، ويعرفون ببني أبي حاج ، ولهم عقب وفيهم نباهة إلى الآن ، واستوطن القيروان ، وحصلت له بها رئاسة العلم » (١)•

وفي مقابل هذه الرواية نجد نصا على درجة عالية من الأهمية عند صاحب « بيوتات فاس الكبرى » المنسوبة بعض مواده الى اسماعيل ابن الأحمر حيث جاء :« ومنهم ـ أهل فاس ـ بيت أبي الحاج القرشي ، بيتهم بيت حسب وثروة وفقه وعلم وعدالة ، ولهم زقاق بفاس يقال له درب ابي حاج ، منهم الفقيه الامام العلامة المدرس المفتي الخطيب الصالح ولي الله تعالى ابو عمران موسى بن ابي حاج القرشي ، المعروف بأبي عمران الفاسي ، كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وبسبب ذلك أخرجه من فاس الطغاة من أهلها العاملين عليها لمغراوة ، فاستقر بالقيروان إلى أن توفي سنة ثلاثين واربعمائة ، وهو الذي ندب يحيى بن عمران بن ابراهيم اللمتوني الصنهاجي الى قتال الطغاة من أهل المغرب وجهاد أهل برغواطة من السوس »(٢)•

ولئن اتفق القاضي عياض مع صاحب بيوتات فاس حول مكانة اسرة ابي عمران الفاسي ، فالخلاف بينهما حول نسبه ، فهو غفجومي عند القاضي عياض وقرشي عند صاحب بيوتات فاس ، وقد يميل الباحث نحو ترجيح رواية صاحب البيوتات على رواية القاضي عياض على قدمها ، وذلك على قاعدة « أهل مكة أدرى بشعابها » ، ويقوي هذا الاحتمال الدور الذي شغله الفاسي في كل من مدينة فاس ثم القيروان وفي أصل قيام حركة المرابطين •

ونص القاضي عياض صراحة على أن الفاسي قد ولد سنة « ثلاث وستين وثلاثمائة » وقيل ايضا إنه ولد سنة ٣٦٥ او حتى سنة

٣٦٨ ٠(٣) وعلى هذا « عاصر الغفجومي منذ صباه الأحداث الخطيرة الغامضة في تاريخ المغرب من هجوم الصنهاجيين خلفاء العبيديين ، والعامريين خلفاء بني أمية ، وقيام زعماء البربر بالدعوة لهؤلاء تارة ولأولئك اخرى ، وفي طليعتهم زيري بن عطية المغراوي ، ويدو بن يعلى اليفرني ، وابو البهار الصنهاجي ، ففي هذا الظرف الحرج المتقلب ولد وعاش سنواته الأولى-- وشب وترعرع--- ونال مكانة سامية في العلم والفتوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى تضايق من وجوده رجال السلطة فخرج من وطنه مهاجرا كارها للوضع القائم وتصرفات رجاله في البلاد» (٤) ٠

يبدو أنها كانت فرصة بالنسبة للفاسي ، وقد ارغم على مغادرة بلده أن يرحل في سبيل العلم ، فكان أن قصد قرطبة ، وبعدما اخذ عن علمائها قصد القيروان ، ومن القيروان توجه الى المشرق فقضى فريضة الحج ثم دخل بغداد حيث لقي فيها وفي مدن العراق الأخرى قادة رجال اليقظة للقرن الخامس ، وقد تأثر كثيرا بأبي بكر الباقلاني ، فعليه درس الأصول مع علم الكلام بردوده الشديدة على حركات الغلاة ، ومثل هؤلاء في الشمال الأفريقي دولة برغواطة في سواحل المغرب الأقصى مع بقايا الاسماعيلية في إفريقية ، وكان المعز بن باديس نائب الفاطميين في إفريقيةقد ملك النزعات والرغبةفي الغاء الانتماء للفاطميين ، والاستقلال عنهم وإعادة الخطبة للعباسيين ٠

وكان الفاسيبعد ما غادر المشرق الى المغرب استقر في مدينة القيروان ، وفيها نشط وحظي بمكانة مرموقة ومؤثرة،وهكذا شغل دورا فعالا في اقناع المعز بن باديس بالانقلاب على الفاطميين وايقاع مذبحة بالمؤمنين بالعقيدة الاسماعيلية في إفريقية ٠

كان الخليفة في القاهرة المستنصر بالله وكانت دولته اضعف من أن تتمكن من اتخاذ اجراء عسكري مباشر ضد المعز بن باديس ، لكنها لم تعدم الوسيلة للانتقام منه ، وكان الانتقام في تحريض قبائل هلال وسليم بالزحف نحو إفريقية،وأحدث هذا الزحف اوسع الآثار

السياسية والاقتصادية والعمرانية على جل بلدان المغرب العربي ، وفيها ثبت طابع العروبة بشكل ابدي مطلق (٥) .

وإذا كان الفاسي قد اسهم بنصيبه في اسباب تفجر الأحداث التي شهدتها إفريقية . فإن شهرته لم تصدر عن هذا الاسهام ولا حتى عما صنفه أورواه في ميدان الفقه والحديث ، لقد صدرت عن دوره في قيام حركة المرابطين ، ففي القيروان قيل اتصل به في طريق العودة من الحج يحيى بن ابراهيم الجدالي ، وكان يحيى زعيما لقبيلة جدالة احدى كبيرات قبائل الصحراء ، ديارها واقعة على مقربة من شواطىء المحيط الأطلسي ومصب نهر السنغال .

واعجب الجدالي بالشيخ ابي عمران الفاسي ، ورأى ابو عمران فيه رجلا « محبا في الخير ، فأعجبه حاله ، فسأله عن اسمه وبلده ونسبه فأخبره بذلك ، وأعلمه بسعة بلاده ومافيها من الخلق ، فقال له . وما ينتحلون من المذاهب ؟ فقال له :إنهم قوم غلب عليهم الجهل ، وليس لهم كثير علم ، فاختبره الفقيه وسأله عن واجبات دينه ، فلم يجده يعرف منها شيئا ولايحفظ من الكتاب والسنة حرفا ، إلا أنه حريص على التعلم ، صحيح النية والعقيدة واليقين ، جاهل بما يصلح دينه ، فقال له : ما يمنعك من التعلم للعلم ؟ فقال له : ياسيدي إن اهل بلادي قوم عمهم الجهل ، وليس فيهم من يقرأ القران ، وهم مع ذلك يحبون الخير ويرغبون فيه ويسعون إليه لو وجدوا من يقرئهم القرأن ويدرس لهم العلم ويفقههم في دينهم ويدعوهم الى العمل بالكتاب والسنة ، ويعلمهم شرائع الاسلام ، ويبين لهم سنن النبي عليه السلام ، فلو بغيت الثواب من الله تعالى بتعليمهم الخير لبعثت معي الى بلادنا بعض تلاميذك يقرئهم القرأن ويفقههم في الدين فينتفعون به ويسمعون له ويطيعوه فيكون لك في ذلك الأجر العظيم والثواب الجسيم عند الله ، ان تكون سببا لهدايتهم ، فندب الشيخ الفقيه ابو عمران تلاميذه إلى ذلك فامتنعوا واشفقوا من دخول الصحراء ، ولم يجبه منهم احد ممن يرضاه الشيخ ، فلما يئس منهم قال : إني أعرف ببلاد نفيس من أرض المصامدة فقيها

حاذقا تقيا لقيني هنا ، واخذ عني علما كثيرا وعرفت ذلك منه واسمه واجاج بن زلو اللمطي ، من اهل السوس الأقصى ، وهو الآن يتعبد ويدرس العلم ، ويدعو الناس الى الخير في رباط هناك وله تلاميذ جمة يقرؤون عليه العلم ، اكتب له كتابا لينظر في تلاميذه من يبعثه معك ، فسر إليه» (٦) .

ونستخلص من هذه الرواية أن المبادرة بارسال عالم الى الصحراء جاءت من عند الجدالي ، وان الذي قام به الفاسي هو مجرد الاستجابة ، وهذا يعني انعدام أية خطط للدعوة في الصحراء لدى الفاسي ، وأن كل ما حدث نجم عن عامل الصدفة : فريق من حجاج الصحراء التقى بواحد من كبار العلماء في القيروان ، وهكذا سارت الأمور ، لكن يبدو أن القضية لم تكن أبدا بهذه البساطة ولم تسر على هذه الشاكلة .

تحدث صاحب بيوتات فاس عن اللقاء الذي قام بين الرجلين في القيروان فقال :« وهو الذي ندب يحيى بن عمران بن ابراهيم اللمتوني الصنهاجي الى قتال الطغاة من أهل المغرب وجهاد أهل برغواطه من السوس »(٧) وقال المصنف نفسه في مكان أخر من كتابه تحدث به عن أسرة عبد الله بن ياسين في فاس :« وهم من بني عبد الله بن ياسين الفقيه الذي انتدب لمتونة الى قتال برغواطة من السوس » ، وبعد ايراده لبعض المعلومات عن كل من برغواطة وقبيلة لمتونة بين أن ديار لمتونة في « صحراء المغرب التي بين بلاد السودان المغربية وبلاد المغرب...... وذلك مسيرة شهرين طولا وعرضا.... وليس لهم مدينة يأوون إليها إلا مدينة غانة من بلاد السودان المغربية.....وأما غانة فكانوا على دين النصرانية الى سنة تسع وستين واربعمائة ، فأسلم أهلها على يد عبد الله بن ياسين عند خروجه مع يحيى بن عمر اللمتوني إلى قتال اهل برغواطة ، وحسن اسلامهم .

وكان السبب في دخول لمتونة المغرب أنهم على دين الاسلام منذ أسلموا على يد الامام ادريس ، وكانوا يحاربون السودان ، ثم إن

يحيى وابا بكر بن عمر خرجا الى الحج مع قومهما فمـروا بمـدينة القيروان يتبركون بالعلامة أبي عمران الفاسي حيث بلغهم ان أهـل فاس أخرجوه من مدينة فاس لنهيه لهم عمـا أحـدثوه مـن البـدع والمظالم والمغارم.... ولما اجتمع مع يحيى بن عمر ندبه أبو عمران الى قتال برغواطة ببلاد السوس وقتال زناتة على ما صدر منهم من الظلم ، واستنزال رؤسائهم مـن الولاية ، فـوعده يحيى بـن عمـر بالنهوض الى ذلك ، وطلب منه أن يوجه معه الى بلاده بعض طلبتـه لينظر في امور ديانتهم واخراج زكاتهم واعشارهم وفيمن تصرف مع اخماس غنائمهم ، فعرض ذلك أبو عمران على طلبته فـامتنعوا مـن المسير مع يحيى بن عمر بن ابراهيم لبعد البلاد والمشقة ، وانقـطاع الصحراء عن بلاد إفريقية ، ثم قال له أبو عمران : نكتب لك رسـالة الى فقيه بالسوس مما يلي بلادك ، يدعى بوجاج ــ ممـن كان قـرأ عليه بفاس قبل ارتحال أبي عمران عنها ــ فـكتب له رسـالة يطلب منه فيها ان يوجه معه فقيها الى بلاده ، فسار يحيى بـن عمـر بـن ابراهيم مع قومه الى وجاج ، إلى ان وصلوا إليه فدفعوا إليه كتـاب ابي عمران ، فلما قرأه رحب بهم واكرمهم واختار لهم عبد الله بن ياسين من اصحابه » (٨) .

الجديد في هذه الرواية أن الذي التقى بالفاسي وفـد مـن لمتـونة وليس من جدالة بقيادة يحيى بن عمر بن ابراهيم ، وحدث هذا اللقاء في القيروان ، والفاسي هو الذي ندب الوفـد ليس لقتـال بـرغواطة فحسب بل لقتال زناتة وكانت آنذاك تشكل خـطرا كبيرا على حـكم المعز بن باديس ، وان وجاج تتلمذ على الفـاسي في مـدينة فـاس ، وسنرى أن يحيى بن عمر اللمتوني سيتولى زعامة المرابطين حتـى وفاته حيث سيخلفه اخوه أبو بكر بن عمر .

وجاءت وفاة يحيى بن عمر سنة ٤٤٩ هـ/ ١٠٥٧ م حيث قتـل في معركة كبيرة ضد قبيلة جدالة (٩) .

والاشكالية التي تواجهنا هنا ليست مقصورة على كيفية انتقـال زعامة المرابطين من جدالة الى لمتونة بل امر آخـر يتعلق بشـخصية

اخرى يروى من قبل مصادر مبكرة جدا انها التي التقت أولا بـأبي عمران الغفجومي .

يحدثنا البكري في كتابه المسالك والممالك بقوله :« وخلف بني لمتونة قبيلة من صنهاجة تسمى بني جدالة وهم يجاورون البحر ليس بينهم وبينه احد ، وهذه القبائل هي التي قامت بعد الأربعين واربعمائة بدعوة الحق ، ورد المظالم ، وقطع جميع المغارم ، وهم على السنة متمسكون بمذهب مالك بن انس رضي الله عنه ، وكان الذي نهج ذلك فيهم ، ودعا الناس الى الرباط ودعوة الحق عبد الله ابن ياسين ، وذلك ان رئيسهم كان يحيى بن ابراهيم من بني جدالة ،وحج في بعض السنين ، ولقي في صدره عن حجه الفقيه ابـا عمران الفاسي ، فسأله ابو عمران عن بلده وسيرته وما ينتحلونه من المذاهب ، فلم يجد عنده علما بشيء إلا انه راه حريصا على التعلم صحيح النية واليقين ، فقال له : ما يمنعكم من تعلم الشرع على وجهه ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ قال له : لايصل إلينا إلا معلمون لاورع لهم ولا علم بالسنة عندهم ، ورغب إلى أبي عمران أن يرسل معه من تلاميذه من يثق بعلمه ودينه ليعلمهم ويقيم احكام الشريعة عندهم ، فلم يجد أبو عمران فيمن رضيه من يجيبه الى السير معه ، فقال له أبو عمران : إني قد عدمت بالقيروان بغيتكم ، وإن بملكوس فقيها حاذقا ورعا قد لقيني وعرفت ذلك منه يقال له وجاج بن زلو ، فمر به فربما ظفرت عنده ببغيتك ، فجعل ذلك يحيى بن إبراهيم أوكد همه ، فنزل به وعلمه ما جرى له مع ابي عمران ، فاختار له وجاج من أصحابه رجلا يقال له عبد الله بن ياسين ، واسم أمه تين يزامارن من اهل جزولة من قرية تسمى تماماناوت في طرف صحراء مدينة غانة ، فوصل به إلى موضعه ، واجتمعوا للتعلم منه والانقياد له في سبعين رجلا فغزوا بني لمتونة وحاصروهم في جبل لهم فهزموهم ، فلم يزل أمرهم يقوى...... وعبد الله بن ياسين مقيم فيهم...... وهم يسمعون له ويطيعون إلى أن نقموا عليه اشياء يطول ذكرها وكأنهم وجدوا في احكامه بعض التناقض ، فقام عليه فقيه منهم كان اسمه الجوهر بن

سكم مع رجلين من كبرائهم... فعزلوه عن الراي والمشورة ، وقبضوا منه بيت مالهم وطردوه وهدموا داره وانتبهوا ما كان فيها من أثاث وخرثي ، فخرج مستخفيا من قبائل صنهاجة إلى ان اتى وجاج بن زلو فقيه ملكوس » (١٠) .

عاش البكري في الأندلس ، وكان من الأمراء العلماء ، وهو لم يزر المغرب ، والمعلومات التي دونها في كتابه كانت مما نقل إليه ، وقد قام هو بدمج التقارير التي حصل عليها ، وعلى هذا لم تخل معلوماته من شيء من التناقض والخلل ، لكنها مع هذا هامة لايستغنى عنها ، وتزداد فائدتها لدى الحصول على بعض المواد المعاصرة لها او من طبقتها ٠

ومعلومات البكري تؤكد هنا على أن الذي اتصل بالفاسي كان من قبيلة جدالة ، وقد انفرد بايراده خبر طرد عبد الله بن ياسين وعودته الى رباط وجاج بن زلو ، وهام جدا اتيانه على ذكر الجوهر بن سكم ، فلقد حاول بعض الباحثين تجاهل وجود هذه الشخصية ، او المطابقة بينها وبين يحيى بن ابراهيم الجدالي ، والمطابقة صعبة لعدم التقارب بين الاسمين ولأن جوهرا وصف بالفقيه ولم يأت الحديث عنه كزعيم سياسي ٠

وسلف بي الذكر أن جل المصادر المرابطية قد ناله التلف ، لكن يبدو أن بعضها نجا ووصل الى مكتبات المشارقة فنقلوا عنه، وهكذا نجد كل من ابن الأثير والنويري والمقريزي يأتون على ذكر جوهر بن سكم ، ومن عادة ابن الأثير أن لايذكر مصادره وكذلك المقريزي لكن النويري ذكر مصدره بكل وضوح وهو كتاب « الجمع والبيان في أخبار المغرب والقيروان »لأبي محمد عبد العزيز بن شداد بن الأمير تميم بن المعز بن باديس ، وقد ذكر ابو محمد هذا « بسند يرفعه الى القاضيأبي الحسن علي بن قنون ، قاضي مراكش ، أن رجلا من قبيلة جدالة من كبرائهم اسمه الجوهر اتى من الصحراء الى بلاد المغرب طالبا للحج » فالتقى بأبي عمران الفاسي « فلما حج وانصرف قصد المسجد الذي كان فيه الفقيه ، وسمع الكلام فيما

تقتضيه ملة الاسلام من الفرائض والسنن والأحكام ، فقال الجوهر : يا فقيه ما عندنا في الصحراء من هذا الذي تذكرونه إلا الشهادتين في العامة ، والصلاة في بعض الخاصة ، فقال الفقيه فاحمل معك من يعلمهم عقائد ملتهم وكمال دينهم ، فقال له الجوهر :فابعث معي أحد الفقهاء ، وعلي حفظه وبره وإكرامه ، وكان للفقيه ابن أخ اسمه عمر ، فقال له · إذهب مع هذا السيد الى الصحراء ، فعلم القبائل بها ما يجب عليهم من دين الاسلام ، ولك الثواب الجزيل من الله عز وجل ، والذكر الجميل من الناس ، فأجابه الى ذلك ، فلما اصبح عمر من الغد جاء الى عمه فقال له : اعفني من الدخول الى الصحراء فإن اهلها جاهلية ، قد الفوا سيرا نشئوا عليها ، فمتى نقلوا عنها قتلوا من امرهم بخلافها ، وكان من طلبة الفقيه رجل يقال له عبد الله بن ياسين الكزولي ، فرأى الفقيه وقد عز عليه مخالفة ابن أخيه فقال : يافقيه ارسلني معه والله المعين ، فأرسله معه وتوجها إلى الصحراء ، وكان عبد الله بن ياسين فقيها عالما ورعا دينا شهما قوي النفس حازما ذا راي وصبر وتدبير» ·

فدخل الجوهر وعبد الله بن ياسين الى الصحراء ، فانتهوا الى قبيلة لمتونة ، وهي على ربوة عالية ، فلما راوها نزل الجوهر عن جمله ، وأخذ بزمام جمل عبد الله بن ياسين تعظيما لدين الاسلام ، فأقبلت أعيان لمتونة واكابرهم للقاء الجوهر والسلام عليه · فراوه يقود الجمل فسألوه عنه فقال :« هو حامل سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد جاء يعلم أهل الصحراء مايلزمهم في دين الاسلام »· فرحبوا به وانزلوه اكرم نزل ·

ثم اجتمعت طائفة كبيرة من تلك القبيلة في محفل وفيهم ابو بكر ابن عمر · فقالوا :« تذكر لنا ما اشرت إليه انه يلزمنا ؟ » فقص عليهم عبد الله عقائد الاسلام وقواعده وبين لهم حتى فهم ذلك اكثرهم ثم اقتضاهم الجواب ، فقالوا : أما ما ذكرته من الصلاة والزكاة فذلك قريب وأما قولك : من قتل يقتل ، ومن سرق يقطع ، ومن زنا يجلد ، فأمر لانلتزمه ولا ندخل تحته اذهب الى غيرنا ·

فرحلا عنهم والجوهر الجدالي يجر زمام جمل عبد الله بن ياسين٠٠٠٠ قال: وكان بالصحراء قبائل٠٠٠٠ ، كل قبيلة قد حازت أرضا تسرح فيها مواشيها ، ويحمونها بسيوفهم٠٠٠٠

قال : وسار الجوهر حتى انتهى بعبد الله الى قبيلة جدالة ، فخاطبهم عبد الله هم والقبائل المتصلة بهم ، فمنهم من سمع واطاع ومنهم من أعرض وعصى ، ثم إن المخالفين لهم تحزبوا وانحازوا ٠

فقال عبد الله للذين قبلوا منه الاسلام : « قد وجب عليكم ان تقاتلوا هؤلاء الذين خالفوا الحق وانكروا دين الاسلام ، فاستعدوا لقتالهم ، واجعلوا لكم حزبا ، واقيموا لكم راية ، وقدموا لكم اميرا فقال له الجوهر : أنت الأمير ، فقال عبد الله : لايمكنني هذا إنما أنا حامل امانة الشرع ، اقص عليكم نصوصه وابين لكم طريقه ، واعرفكم سلوكه ٠ ولكن أنت الأمير »٠ فقال الجوهر : لو فعلت هذا لتسلطت قبيلتي على الناس ولعاثوا في الصحراء ، ويكون وزر ذلك علي ، لا راي لي في هذا ٠ فقال عبد الله : « فهذا أبو بكر بن عمر ، راس لمتونة وكبيرها ، وهو رجل جليل القدر ، مشكور الحال ، محمود السيرة ، مطاع في قومه ، نسير إليه ونعرض تقدمة الامرة عليه ، فلحب الرياسة يستجيب الى ذلك بنفسه ، ولمكان الجاه ستجتمع إليه طائفة من قبيلته نقوى بها على عدونا ، والله المستعان ٠

ذكر ولاية ابي بكر بن عمر اللمتوني

قال : فأتوا أبا بكر بن عمر فأجاب ، وعقدوا له راية وبـايعوه بيعـة الاسلام ، وتبعه زمرة من قومه ، وسماه عبد الله بـن ياسـين أمير المسلمين •

ورجعوا الى جدالة وجمعوا إليهم من أمكن مـن الطـوائف الذين حسن اسلامهم • ومن الأقوام الذين تألفت قلوبهم ، وحرضهم عبد الله على الجهاد في سبيل الله ، وسماهم المرابطين • وتألبت عليهـم أحزاب من الصحراء معاندين من أهل الشر والفسـاد ، وجيشـوا لمحاربتهم ، فلم يناجزوهم الحرب ولا بادروهم بلقاء بل تلطف عبـد الله وأبو بكر في أمـرهم ، واسـتمالوهم ، واسـتعانوا على أولئك الأشرار المفسدين بالمصلحين من قبائلهم يسبونهم قوما بعـد قـوم بضروب من التوصل حتى حصلوا منهـم تحـت زرب عظيم وثيق ما ينيف على ألفي رجل من المفسدين وتركوهم فيه أيامـا بغير طعـام وهم يحفظون الزرب من سائر جهاته ، وقـد خندقـوا حـوله ، ثـم أخرجوهم قوما بعد قوم وقتلوهم عن أخرهم •

فحينئذ دانت لهم أكثر قبائل الصحراء وهابهمم كل مـن فيهـا ، وقويت شوكة المرابطين ، هذا وعبد الله بن ياسـين يعلم الشريعـة ويقرىء الكتاب والسنة ، حتى صار حوله فقهاء ، وكل من انقاد الى الحق على طريق الورع والتقى والخشـية لله والمراقبـة ، فـرتب له أوقاتا للمواعظ والتذكير وإيراد الوعد والوعيد ، فاستقام منهم خلق كثير ، وخلصت عقائدهم وزكت نفوسهم ، وصفت قلوبهم •

ذكر مقتل الجوهر الجدالي

قال : كان الجوهر اصح القوم عقيدة ، واخلصهم لله دينا ، واكثرهم صوما وتهجدا ، فلما استبد ابو بكر بالأمر دونه ،وعبد الله ينفذ الأمور بالسنة ، فصارت الدولة لهما • وبقي الجوهر لاحكم له فداخله الحسد ، وازله الشيطان ، فشرع في إفساد الأمر سرا ، فعلم بذلك منه وعقد له مجلس ، فثبت عليه ما ذكر عنه ، فحكم عليه بالقتل لأنه نكث البيعة ، وشق العصا ، وهم بمحاربة اهل الحق ، فقال الجوهر : وانا ايضا احب لقاء الله عز وجل حتى أرى ما عنده »• فاغتسل وصلى ركعتين ، وتقدم طائعا ، فضربت عنقه رحمه الله تعالى •

قال :وكثرت طائفة المرابطين ، وتتبعوا المعاندين لهم من قبائل الصحراء بالقتل والنهب والسبي إلا من اسلم منهم وسالم ، وبلغت الأخبار الفقيه بما جرى في الصحراء على يد ابن ياسين من سفك الدماء ونهب الأموال وسبي الحريم ، فعظم ذلك عليه واشمأز منه وندم على ارساله ، وكتب له في ذلك ، فأجابه عبد الله بن ياسين :أما انكارك علي ما فعلت وندامتك على إرسالي ، فإنك ارسلتني الى امة كانت جاهلية ، يخرج احدهم ابنه وابنته لرعي السوام فيعزبان في المرعى ، فتأتي المرأة حاملا من أخيها ولا ينكرون ذلك ، وليس دابهم إلا إغارة بعضهم على بعض وقتل بعضهم لبعض ، ولا دية لهم في الدماء ، ولا حرمة عندهم للحريم ، ولا توقي بينهم في الأموال ، فأخبرتهم بالمفروض عليهم والمسنون لهم والمحدود فيهم ، فمن قبل واليته ، ومن تولى ارديته ، وما تجاوزت حكم الله ولا تعديته • والسلام »(١١) .

إن نص ابن شداد هذا على درجة عالية من الأهمية ونقاط

التوافق بينه وبين مادة البكري كبيرة ،فهما قد اتفقا على كون شخصية الجوهر شخصية تاريخية ،وعلى انه كان اشبه بالفقهاء الأمر الذي اكده ابن الاثير بقوله «وكان ــ الجوهر ــ محبا للدين (١٢) واهله»وكذلك اتفقا على حصول خلاف فيما بين الجوهر وابن ياسين وروى ابن الاثير ايضا خبر اعدام الجوهر بعدما«بقي لاحكم له تداخله الحسد ،وشرع سرا في فساد الأمر، فعلم بذلك منه ،وعقد له مجلس وثبت عليه مانقل عنه فحكم عليه بالقتل ،لأنه نكس البيعة وشق العصا واراد محاربة اهل الحق فقتل بعد أن صلى ركعتين» (١٣) .

ومن الواضح أن كل من ابن الاثير والنويري قد نهلا من المصدر نفسه ، وهكذا أوردا أن الجوهر بن سكم صحب معه عبد الله بن ياسين من القيروان ، نضيف الى هذا أن التادلي حين ترجم لوجاج ابن زلو اوضح انه لحق بالفارسي الى القيروان ، اسمعه يقول: « وجاج بن زلو اللمطي.
من أهل السوس الأقصى ، رحل الى القيروان فأخذ عن أبي عمران الفاسي ، ثم عاد الى السوس ، فبنى دارا سماها بدار المرابطين لطلبة العلم وقراءة القرأن ، وكان المصامدة يزورونه ويتبركون بدعائه» (١٤) .

لقد طارت شهرة ابي عمران الغفجومي أثناء اقامته بالقيروان ، وعلى هذا يرجح أن الطلبة قصدوه اليها ، وأنه لأمر مرجح أن يكون كل من عبد الله بن ياسين ووجاج بن زلو التقيا بالقيروان ، وهناك تعرفا الى بعضهما في حضرة شيخهما الغفجومي ، وبناء عليه أرى أن صورة الأحداث ربما وقعت على الشكل التالي :

اصطحب الجوهر بن سكم معه عبد الله بن ياسين من القيروان الى الصحراء وبعد شيء من النجاح اختلفا ، وهكذا أرغم ابن ياسين على الالتجاء الى رباط وجاج بن زلو في السوس الأقصى في طرف الصحراء ، ومجددا مر بالقيروان ركب جديد من حجاج الصحراء فيه ــ أو على راسه ــ يحيى بن ابراهيم الجدالي ، وأن موضوع اوضاع الصحراء أثير من جديد ، وهكذا تم الاتفاق أن يمر هذا الأمير برباط

وجاج ويصطحب معه عبد الله بـن ياسـين ، وهـذا مـاكان ، وعلى أساسه يمكن أن نفهم مسألة اعدام الجوهر بن سكم . وكان عبد الله ابن ياسين كما راينا من أهل الصحراء ، وكان قد رحل في سبيل طلب العلم حتى انه زار الأندلس ومكث فيها سبع سنوات(١٥) وكان أصله وتكوين شخصيته وثقافته التي حصلها تؤهله أكثر من غيره للعمل في الصحراء ومن ثم النجاح.

وهناك خلاف كبير بين المصادر حول تاريخ هذه الحوادث ، ولابد انها حدثت قبل وفاة أبي عمران الفاسي في سنة ٤٣٠ هـ/ ١٠٣٩ م وأميل هنا الى الأخذ برواية صاحب روض القرطاس حيث ذكر ان يحيى بن ابراهيم الجدالي تـوجه الى الحـج سـنة سـبع وعشرين واربعمائة »(١٦)وقد يكون لقيه في هذه السنة أو في السنة التالية .

في الصحراء حقق ابـن ياسـين بـرفقة الأمير الجـدالي بعض النجاحات غير أن رجالات جدالة مالبثوا أن أخذوا بالاعراض عنه ، وهنا فكر بالرحيل عنهم « الى بلاد السودان» (١٧) ، والسؤال الذي لابد من طرحه هنا لماذا الى بلاد السودان ، وليس مجددا الى بـلاد رباط واجاج بن زلو؟ لعل السبب هو لجوءه قبل هذا الى واجـاج ثم تفكيره بالعودة الى بلدته أو المناطق المجاورة لهـا ، لكن لماذا اعرض عنه الجداليون ، هل فقط أنهم لما « راوه قد شدد عليهم في ترك ماهم عليه من المنكرات تبرأوا منه وهجروه ونافـروه ، وثقـل ذلك عليهـم» «(١٨)

القضية أكبر من هذا ، كان مشروع عبد الله بن ياسـين مشروعا سياسيا ، وقف في سبيله في المرحلة الأولى الفقيه جوهر بـن سـكم ، والآن بمعاونة الأمير الجدالي ، أو بالحري أمير جـدالة تخلص مـن الجوهر باعدامه ، ولابد أن ردات الفعل القاسية جدا على ذلك هـي التي أرغمت ابن ياسين على قرار النزوح ، لابل أكثر من هذا افقدت يحيى بن ابراهيم سلطانه ومكانته ، فقد كان يحيى بـن ابـراهيم « على رئاسة صنهاجة وحروبهم مع أعدائهم »(١٩) .

وصنهاجة كما سنرى كان اسم « الجد الجامع » لقبائل الصحراء

خاصة جدالة ولمتونة ، ولايفقد الأمير سلطانه الا بسبب كبير جـدا ، ومن هنا لم يسمح يحيى بن ابراهيم لابن ياسين بالذهاب وتمسك بـه ووضع خطة يستطيع بوساطتها استعادة قواه ومـن ثـم الانتقـام مجددا واسترداد سلطانه فقال لابن ياسين :« إن هـاهنا في بـلادنا جزيرة في البحر اذا انحسر البحر دخلنا اليهـا على اقـدامنا ، واذا امتلأ دخلناها في الزوارق ، وفيها الحلال المحض الذي لاشك فيه من اشجار البرية وصيد البر ... فدخلاها ودخل معهما سبعة نفر مـن جدالة ، فابتنيا بها رابطة ، واقام بها مع اصحابه يعبدون الله تعالى مدة من ثلاثة اشهر ، فتسامع مع الناس بأخبارهم ... فكثرو الوارد عليهم ... فلم تمر عليهم ايام حتى اجتمع له من تـلاميذه نحـو الف رجل من اشراف صنهاجة فسماهم المرابطين للزومهم رابطته »(٢٠).

ومعروف أن تجربة المرابطة في الثغور تجربة مبـكرة قـامت منذ العصور الأموي وتـركزت أولا على شـواطىء البحـر المتـوسط الشامية ، ومن أشهر النماذج الأولى لهـا ربـاط بيروت الذي عاش فيه الامام الأوزاعي ، وفي حياة الأوزاعي وعدد من ائمـة الزهـد في الاسلام مثل عبد الله بن المبـارك وعلاقـاتهم مـع السـلطات بعض التعليل لنمو حركة المرابطة وتطويرها وتنظيمهـا حيث غدا الربـاط مؤسسة عسكرية فقهية ، له مقوماته وادواره في جميع المجالات حتى الاقتصادية منها ، فالفقهاء والصلحاء فروا من التعامل مع السلطان واخذوا بقوله تعالى :« ياايها الذين أمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون »(٢١) .

ومن سواحل الشام انتقلت تجربة الرباط الى شواطىء افـريقة وهناك تطورت تطورا عجيبا وشغلت اوسـع الأدوار(٢٢) وظلت كذلك حتى قيام الخلافة الفاطمية والقضاء على حكم الأغالبـة وتـأسيس مدينة المهدية ، فقد سدد هذا ضربـة مـوجعة للربـاط المتـوسطي وبالتالي أدى الى انتقال التجربة الى سواحل الأطلسي والى داخـل الأراضي المغربية ، ومنذ هذا التاريخ شغل الربـاط اهـم الأدوار في اقامة الدول والحكومات واسقاطها ، فقد اقام ربـاط عبـد الله بـن ياسين دولة الرباط ، وكان لرباط تينملل الدور الحاسم في اسـقاط

دولة الرباط واقامة الدولة الموحدية ، وهكذا من رباط الى أخر ومن دولة الى أخرى حتى رباط درعة سجلماسة واقـامة دولة الأشراف العلويين الحاكمة الآن في المغرب.

وتباينت الآراء والروايات حول تحديد موقع رباط بـن ياسـين ، واقرب ماروي الى القبول ماذكره ابن خلدون ، حيث يسـتخلص أن ذلك كان قرب مصب نهر السنغال (٢٣) .

واستبعد بناء رباط محصن عسكريا ، فعـدد الذين جـاءوا الى الموقع أولا كان ضئيلا وكانوا جميعا من بداة الصحراء بلا تجربة أو خبرة بـأعمال البناء ، ولعـل الامـر لم يتعـد نوعا من أنواع المعسكرات أو المخيمات المؤقتة فيهـا خضـع الملتحقـون لبعض التدريبات خاصة في المجالات التثقيفية الدينية ، طبعا حسـب مذهب الامام مالك ، ولعل دروس الوعظ كانت بالبربرية مع شيء من العربية . وخلال عدة أشهر اجتمع لابن ياسين حـوالي الألف وهنا شعر مجددا بالقوة والقدرة على التحرك ، انما لم يلجأ هذه المرة الى استخدام السلاح مباشرة ، فقام في أصحابه « وقـال لهـم : يامعشر المرابطين انكم جمع كثير ، وأنتم جم كبير ، وأنتم وجـوه قبـائلكم ورؤساء عشائركم ، وقد أصلحكم اله تعالى وهـداكم الى صراطـه المستقيم ، فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم وتأمروا بالمعروف ، وتنهوا عن المنكر ، وتجاهدوا في سبيل الله حق جهاده ، فقالوا : أيها الشيخ المبارك مرنا بما شئت تجدنا سامعين مطيعين ، ولو أمـرتنا بقتال أبائنا لفعلنا ، فقال لهم : اخـرجوا على بـركة الله ، وانذروا قومكم ، وخوفوهم عقاب الله ، وابلغوهم حجته ، فإن تابوا ورجعوا الى الحق واقلعوا عما هم عليه فخلوا سبيلهم ، وإن أبـوا مـن ذلك وتمادوا في غيهم ولجوا في طغيانهم استعنا بـالله تعـالى عليهـم ، وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.

فسار كل رجل منهم الى قومه وعشـيرته ، فـوعظهم وأنذرهـم ودعاهم الى الاقلاع عما هم بسبيله ، فلم يكن منهم من يقبل يرجع ، فخرج اليهم عبد الله بن ياسين ، فجمع أشياخ القبائل ورؤساءهم ،

وقرا عليهم حجة الله ودعاهم الى التوبة ، وخوفهم عقاب الله ، فاقام يحذرهم سبعة ايام ، وهم في كل ذلك لايلتفتون الى قوله ولايزدادون الا فسادا ، فلما يئس منهم قال لاصحابه : قد ابلغنا الحجة وأنذرنا، وقد وجب علينا جهادهم فاغزوهم على بركة الله »(٢٤) .

وبلغ الآن تعداد أتباع ابن ياسين ثلاثة آلاف مقاتل فغزا بهم أولا قبيلة جدالة ، فهزمها واوقع بين صفوفها اصابات كبيرة جدا ، ثم التفت الى قبيلة لمتونة فأذعنت له وكذلك فعل بقبيلة مسوفة وغيرها من قبائل الصحراء ، وتضاعف عدد اتباع ابن ياسين وملك الأموال ، واتخذ بيت مال « اخذ يركب منه الجيوش ويشتري السلاح ، ويغزو القبائل حتى ملك جميع بلاد الصحراء واستولى على قبائلها »(٢٥) .

وارسل عبد الله بن ياسين « بمال عظيم مما اجتمع عنده من الزكاة والأعشار والأخماس الى طلبة بلاد المصامدة وقضاتها »(٢٦) وفي عمله هذا مؤشر على تطلعاته المستقبلية في التوجه نحو المغرب الأقصى ، فقد حال بينه في الصحراء وأراضي المغرب الاقصى جبال الأطلس الكبير (درن) حيث توطنت خلفه قبائل مصموده ، وكان شراء رضاء مصموده أمرا استراتيجيا ، وفي مستقبل الأيام احسن المهدي بن تومرت استغلال عامل الجغرافيا هذا مع انعكاساته في سبيل اسقاط دولة المرابطين .

ويقتضي هذا منا وقفة نتأمل فيها أوضاع بلاد الصحراء ، مسرح العمليات التي اتينا على ذكرها ، ولنتعرف على الأوضاع القبلية هناك والاجتماعية .

بلاد الصحراء التي شهدت حركة المرابطين هي اليوم اقليم مقفر ، قليل السكان ، وذلك بعدما قضى الاستعمار على العمران الموروث الذي كان فيه ، وهذا الاقليم موزع اليوم بين المملكة المغربية وموريتانيا ومالي وغانة مع معظم النيجر ، وقد عاش في هذا الاقليم مجموعة من القبائل ، ووجدت فيه بعض المدن والواحات ومراكز العمران ومحطات القوافل (٢٧) .

وانتمت قبائل الصحراء الى جد قبلي كبير عرف باسم صنهاجة ، واعتقدت صنهاجة انها من اصل عربي من قبائل حمير اليمن ، وحتى يومنا هذا مايزال المنتمون اليها يستخدمون لغة خاصة بهم اسمها الحسانية ، يرون انها لغة حمير لما قبل الاسلام ، واطلق على قبائل صنهاجة اسم « قبائل الملثمين » لأن من عادة كل واحد من الرجال وضع لثام على وجهه لايرفعه مطلقا ، ومع أن عادة اللثام نشأت ــ كما هو مرجح ــ عن طبيعة الحياة في الصحراء ، غير أن الصنهاجيين تمسكوا بها تقليدا وأعطوها مسحة تقديس ، وتصدر قبائل صنهاجة : لمتونة وجدالة ومسوفة ، ومسراته ، ومداسة وبنو وارث (٢٨) .

وتحدث الشريف الادريسي عن قبائل لمتونة بقوله :« وهم أصحاب إبل ونجب عتاق رحاله لايقيمون بمكان واحد ، ولباس الرجال منهم والنساء اكسية الصوف ، ويربطون على رؤوسهم عمائم الصوف المسماة بالكرازي ، وعيشهم من البان الابل ولحومها مقددة مطحونة وربما جلبت اليهم الحنطة والزبيب ، لكن الزبيب اكثر ، لانهم كثيرا ماينقعون الزبيب في الماء بعد الدق ويشربون صفوه نقيعا حلوا : وفي بلادهم العسل كثير ، وجل طعامهم واحفله الطعام المسمى بالبربرية أسلوا ، وهو انهم يأخذون الحنطة فيقلونها قليا معتدلا ، ثم يدقونها حتى تعود جريشا ، ثم يمزجون العسل ، بمثله سمنا ويعجنون به تلك الحنطة على النار ، ويضعونه في مزاود لهم ، فيأتي طعاما شهيا وذلك أن الانسان منهم اذا أخذ من هذا الطعام ملء كفه وأكله وشرب عليه اللبن ، ثم مشى بقية يومه لم يشته طعاما الى الليل ، وليس لهم مدينة يأوون اليها الا مدينة نول لمطة ... وبهذه المدينة تصنع الدرق اللمطية التي لاشيء أبدع منها ولا اصلب منها ظهرا ، ولااحسن منها صنعا ، وبها يقاتل أهل المغرب لحصانتها وخفة محملها : وبهذه المدينة قوم يصنعون السروج واللجم والأقتاب المعدة لخدمة الابل ، وتباع بها الاكيسة (٢٩) على هذا كان بداة لمتونة بعيدين عن أسباب المدينة الى حد انهم لم يعرفوا صناعة الخبز ، وكانوا جمالة ، لم يبرعوا في استخدام الخيول ، والصناعات التي

وجدت في مدينتهم الرئيسية قد ارتبطت بتقديم الخدمات الاساسية البسيطة للبداة

واوفى من وصف الادريسي ما أودعه البكري في كتابة المسالك والممالك حيث ذكر ان « لمتونة ظواعن رحالة في الصحراء مراحلهم فيه مسيرة شهرين في شهرين ، ما بين بلاد السودان وبلاد الاسلام ، ويصيفون في موضع يسمى امطلوس وأخر يسمى تاليوين ، وهم الى بلاد السودان اقرب ... وليس يعرفون حرثا ولازرعا ولاخبزا ، انما اموالهم الأنعام وعيشهم من اللحم واللبن ، ينفد عمر أحدهم وماراى خبزا ولااكله الا ان يمر بهم التجار من بلاد الاسلام او بلاد السودان فيطعمونهم الخبز ويتحفونهم بالدقيق ، وهم على السنة مجاهدون للسودان ... وخلف بني لمتونة قبيلة من صنهاجة تسمى بني جدالة ، وهم يجاورون البحر ، ليس بينهم وبينه أحد ... ولهم — لمتونة — في قتالهم شدة وجلد ليس لغيرهم ، وهم يختارون الموت على الانهزام ، ولايحفظ لهم فرار من زحف ، وهم يقاتلون على الخيل والنجب واكثر قتالهم رجالة صفوفا بأيدي الصف الأول القني الطوال للمداعسة والطعان ، وما يليه من الصفوف بأيديهم المزاريق ، يحمل الرجل الواحد منها عدة يزرقها فلا يكاد يخطىء ، ولايشوى ، ولهم رجل قد قدموه أمام الصف بيده الراية ، فهم يقفون ما وقفت منتصبة ، وإن أمالها الى الأرض جلسوا جميعا ، فكانوا اثبت من الهضاب ومن فر أمامهم لم يتبعوه » (٣٠) .

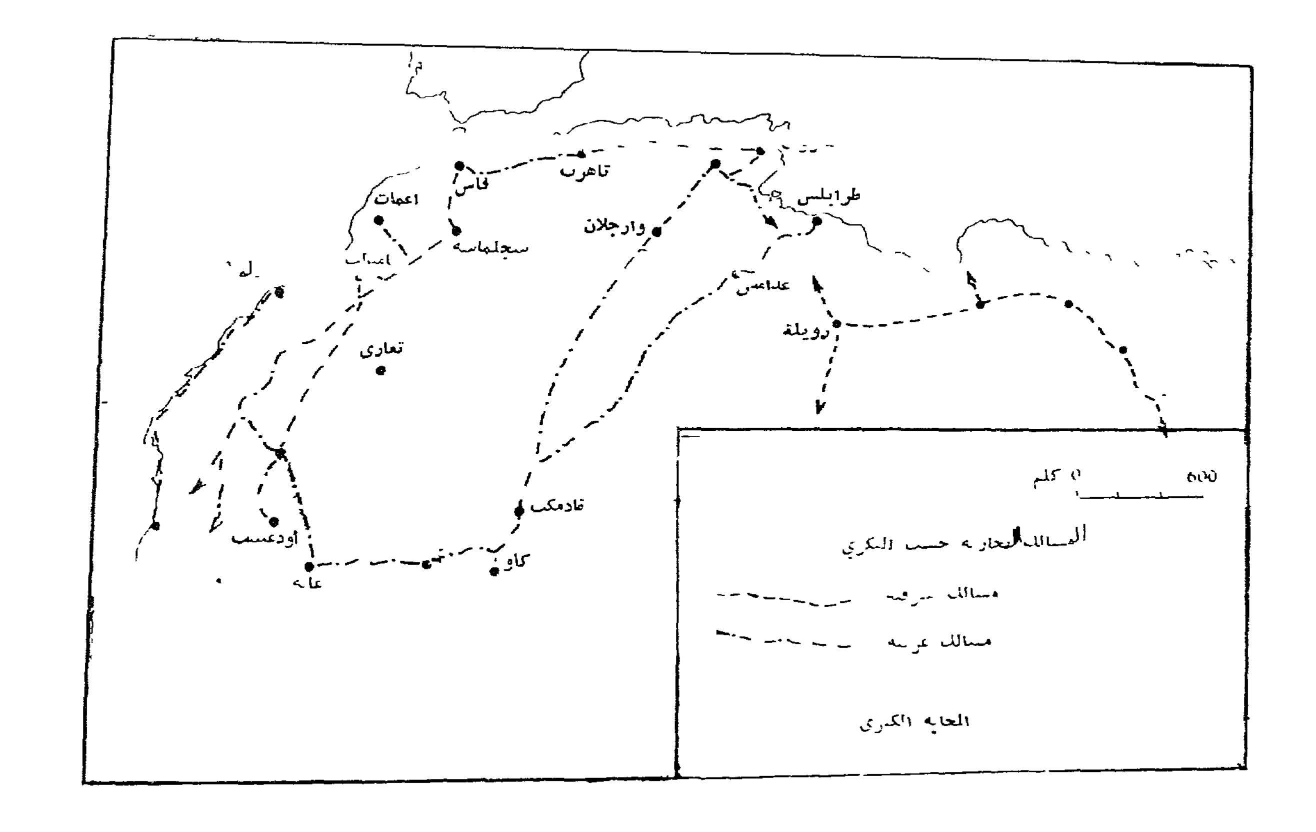
واجمعت المصادر التي تحدثت عن الجانب العسكري لدى قبائل الملثمين على الحديث عن الدرق اللمطية ،ووصف أبو عبد الله محمد الزهري هذه الدرق في كتابة الجغرافية بقوله .« وهذه الدرق من أعجب ما يكون ،وذلك أنه اذا ضرب فيها برمح او سيف او سهم وتبخش منها موضع بقيت بعد ذلك يسيرا ،فتفتش فلا يوجد فيه اثر الا رجع صحيحا كما كان وهذه الدرق تهدى لملوك المغرب والأندلس.

واللمط حيوان على قدر العجل او اقل منه ، طويل العنق ، راسه كراس الاشكر ، له اذنان كأذني المعز ، في راسه قرون طوال سود او

مزوقة الخلقة خارجة من يافوخه راجعة الى خلفه ، تبلغ الى كفله ، ولايوجد الا في هذا الصقع ، ومن جلده تصنع الدرق اللمطية ، وانما سميت بهذا الاسم لأنها نسبت اليه »(٣١) .

ووصل الاسلام الى الصحراء منذ أيام الفتوحات ، ومع الأيام ازداد تسربه وانتشاره وعمق الأخذ به ، وكأن لتأسيس النواة الأولى لمدينة فاس ، ثم قيام دولة الأدارسة واسع الآثار على تعاظم انتشار الاسلام ، ومن الملاحظ في تتبع تاريخ انتشار الاسلام والثقافة العربية في بلدان افريقيا خاصة الشمال الافريقي أن القيروان بعد تأسيسها قامت بالدور القيادي بالنسبة للدين الاسلامي والثقافة العربية ، انما مع سعة الانتشار قامت مدينة فاس ، بعدما تأسس فيها جامع القرويين بدور الوارث الكبير لنشاط القيروان ، وبعد تأسيس مراكش شاركت هذه فاس في حمل أعباء العمل الثقافي والديني ، ثم كان أن قامت شنقيط ايضا بالمشاركة بشكل قيادي فعال ، لكن دور شنقيط عطله الاستعمار الأوربي .

ومنذ ما قبل قيام الخلافة الفاطمية وجد على أطراف الصحراء وفي قلبها عدة مراكز حضارية ، كان أهمها سجلماسة ، فلقد شابهت هذه المدينة بنفوذها التجاري وحتى السياسي على سكان الصحراء مكة ما قبل الاسلام بالنسبة لشبه حزيرة العرب (٣٢) ومع سجلماسة والى الجنوب منها عند أطراف الصحراء مع السودان (افريقيا السوداء) قامت مكة أخرى هي أودغشت التي ارتبط ازدهارها « بازدهار سجلماسة ، فقد كانت تمثل محط رجال قوافل التجارة الكبرى بين سجلماسة باعتبارها أخر مدينة مغربية في اتجاه الجنوب وبلاد غانة ، هدف القوافل التجارية لتوريد الذهب والرقيق ، ولكنها لم تكن محط رحال القوافل لمجرد الاستراحة ، ثم مواصلة السير ، فذلك أمر لايكفي لخلق حركة تجارية دائبة وازدهار عمراني ، بل كان سوقها نقطة لقاء يغير فيها تجار قوافل الشمال بضائعهم المستوردة الى أودغشت من بلاد غانة ولاسيما الذهب»(٣٣) ومع الذهب الملح ، وربما ايضا الرقيق.


فاس
تاهرت
اعمات
سجلماسة
وارجلان
طرابلس
تعاري
كاو
0 كلم
600

وعدت مدينة اودغشت مدينة لمتونية ، وقد شدت أودغشت مع تجارة الذهب قبيلة لمتونة نحو السودان ، وهكذا ارتبط التاريخ المبكر لهذه القبيلة بالصحراء والسودان ، وظل مرتبطا حتى بعد قيام دولة المرابطين وتأسيس مدينة مراكش .

وسكن الملثمون داخل المدينة في بيوت بسيطة من الحجارة والطين أوداخل أكواخ من الخوص والشجر أو في خيم من الشعر والوبر ، وكان اثاث البيوت مثله مثل البسة الناس من الصوف ، وكان للمرأة بين الملثمين مكانة سامية ، وعدت أحيانا مساوية للرجل ، اقتنت الثروات وتمتعت بنفوذ كبير ، ولم يباشر النسوة الأعمال المنزلية ، حيث قام بها العبيد ، وسيمر بنا خبر زينب النفزاوية زوجة يوسف ابن تاشفين ومكانتها لديه ، وصدوره عن رأيها ومشورتها وانقسم مجتمع كل قبيلة أو عشيرة الى فئتين اجتماعيتين امتازتا عن بعضهما : السادة والأمجاد أو الرقيق ، ورست مقاليد الأمور والرساميل التجارية وقيادة الجيوش بأيدي السادة وكان الأمجاد لايباعون ولايعتقون ولكن يورثون ، ويقومون بمختلف الوظائف من رعي وأعمال يدوية ، ولهم الحق بالكسب وامتلاك الثروات شريطة دفعهم لنصيب محدود منها لسادتهم .

وكان الملثمون بشكل عام طوال القامة ، فيهم رشاقة ، لهم وجوه سمراء ، لايمشي الرجل منهم بدون سلاح وقد يحمل رمحين قصيرين لكل منهما سنان طويل مشحوذ من فولاذ جيد (٣٤) .

وقد قرأنا في صفحات تقدمت أخبار انطلاق عبد الله بن ياسين ومعه الأمير يحيى بن ابراهيم الجدالي ، واخضاعهما لقبيلة جدالة ثم قبائل لمتونة داخل الصحراء ، وطارت شهرة حركة المرابطين ونجاحات رجالها وعمت الأخبار « في جميع بلاد الصحراء وبلاد القبلة ، وبلاد المصامدة وسائر بلاد المغرب ، وانه قام رجل بجدالة يدعو الى الله والى طريق مستقيم ، ويحكم بما انزل الله ، وانه متواضع زاهد في الدنيا ، واشتهر ذلك ببلاد السودان» (٣٥) وفي هذه الأثناء توفي يحيى بن ابراهيم الجدالي ، ويرجح أن ذلك كان سنة

٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨ م وهنا عقد عبد الله بن ياسين مـؤتمرا لمقـدمي المرابطين وأقدم على اختيار الأمير اللمتوني يحيى بن عمر اللمتوني ، ودلل عبد الله بن ياسين بقراره هذا على أنه ملك بصيرة تاريخية ، ولعل علاقاته المتقدمة ، مع قبيلة جدالة ، وقدرات قبيلة لمتونة ، ولأنها كانت « اكثر قبائل صنهاجة طاعة لله تعالى ودينا وصلاحا ، فـكان عبد الله بن ياسين يكرمهم ويشرفهم ويقدمهم على قبائل صنهاجة ، وذلك لما أراد الله من ظهور أمرهم وتملكهـم على المغـرب والأندلس» (٣٦) .

« وكان يحيى بن عمر أشد الناس انقيادا لعبد الله بـن ياسـين وامتثالا لما يأمره به ، ولقد حدث جماعة أن عبد الله قـال له في بعض تلك الحروب : أيها الأمير إن عليك حقا ادبـا ، فقـال له يحيى : مـا الذي أوجبه علي ؟ قال عبد الله : اني لاأخبرك به حتى أؤدبك وأخـذ حق الله منك ، فطاع له الأمير بذلك وحكمه في بشرته ، فضربه الفقيه ضربات بالسوط ، ثم قال له : الأمير لايدخل القتال بنفسه لأن حياته حياة عسكره وهلاكه هلاكهم» (٤) .
وعلى هذا كان « عبد الله بن ياسين هو الأمير على الحقيقة ، لأنه هو الذي يأمر وينهي ويعطي ويأخذ »(٣٨) .

ويروى أن عبد الله بن ياسين تلقى مع الأمير الجديد رسائل مـن بعض مناطق الصحراء ، وخاصة من اهالي سجلماسة ، تشكو سوء الأوضاع وظلم الحكام ، وبالتالي تدعو المرابـطين ليتـولوا اعمـال الانقاذ ، ويبدو أن هذه الدعوات لاقت هوى في نفوس قادة المرابطين لكن يستخلص من مواد البكري أن مدينة اودغشت خضعت في هذه الآونة لملك غانة السوداني ، ورأينا من قبل أن هذه المدينة عدت مدينة لمتونية ، ولعل لمتونة فقدت هذه المدينة في مجـرى أحـداث الصـحراء ودخول لمتونة تحت ظل عبد الله بن ياسـين ، لهـذا أثـرت القـوات المرابطية التوجه اولا نحو اودغشت لاستردادها ، ويرجـح ان هـذا كان سنة ٤٤٦ هـ/ ١٠٥٤ م وتم الاستيلاء على اودغشـت عنوة ، ونهبت ، واستباح « المرابطون حـريمها ، وجعلوا جميع مـا اصابوا فيها فيئا »، واثر هذا بدأت تفقد اهميتهـا الاقتصـادية ليس فقـط

نتيجة لما لحقها من دمار وانما بسبب التحول الذي الم بطرق التجارة ومسالكها لاسيما بعد تأسيس مدينة مراكش وتأسيس دولة المرابطين والاستيلاء على الأندلس (٣٩) .

ولم تحسم معركة أودغشت مسألة الصراع مع السودان ، أو ماعرف أنذاك باسم غانة ، وظلت هذه الجبهة مشتعلة تستحوذ على قسط وافر من الامكانات العسكرية لقبيلة لمتونة ، وسيكون لهذا الجانب مع جانب استيلاء المرابطين على المغرب الأقصى وأجزاء من المغرب ثم الأندلس أبعد الآثار على تحديد مصير الدولة المرابطية ، ولاأقصد هنا الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والحضارية العامة ، بل أعني الطاقة البشرية ، فقد غدت طاقة لمتونة أدنى من أن تفي بمتطلبات الصحراء وجبهتها والدولة المرابطية واتساعها ، ولنتذكر في هذا المقام ما قدمه ابن خلدون في مقدمته حول عصبية الدولة .
والذي يعنينا الآن هو أن عبد الله بن ياسين بعدما فرغ من شؤون أودغشت بات بامكانه الالتفات نحو سجلماسة .

إن بقايا أودغشت موجودة في موريتانيا وبقايا سجلماسة في المملكة المغربية في اقليم تافللت أو الراشدية ، وكانت سجلماسة تحكم من قبل قبيلة زناتة واسم حاكمها مسعود بن وانودين المغراوي ، ولم يكن حكمه يحظى بالقبول من قبل علماء سجلماسة والصلحاء فيها ، وهكذا اجتمع سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م « فقهاء سجلماسة وفقهاء درعة وصلحاؤهم فكتبوا الى الفقيه عبد الله بن ياسين والى الأمير يحيى بن عمر وأشياخ المرابطين كتابا يرغبون منهم الوصول لبلادهم ليطهروها مما هي فيه من المنكرات وشدة العسف والجور ، وعرفوهم بما هم فيه بها أهل العلم والدين وسائر المسلمين من الذل والصغار والجور مع أميرهم مسعود بن وانودين الزناتي المغراوي .

فلما وصل الكتاب لعبد الله بن ياسين ، جمع رؤساء المرابطين ، وقرأ عليهم الكتاب وشاورهم في الأمر ، فقالوا له : أيها الشيخ الفقيه هذا مما يلزمنا ويلزمك ، فسر بنا على بركة الله تعالى ،

فأمرهم بالجهاز ، وخرج بهـم في الموفي عشرين لصـفر سـنة سـبع واربعين واربعمـائة (٢١ ـ ايار ١٠٥٥) في جيش عظيم مـن المرابطين ، فسار حتى وصل بلاد درعة ، فوجد عامل أمير سجلماسة فأخرجه عنها ووجد بها خمسين الف ناقة كانت بهـا في مـراعيها لصاحب سجلماسة مسعود المغراوي ، فعلم الأمير مسـعود بـذلك ، فجمع جيوشه وخرج نحوهم ، فالتقى الجمعان ، فكانت بينهم حروب عظيمة منح الله تعالى المرابطين فيهـا النصر على مغـراوة ، فقتـل مسعود بن وانودين المغراوي واكثر جيوشه وفر الباقون ، فأخذ عبد الله بن ياسين اموالهم ودوابهم واسلحتهم مع الابل التـي أخـذ في درعة ، فأخرج منها خمس جميعه ففرقه في فقهاء سـجلماسة ودرعة وصلحائها ، وقسم الباقي على المرابطين . وارتحل من فـوره حتـى دخل مدينة سجلماسة فقتل من وجد بها من مغراوة ، وأقام بها حتى هدنها واصلح أحوالها ، وغير ما وجد بهـا مـن المنكرات ، وقـطع المزامير ، وأحرق الديار التي كانت تباع بها الخمر ، وأزال المكوس ، واسقط المغارم المخزنية ، وترك ماأوجب الكتاب والسنة تركه ، وقدم عليها عاملا من لمتونة وانصرف الى الصحراء» (٤٠) .

وبعدما انتهى عبد الله بن ياسين من مهامه في سجلماسة غادرها عائدا الى الصحراء ، غير أن اهل سجلماسة مـالبث أن وجـدوا أن حكامهم من بداة لمتونة أشد قسوة وخشونة ممن تقدمهم ، فشـعروا بالخيبة والندم ، وعقدوا العزم على استعادة استقلالهم ، وشـجعهم على هذا أن قبيلة زناتة اعادت جمع قواها ، وأن عبد الله بن ياسين يعاني من مشاكل كثيرة مع قبيلة جدالة ومـع اللمتـونيين ، وهـكذا ثارت سجلماسة وتم الفتك بالحامية المرابطية فيها .

ولما عرف ابن ياسين بما جرى في سجلماسة قرر استعادتها بأي ثمن ، فندب « المرابطين الى غزو زناتة ثانية فـأبوا عليه ، وخـالف عليه بنو جدالة وذهبوا الى ساحل البحر ، فأمر عبد الله الأمير يحيى أن يتحصن بجبل لمتونة ، وهو جبل منيع كثير الماء والكلا ، في طـوله ستة أيام وفي عرضة مسافة يوم ، وهناك حصن ازقـي حـوله نحـو

عشرين الف نخلة ، كان بناه يانوا بن عمر الحاج اخو يحيى بن عمر ، فصار يحيى في جبل لمتونة ، وذهب عبد الله بن ياسين الى سجلماسة في مائتي رجل من قبائل صنهاجة ، ونزل موضعا يقال له تامدولت ، حصن فيه مياه ونخل كثير»(٤١) .

ومن موقعه الحصين استطاع ابن ياسين أن يجمع جيشا من قبائل الملثمين سرطة وترغة كما انه استدعى اليه الأمير ابو بكر بن عمر ، وهو اخو يحيى بن عمر ، وكان معسكرا في درعة ، وبهذا امتلك مايكفي من القوات لاسترداد مدينة سجلماسة ، وهكذا توطد سلطان المرابطين في اقليم الواحات ، وعين ابن ياسين يوسف بن تاشفين واليا على سجلماسة ،« ولما ولي يوسف بن تاشفين احسن الى الرعية واقتصر منهم على الزكاة » (٤٢) .

وفي الوقت الذي كان ابن ياسين فيه في سجلماسة كانت قبيلة جدالة قد جمعت قواها وارادت اغتنام الفرصة فعادت نحو « يحيى ابن عمر فحاصروه في الجبل وذلك سنة ثمان وأربعين وهم في نحو ثلاثين الفا » وقاوم يحيى بن عمر جدالة ، غير أنه عبثا فعل حيث قتل « وقتل معه بشر كثير » (٤٣) .

وامام الوضع الجديد عين عبد الله بن ياسين أبا بكر بن عمر خلفا لأخيه ، وسعى للانتقام من جدالة ثم للخروج من الصحراء لقتال برغوطة ، تنفيذا لوصية أبي عمران الغفجومي ، ويرجح أن سجلماسة باتت الآن حاضرة مؤقتة للمرابطين أو لنقل لدولة المرابطين الناشئة فقد وصلنا ديناران ضربا في سجلماسة ويحملان اسم الأمير ابي بكر بن عمر ، وتاريخ الأول منهما سنة ٤٥٠ هـ والثاني ٤٥٦ هـ ، ونعرف مماجاء على الدينارين أن الدولة الجديدة التي قامت الآن في سجلماسة اعلنت الولاء للخلافة العباسية في بغداد (٤٤) .

وازداد تعداد القوات المرابطية ، ووجدت القيادة الموزعة مابين ابي بكر بن عمر وعبد الله بن ياسين من الضرورة بمكان الخروج من الصحراء الى الأراضي المغربية ، وهكذا تورطت الحركة المرابطية في

حماة مادخلته جميع الثورات والحـركات الاصـلاحية وسـواها في الاسلام بتوجيه امكاناتها نحـو داخـل أرض الاسـلام ، وبسـط سلطانها على المسـلمين ، وقـد يرى بعض البـاحثين نوعا مـن الاستثناء في تاريخ المرابطين ، حيث سنجد فيما سـنرويه بعـد قليل انشطار القوات المرابطية ، وعودة قسـم كبير منهـا الى الصـحراء بقيادة أبي بكر بن عمر ، لكن أبابكر عاد لغايات دفاعية عاد للدفـاع عن الصحراء ضد السودان ، وليس للتوسع في بلادهم ، ذلك انه اتخذ من الصحراء مقرا له ، ومن سجلماسة عاصمة ، وقد تكرس هذا بعد بناء مدينة مراكش ، وفي الصحراء مات ابو بكر بن عمـر فخلفـه في سلجماسة ابنة ابراهيم ، **فقد وصلنا من دنانير ابراهيم دينار ضرب في سلجماسة سنة ٤٦٢ هـ/ ١٠٦٩ م** (٤٥) .

وكانت مسوغات الخروج من الصحراء الى المغرب القتـال ضـد زناته وضد برغواطة وبعض القوى المتطرفة الأخرى ، وازالة الفوضى والظلم ، والسيطرة على المناطق الساحلية لمزيد من التحكم بالتجارة الخارجية وعجل باتخاذ قرار الخروج تعرض الصـحراء للجفـاف ، روى النويري عن ابن شداد قوله :« وفي سـنة خمسـين وأربعمـائة قحطت بلاد الملثمين ، وماتت مواشيهم ولقوا شدة عظيمة ، فأمر عبد الله ضعفاءهم بالخروج الى السوس الأقصى وأخذ الزكاة ، فخرجوا وقالوا : نحن مرابطون خرجنا اليكم من الصحراء نطلب حق الله من أموالكم ، فجمعوا لهم شيئا له بال ، فرجعوا به الى الصـحراء ثـم ضاقت الصحراء بالمرابطين لشظفها وكثرتهم ، فطلبوا اظهار كلمـة الحق ، فخرجوا الى السوس الأقصى ، فتسـامع بهـم أهـل البـلاد فاجتمعوا وجيشوا وخرجوا لقتالهم »(٤٦) .

لقد اصطدم المرابطون أولا ببعض قوات مصـمودة ، لكن هـدفهم كان اقليم تامسنا المغربي حيث وجدت دولة بـرغواطة ، وبـرغواطة بالأصل من قبائل المصامدة ، وقامت دولة برغواطة على أساس ديني مزج بين بقايا الوثنية لما قبل الاسلام لدى البربر وافـكار الشـيعة والخوارج والرافضة والمعتزلة ، وقيل أسس الدولة صالح بن طريف وكان طريف من موالي موسى بن نصير بعثـه كمـا رأينا في بعثـة

استطلاعية الى الأندلس قبل فتحها ،وقامت هذه الدولة على سواحل المغرب الأقصى وامتدت فيما بين نهري سلا (قرب الرباط الحالية) الى نهر أم الربيع ، وعاشت منذ أواخر القرن الأول للهجرة حتى بعد تاريخ غزوها من قبل عبد الله بن ياسين ممارسة سياسة رعب في البر والبحر ، وقد كان القضاء عليها مطلبا دينيا وسياسيا ، لكن ذلك لم يكن بالأمر الهين .

ومهما يكن من أمر سار الأمير ابو بكر بن عمر على راس جيوش المرابطين وبرفقته فقيهه عبد الله بن ياسين وخاضت الجيوش المرابطية قتالا قاسيا ضد برغواطة استمر حتى عام ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م ، وفي اثناء القتال اصيب عبد الله بن ياسين باصابات مميتة توفي اثرها وقد دفن بكر يفلة ، ومازال قبره معروفا في المملكة المغربية أقيم عليه ضريح كبير يزوره المغاربة .

وبعد وفاة عبد الله بن ياسين تابع المرابطون القتال حتى حققوا النصر ، ولذلك توجه أبو بكر عائدا مع جيوشه نحو أطراف الصحراء فعسكر في مدينة اغمات ، وكانت أكبر حواضر قبائل مصمودة ، وفي اغمات تزوج أبو بكر من زينب النفراوية ، وكانت امرأة جميلة ثرية ، ارملة لواحد من كبار التجار أو الأعيان ، لكن ابا بكر لم يقم طويلا في أغمات حيث وردت عليه الأخبار من داخل الصحراء باختلال امورها ، فاتخذ قراره بالعودة الى الصحراء وصحب معه شطرا من جيوشه ، وقبل سفره عين مكانه يوسف بن تاشفين ، وطلق زوجته فتزوجها يوسف ذلك انها كانت « امرأة حازمة لبيبة ذات رأي وعقل وجزالة ومعرفة بالأمور ، حتى كان يقال لها الساحرة ».

كان أبو بكر « رجلا صالحا كثير الورع ، فلم يستحل قتال المسلمين وسفك دمائهم » لذلك أثر العودة الى الصحراء « ليصلح احوالها ويقيم بها ليجاهد الكفار من السودان ، فلما عزم على الخروج الى الصحراء طلق زوجته زينب وقال لها عند فراقه لها : يازينب انك ذات حسن وجمال فائق ، وانت لطيفة لاطاقة لك على بلاد الصحراء ، واني مطلقك فإن تممت عدتك فتزوجي ابن عمي يوسف بن تاشفين ،

فهو خليفتي على بلاد المغرب » واخذ ابو بكر الطريق الى سجلماسة ويبدو ان الأمور لم تستقم له فيها لسنوات طوال فقد قال البكري « وامير المرابطين الى اليوم وذلك سنة ستين واربعمائة ابو بكر بن عمر ، وامرهم منتشر غير ملتئم ومقامهم بالصحراء» (٤٧) .

إن مسألة تأسيس مدينة مراكش ، ودور يوسف بن تاشفين – الذي لم يذكره البكري – في اقامة الدولة المرابطية في المغربين الأقصى والأوسط ، ثم مد الحكم المرابطي الى الأندلس هو ماسنتناوله في الفصول التالية ، ولعله من المفيد أن نختم هذا الفصل بالتعرف الى نهاية ابي بكر بن عمر ، حيث قيل إنه مكث في الصحراء حتى استقرت الأمور فيها ، وهنا عرف بالنجاحات التي حققها يوسف بن تاشفين في المغرب ، فقدم الى مراكش وفي نفسه عزل يوسف ، لكن ابن تاشفين احتاط للأمر واخذ بنصيحة زوجته زينب ، مما ادى الى نجاحه ، فما كان من ابي بكر بعدما تسلم هدايا كثيرة من يوسف ، وبعدما عرف انه لن يتخلى عن عمله ما كان منه الا أن سلم للأمر الواقع فالتقى بيوسف وخاطبه قائلا :« يا يوسف اني وليتك هذا الأمر ، واني مسؤول عنه ، فاتق الله في المسلمين وأعتقني واعتق نفسك ، ولاتضيع من امور رعيتك شيئا فانك مسؤول عنهم ، والله تعالى يصلحك ويمدك ويوفقك للعمل الصالح والعدل في رعيتك ، وهو خليفتي عليك وعليهم ، ثم ودعه وانصرف الى الصحراء » (٤٨) .

والسؤال الذي يواجهنا الآن متى حدث هذا ؟ من الصعب الحصول على تاريخ متفق عليه ، فقد ذكر ابن عذاري صاحب الحلل الموشية ان ذلك كان سنة ٤٦٥ هـ ، وان ابا بكر عاش بعد عودته الى الصحراء ثلاث سنوات حيث قتل أثناء حروبه ضد السودان ، ولاشك أن ابا بكر عاد من الصحراء بعد سنة ٤٦٠ ، لكن ليس سنة ٤٦٥ هـ ذلك أن زينب النفزاوية توفيت في سنة أربع وستين واربعمائة » (٤٩) ولم يذكر ابن خلدون سنة عودة أبي بكر لكنه متفق مع رواية روض القرطاس في أنه توفي سنة ٤٨٠ هـ ، وكذلك فعل لسان الدين بن الخطيب (٥٠) .

وقد نفترض أن زينب النفزاوية توفيت بعد سـنة ٤٦٤ هـ لكن هنالك مشكلة أخرى تتمثل في وصول دينار ذهبي ضرب في سجلماسة ٤٦٢ هـ جاء عليه فقط اسم الأمير ابراهيم بن أبي بكر (٥١) ومقدر ان في ذكر ابراهيم لاسمه وحده دون اضافة اسم أبيه ، أن الأب كان في سنة ٤٦٢ هـ في عداد الأموات ، فهل كان فعلا ؟ إن هذا ماأكده كل من ابن الأثير والنويري نقلا عن ابن شداد (٥٢) .

الفصل الثالث

يوسف بن تاشفين وقيام دولة المرابطين بالمغرب والجواز الأول الى الاندلس

مر معنا من قبل أن البكري الذي كان يكتب عن المرابطين سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م لم يعرف يوسف بن تاشفين مع ان الرجل كان كما توحي المصادر الأخرى كان في العقد السادس من عمره وكان من ابرز زعماء المرابطين ، وجاء لدى كل من صاحبي روض القرطاس والحلل الموشية ما يفيد أن ابن تاشفين كان ابن عم ابي بكر بن عمر ، ابن عمه لحمة ، يجتمع معه في جدهم «ابراهيم بن تورقيت » والد كل من تاشفين وعمر . لكن والرجل بهذه المكانة وهذا النسب لماذا لم يعرفه البكري ؟

والمثير للانتباه أن الادريسي عندما تحدث عن أهم قبائل صنهاجة أوحى الينا بأمر اخر حول القرابة فيما بين ابن تاشفين والأخوين أبي بكر ويحيى بن عمر . يقول **الادريسي** « ومن قبائل صنهاجة بنو منصور وتمية وجدالة ولمتونة ، وبنو ابراهيم وبنو تاشفين. وبنو محمد وجمل من صنهاجة » ،(١)فهل ياترى انحدر يوسف من بني تاشفين وانحدر ابو بكر مع أخيه من بني ابراهيم ؟ إذا صح هذا ففيه تبيان لنوع القرابة التي ربطت يوسف بالأميرين اللذان تقدماه .

وترجم ابن خلكان في وفيات الأعيان ليوسف بن تاشفين، واستقى معلوماته من كتاب حمل اسم «المعرب عن سيرة ملوك المغرب» لم يهتد الى مؤلفه غير انه وجد في مطلع النسخة التي نقل عنها أنها كتبت في الموصل سنة تسع وتسعين وخمسمائة «وجاء في

هذه النسخة « كان بـــر المغـــاربة الجنوبـــي لقبيلة تســـمى زناتة ، فخرج عليهم من جنوبي المغرب من البـلاد المتـاخمة لبــلاد السودان الملتمون يقدمهم ابو بكر بن عمر ، وكان رجلا سانجا خير الطباع ، مؤثرا لبلاده على بلاد المغــرب ، غير ميال الى الرفــاهية، وكانت ولاة المغرب من زناتة ضعفاء لم يقاوموا الملثمين ، فاخذ البلاد من ايديهم من باب تلمسان الى ساحل البحر المحيط ، فلمــا حصلت البلاد لأبي بكر بن عمر المذكور ســمع ان عجــوزا في بــلاده ذهبت لها ناقة في غداة فبكت وقالت ضيعنا ابــو بــكر بــن عمــر بدخوله الى بلاد المغــرب ، فحمله ذلك على ان اســتخلف على بــلاد المغرب رجلا من اصحابه اسمه يوسف بــن تــاشفين ، ورجــع الى بلاده الجنوبية . وكان يوسف هذا رجــلا شــجاعا عادلا مقــداما، اختط بالمغرب مدينة مراكش »(٢).

وكنا قد سمعنا عن يوسف بن تاشفين للمــرة الأولى لدى تــوليته سجلماسة ثم في الحملة ضد برغواطة ، ولقد عاد مع ابي بكر بن عمر وعسكر معه في اغمات ، وكانت حاضرة ديار قبائل مصمودة ، ولم يعش ابو بكر بن عمر طويلا في اغمــات بــل عاد نحــو الصــحراء، وحين فعل ذلك اوكل الأمور في بلاد المغرب الى يوسف بن تاشفين حتى انه طلق زوجته زينب النفراوية واوصاها بالزواج من يوســف ففعلت

لم تمحض قبائل مصمودة الولاء للمرابطين ، وكانت اغمات التي اتخذت الآن حاضرة لهم بلدة مــزدهرة غير ان ســكانها كانوا مــن مصمودة ، وكانت منقسمة الى بلدتين هما اغمات وريكة واغمــات هيلانة ، وكان ان تخلص اغمات للمرابطين معناه اخراج اهلها منها واسكان المرابطين محلهم ثم تــوحيد المدينة وتحصــينها بــالأسوار وغير ذلك من الوسائل الدفــاعية ، ولم يكن هــذا ممــكنا ، يقــول الزهــري :« والمصــامدة خلق كثير ، مســيرة بــلادهم عشرون يوما ، وعندهم بالمغرب الكســب الكثير مــن بقــر وغنم ، والزرع قليل ، واكثر فاكهتهم العنب والزيتون والتين ...

واما مدينة اغمات التي هي في اقصى هـذا الصـقع فهـي مـدينة موسومة بالقدم ، وكانت حاضرة المصامدة ، وبالقرب منها البـركة العظيمة التي تجتمع فيها مياه اغمات كلها ، وهـي كثيرة الفـواكه والكروم والزرع والضرع» (٣) .

لذلك توجب على المرابطين اتخاذ حاضرة لهم خاصة بهم بدلا من اغمات ، فجرى استطلاع المنطقة فوقع الاختيار على موقع مراكش. وجاء عند صاحب الحلل الموشية :« لما خرج ــ ابو بكر بن عمر ــ من الصحراء باللمتونيين ، واحتلوا بأغمات وريكة ، وكثر الخلق بها وضيقوا على اهلها ، وكانوا على حال صعبة ، شـكا اشـياخ وريكة وهيلانة الى الأمير ابي بكر بن عمر مـا يلحقهـم في ذلك مـن العناء والمشقة وانهوه اليه المرة بعد المرة ، الى أن قال لهم : عينوا لنا موضعا نبني فيه مدينة ان شاء الله.

فاجتمعوا على أن يكون بناؤها بين بلاد هيلانة وبين بلاد هزميرة فعرفوا بذلك الأمير ابا بكر بن عمر ، وقالوا له : قد نظـرنا ايهـا الأمير موضعا صحراء ، رحب الساحة واسع الفناء يليق بمقصدك. وقالوا له :(وادي) نفيس جنانها ، وبلاد دكالة فـدانها وزمـام جبل درن بيد اميرها» (٤) .

ولعل النقطة الهامة في هـذا ليس تبيان الامـكانات الاقتصـادية للموقع المرتاد وانما «زمام جبـل درن» فهنا مفتـاح السـيطرة على المنطقة وضمان التواصل مـع الصحـراء ، ويسـتخلص ممـا رواه صاحب الحلل الموشية أن بداية هذا المشروع العـظيم جـاءت سـنة ٤٦٠ هـ/ ١٠٥٨ م ، وذلك في ظل قيادة ابي بكر بن عمر ، فهو كان موجودا في اغمات ، ويضيف صاحب الحلل انه شرع في بناء المدينة الجديدة «سنة اثنتين وستين واربعمائة » وانه بينما «الأمير ابو بكر ابن عمر قد نزل بها واخذ في بناء الديار ، اذ وفد عليه رسول من قبيلة لمتونة بالصحراء ، يعلمونه أن جدالة اغارت عليهم ، وكانت بينهـم فتنة دائمة ، فاستخلف ابن عمه يوسف بن تـاشفين على المغـرب، ودخل الى الصحراء لاصراخهم ولأخذ ثأرهم من عدوهم»(٥) .

وليس من السهل الركون الى هذه الرواية والأعتماد على ما جاء بها من تواريخ ، فلقد راينا من قبل أن ابا بكر بن عمر عاد الى الصحراء للحرب ضد السودان وعلى جبهة السودان قضى ، ثم إن دينار ابنه ابراهيم وما ذكره ابن الأثير والنويري قد دعانا الى مراجعة الروايات المعطاة الينا وبعض المصادر حول تاريخ وفاته ذلك أن المعتمد دوما هو الوثيقة لاسيما اذا دعمتها بعض الروايات ، هذا وجعل صاحب روض القرطاس تاريخ تاسيس مراكش سنة ٤٥٤ هـ/١٠٦٢ م (٦) .

ومهما يك من أمر يبقى تاريخ مراكش مرتبط بيوسف بن تاشفين لابل اكثر من هذا إن تاريخ حكم المرابطين بالمغرب ثم بالأندلس مرتبط بشخصية يوسف بن تاشفين ، وبعد يوسف عاشت دولة المرابطين بداية النهاية .

وجاء رسم اسم مراكش في المصادر المبكرة «مروكش» او ما يشابه ذلك ، وقد اختلف حول تأويل هذه التسمية وتركيبها وارجح الآراءالحديثة أن معناها «هو حمى الله او المكان الذي ترعى فيه عهود الله»(٧)أو المرعى فقط .

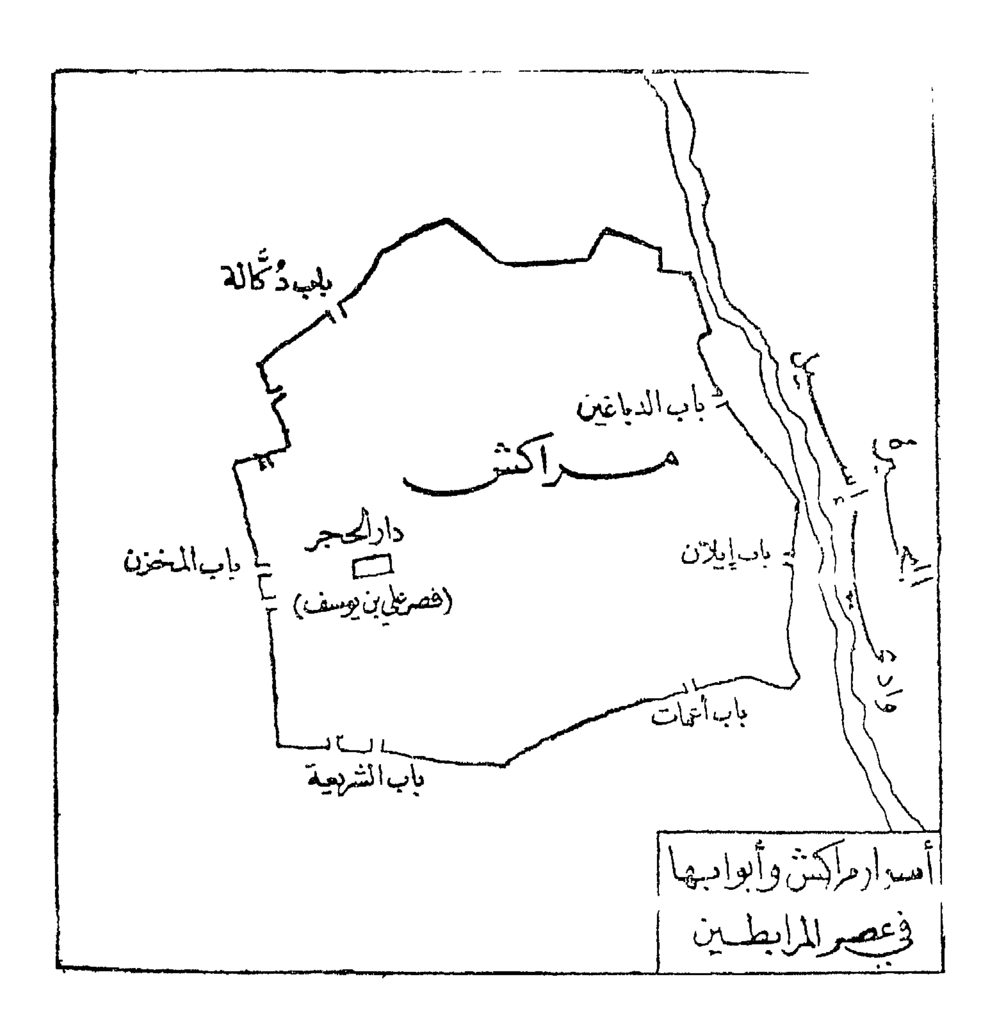
وبنيت المدينة الجديدة بدون تصور موحد او خريطة ، مثلما فعل المنصور العباسي عندما بنى بغداد ، واستخدم الناس في بناء دورهم الآجر ، إنما بني ليوسف دار من الحجر (قصر الحجر) وعلى مقربة منه شيد المسجد الجامع ، وحول هذا المسجد قامت بعض الأسواق. إنما يبدو أن هذه المدينة وإن حصرت بأسوار دفاعية تكونت بالأصل من عدة أحواز كان كل منها أشبه بقرية منفردة ، ومرد هذا الى أن كل عشيرة أو مجموعة بشرية متجانسة اتخذت لنفسها رقعة من الأرض اختطت عليها مساكنها ، وحين قلت مجموعة بشرية متجانسة هدفت الى الاشارة الى أن أعداد كبيرة من الأندلسيين سكنت المدينة ، انتقل بعضهم من اغمات وقدم بعضهم الآخر بعدما ما جذبته الدولة الجديدة ، والهجرة من الأندلس الى المغرب تصاعدت وتيرتها بنتائج حرب الاستغلاب والاضطراب السياسي في

ظل دول الطوائف ، وفيما بعد بسبب اعتماد دولة المرابطين على خبرة الأندلس في جميع المجالات ، وكان لهؤلاء الأندلسيين أعظم الآثار في تكوين شخصية المغرب الأقصى حضاريا وعمرانيا وثقافيا.

ومن المرجح أن يوسف بن تاشفين لم يحسن العربية ولاالقراءة والكتابة وان الأندلسيين تعلموا بسرعة لغة اللمتونيين فقاموا بدور الاداري والمترجم ،جاء عند ابن خلكان :«وكان يوسف بن تاشفين لايعرف اللسان العربي ، ولكنه كان يجيد فهم المقاصد وكان له كاتب يعرف اللغتين العربية والمرابطية»(٨) .

وسكن مراكش بعض الأندلسيين وسواهم من غير المسلمين عملوا كمرتزقة في قوات المرابطين ، (٩) ويبدو أن الموقع الذي اختير لبناء المدينة المرابطية الجديدة كان معروفا وقع على طرق التجارة ، وكان فيه وقت وقوع الاختيار عليه « قرية صغيرة في غابة من الشجر» (١٠) وفي الحقيقة لانعرف فيما اذا كان الأندلسيون قد شغلوا دورا ما في خطط المدينة المرابطية الجديدة وفي تطويرها كما أننالانعرفكم استغرق العمل فيها ، والمهم لدينا انه بتأسيس مراكش امتلك المرابطون قاعدة انطلقوا منها لبناء دولتهم المغربية الأندلسية ، وامتلك ــ بالوقت نفسه ــ المغرب الأقصى مدينة غدت مع الأيام قاعدة متقدمة للاسلام وحاضرة هي الأكبر والأهم في الشمال الأفريقي .

من مدينة مراكش انطلق يوسف بن تاشفين نحو بناء دولة المرابطين المغربية ، وقد توجب عليه انتزاع معظم بلدان المغرب من قبيلة زناتة(١١) . لكن لم يكن بامكانه الانصراف ضد زناتة حتى يتخلص من خطر برغواطة التي جمعت فلولها ، وتولى امرها امير عرف بأبي حفص عبد الله (١٢) . وقام يوسف بن تاشفين أولا بمراسلة برغواطة فبعث بوفد من علماء المالكية الى بلاد تامسنا ، والتقى هذا الوفد مع رجالات برغواطة في مدينة انفا (الدار البيضاء حاليا) المطلة على المحيط الأطلسي ، وقرر البرغواطيون«اعدام السفراء ونفذوا قرارهم ، وعبأوا بعد ذلك


باب دُكّالة
باب الدباغين
مراكش
دار الحجر
باب إيلان
باب المخزن
(قصر علي بن يوسف)
باب أغمات
باب الشريعة
أسوار مراكش وأبوابها
في عصر المرابطين

جيشا قوامه خمسون الف محارب قاصدين طرد قبيلة لمتونه من مراكش ومن المنطقة كلها ، وعندما علم يوسف بذلك انتابه اشد غضب انتابه في حياته ، فجمع جيشا عظيما ولم ينتظر قدوم العدو الى مراكش ، ووصل خلال ثلاثة ايام الى الاقليم بعد أن عبر نهر أم الربيع ، وعندما راى اهل تامسنا هذا الجيش الزاحف لمواجهتهم بحمية شديدة ، انتابهم الخوف وتحاشوا المعركة وعبروا نهر ابي الرقراق في اتجاه فاس ، تاركين اقليمهم ، وحينئذ اباح الملك يوسف هذا الاقليم وسكانه لجيشه ، فأصبح طعمة للنار والدم والنهب والتقتيل للكبار والصغار حتى الأطفال الرضع.

وفي خلال الأشهر الثمانية التي جاس فيها البلاد عمل على تخريبها حتى لم يبق فيها سوى بعض أطلال من المدن التي كانت قائمة فيها ، أضف الى ذلك أن ملك فاس الذي بلغه نبأ قصد أهل تامسنا عبور نهر ابي الرقراق زاحفين باتجاه فاس ، عقد هدنة مع قبائل زناته ، واتجه نحو النهر المذكور على راس جيش لجب ، وهناك واجه ملك تامسنا البائس الذي كانت قواته منهوكة القوى تماما بسبب الجوع والبؤس ، ولما حاول ملك تامسنا عبور النهر وجد الممر مسدودا في وجهه بتأثير قوات ملك فاس ، وهكذا اضطر هؤلاء البؤساء بعد أن اصبحوا مطاردين ويأسوا من قضيتهم إلى التشتت في الغابات وبين الصخور التي يعسر اجتيازها ، وبعد أن طوقوا وحوصروا من قبل الجيوش الملكية ابيدوا بثلاث طرائق ، فبعضهم غرقوا فعلا في مياه النهر ، وبعضهم الآخر طوردوا في مناطق الجروف الصخرية فدقت أعناقهم بعد سقوطهم في الفراغ ، وحتى الذين استطاعوا أن يخرجوا من الماء سقطوا في أيدي رجال الملك حيث قطعت رؤوسهم بالسيف ، وهكذا راح سكان تامسنا يتناقصون ثم ابيدوا قاطبة في مدة عشرة أشهر ، ويقدر أن عدد الضحايا بلغ المليون بين رجال ونساء وأطفال.

وعاد يوسف ملك لمتونة إلى مراكش كي يعيد تنظيم جيشه ضد ملك فاس وترك تامسنا مأوى للأسود والذئاب والبوم» (١٣) .

وقرأنا قبل قليل ما نقله ليون الافريقي من أن يوسف بن تاشفين عاد الى مراكش بعد القضاء على برغواطة ليعد العدة للزحف ضد فاس ويعطينا ابن عذارى سنة ٤٦٧ هـ/ ١٠٧٥ م على أنه التاريخ الذي استولى فيه يوسف على فاس بشكل نهائي ، وأيده بهذه الرواية صاحب الحلل الموشية (١٤) ويعني هذا ان الحملة على برغواطة انتهت قبل هذا التاريخ بوقت قريب ، لكن يضعف هذه الرواية ما ذكره البكري الذي كان يكتب سنة ٤٦٠ هـ أن « جميع برغواطة اليوم على ملة الاسلام» (١٥) هذا وروى صاحب روض القرطاس أن الاستيلاء النهائي ليوسف بن تاشفين على مدينة فاس كان« يوم الخميس ثاني جمادى الآخرة سنة اثنتين وستين واربعمائة (١٦) (١٨ /أيار ١٠٧٠ م) وكانت عمليات يوسف ضد فاس قد بدأت منذ سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢م ، وارجح أن ابن تاشفين انفرد منذ هذه السنة بحكم المغرب ، وانه في هذه السنة عاد إلى مراكش من الصحراء ابو بكر ابن عمر ناويا عزل يوسف فأخفق وسلم له بالأمر ومن ثم عاد إلى الصحراء ، يقول صاحب روض القرطاس وفي سنة أربع وخمسين « تقوى أمر يوسف بن تاشفين بالمغرب وكبر صيته ، وفيها اشترى موضع تأسيس مدينة مراكش ممن كان يملكه من المصامدة ، فسكن الموضع بخيام الشعر ، وبنى فيه مسجدا للصلاة وقصبة صغيرة لاختزان امواله وسلاحه.....وفي سنة أربع وخمسين المذكورة جند يوسف الأجناد واستكثر القواد ، وفتح كثيرا من البلاد ، واتخذ كثيرا من الطبول والبنود ، وأخرج العمال وكتب العهود ، وجعل في جيشه الأغزاز والرماة ، كل ذلك ارهابا لقبائل المغرب ، فكمل له من الجيش في تلك السنة ازيد من مائة الف فارس » (١٧) .

واعطانا صاحب الحلل الموشية مزيدا من التفاصيل حول تطوير يوسف بن تاشفين لقدراته العسكرية حتى « قوي أمره ، وعظمت شوكته ، فاشترى جملة من عبيد السودان ، وبعث إلى الأندلس فاشترى منها جملة من العلوج فأركبهم ، وانتهى عنده منهم مائتان

وخمسون فارسا ، شراء بما له ، ومن العبيد نحو الفين ، فأركبهم فرسانا ، فغلظ حجابه ، وعظم ملكه »(١٨) .

ولا شك ان شعور يوسف بالخطر على ذاته قد دفعه لشراء اعداد كبيرة من الرقيق الابيض والأسود اتخذهم حرسا له ، ومقدر ان مصدر الخطر على يوسف كان ابو بكر بن عمر فهو صاحب عصبية لمتونة والمرابطين.

وبهذه القوة دفع يوسف بن تاشفين خطر ابي بكر بن عمر ثم دفع ايضا بسهولة اكثر خطر إبراهيم بن ابي بكر بن عمر الذي قدم من الصحراء بعد وفاة والده « يطلب ملك أبيه فنزل بخارج أغمات في خلق كثير من اخوانه لمتونة ، فسمع بذلك امير المسلمين ، فبعث إليه الأمير مزدلي فقال ما الذي تريد يا ابراهيم؟ قال اطلب ملك ابي الذي غصبنا فيه عمي يوسف ، قال مزدلي: إن الملك بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله تعالى قد خص هذا الرجل بالملك دوننا ، فان كنت عاقلا فاطلب منه أن يعينك بمال وخيل ترجع بها الى بلدك ، وإن طلبت غير هذا اخاف أن يجعل على رجلك قيدا ، ويحبسك عنده عبدا ، وما قلت لك ذلك إلا بوجه الشفقة عليك ، فقال له: يا عمي مزدلي رضي الله عنك ،عسى أن تجتمع معه في أمري وتبين له حالي .

وكان الأمير مزدلي حسن السياسة ، صحيح المذهب ، عارفا بخدمة الملوك ، فهدن ابراهيم المذكور ، وقال له اقم في موضعك حتى اتيك بكل ما يرضيك ، فانصرف عنه ووصل الى الأمير يوسف بن تاشفين فحسن كلامه إليه ، وانعم الأمير يوسف عليه بمال وخيل وكسى وغير ذلك بعدما بولغ في كرامته وضيافته ، واحتمل له ذلك مزدلي ، فشكره الولد على ذلك وانصرف عنه من هنالك ولم يجتمع بالأمير يوسف وما رآه وانصرف إلى الصحراء وبقي بها إلى ان مات »(١٩) .

ونعود ثانية إلى مسألة استيلاء يوسف بن تاشفين على

فاس ، ذلك أن هذا الاستيلاء هو الذي جعل دولة المرابطين دولة مغربية ، فقد كانت فاس دوما حاضرة المغرب الأقصى من كافة الجوانب وكانت أحوالها مضطربة قبيل الاستيلاء عليها ، ولقد رأينا أن اضطراب الأحوال فيها كان وراء مغادرة أبي عمران الفاسي لها ، وكانت فاس تتألف من مدينتين هما: عدوتي الأندلسيين والقرويين ، لكل مدينة أسوارها وموقفها المعادي من الأخرى ، وقد حكمتا قبيل استيلاء يوسف بن تاشفين عليهما من قبل أخوين هما: الفتوح بن دوناس وعجيسة بن دوناس اللذان انتميا إلى قبيلة زناتة ، وتحصن الفتوح في عدوة الأندلسيين وعجيسة في عدوة القرويين « وكانت بين الأخوين عداوة وصار القتال بينهما وبين أهل العدوتين...وكثر الهرج بسبب ذلك في أرض المغرب واشتد الغلاء إلى أن ظهر أمر لمتونة في أطراف المغرب ، وظفر الفتوح بأخيه عجيسة فقتله...وبعد أن ظفر بأخيه أتاه لمتونة فنزلوا عليه وحاصروه ، وتخلى عن المدينة فوليها معنصر ابن عمه ، إلى أن دخلها لمتونة وقتل من بها من زناتة »(٢٠) .

وبعد استيلاء يوسف على فاس « أمر بهدم الأسوار التي كانت بها فاصلة بين المدينتين: عدوة القرويين وعدوة الأندلس وردهما مصرا واحدا ، وأمر ببنيان المساجد في أحوازها وأزقتها وشوارعها ، وأي زقاق لم يجد فيه مسجدا عاقب أهله وأجبرهم على بناء مسجد فيه ، وبنى الحمامات والفنادق والأرحاء ، وأصلح **أسواقها وهذب بناءها** »(٢١) .

بعد استيلاء يوسف بن تاشفين على مدينة فاس شعر أن عليه إكمال مد سلطانه في مختلف الاتجاهات ، وهكذا سيطر على تلمسان وعلى مناطق أخرى من المغربين الأوسط والأقصى ، وكان بعد الاستيلاء على إقليم تامسنا قد تملك شواطىء المغرب الأقصى الأطلسية ، فالتفت نحو الشواطىء المتوسطية فانتزع ملكية طنجة وسبتة ، وشرع يتخذ لنفسه أسطولا خاصا (٢٢) .

والآن وقد عدا يوسف بن تاشفين سلطان دولة واسعة الأرجاء

بحث عن مجالات جديدة للتوسع ، وعن لقب يليق بـه وعن الشرعية ايضا .

كان هناك مجال واحد أمام يوسف للتوسع هو الأندلس ، وكان ذلك عملا مسوغا ومرغوبا به ، ولقد كان التوسع باتجاه المغـرب الأدنى مغامرة غير محمودة العواقب ، وكانت العـودة إلى الصـحراء غير واردة ، وتوجب على يوسف إشغال قواته القبلية في جبهة فيها جهاد ومنافع ، وكان مثل هذا ما واجهه قادة السلاجقة بعد الاستيلاء على خراسان ، وإيقاف رجال القبائل الصحراوية وسواها عن الأعمـال العسكرية المربحة كان أمرا لايمكن ليوسف تحمله ، ولعله مثله مثـل رجالاته من قادة المرابطين رأى من واجبه الجهـاد في سـبيل الله ، وتوفر هذا فقط في جبهة الأندلس ، مثلما رأينا مقد تـوفر للتـركمان فقـط في الأراضي البيزنطية بعـد الاسـتيلاء على ديار المسـلمين في الشام والجزيرة والعراق وخراسان .

وكانت بلاد الأندلس بجبهاتها مـوائمة تمـاما لمقـاصد يوسـف والمرابطين ، وكما فعل بداة التركمان حين حاربوا في الشام والعراق والجزيرة حاربوا ضد الهرطقة ، وحين قـاتلوا بيزنطـة كان ذلك في سبيل الله ، ودار عيش وهجرة وسكن في المستقبل ، والشيء نفسه في الأندلس ، كان القتال في الداخل قتالا ضد حكام كلهم فساد وتقصير وظلم وفرقة وفتنة واضطهاد ، والقتال ضد النصارى كان جهـادا في سبيل الله .

ولهذا زاد يوسف من الاعتماد على العناصر الأندلسية في إدارته ، ولم يكتف بذلك بل إنه اشترى بعض النصارى وجند منهم مرتزقة في قواته كما استورد السلاح من الأندلس واوربة وخاصة السـيوف ، ويبدو أن حكام الأندلس من ملوك الطوائف كانوا يرقبـون بقلق مـا كان يجري على أرض المغرب ، ورأينا من قبل أن افضل المعلومـات عن حركة المرابطين حتى سـنة ٤٦٠ هـ تلك التـي دونهـا الأمير الأندلسي أبو عبيد البكري في كتابه المسالك والممـالك ، والبـكري لم

يرحل إلى المغرب بل استقى معلوماته مما وصل من المغرب إلى الأندلس .

جاء في ترجمة يوسف بن تاشفين لدى ابن خلكان أن كاتبه قال : « له أيها الملك هذا الكتاب من ملوك الأندلس يعظمونك فيه ، ويعرفونك أنهم أهل دعوتك وتحت طاعتك ، ويلتمسون منك أن لاتجعلهم في منزلة الأعادي فإنهم مسلمون ، وهم من ذوي البيوتات فلا تغير عليهم وكفى بهم من وراءهم من الأعداء الكفار ، وبلدهم ضيق لايحتمل العساكر ، فاعرض عنهم إعراضك عمن أطاعك من أهل المغرب » .

وتداول يوسف مع كاتبه حول شكل الجواب الذي سيبعث به فجاء حسبما يلي : « بسم الله الرحمن الرحيم ـ من يوسف بن تاشفين : سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، تحية من سالمكم وسلم إليكم ، وحكمه التأييد والنصر فيما حكم عليكم ، وإنكم بما بأيديكم من الملك في أوسع إباحة ، مخصوصون منا بأكرم إيثار وسماحة ، فاستديموا وفاءنا بوفائكم ، واستصلحوا إخاءنا بإصلاح إخائكم ، والله ولي التوفيق لنا ولكم ، والسلام » (٢٣) .

وهام التمعن في الفقرة الأخيرة من إجابة يوسف خاصة قوله « فاستديموا وفاءنا بوفائكم » .

فهنا تهديد مبطن وإنذار ، ولم يرد في الرسالة أدنى وعد بعدم التدخل في شؤون الأندلس ، لكن المسألة ارتبطت بالفرصة المناسبة وباستكمال الاعدادات البرية والبحرية .

وطور يوسف إدارة دولته الناشئة وضرب نقوده ، وكتب « إلى امراء المغرب واشياخ القبائل من زناتة ، والمصامدة وغمارة وسائر قبائل البربر فقدموا عليه وبايعوه ، فكسا جميعهم ووصلهم بالأموال ، ثم خرج معهم ليطوف على جميع اعمال المغرب ويتفقد

احوال الرعية ، وينظر إلى سير ولاتهم وعمالهم فيه ، فصلح على يديه بذلك كثير من امور الناس » (٢٤) .

وكان يوسف بن تاشفين حتى الآن « يدعى بالأمير ، فلما ضخمت مملكته واتسعت عمالته اجتمع إليه اشياخ قبيلته ، وأعيان دولته ، وقالوا له : أنت خليفة الله في هذا المغرب ، وحقك أكبر من ان تدعى بالأمير ، بل ندعوك بأمير المؤمنين ، فقال لهم : حاشى لله أن نتسمى بهذا الاسم ، إنما يتسمى به خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة ، لأنهم ملوك الحرمين مكة والمدينة ، وانا رجلهم ، والقائم بدعوتهم ، فقالوا له : لابد من اسم تمتاز به ، وبعدما اجاب إلى امير المسلمين وناصر الدين ، خطب له بذلك على المنابر ، وخوطب به من العدوتين ، وامر كتابه ان يكتبوا عنه في ذلك »(٢٥) .

وبات على يوسف بن تاشفين الآن الاتصال بالخلافة العباسية في بغداد والحصول منها على تفويض له بحكم المغرب واعتراف بشرعية سلطانه ، وكان كاتب الخلافة آنذاك ابن موصلايا ، وهناك نسخة خطية من رسائل هذا الكاتب في تونس لم استطع الوقوف عليها ، لكن اخبرت انها تحتوي على نصوص المراسلات مع يوسف بن تاشفين .

واعرف ايضا ان ابن تاشفين قام في مرحلة لاحقة بإرسال بعثة إلى بغداد قوامها أبو بكر بن العربي ، الفقيه المشهور وصاحب العديد من المصنفات من بينها العواصم من القواصم ، مع ابيه ، واودع أبو بكر بعض أخبار ما حدث معه في المشرق في مؤلفاته لاسيما في كتابه العواصم ، وكتب كتابا مفردا عن رحلته ، عثر على اجزاء منه ونشرت ، وكنت قد رأيت في فاس نسخة كاملة من هذه الرحلة نسخت بخط رديء في عدة دفاتر ، قيل لي وقتها انها نسخت عن نسخة خطية محفوظة في مكتبة الزاوية العياشية قرب فاس .

وطبعا حصل يوسف بن تاشفين على الاعتراف العباسي المطلوب

وقيل إن اخباره ارضت كبار الفقهــاء في العــراق وخــاصة الامــام الغزالي حتى روي أن مراسلات تمت بين الغزالي ويوســف ، وذلك على الرغم من أن المرابطين عارضوا نشر كتــاب إحياء علوم الدين للغزالي إلى حد انهم أمروا باحراق نسخه .

ومن الواضح أن جميع مــا عرضــناه حتــى الآن عن التــاريخ المرابطي كان الهدف منه التوطئة للحديث عن دخــول المرابــطين إلى الأندلس وما نجم عن ذلك من نتائج في توحيد الأندلس ، ودفع خــطر السقوط عنها ، وجعلها ولاية مغربية الأمــر الذي نجــم عنه نتــائج خطيرة على صعيد الشمال الأفــريقي والأندلس معــا وعلى صــعيد علاقات الغرب الاسلامي بأوربا الغربية .

لم تكن الاستعانة الأندلسية بقبائل البربر المغربية هي الأولى من نوعها ، فبصرف النظر عن المشاركة البربرية الفعالة في فتح الأندلس استمر تدفق البربر على هذه البلاد ، وازداد ذلك في القرن الرابع للهجرة العاشر للميلاد إثر الصراع بين قرطبة والمهدية ، واحتلال القوات الأندلسية لأجزاء هامة من اراضي المغرب الأقصى.

لقد حدث التدخل الأندلسي في ايام الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر ، واستمر ايام ابنه الحكم ، وشهدت الأندلس بعد وفاة الحكم تطورات سياسية خطيرة جدا تمثلت بـاستيلاء المنصور العامري على السلطة وحجره على الخليفة هشام بن الحكم.

والمنصور العامري هو محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر ، ينتمي الى قبيلة معافر الحميرية اليمنية ، وأمه سيدة أصلها من قبيلة تميم واسمها بريهة ، وقد ولد سنة ٣٢٨ هـ / ٩٤٠ م في قرية طرش ، موطن أجداده الذين دخلوا الأندلس في أيام فتحها ، وقد نشأ منذ صغره متميز النباهة اهتم بثقافته وعلومه ، طموحا ، أراد أول حياته أن يكون قاضيا لكن طموحه دفع به نحو ارتقاء المناصب ليكون سيد الأندلس بلا منازع (٢٦).

التحق محمد بن أبي عامر بمدينة قرطبة حاضرة الأندلس ودار خلافتها ، وكان الخليفة وقتها الحكم بن عبد الرحمن ، وكان هذا الخليفة قد تسلم الخلافة بعدما تقدم به السن ، ولم يحظ بولد الا بعد أمد طويل ، وانجبت له الولد السيدة صبح وكانت من أصل بشكنسي ، وحمل هذا الولد اسم عبد الرحمن ثم انجبت له هشام الذي سيكون آخر خلفاء بني أمية في الأندلس.

لم تطل الاقامة بابن أبي عامر في قرطبة حتى التحق بخدمة السيدة صبح ليشرف على إدارة أملاكها مع املاك ولي

العهد ، وحظي ابن عامر باعجاب السيدة صبح واسعدها وادخل السرور على حياتها ، وكان كريما متلافا ، وقد تهيأت أمامه السبل ليترقى بالمناصب فاستلم ادارة السكة(٢٧) ثم ما لبث ان تولى وظائف أخرى منها رئاسة الشرطة الوسطى ، وبذلك عرض جاهه وتوثقت صلاته بالوزير الأول المصحفي وبغيره.(٢٨) .

وفي سنة ٣٥٩ هـ / ٩٧٠ م توفي الأمير الصغير عبد الرحمن ، فأسند لابن عامر ادارة أملاك اخيه هشام المؤيد ، وفي هذه الأثناء كلف أبن عامر من قبل الخليفة الحكم بالذهاب إلى المغرب لمرافقة وفد بربري كبير من زناتة على راسه يحيى بن علي بن حمدون ، وبذلك تعرف أبن عامر للمرة الأولى من حياته على قبائل المغرب الأقصى وكسب خبرة بشؤون الحرب والجيوش وقامت علاقات بينه وبين القائد غالب ، الذي كان فارس الأندلس واعلى العسكريين فيها شأنا(٢٩) .

ومع الأيام شعر الحكم بأعباء تقدمه بالسن وبثقل المرض ، فأراد ان يوصي بالخلافة من بعده ، وكان ابنه هشام ما يزال طفلا بدون مؤهلات ، ومع هذا أثر الحكم هواه في محبة ابنه فسماه في سنة ٣٦٥هـ / ٩٧٥م وليا لعهده ، مع انه كان بامكانه تسمية واحد من اله فيه الأهلية ، وتسمية هشام وليا لعهد هذا المسمى(٣٠) .

واستفاد ابن ابي عامر من بيعة هشام بولاية العهد نظرا لعلاقاته الوثيقة به وبأمه ، وتعاون ابن ابي عامر مع الوزير جعفر بن عثمان المصحفي ، وفي سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م توفي الخليفة الحكم ، وكتم نبأ وفاته ، وحاول كما ذكرنا من قبل غلمان القصر من الصقالبة خلع هشام وعدم بيعته ، ورد الأمر إلى الأمير المغيرة بن عبد الرحمن أخو الحكم (٣١) ولم تفلح خطة الصقالبة ، وتعاون المصحفي مع ابن ابي عامر على تصفية قوى الصقالبة الذين تحكموا بالدولة وذلك بعدما تمت بيعة هشام وقتل الأمير المغيرة.

وبعد هذا سعى ابن ابي عامر إلى التخلص من الوزير المصحفي فتحالف مع القائد غالب وصاهره ، وشاركه في عدة عمليات عسكرية

ضد الدول الأسبانية في الشمال ، وفي سنة ٣٦٧ هـ/ ٩٧٨ م صرف المصحفي عن عمله ، وأودع السجن مع أهله (٣٢) وظل يعاني من النكبة حتى توفي مسجونا.

وطبعا عندما عزل المصحفي حل محله ابن ابي عامر ، فعمل في سبيل تقوية سلطانه والتخلص من كل نوع من أنواع المعارضة بمختلف الوسائل من قمع وشراء للذمم ومؤامرات ، واستحوذ على رضى الفقهاء والقضاة إنما بكل صعوبة ، ولم يبق أمامه غير القائد غالب واحتاج التخلص منه إلى جهد كبير واستعدادات خاصة.

قام ابن عامر أولا بالحجر على الخليفة وعزل دار الخلافة ـ مدينة الزهراء ـ كليا ، وابتنى لنفسه مدينة سماها الزاهرة غدت مقر السلطة التي رست كلها بيد ابن ابي عامر الذي تلقب الآن بالمنصور ، وهو لقب له مضامين مهدوية ويمانية ، ولم يبق عليه سوى التلقب بإمرة المؤمنين والخلافة ، لكنه لم يقدم على هذه الخطوة لمخاطر ذلك آنذاك ، إنما مهد لذلك السبيل ، وخط سابقة الانتزاء على السلطة ومن ثم تمزيق الأندلس.

لقد كان ابن ابي عامر مجاهدا من الدرجة المثلى قاد اكثر من خمسين حملة ضد الدول الأسبانية في الشمال ، وهزم قوى هذه الدول وجعل ملوكها ينقادون إليه ، غير أنه لم يقض على أي منها ، وتصاهر مع أكثر من ملك من ملوكها ، وهكذا مع ظهور بوادر الضعف على الأندلس وتمزقها أنقض هؤلاء الملوك عليها وقادوا حملات مدمرة ضدها.

واهتم عدد من الباحثين بالحياة العسكرية الجهادية لابن ابي عامر ، ويروى أن ابن حيان ـ مؤرخ الأندلس الكبير ـ أوقف كتابا خاصا على أخبار حملات ابن أبي عامر ، وهذا الكتاب بحكم المفقود ، وفي مخطوط جغرافي تاريخي مجهول المؤلف أسمه ذكر بلاد الأندلس أتى المؤلف على اخبار حملات ابن أبي عامر جميعها لكن بشيء من الاختصار.

ونعود الآن نحو مسألة تصفية ابن أبي عامر للقائد غالب ، لقد

فعل هذا بفضل امتلاكه لقوات عسكرية خاصة بـه جندهـا واشرف على تسليحها وقادها في حملاته ، وجاءت عناصر هذه القوات مـن المغرب الأقصى خاصة من قبيلة زناته ، ووصـلت إلى الأندلس على شكل قبائل وافراد حتى بلغ تعدادهم الآلاف ، وتعلق المغـاربة بـابن ابي عامر لكرمه ولشدة اهتمامه بهم (٣٣) .

وهام جدا مسـألة اعتياد الأندلسـيين على التقـوي بـالمغاربة والاستعانة بهم ، لا بل إنه لمن المثير أن نعرف ان السيدة صبح وقد ضاقت باهمال ابن ابي عامر لها وانصرافـه عنهـا ، فبحثـت عن شخصية تستعين بها للتخلص من أبن ابي عامر ، فوقع اختيارهـا على زيري بن عطية المغـراوي الخـزري أول ملوك زناتـة بـالمغرب الأقصى ، فاتصلت به وعملت على ارسال الأموال ليأتي إلى الأندلس لازاحة ابن ابي عامر ، لكن هذه المؤامـرة كشـفها ابـن ابـي عامر ، وارسل بالقوات إلى المغرب الأقصى فتمكنت من انزال هزيمة ساحقة بزيري بن عطية (٣٤) .

وكان القائد غالب قد ضاق بتصرفات ابن ابـي عامـر ، خـاصة تجنيده لرجالات قبائل زناتة ، فتحـالف مـع ملوك الشـمال مـن الاسبان ، لا بل هم بقتل ابن ابي عامر بيديه ، وجـرحه في وجهـه وابان بعض انامله ، ونجا منه ابن ابي عامر ، واخذ بجمع قـواته وفي ٣٧١هـ / ٩٨١ م نازله وقامت معـركة شـديدة بين الطـرفين انجلت عن مقتل غالب وتمزق قواته (٣٥) .

وهكذا غدا ابن ابي عامر سيد الأندلس بلا منازع ، غير انه ظـل عرضة للمؤامرات حتى ان ابنه عبد الله تآمر عليه ، فاعتقله واعدمه. (٣٦) ولا شك ان المنصور بن ابي عامر قد حقق كل ما طمح إليه وأمن الحماية والمنعة للأندلس ، لكنه جاء في وقت كان المجتمع الأندلسي قد قطع فيه مراحل واسـعة نحـو الوحـدة والوئام والاكتفـاء الذاتي ، وكانت طـاقات اهـل البـلاد العسـكرية كافية ، غير أن المنصور ابعد الاندلسيين عن الميدان العسكري واسقط العرب مـن الديوان واقتصر بالاعتماد على القبائل البربرية مـن زناتـه بشـكل

خاص ، فأخل هذا بالبنية العامة ، يقول الفتح بن خاقان « وانثل قبائل الأندلس باجازة البرابر ، واخمل بهم أولئك الأعلام الأكابر ، فإنه قاومهم بأضدادهم واستكثر من أعدادهم حتى تغلبوا على الجمهور ، وسلبوا عنهم الظهور ، ووثبوا عليهم الوثوب المشهور ، الذي اعاد أكثر الأندلس قفرا يبابا ، وملأها وحشا وذئابا ، واعراها من الأمان»(٣٧) .

وتحدث الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري في غرناطة وهو الذي عزله يوسف بن تاشفين ـ كما سيمر معنا ـ تحدث في مذكراته عن المنصور بن أبي عامر وسياسته العسكرية ونتائجها بقوله : « وتوقع المنصور من أجناده الاتفاق على بعض ما يخل بدولته ، إذا كانوا صنفا واحدا وتألبهم على معصية أمره ، متى أمر بما احبوا أو كرهوا ، فنظر من ذلك بعين اليقظة ، وسول له رايه أن تكون اجناده قبائل مختلفة واشتاتا متفرقة ، إن هم أحد الطوائف بخروج عن الطاعة غلبها بسائر الفئات ، مع احتياجه إلى تقويه عسكره ، والزيادة فيه بمن يستطيع على تخلل بلاد العدو وتدويخها متى شاء ، فاستجلب رؤساء البربر وحماتها وانجادها من بلغه فروسيته وشدته ، وتسامع الناس بالجهاد ، فبادر اليه من شرق العدوة من كان لهم من الاثار والمكارم والبأس على النصارى ما لاخفاء به ؛ وبهم كان يصول ابن ابي عامر على العدو ، وهم كانوا العدة في الجيش والموثوق بهم عند اللقا ، ومعترك الوغا.....

فرتب ابن ابي عامر الرتب ، واظهر هيبة الخلافة ، وقمع الشرك ، وحض المسلمين عامة على الغزو ، فعجز عن ذلك رعية الاندلس ، وشكوا اليه ضعفهم عن الملاقاة ، وشغلهم بالغزوات عن عمارة ارضهم ، ولم يكن القوم اهل حرب ، فقاطعهم على ان يشتغلوا بعمارة ارضهم ، ويعطوا من اموالهم كل عام ما يقيم به من الاجناد من يكفيهم ذلك ، على اتفاق ورضى منهم ، فضرب عليهم الاقطاع ، وحصل في الدواوين جميع أموال الناس ، وكسرها عليهم ، وفرض بينهم مالا يرتزق منه الجيش ، فبقيت تلك الاقطاع عليهم الى ان

عمت الاندلس عدة الثوار ، واتبعوهم على تلك الاثار ، ودابــه في ذلك إنما كان على ما وصفناه ......

فلما تمت الدولة العامرية ، وبقي الناس لا امام لهم ، ثار كل قائد بمدينته ، وتحصن في حصنه بعد تقــدمة النظــر لنفســه ، واتخــاذه العساكر ، وادخاره الاموال ، فتنافسوا على الدنيا ، وطمع كل واحد في الاخر ، وكذلك لايصح امر بين نفســين ، فــكيف ســلاطين كثيرة واهواء مختلفة(٣٨) «.

على هذا إن التدخل الاندلسي في شؤون المغرب الأقصى ، قد مهــد السبل لتحويل الأندلس الى ولاية مغربية ، وهكذا صــار كلمــا تغير الوضع السياسي في المغرب تغير بالاندلس ، ففي ايام زناته وحــكمها للمغرب ، تحكم الزناتيون بــالاندلس ، وعندمــا قــامت دولة لمتونــة ازاحت زناتة عن حكم المغــرب ، فــكان بــالتالي أن الت الأمــور في الاندلس الى لمتونة وبعد امد استطاع المهدي بن تومرت وخليفته من **بعده القضاء على لمتونة ودولة المرابطين بوساطة قبيلة مصمودة فما لبثت الأندلس أن غدت ولاية موحدية حكامها من مصــمودة ، وبعــد زوال ملك مصــموده وحلول المرينيين في ملك المغــرب الاقصى ، تغير الحال في الأندلس مجددا وظلت الامور تسير على هذا المذوال حتــى سقوط غرناطة وطرد العرب من الأندلس.**

صحيح رأينا من قبــل ان عبــد الرحمــن الداخــل عزل الاندلس سياسيا عن بقية دار الاسلام ، وجعلها تتحمل بــطاقاتها لوحــدها مواجهة قوى اوربا الصليبية ، غير ان عبد الرحمــن اوجــد شرعية استقطب أهل الاندلس حولها بدلا من العصــبية القبلية والصراعات العرقية ، وفي ايام عبد الرحمن الثالث تحولت الشرعية الى خــلافة ، وتسارعت التحولات وتعمقت ، فجاء المنصور بن أبي عامر فــأوقفها وجلب المرتزقة البربر الى البلاد ، وبدد غطاء الشرعية ، لذلك مــا ان زالت الدولة العامرية كما قال الأمير عبد الله : « وبقــي الناس بــلا أمام لهم ، ثار كل قائد بمدينته وتحصن في حصنه بعد تقــدمة النظــر لنفسه ، واتخاذه العساكر وادخاره الاموال ، فتنافسوا على الدنيا ،

وطمع كل واحد في الآخر ، وكذلك لايصح أمر بين نفسين ، فكيف سلاطين كثيرة واهواء مختلفة » (٣٩) .

وإنه لأمر مثير ان نقرا مقدمات سقوط الأندلس في سيرة أعظم حكام الأندلس واشدهم نكاية في العدو ، واكثرهم حنكة ودهاء : إنها حقائق التاريخ ، وغالبا ما كانت الحقائق مرة المذاق ، والفارق كبير بين عبادة البطل بعين غير مبصرة وبين بصيرة التاريخ : ومهما يك من امر واجه المنصور بن أبي عامر منيته سنة ٣٩٢ هـ / ١٠٠٢ م وهو عائد من حملة جهادية في الشمال ، وتوفي في مدينة سالم ، وكان قد اتخذ لنفسه الاكفان من رزق كله حلال وجمع ما تعلق بثيابه من غبار في مغازيه ، واستدعى وهو على فراش الموت ابنه عبد الملك فاوصاه ونصحه وارسله لتسلم مقاليد الامور في قرطبة ، وقرر أن يكون ابنه الآخر عبد الرحمن وليا لعهد اخيه ، ثم استدعى قادة جنده وغلمانه فودعهم واوصاهم ، وقد توفي في ٢٧ رمضان ٣٩٢ هـ / ١١ ـ آب ١٠٠٢ م ، وكان يوم توفي « ابن خمس وستين سنة وعشرة اشهر ......فكانت مدة قيامه بالدولة منذ تقلد الحجابة الى أن توفي خمسا وعشرين سنة واربعة واربعين يوما ، وترك من الاموال الناضة بالزاهرة اربعة وخمسين بيتا ، وكان عدد الفرسان المرتزقين بحضرته ونواحيها ، الذين حارب بهم الحروب عشرة الاف وخمسمائة ، واجناد الثغور قريبا من ذلك » (٤٠) .

وتسلم السلطة عبد الملك بن المنصور ، وحمل لقب المظفر بالله ، وقد نعي الى الخليفة المؤيد وفاة ابيه واخبره بتوليه تدبير الدولة مكانه ، فاقره الخليفة وساعده على النجاح بعمله وخلع عليه وكتب له عهدا بولايته ، « فاستوسق له الامر ، ولم يرد احد ... طاعته واجتمع الناس على حبه » (٤١) .

ولم يكن عبد الملك مثل أبيه لغلبة « النبيذ عليه واستغراقه في لذاته (٤٢).

ومع هذا تابع الخطط الجهادية لأبيه وبذلك حفظ للاندلس التفوق العسكري والسياسي،واستمر ورود الزعماء من زناتة على الأندلس وظهرت بوادر الضعف على الكيان العامري ،وتعرض عبد الملك

لأكثر من ازمة ،وهكذا لم تطل مدته وقد توفي في السنة السابعة لحكمه « وقيل إنه مات مسموما ، وقيل إنه مات من علة الذبحة..! سنة تسع وتسعين وثلاثمائة»(٤٣) (١٠٠٩) .

واستحوذ على الملك اثر وفاة عبد الملك أخوه عبد الرحمن ، وكان لقبه شنجول ، وكانت أم شنجول ابنة شنجة (سانشوغارسيس الثاني) ملك بنبلونة ، ومن اسم شنجة نال عبد الرحمن لقبه ذلك انه « كان اشبه الناس بجده »(٤٤) وحصل عبد الرحمن من الخليفة هشام على التقليد بولاية الحجابة والانفراد بالسلطة » وتلقب للحين بالناصر ثم بالمأمون ، فكان يدعى بالحاجب الأعلى المأمون ناصر الدولة ، فنظر في الأمور نظرا غير سديد ، وانفق الأموال في غير وجهها ، واعان على كثير من الناس ، وبسط يده عليهم واخذ اموالهم ، ونسب اليهم أباطيل من القول والفعل حتى قلق الناس به وابغضوه في الله ، وابتهلوا لله تعالى في الدعاء عليه » (٤٥) .

وبعد مضي شهر ونصف الشهر على ولايته طلب من الخليفة هشام « أن يوليه العهد من بعده وأن يتسمى بولي عهد المسلمين ففعل ذلك هشام معه لضعفه وسوء نظره ، ونقصان فطرته ، فولاه عهده ، فكان سبب انحراف اكابر الأندلس عن عبد الرحمن لماتبين لهم من سخف عقله ، وسرعته الى نقل المملكة عن خلفائها اليه »(٤٦).

من الصعب القول ان عبد الرحمن طمع ان يتملك الاندلس ليجمع حوله بحكم نسبه المسلمين والنصارى ، حيث يبدو انه كان غير متوازن فيه فسولة وبدون مؤهلات قيادية أو عزيمة جهادية ، وكان اقرب الى الخلاعة والمجانة يعاشر رجال الشراب والغناء والضحك والتسلية واشرك معه الخليفة هشام في بعض هذه النشاطات ، واغضبت تصرفات عبد الرحمن الناس جميعا خاصة رجالات الدولة لانه عرضهم للمهانات حتى أنه امرهم بتغيير ازيائهم وشاراتهم واذلهم .

وفي سنة ٣٩٩هـ ١٠٠٩ م ثار في قرطبة محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ولقب نفسه بالمهدي ، فخلع الخليفة

هشام واستولى على الأموال ، وكان عبد الرحمن بن المنصور العامري غائبا في الشمال ، وعندما وصلته الاخبار قرر العودة الى قرطبة وفي الطريق تخلى عنه جنده وأعوانه لذلك بعد ما وصل الى احواز قرطبة القى عليه القبض ثم تم التخلص منه وبهذا زالت الدولة العامرية من الوجود .

ولم يتملك محمد بن هشام الكفاءة او القدرات على النهوض بالاندلس واعادة رونق الدولة والخلافة لهذا « لقبته العامة المنقش لهشاشته وطيشه وخفته ، (٤٧) وهكذا انتشرت الفوضى بالاندلس وزالت وحدتها السياسية وزالت الخلافة ، ولم تفوت دول الشمال الفرصة بالشروع بحرب استغلاب لاتعرف الرحمة وتدخلت هذه الدول ايضا في صراعات القوى الداخلية في الاندلس وسلف بنا القول أن الفترة التي تلت عصر الخلافة عرفت باسم عصر دول الطوائف ، واسس هذه الدول متغلبون عرب وبربر وصقالبة (٤٨) .

ودخل ملوك الطوائف في صراعات متواصلة وطمح بعض الملوك فيها بالتوسع لكن لم يسع واحد منهم لاحياء الخلافة باخلاص وفي سبيل اعادة الوحدة للبلاد ، وتابعت الأندلس في هذه الآونة لكن لبعض الوقت ازدهارها الاقتصادي،واهم من هذا الازدهار الفكري والحضاري ، وتعددت مراكز السلطة ، واختص كل بلاط بعدد من الشعراء والأدباء والعلماء والكتاب ، وكان هناك بذخ كبير وانفاق هائل وتميز العصر بكثرة المغامرين وبالأخذ بالانتهازية السياسية وهكذا انعدم الوفاء والشعور بقداسة الارض وحب الوطن ، واخذ الجميع بسلوك سياسي كان بعيدا كل البعد عن الاخلاق والمثل ، وتبارى ملوك الطوائف بالالقاب وكان هناك اكثر من خليفة .

قال صاحب المعجب يصف ما حدث : « وأما حال سائر الاندلس بعد اختلال دعوة بني أمية ، فان أهلها تفرقوا فرقا ، وتغلب في كل جهة منها متغلب ، وضبط كل متغلب منهم ما تغلب عليه ، وتقسموا القاب الخلافة ، فمنهم من تسمى بالمعتضد ، وبعضهم تسمى بالمأمون ، وأخر تسمى بالمستعين والمقتدر ، والمعتصم ، والمعتمد ،

والموفق ، والمتوكل » الى غير ذلك من الالقاب الخلافية ، وفي ذلك يقول ابو علي الحسن بن رشيق :

مما يزهدني في أرض أندلس
سماع مقتدر فيها ومعتضد

القاب مملكة في غير موضعها
كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد »(٤٩).

وحين فقدت الأندلس وحدتها تبددت طاقاتها العسكرية وانشغلت جيوشها بالدفاع عن الحكام وبالفتن الداخلية ، وكانت الأندلس في عصر الخلافة تمتلك قدرات بحرية كبيرة جدا ، ففقدت الآن اساطيلها ، وحدث هذا في مطلع القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد ، الفترة التي انبعثت فيها الطاقات البحرية لدول اوربا خاصة دول مدن ايطاليا ، واندفع النورمان نحو فرنسا وسواها وزادت الروح الصليبية التهابا وحدة وتعصبا وفقد المسلمون السيطرة على البحر المتوسط ، ولم تقتصر اثار هذا الفقدان على الجانب العسكري والسياسي بل تعدته الى الجانب التجاري ثم الصناعي ، وكان لهذا اسوأ الآثار على ازدهار الاندلس وقدراتها على التماسك والصمود .

وخفت الضغوط الصليبية احيانا على ملوك الطوائف لدى موت واحد من كبار ملوك الشمال وحدوث خلافات حول وراثته من ذلك ما حدث اثر وفاة شانشو (شنجه) الكبير ، حيث انهار صرح الوحدة التي اقامها واقتسم اولاده الاربعة املاكه وهم : غارسيا ، وفرناندو ، ورامیرو ، وجونثالو ، وقام صراع بين هؤلاء وبرز من بين صفوفهم فرناندو صاحب قشتالة الذي استطاع سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م أن يستولى على مملكة ليون ، ثم قام منذ ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م بشن عدة حملات ناجحة ضد امراء المسلمين في سرقسطة وطليطلة وبطليوس كما استولى على عدد من القلاع والحصون واجبر بعض ملوك الطوائف على دفع الجزية والاتاوات له(٥٠) وتوفي فرناندو سنة ٤٥٨ هـ / ١٠٦٥ م فقام صراع بين

اولاده حول توزع املاكه واستطاع سانشو الثاني الذي كان من نصيبه مملكة ليون ان يهزم أخاه الفونسو السادس ، وبعدما اسره نفاه الى ديار المسلمين فالتجأ الى طليطلة ، وقد سلفت الاشارة الى هذه المسألة ، ومفيد ان نعود هنا لنبين أن الفونسو السادس امتلك بعد وفاة أخيه سانشو قشتالة وليون ثم ضم اليهما جيلقية ، ومن ثم اقلع في حرب ضروس ضد المسلمين الذين انغمس امراؤهم « في الملذات وصارهمهم الوحيد منافسة بعضهم بعضا في البذخ والترف ، وكانوا في حسد دائم مع بعضهم وحرب مستمرة بالخنجر والانغماس في الحضارة »(٥١) .

ومعروف ان الحضارة عند ما تغدو انغماسا في الملذات تفرغ من محتواها الاخلاقي وتصبح عرضة للسقوط بسرعة على ايدي القوى الهمجية ، وقام ابن الطقطقي صاحب الفخري في الاداب السلطانية بوصف درجة الحضارة التي وصلت اليها الخلافة العباسية وقت تعرضها لغزو هولاكو ، وتحدث عن الانغماس في الملذات ، ثم حكى عن واحد من امراء الجند الذين تصدوا لجيش هولاكو قال : « كنت في عسكر الدويدار الصغير لما خرج الى لقاء التتر بالجانب الغربي من مدينة السلام في واقعتها العظمى سنة ست وخمسين وستمائة ، قال : فالتقينا بنهر بشير من اعمال دجيل ، فكان الفارس منا يخرج الى المبارزة ، وتحته فرس عربي ، وعليه سلاح تام كأنه وفرسه الجبل العظيم ، ثم يخرج اليه من المغول فارس تحته فرس كأنه حمار ، وفي يده رمح كأنه المغزل ، وليس عليه كسوة ولا سلاح فيضحك منه كل من راه ، ثم ماتم النهار حتى كانت لهم الغرة ، فكسرونا كسرة عظيمة كانت مفتاح الشر ، ثم كان من الامر ما كان »(٥٢) .

لقد ملكت الهمجية الاسبانية الصليبية المتعصبة القدرة على الفتك بالحضارة الاسلامية والوجود العربي بالاندلس ، وكان فقط يمكن لقوة من السوية الحضارية نفسها مع التعصب أن تتصدى لها ، ووجدت هذه المؤهلات لدى لمتونة المرابطين ، لكن لمتونة ما لبثت أن

تأثرت بحضـــارة الأندلس او تصـــادمت معهـــا ، وكان لذلك نتـــائج خطيرة .

لقد أخذت حرب الاستغلاب التي قادها الفونسو السادس ســمة صليبية واضحة ، شارك فيها متطوعون مــن كل طــرف اوروبــي ، وباركت البابوية هذه الحروب ودعمتها بصكوك الغفــران ، وهــكذا اشتعلت الحروب الصليبية على ارض الاندلس وامتدت الى صــقلية قبل أن تشتعل في أرض الشام ، ومع هذا امتزجت حرب الاستغلاب في الأندلس بشيء من المشاعر القومية أو الوطنية « فقد عد ملوك ليون أنفسهم ورثة الملوك القوط للأندلس قبل الفتح الاسلامي لهــا ونقــل أحد رسل الفونسو السادس الى الامير عبد الله صاحب غرناطة قول الفونسو :« انما كانت الاندلس للروم في أول الأمر ، حتى غلبهــم العرب والحقوهم بأنحس البقاع : جليقية ، فهم الآن عند التمــكن ، طامعين في أخذ ظلاماتهم »(٥٣) .

وكان الفونسو على بينة بأحوال حكام الأندلس وبتدهور احــوال الناس فيها ، وبهدف زيادة اضعاف البــلاد بنى خــطة في حــروب الاستغلاب ، فقد نقل عنه قــوله :« انا مــن غير الملة ، وكل الناس يشنأني ، فبأي وجه اطمع في اخذها ، ان كان من بــاب الطــاعة ، فأمر لايمكن ، وان كان من وجه القتال فيهلك فيها رجالي وتــذهب اموالي وتكون الخسارة علي اكثر مما نرجــوه إن صــارت الي ولو صارت لم تتمسك إلا بأهلها ، ثــم لا يؤمنون ، ولا مــن الممــكن ان نستبيح أهلها ونعمرها بأهل ملتي ، ولكن الراي ، كل الراي تهــديد بعضهم ببعض ، وأخذ اموالهم أبدا ، حتى ترق وتضعف ، ثم هــي تلقي بيدها اذا ضعفت ، وتأتي عفوا كالذي جرى بــطليطلة ، انمــا كان من فقر اهلها وتشتتهم ، مع اندبار ســلطانها ، وصــارت الي بلامشقة »(٥٤) .

والمثير للانتباه أن أمراء دول الطوائف كانوا على بينة بــأهداف الفونسو وخططه ومع هذا « كان الجميع يساير الأمــور ، ويدافــع الأيام ويقول : من هنا إلى ان تتم الأموال وتهلك الرعايا .... يأتــي

الله بالفرج وينصر المسلمين »(٥٥) وكان كل منهم يشترى رضى الفونسو ، ويطلب منه أن يكون معتدلا في مطالبه حتى لا تسقط دولتهم لآخر من ملوك الطوائف فيصبح قويا في وجه الفونسو ، فقد حاصر الفونسو غرناطة وطلب مبلغ خمسين الف مثقال مقابل انصرافه « على خير » فأجابه الأمير عبد الله :«إن ذلك لايقدر عليه ، وفيه من القطع لنا ما يفترصنا به ابن عباد ، فانه لو اخذ غرناطة قوي عنصره ، ولم ينطع لك ، فخذ ما نقدر عليه ، واترك رمقا لانستأصل من اجله ، وما تركت تجده عندنا متى ما طلبت » (٥٦).

لقد استنزف ملوك الطوائف اموال اهل الأندلس في شراء السلم من الفونسو وفي بذخهم غير المحدود ، ولعل الحكاية التالية تكفي في أن تكون شاهدا ، التقى المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية بفتاة من عامة الشعب فأعجب بها وخلبت عقله فتزوجها ، وكان اسمها اعتماد ، وتعرف عادة باسم روميكيا ،وقد « رأت مرة نسوة من المتهنات قد وضعن ارجلهن في معجن فيه طين لضرب اللبن ، فدفعها هذا الى البكاء ، فأثر ذلك في نفس المعتمد وسألها : ما الذي يبكيك ؟ فقالت له : اه إني لتعسة ، ومنذ انتزعتني من الحياة الحرة الطليقة المرحة ايام أن كنت انعم بكوخي الحقير ، وانا سجينة هذا القصر العابس ، اسيرة الحياة المقطبة ، مثقلة بسلاسل التقاليد وعادات القصر المملة ، انظر الى هؤلاء النسوة اللاتي عند شاطىء النهر ، وانظر الى ارجلهن منتعلات بالطين ، ليتني كنت عارية القدمين مثلهن اعجن الطين ، وليتني حرمت الغنى والسلطان ، واعطيت الحرية التي استطيع بها أن افعل ما اريد ، فأجابها وقد شاعت على شفتيه ابتسامة لطيفة : بل انك عما قليل ستستطيعين .

ونزل في اللحظة نفسها الى فناء القصر ، وامر باحضار مقدار عظيم من المسك والعنبر وبعض الاعطار ، ووضع ذلك كله في معجن ، وامر أن يمزج بماء الورد ، ويداف ويسحق ، الى أن صارت منه عجينة في حجم تلك التي كانت في معجن النسوة اللاتي كن يضربن اللبن ، ولما تهيأ له كل ما اراد من ذلك صعد الى اعتماد وقال لها :

لتتفضلي بالنزول الى فناء القصر انت وجواريك ، فـان معجـن الطين في انتظارك فنزلت الأميرة الى ساحة القصر ، وخلعـت هـي وجواريها نعالهن وصرن يعجن باقدامهن ذلك الطين المسكي المدوف وهن في مرح وسرور

ومما لا ريب فيه ان تحقيق هذه الرغبة قد كلف المعتمد ثمنا باهظا وأموالا طـائلة ، وقـد كان في اسـتطاعته ان يغضي عن هـذه الحادثة »(٥٧) .

وقد تذكرنا هذه الحادثة بحادثة ميسون ابنة بحدل زوج معـاوية بن ابي سفيان حين ضاقت ذرعا بحياة القصر ، غير ان الفارق كبير جدا فهذه جبل لها المسك والعنبر لتعبث به وتلك قالت :

ولبس عباءة وتقرعيني

احب إلي من لبس الشفوف

وتوالت المصائب على عرب الأندلس ، وعندما كان الضعف ينتاب الفونسو او يحتـاج الى المال والمؤن ، كان ملوك الطـوائف يهبـون لنجدته والتفريج عنه ، لذا حق له أن يتسمى بملك الملتين وأن يحمـل لقب امبراطور ، وحدث في عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م أن حاصر مـدينة طليطلة ، وكان ذلك في فصل الشتاء وكان ذلك الشتاء قاسيا جـدا ، فيه اشتد البرد وكثر المطر مما سبب انقطاع المواصلات بين شـمال الأندلس وطليطلة الواقعة بالوسط ، وهكذا تعذر وصـول المؤن الى جيش الفونسو ، واصيب جيشه بمجاعة حقيقية ، وعندمـا اصـبح الفونسو في هذا الوضع المخيف هب ملوك الطوائف لقتـاله واغتنام الفرصة بدفعه عن طليطلة ذات الموقع الاستراتيجي الهام بل للتفريج عنه وعن جيوشه « ولولا اهتبال ملوك الطوائف بـاقامة مـرافقة ، واصغاؤهم الى هدر شقاقه لطار شعاعا ، وذهب ضياعا »(٥٨) .

وسقطت طليطلة ، ودخل الفونسو عاصمة القوط القديمة وانتهـت دولة بني ذي النون ، ورثى احد الشعراء طليطلة بقصيدة منها قوله :

طليطلة اباح الضد منها
حماها إن ذا نبأ كبير

محصنة محسنة بعيد
تناولها ومطلبها عسير

الم تك معقلا للدين صعبا
فذلله كما شاء القدير

واخرج اهلها منها جميعا
فصاروا حيث ساء بهم مصير

وكانت دار ايمان وعلم
معالمها التي طمست تنير

مساجدها كنائس أي قلب
على هذا يقر ولا يطير(٥٩) .

لقد غدت الآن طليطلة عاصمة لدولة قشتالة فانقلبت الموازين وتغير الوضع الاستراتيجي بالأندلس ، فمن قبل كان مقر هذه الدولة في اقصى الشمال ، أما الآن فبات في وسط الأندلس ، في موقع مسيطر على جميع انحاء شبه الجزيرة الايبيرية ، يقول ابن الكردبوس : « ولما حصل الطاغية الفنش لعنة الله بطليطلة ، شمخ بانفه ورأى أن زمام الاندلس قد حصل في كفة ، فشن غاراته على جميع اعمالها حتى فاز باستخلاص جميع اقطار ابن ذي النون واستئصالها ، وذلك ثمانون منبرا سوى البنيات (البلدات) والقرى المعمورات ، وحاز من وادي الحجارة الى طلبيرة وفحص اللج واعمال شنتمرية كلها ، ولم يكن بالجزيرة من يلقى اقل كلب من كلابه ، فعند ذلك وجه كل رئيس بالاندلس رسالة الى الفنش مهنئين ، وبانفسهم واموالهم مفتقدين وفي أن يشركهم في بلاده له عاملين ، ولاموالهم اليه جابين ، حتى ان صاحب شنتمرية حسام الدولة ابن رزين نهض اليه بنفسه ، وتحمل هدية عظيمة القدرسنية ، متقربا اليه ، وراغبا ان يقره في بلده عاملا بين يديه

فجازاة على هديته بقرد وهبه اياه ، فجعل ابن رزين يفخر بـه على سائر الرؤساء ويعتقد انه جنته مما كان يحذر من الفنش من وقـوع البأساء .

وانتخى الفنش انتخاء الجبابرة ، وانزل نفسه منازل القياصرة ، وداخله من الاعجاب ما احتقر به كل ماشي على التـراب ، وتسـمى بالانبراطور ، وهو بلغتهـم أمير المؤمنين ، وجعـل يكتـب في كتبـه الصادرة عنه : من الانبراطور ذي الملتين "(٦٠) .

واجمل ابن الكردبوس وصف علاقات الفـونسو السـادس مـع حكام الاندلس بقوله " واسـتحكم في المسـلمين طمعـه ، وصـح في قياسه الفاسد ان يستخلص جزيرة الاندلس لنفسه فلم ينم عن شـن الغارات ومواصلة الغزوات .

وصادف ايام ملكه نفاقا كثيرا بين المسلمين واختلافا عظيمـا ، وضعف بعضهم عن البعض الا بمعـونة الروم ، فبـذلوا للفنش مـا يحبه من الاموال ليعينهم على مناوئهم بانجاد الرجـال ،واللعين في اثناء ذلك لما بينهم من الفتنة مسرور ، وهم عن ذلك مشتغلون بشرب الخمور ، واقتناء القيان وركوب المعاصي وسماع العيدان وكل واحد منهم يتنافس في شراء الذخائر الملوكية متى طرات من المشرق ، كي يوجهها الى الفنش هدية ليتقرب بها اليه ويحظى دون مطالبه لديه ، الى أن ضعف مـن أولئك الثـوار الطـالب والمطلوب ، وذل الرئيس والمرؤوس وافتقرت الرعية ،وفسدت احوال الجميع بـالكلية ،وزالت من النفوس الأنفة الاسلامية ،وأذعن من بقي منهم خارج الذمـة الى اداء الجزية ،وصاروا للفنش عمالا يجبون له الأموال ،لايخالف أمره احد ،ووكلوا أمور المسلمين الى اليهود ،فعاثوا فيهـم عيث الأسـود وجعلوهم حجابا ووزراء وكتابا .

وتطوف الروم في كل عام على الأندلس يسبون ويغنمون ويحرقون ويهدمون ويأسرون"(٦١) .

وبعدما صار الفونسو سيد طليطلة اخذ يتطلع بجدية نحو اشبيلية للاستيلاء عليها وازالة ملك آل عباد منهـا ، واتبـع في سـبيل ذلك

خططه المعروفة في التهديد واستنزاف الموارد ، واشعار الناس بعدم وجود منفذ ، وحاول ابن عباد دفع الفونسو السادس عنه فراسله وحاول شراء رضاه بالأموال والقلاع وغير ذلك ، وبعث اليه في احدى المناسبات برسول يهودي «يعرف بابن مشعل فقال له : كيف أترك مجانين (ج.ماجن) تسمى كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم وامرائهم : المعتضد والمعتمد ،والمعتصم ،والمتوكل، والمستعين ،والمقتدر ،والأمين ،والمأمون ، وكل واحد منهم لايسل في النب عن نفسه سيفا ، ولايرفع عن رعيته ضيما ولاحيفا ، قد اظهروا الفسوق والعصيان ، واعتكفوا على المغاني والعيدان ، وكيف يحل لبشر أن يقر منهم على رعيته احدا ، وأن يدعها بين ايديهم سدى»(٦٢) .

وكذلك بعث الفونسو الى المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية بوفد من عنده ليجبي منه الجزية ، وتراس هذا الوفد يهودي اسمه ابن شالب ، ونزل رجال الوفد «خارج اشبيلية ، فوجه اليهم المعتمد ابن عباد المال المعلوم مع بعض اشياخ اشبيلية ، منهم ابن زيدون (ابن الشاعر المشهور) وغيره ، فلما وصلوا الى خبائه واخرجوا اليه المال العين والسبائل ، قال لهم اليهودي : والله لاآخذ منه هذا العيار ، ولاآخذ منه الا مشحرا ، ولايؤخذ منه في هذا العام إلا اجفان البلاد ، وزاد في كلامه ونقص ، واساء الأدب ، فبلغ المعتمد خبره ، فدعا بعبيده وبعض جنوده ، وامرهم بالخروج لقتل اليهودي ابن شالب ، واسر من كان معه من النصارى ففعلوا ما امرهم به من ذلك .

فلما بلغ ذلك اذفنش ، اقسم بأيمان مغلظة أن لايرفع يده عنه وانه يحشد من الروم عدد شعر رأسه ، ويصل بهم الى بحر الزقاق ، فكان ذلك .

وخرج أذفنش في جيش لايحصى كثره ، وافسد في الشرف (ربض اشبيلية) فسادا كبيرا ، وحرقه ، واجتاز عليه قاصدا حصن طريف ، فوقف على شاطى بحر الزقاق ، والبحر يضرب ارساغ

فرسه»(٦٣) ومن هناك بعث برسالة فيها تحديات وقحة الى يوسف ابن تاشفين .

وكيف لايفعل هذا ولايشتط حيث لم يجد في الأندلس من يقاومه او يدفعه ، فقد«انتشر الروم على جميع الأقطار ، وعاشوا في جميع الأمصار ، وصارت لهم أقصى بلاد الاسلام مرتعا ، ولقد بلغ الروم ان اغاروا في ثمانين فارسا ممن لاخلاق لهم على نظر المرية ، فأخرج ابن صمادح قائدا من قواده ، ومعه من خيار جنده اربعمائة ، فلما التقوا بالعدو ،انهزموا، وما وقفوا ولا أقدموا»(٦٤).

والمثير للانتباه هنا إن المستعرض لتاريخ الأندلس حتى نهاية الفترة العامرية أن القوات المسلمة كانت تلقى في الشمال مقاومة عنيدة ، وان ملوك الشمال لم يلق أيا منهم السلاح ولم يستسلم بل لم يتعد واقع الحال كما قالت العرب « هدنة على دخن».

ويئس اهل الأندلس من ملوكهم فكان أن توجهوا بأبصارهم نحو المغرب الأقصى حيث يوسف بن تاشفين ، وقصدته وفود اندلسية «وشكوا اليه ما حل بهم من أعدائهم ، فوعدهم بامدادهم واعانتهم وصرفهم الى أوطانهم»(٦٥) .

وشدد الفونسو من ضغوطه على ابن عباد «وسأله أن يخلى له معاقل كان الموت عنده اولى من اعطائها ، فوجست نفسه منه بالجملة» (٦٦) .

وقال ابن الكردبوس «ولما تيقن كل من ثار ورأس ، ولاسيما رؤساء غرب الأندلس كابن عباد وابن الأفطس ، مذهب الفنش فيهم وانه لايقنع منهم بجزية ولاهدية ، راوا أن الرجوع الى الحق أحق فاستصرخوا بالمرابطين ، واستنصروا بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، على ان ينخرطوا في سلكه ، ويدخلوا تحت ملكه ، وفتحوا له بابا الى الجهاد كانوا قد سدوه ، فأجابهم الى ما رغبوه ، ولم يخالفهم فيما طلبوه ، اذ كان في جهاد المشركين والذب عن حريم المسلمين ، فاستيقظ طلب النصر من منامه ، وتطلع بدر التأييد من خلال غمامه»(٦٧)

لم تكن الأمور بمثل هذه الدرجة من السذاجة ، وفي الحقيقة لم يرجع ملوك الطوائف قط الى جادة الصواب ، وابدا لم يروا أن الرجوع الى الحق أحق ، بل أرادوا الحفاظ على ملكهم من خلال حرب يخوضها الصديق ضد العدو فتضعفهما معا فتحصل الفائدة لهم ، فقد رام ابن عباد كسر الفونسو «بطوائف المرابطين وضرب بعضهم ببعض» (٦٨) .

غير أن يوسف بن تاشفين تنبه لهذا ، ربما بوساطة مستشارية من أهل الأندلس وأثر هذا التنبه على طبيعة المواجهة العسكرية بينه وبين الفونسو وعلى استثمارها ثم على مستقبل ملوك الطوائف .
ولم يرد يوسف على نداءات الاستغاثة بالاستجابة الفورية ، وكذلك فعل عندما بلغته رسالة الفونسو التي جاء فيها:
«لم يخف عليك ما عليه رؤساؤكم بالأندلس من التخاذل والتواكل والاهمال للرعية ، والاخلاد الى الراحة ، وانا أسومهم الخسف فأخرب الديار ، وأهتك الأستار ، وأقتل الشبان وأسر الولدان ، ولاعذر لك في التخلف عن نصرهم إن أمكنتك فرصة هذا ... فان كنت لاتستطيع الجواز فابعث الي ما عندك من المراكب لأجوز اليك ، وانا اقاتلك في احب البقاع اليك ، فإن غلبتني فتلك غنيمة جلبت اليك ، ونعمة مثلت بين يديك ، وان غلبتك كانت لي اليد العليا ، واستكملت الامارة ، والله يتم الارادة» (٦٩) .

واخذ يوسف بن تاشفين يعد العدة للجواز الى الأندلس ، واقتضى الحال منه تأمين ما يكفي من القوات البرية للجواز والقتال ، وتأمين الأساطيل اللازمة لنقل القوات مع الأعتدة والمؤن والأسلحة وجلب الامدادت اذا لزم الأمر ، وهكذا» شرع في تجديد العساكر ووفورها ، وبعث الى الصحراء للمتونة ومسوفة وجدالة وغيرهم ، يعلمهم بما فتح الله عليه من ملك المغرب ، وطاعة اهله ، ويؤكد عليهم في القدوم اليه ، فوفد عليه منهم جموع كثيرة ، ولاهم الأعمال ، وصرف أعيانهم في مهمات الأشغال ، فاكتسبوا الأموال ، وملكوا رقاب الرجال ، وكثروا

بكل مكان ، وساعدهم الوقت والزمان ، وكثرت جموعهم وتوفرت عساكرهم ، وعظم ملك يوسف بن تاشفين ، وضم من جزوله ولمطه ومصمودة وقبائل زناتة جموعا كثيرة ، وسماهم بالحشم ، وضم طائفة أخرى من أعلاجه وأهل داخلته وحاشيته فصاروا جموعا كثيرة ، وسماهم الداخليين ، فاجتمع له في الطائفتين ثلاثة الاف فارس»(٧٠) .

ولم يكتف يوسف بهذا فقد وجد نفسه بحاجة الى السلاح والعتاد من الأنواع المستخدمة في الأندلس مع خبراء بشؤون القتال لدى الاندلسيين واعدائهم ، ولهذا «بعث الى الأندلس برسم شراء العدة والات الحروب ، فاشترى له منها كثيرا » وامضى عاما في «اقتناء العدة واتخاذ السلاح واقتناء الأجناد واختيار الرجال فبلغ جيشه الى اثني عشر الف فارس ، كلهم نخبة أنجاد»(٧١) .

ولم يكتف يوسف بهذا بل تبادل الرسائل مع المعتمد بن عباد وغيره من ملوك الطوائف يطلب منهم جمع قواتهم وتوحيد طاقاتهم العسكرية لتجتمع اليه بعد عبوره الى الأندلس لقتال العدو ، وطلب يوسف من ابن عباد تسليمه الجزيرة الخضراء يتخذها قاعدة لقواته التي ستجوز الى الأندلس ، وجاء هذا الطلب بناء على نصيحة واحدا من كتابه اسمه عبد الرحمن بن أسباط ، وكان أندلسيا من أهل المرية ، فقد روي أنه قال له:« أيد الله الأمير تعلمون أن الأندلس جزيرة مقطوعة في البحر ، ويعمر المسلمون منها الثمن وسبعة أثمان يعمرها النصارى وهي ضيقة حرجة ، سجن لمن دخلها ، لايخرج إلا تحت حكم صاحبها ، وإن انت جزت إليها وحصلت فيها ما يكون لك في نفسك شيء ، وهذا الرجل الذي استدعاك ما بينك وبينه متات قديم ، ولاصداقة متصلة ، ويبقى إذا قضى الله الغرض من العدو أن يمسك بها ، والحال كما ترونه ، والنظر إليكم ، فاكتب إليه إنك لايمكنك الجواز إليه إلا أن يعطيك الجزيرة الخضراء ، فتجعل فيها ثقاتك واجنادك ، ويكون الجواز بيدك متى شئت » (٧٢) .

وكتب يوسف إلى المعتمد بن عباد يطلب منه التخلي له عن الجزيرة الخضراء وان يخليها له ويكتب بذلك صكا عليه توقيعه مع شهادات رجال الدولة والقضاة والفقهاء ، وكانت ولاية الجزيرة الخضراء مسندة إلى الراضي يزيد بن المعتمد ، لهذا عارض تسليم الجزيرة الخضراء إلى المرابطين ، وكان الرشيد الابن الثاني للمعتمد قد عارض من قبل ايضا فكره الاستعانة بالمرابطين ، وأيده في هذا وجوه دولة اشبيلية ، فقد أشار هؤلاء على المعتمد « بمداراة الأذفنش ملك قشتالة ، وطلب معاهدته ، وعقد السلم معه على ما يذهب إليه من الشروط ، وكيف ما أمكن ، وان ذلك أولى من تجويز المرابطين .

ثم إنه خلا بعد ذلك بابنه وولي عهده الرشيد أبي الحسن عبيد الله ، وقال له : يا عبيد الله إنا في هذه الأندلس غرباء بين بحر مظلم وعدو مجرم ، وليس لنا ولي ولا ناصر إلا الله تعالى ، وإن إخواننا وجيراننا ملوك الأندلس ليس لنا فيهم نفع ولا ترجى منهم نصرة ولا جنة إن نزل بنا مصاب ، أو نالنا عدو ثقيل ، وهذا اللعين أذفنش قد أخذ طليطلة من يد ابن ذي النون بعد سنة سبع وسبعين ، وعادت دار كفر ، وهاهو قد رفع راسه إلينا ، وإن نزل علينا بكلكله ما يقلع عنا حتى يأخذ إشبيلية ، ونرى من الراي أن نبعث إلى هذا الصحراوي ، ملك العدوة نستدعيه للجواز ليدفع عنا هذا الكلب اللعين ، إذ لاقدرة لنا على ذلك بأنفسنا ، فقد تلف مجبانا وتبددت اجنادنا ، وابغضتنا العامة والخاصة ، فقال له ابنه الرشيد : يا أبت اتدخل علينا في أندلسنا من يسلبنا ملكنا ويبدد شملنا ؟ فقال : يا بني ، والله لايسمع عني ابدا أني أعدت الأندلس دار كفر ، ولا تركتها للنصارى فتقوم علي اللعنة في منابر الاسلام مثلما قامت على غيري ، حرز الجمال والله عندي خير من حرز الخنازير » (٧٣) .

لاندري مدى صحة هذه الرواية اخذين بعين الاعتبار أن الحديث جرى على خلوة بين أب وابنه ، والمهم معرفته الآن هو أن المعتمد ابن عباد جمع (٧٤)« القاضي والفقهاء ، وكتب عقد هبة الجزيرة

الخضراء ليوسف بن تاشفين وتسليمها له بمحضر ذلك الجمع ، وبعث به إليه » (٧٥) .

وقام المعتمد بن عباد بمخاطبة جاريه المتوكل عمر بن محمد بن الأفطس ملك بطليوس ، وعبد الله بن حبوس ملك غرناطة ، وطلب منهما أن يرسل كل منهما قاضي حاضرة دولته وحين فعلا استحضر قاضي قرطبة وأضاف إلى هؤلاء القضاة وزيره ابن زيدون وبعث بهم وفدا للتعاقد مع يوسف بن تاشفين حول ترتيبات دخوله إلى الأندلس وبعد مفاوضات تم الاتفاق والتعاقد على أن تتصل الأيدي على غزو الروم بمعونته ، والا يعرض لأحدنا ببلده ولايقبل عليه رعيته ، ومن يروم الفساد عليه » . (٧٦) .

وتأهب يوسف بن تاشفين وقاد قواته نحو سبتة للعبور إلى الجزيرة الخضراء ، وفعل هذا بعدما وردت عليه رسل المعتمد « تعلمه انه يتأهب للجهاد ، وتعده بإخلاء الجزيرة الخضراء ، وانه لايصل إلى سبتة إلا ويخمعها في يديه ، فلما وصل متأهبا لذلك ، بمن احتفل به من جيشه ، قدم رسله إلى المعتمد ..... فأمسكهم بإشبيلية مدة طويلة ، وأمير المسلمين في ذلك متقلق لورودهم ، فأرسل معهم من شيوخ اشبيلية من يقول له : تربص في سبتة مدة من ثلاثين يوما إلى أن نخلي لك الجزيرة فأجابهم إلى هذا » (٧٧).

لقد ظل المعتمد بن عباد حتى هذه الساعة يراوغ وسيء النوايا باتجاه يوسف بن تاشفين ، ونبه يوسف الى هذا وقيل له:« لم يجعلك ابن عباد في هذا الالتواء الا لانه يريد أن يرسل الى الفونس يعلمه بقدومك ، ولعله يتأتى له منه ما يرغب ، ويسأله أنّ يعاقده على أن يهبه الجزية أعواما فإن فعل استجاش عسكره على الجزيرة ، ومنعك الجواز ، فاسبقه اليها ، وإن كان النصراني لايتأتى له ، أرسل اليك في الجواز» (٧٨) .

قيل هذا ليوسف ورسل ابن عباد عنده في سبتة ، وبناء عليه « لما

انفصل الرسل عنه بذية التربص في إخلاء الجزيرة ثـلاثين يومـا ، جهز عسكرا مقدما من نحو خمسمائة فارس ، وارسلهم في اثرهم ، فلم تصل الرسل إلى الجزيرة اخر النهار إلا والعسكر في اثرهم قـد عدوا ونزلوا بدار الصناعة ، فـالتفت القـوم إلى خيل قـد ضربـت محلتها ، لم يدر متى اقبلت ، ولم يصبح لهم إلا وطائفة اخرى بعدها يزيدون ويترادفون ، حتى انكمل العسكر كله على الجزيرة مـع داود بن عائشة ، واحدقوا حواليها يحرسونها ، ونادى داود بـالراضي ، وقال له : وعدتمونا بالجزيرة ، ونحـن لم نأت لأخـذ بلدة ولا ضرر بسلطان ، إنما اتينا للجهاد ، فإما أن تخليهـا مـن هنا إلى وقـت الظهر من يومنا هذا ، وإلا فالذي تقدر عليه فاصنع .

وخاطب امير المسلمين ابن عباد يعلمـه بمـا صـنع ويقـول له : كفيناك مؤنة القطائع وإرسال الأقوات لأجنادنا كما وعدت ، فأرسل المعتمد لابنه الراضي في إخلائها لهم ، وحصـل فيهـا داود ، واتـى الأمير إليها ودخلها ناظرا إليها ، ثم انصرف إلى سـبتة إلى وقـت إقباله » . (٧٩) .

إن ما حدث حتى الآن يساعد على تفسير ما اسـفر عنه العبـور الأول الأول ليوسف بن تاشفين إلى الأندلس ، وبعد هذا موقفه مـن ابن عباد وحقده عليه وعدم مسامحته له ، ولعدم وثوق يوسف بـابن عباد تفقد الجزيرة الخضراء بنفسه ، وعلى الفـور « شرع في بناء اسوارها ، ورمم ما تشعث من ابراجها وحفـر الحفير (الخندق) عليها ، وشحنها بالأطعمة والأسلحة ، ورتب فيها عسكرا انتقاه من نخبة رجاله وأسكنهم بها » (٨٠) .

وبسيطرة يوسف بن تاشفين على الجزيرة الخضراء حدث تبـدل استراتيجي بشأن احد منفذي البحر المتوسط ، فقد كان العرب قـد امتلكوا منفذ الزقاق (مضيق جبل طـارق) مـن طـرفيه في العصر الأموي ، وذلك بامتلاكهم لكل من سبتة وطنجة من جـانب المغـرب والجزيرة الخضراء من الجانب الأندلسي المقابل ، وبعـدها حـاولوا

فتح القسطنطينية للاستيلاء على المنفذ الآخر ، ومع تأسس الحكم الأموي بالأندلس امتلك هذا الحكم الجانب الأندلسي فقط ، ومنذ ايام الخليفة عبد الرحمن الناصر تملك الحكم الأندلسي المر كله بطرفيه ، إنما بعد انتهاء فترة الاستبداد العامري فقد الأندلسيون الطرف المغربي ، والآن مع حلول قوات المرابطين في الجزيرة الخضراء صار بحر الزقاق مغربيا ،(٨١)وآنذاك كان المسلمون يمتلكون مع بحر الزقاق مضيق مسينا قرب صقلية ، لكنهم سيفقدون السيطرة على هذا المضيق الهام بعد أمد قصير وذلك بسقوط صقلية للنورمان ، الأمر الذي سيكون له أبعد الآثار وأخطرها على مسار أحداث الحروب الصليبية وسيتضح ذلك أثناء الاعداد لما سيعرف باسم الحملة الصليبية الثالثة ، بعدما حرر صلاح الدين مدينة القدس ، ولنتذكر في هذا المقام أن دول المشرق كانت ذات إمكانات بحرية متدنية .

وكان بعدما عاد يوسف بن تاشفين إلى سبتة أشرف بنفسه على عبور قواته إلى الجزيرة الخضراء ، وقارب عدد هذه القوات العشرة الاف فارس ، وكان القائد العسكري لها داود بن عائشة ، وعندما تمت عملية العبور كان الفونسو السادس بعيدا في الشمال ملقيا الحصار على مدينة سرقسطة ، وكانت اجزاء من قواته منشغلة بحصار طرطوشة وبلنسية ، وقد فوجيء بأخبار المرابطين فأوقف أعمال الحصار وجمع إليه قواته ليتوجه نحو يوسف بن تاشفين (٨٢) .

وتحرك يوسف بن تاشفين وراء قواته نحو إشبيلية « فتلقاه ابن عباد على مرحلة من الجزيرة فسلم عليه ، فهم ابن عباد بتقبيل يديه ، فبادر لمعانقته ، وسأله عن حاله ، وانبسط معه في الحديث ، وهنأه ابن عباد بالسلامة ، ولحقت ضيافات ابن عباد ، فعمت جميع المحلة على حال كبرها ، وركب ابن عباد ودار بالمحلة ، ونظر إلى العسكر فرأى عسكرا نقيا ومنظرا بهيا ، فلم يشك أن ذلك الجمع لايخلو من بركة » (٨٣) .

وبعدما وصل يوسف بن تاشفين إلى إشبيلية اقام بها ثلاثة

أيام ، ثم ارتحل نحو مدينة بطليوس ، لكن لماذا نحو هذه المدينة وليس نحو سرقسطة أو طرطوشة أو بلنسية ؟

لعل السبب هو أن المتوكل على الله ابن الافطس صاحب بطليوس كان أول ملوك الطوائف كتابة إلى يوسف يستنجد به قائلا « الا ناصرا لهذا الدين المهتضم ، الا حاميا لما استبيح من حمى الحرم ، وإنا لله على ما لحق عبيده من ثكل ، وعزه من ذل ، فإنها الرزية التي ليس فيها عزاء ، والبلية التي ليس مثلها بلاء(٨٤) .

ومن قبل هذا ما كنت خاطبتك أعزك الله بالنازلة في مدينة قورية(٨٥) أعادها الله للاسلام ، وأنها مؤذنة للجزيرة بالخلاء ، ولمن فيها من المسلمين بالجلاء ، ثم مازال ذلك التخاذل والتدابر يتزايد حتى تخلطت القضية ، وتضاعفت البلية ، وتحصلت بيد العدو ومدينة سرية(٨٦) وعليها قلعة تجاوزت حد القلاع في التحصين والامتناع ، وهي من المدينة كنقطة الدائرة تدركها من جميع الجهات ، دائرة بنواحيها ، ويستوي في فيء الأرض بها قاصيها ودانيها ، وما هو إلا نفس خافق ، ورمق زاهق استولى عليه عدو مشرك وطاغية منافق ، إن لم تدركوها بجماعتكم عجالا ، وتبادروا ركبانا ورجالا ، وتنفروا نحوها خفافا وثقالا ، وما احضكم على الجهاد بما في كتاب الله ، فإنكم له أتلى ، ولا بما في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنكم إلى معرفته أهدى » (٨٧) .

على هذا جاء يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للدفاع عن ثغور مملكة ابن الأفطس ، ولهذا توجه إلى بطليوس (وهي منطقة تقع الآن على مقربة من الحدود البرتغالية) لقد جاء للتفريج عن هذه المملكة ولدفع العدو عنها ، وليس للتوغل داخل الأراضي التي غلب عليها الفونسو ، ويؤكد هذا التعليل ما ذكره الأمير عبد الله في مذكراته ، فبعدما حل يوسف بن تاشفين بأرض الأندلس وأثناء وجوده بإشبيلية راسل ملوك الطوائف للالتحاق به ومعهم قواتهم ، ففعلوا باستثناء المعتصم ابن صمادح صاحب المرية حيث بعث بابنه

وبقي هو « متربصا ليرى كيفية الأمر ومخرجه مع الروم ، واعتذر بكبر السن مع الضعف » .

وتحدث الأمير عبد الله عن خروجه من مملكته للالتحاق بيوسف ابن تاشفين وأنه التقى به في الطريق إلى بطليوس وقال : « ورأينا من اكرامه لنا وتحفيه بنا مازادنا ذلك فيه رغبة ، لو استطعنا أن نمنحه لحومنا فضلا على أموالنا ، ولقينا المتوكل بن الأفطس محتفلا بعسكره ، كل يرغب في الجهاد ، قد أعمل جهده ووطن على الموت نفسه ... والعجب في تلك السفرة من حسن النيات ، وإخلاص الضمائر ، كأن القلوب إنما جمعت على ذلك » (٨٨)

هذا من جهة يوسف بن تاشفين اما من جهة الفونسو السادس فقد عاد إلى طليطلة ، ومن هناك حشد قواته كما تلقى نجدات من المناطق الشمالية ومن فرنسا وسواها فاجتمع لديه أعداد كبيرة من المقاتلين ساروا تحت راية الصليب وبمباركة بابوية ، وقد بالغت المصادر العربية في تقدير تعداد القوات الصليبية ، يقول صاحب الحلل الموشية « واحتفل ــ الفونسو ــ في الاستعداد ، وخرج ومعه ثمانون الف فارس لابسين الدروع دون غيرهم حتى انتهى إلى فحص الزلاقة ، وكان عسكر المسلمين يناهز خمسين الف فارس ، اربعة وعشرون الفا من فرسان الأندلسيين ما بين مدرع ولابس ، ومثلها أو اكثر منها مرابطون وأهل العدوة » (٨٩)

وارى في هذه الرواية مبالغة كبيرة ، وسبق أن نقلنا عن روض القرطاس أن تعداد المرابطين كان عشرة آلاف ، ونقلنا من قبل عن صاحب الحلل نفسه أن تعداد جيش يوسف بن تاشفين وصل إلى اثني عشر الف فارس ، ولا يعقل أن يجلب يوسف إلى الأندلس كل ما ملكه من قوات ، وهكذا نجد الحميري صاحب الروض المعطار يقول في مادة « زلاقة » اختار الفونسو ممن اجتمع إليه انجادهم « وقال حين نظر إلى ما اختاره من جموعه : بهؤلاء أقاتل الجن والأنس ، وملائكة السماء ، فالمقلل يقول : كان هؤلاء

المختارون من اجناده اربعين الف دارع ، ولابد لمن هـذه صـفته أن يتبعه واحد أو اثنان ، وأمـا النصـارى فيعجبـون ممـن يزعم ذلك ويقوله ، واتفـق الكل أن عدة المسـلمين كانت اقـل مـن عدة المشركين » .

والذي أراه أن عدد المسلمين لم يتجاوز العشرين الف مقاتل وأن عدد الصليبيين زاد على هذا العدد قليلا ، لكن ليس اكثر مـن خمس وعشرين الفا ، ونزلت القوات الاسلامية قرب أسـوار بـطليوس ، فهي جاءت للتفريج عن اراضي هـذه الدولة ، وهناك وردت الأخبـار بزحف الفونسو نحـوها على راس جيش كبير ، يقـول الأمير عبـد الله : « وتلومنا ببطليوس أياما حتى صح عندنا اقبال الفـونسو في حفله ، يروم الملاقاة ، ويظن انه يهزم الجيش لقلة معرفته به قبـل ، وساقه القدر إلى أن توغل في بلاد المسلمين ، وابعـد عن أنصـاره ، ونحن بازاء المدينة متربصون ، إن كانت لنا فيهـا ونعمـت ، وإن لم تكن كانت وراءنا حرزا ومعقلا نأوي إليها ، وأمير المسـلمين يدبـر هذا الأمر بحسن رأيه ، ويلتوي عسى تقع الملاقاة بتلك الناحية ، دون أن يحوج إلى التوغل في بلادهم ، وهم دخلوا الأندلس لا يعرفون من لهم أو عليهم ، ورجـا بـأن يكون الرومـي لا يخـرج إليه أحد فينصرف طريقه ،ويكفي الله المؤمنين القتال»(٩٠)على هـذا تمنى يوسف بن تاشفين عدم زحف الفونسو نحـوه ،لكن الفـونسو ركب رأسه وساق قواته مسافة واسعة ،وجاء بعدما اكل الطـريق قـواته ليقاتل قوما اتخذوا موقف الدفاع في متسع من الوقت والمكان ،وكتب الفونسو الى يوسف يقول :« هاأنا قـد أقبلت اريد مـلاقاتك ،وانت تتربص وتختبيء » (٩١) .

وكان من المتوجب على المسلمين مهاجمة الفونسو قبل ان تـرتاح قواته وتتخذ معسكرا خاصا بها ، لكن يوسف لم يفعل هذا ، وترك الجيش المعادي يعسكر على مسافة ثلاثة أميال من معسكره ، وكتب يوسف إلى الفونسو كتابا « يدعوه فيه إلى الجـزية او الاسـلام او

الحرب ، فلما وصل كتابه إلى الفونسو أدركته الأنفة وداخله الكبـر وقال للرسول: قل للأمير لا تتعب نفسك أنا أصل إليك »

وجاء في كتاب يوسف إلى الفـونسو السـادس: « وقـد بلغنا يا اذفنش أنك دعوت إلى الاجتماع بك وتمنيت أن تـكون لك فلك تعبـر البحر عليها إلينا ، فقد أجتزناه إليك ، وجمع الله في هذه العـرصة بيننا وبينك ، وسـترى عاقبـة دعائك (ومـادعاء الكافـرين إلا في ضلال) ـ سورة الرعد ـ الآية: ١٤

فلما وصل الكتاب إلى اذفنش وسمع ما كتب به إليه جاش بحر غيظه ، وزاد في طغيانه وكفره ، وقال ابمثل هذه المخاطبة يخاطبني ، وأنا وابي نغرم الجزية لأهل ملته منذ ثمانين سنة ، واقسم ان لا يبرح من مكانه الذي نزل فيه ، وقال: يزحف إلي فإني اكره ان القاه قرب مدينة تعصمه ، وتمنعني منه ، فلا اشفي نفسه بقتله ، ولا ابلغ املي فيه وبيني وبينه هذا البسيط المتسع ، فأعلم السفراء أمير المسلمين بانتخائه وما اظهر من طغيانه وكبريائه » (٩٢) .

واثناء تراشق الرسائل بين المعسكرين وتبادل الوفود كتب الفونسو » إلى أمير المسلمين مكرا منه يقول: إن غدا يوم الجمعة ولا نحب مقاتلتكم فيه لأنه عيدكم ، وبعده السبت يوم عيد اليهود ، وهم كثير في محلتنا ، ونحن نفتقر اليهم ، وبعده الأحد عيدنا فنحترم هذه الأعياد ، ويكون اللقاء يوم الاثنين ، فقال أمير المسلمين: اتركوا اللعين وما احب » (٩٣) .

وحذر ابن عباد يوسف بن تاشفين ، ويلاحظ أن يوسف اتخذ معسكرا خاصا به بعيدا عن معسكر الأندلسيين الذين عسكروا في وجه جيوش الفونسو ، فقد عسكر يوسف خلف تلة في تلك المنطقة ، ويبدو أن المسلمين صدقوا ما كتب به إليهم الفونسو ، وفقط المعتمد اتخذ الاحتياطات اللازمة وبث العيون والطلائع وأمضى الليل يقظا خشية هجوم مفاجيء ، وجاء فجر الجمعة الثاني عشر لرجب الفرد سنة تسع وسبعين وأربعمائة(٩٤) » (٢٣ ـ تشرين أول ١٠٨٦ م) دون قيام هجوم ليلي فمال المسلمون إلى الراحة مع إبقاء قوات الاستطلاع واتفاق على خطة القتال ، انما خطة دفاعية حيث يرجح أن المسلمين لم يفكروا بمهاجمة الفونسو وقواته ، وفي صباح يوم الجمعة استعد الفونسو للهجوم » وارتقى في ربوة مع جماعة زعماء قومه ليبصر اعداد جيوشه ، فأعجبه ما رأى من كثرتهم ولمعان دروعهم...فعند ذلك تقدم بجيشه قاصدا محلة المسلمين فأقبلت طلائع ابن عباد تنادي

وتقـول إن الروم في أذيالنا ، والناس على طمـأنينة ، وقـد كانوا اتفقوا على أن يكون المعتمد بن عباد في قلب المقدمة ، والمتوكل بـن الأفطس في ميمنتها ، وأهل شرق الأندلس في ميسرتها ، وسائر أهل الأندلس في الساقة ، والمرابطون وأهل العدوة كمائن متفرقة تخـرج من كل جهة عند اللقاء.

فلما علم ابن عباد بقـدوم الطـاغية عليه بـادر الركوب على غير تعبئة ولا أهبة ، وغشيتهم خيل العدو كالسـيل ، وعمتهـم كقـطع الليل ، وظنوا أنه وهية لا ترقع ، فوافق محلة ابن عبـاد في طـريقه بأهل اشبيلية وسائر عماله ، فوقعت بينهـم حـروب صـعبة كانت الدائرة فيها على أهل اشبيلية ، استأثر الله فيها بأرواح شهدت لها الرحمة وخطبتها الجنة ، وخرج ابن عبـاد بجـراحات وأبلى في ذلك اليوم بلاء حسنا....قال ثم ثاب العسـكر مـن المسـلمين لأنفسـهم وحملوا على محلة أذفنش حملة صادقة.

وقد كان أمير المسلمين يوسف بن تـاشفين على حين غفلة ، ولم يكن عنده علم بمـا وقـع ، إذ كانت محلتـه بعيدة عن محلة ابـن عباد ، حتى بعث إليه ابن عباد كاتبه ابن القصيرة فأخبره ، فـركب وأحدق به زعماء لمتونة ، وكبراء صنهاجة وسائر عسكره »(٩٥) .

واحتاج أيصال الخبر إلى معسكر يوسـف بـن تـاشفين بعض الوقت ، وهدر المزيد من الوقت في ركوب القوات المرابطية واتخاذها الوضع القتالي ، يضاف إلى هذا أن يوسـف تبـاطىء في ارسـال النجدات إلى ابـن عبـاد ، ولعله اراد التخلص مـن القـوات الأندلسية ، قال ابن الكردبوس: « فأعلم أمير المسـلمين بـانهزام الرؤساء فقال اتركوهم قليلا للفنا فكلا الفريقين من الأعداء(٩٦)ومع هذا بعث بعد حين بعدد صـغير مـن الجند للوقـوف إلى جـانب الأندلسيين والتفريج عنهم ، ويبدو أن الفونسو قد تصور أنه اشتبك بالقتال ضد جميع القوات المسلمة ولم يعرف بوجود معسكر منفصل للمرابطين ، ولهذا شدد الضغط على القوات الأندلسـية واسـتنفذ طاقاته ضدها ولم يتخذ ما ينبغي من احتياطات ، لهذا ما أن وصلت

طلائع القوات المرابطية حتى تغير التوازن وفيما الحال هكذا كان يوسف بن تاشفين قد بعث بالجسم الأعظم من قواته لتقوم بحركة التفاف وتهاجم معسكر العدو ، وتمكنت القوات المرابطية بيسر من ذبح المدافعين عن المعسكر الصليبي والقاء النار فيه ، وفوجىء الفونسو وقواته ، وتمزق الجيش الفرنجي بعدما حاول الفونسو ارسال بعض كتائبه نحو المعسكر ، وفي هذا الوقت التقت القوات المرابطية بالقوات الأندلسية ، فطوقت القوات الصليبية ، ومع هذا جمع الفونسو بقاياه وصمد وقاتل بشراسة ، فقام يوسف بتوجيه حرسه الشخصي من مقاتلي السودان فقصفوا صفوف الصليبيين وأصيب الفونسو بفخذه بجراحة كبيرة ، وحدث هذا ورجالات الفونسو « كلوا وثقلهم السلاح مع بعد المسافة » فانهزموا « فاقتفى المسلمون آثارهم وركبوهم بالسيف ، ومات من جيشهم خلائق وتبددوا في الطريق ، فمن بين قتيل، وميت مثقل صريع » (٩٧) وتسلل الفونسو من بين الجرحى ومعه عدد ضئيل من جنده وهم جميعا مثقلين بالجراح ، وكما بالغت المصادر العربية في تقدير عدد القوات الصليبية بالغت في تعداد خسائر هذه القوات وأوحت أن جيش الفونسو قد دمر وأبيد ، وتحدث الأمير عبد الله عن الخسائر الفادحة التي لحقت بالصليبيين وقال: « ولم يفقد من المسلمين إلا الأقل ، وانصرف أمير المسلمين راجعا إلى اشبيلية على حال سلامة ونصر»(٩٨) ويعني هذا أن القوات المسلمة لم تطارد فلول العدو ولم تحاول استثمار النصر المبين الذي أحرزته ، وكان اقل ما هنالك محاولة استرداد طليطلة ، فلماذا حدث هذا؟

الشبه هنا شديد بين ما حدث في معركة منازكرد وهذه المعركة ، فالمعركتان كانتا من النوع الدفاعي ولم يمتلك المسلمون اية خطط للتوسع او الهجوم ، فبعد انقضاء معركة منازكرد لم يحاول الب ارسلان حتى إسترداد المواقع الشامية التي قد استولى عليها أسيره الامبراطور رومانوس دايجينوس ، وهنا في الأندلس جاء يوسف بن تاشفين للتفريج عن بطليوس ، ولم يأت لاستعادة

طليطلة أو غيرها ، يضاف الى هذا أنه كان من عادات لمتونة عدم مطاردة فلول المنهزمين من أعدائهم ، قال البكري لدى حديثه عن عادات الملثمين القتالية «ومن فر أمامهم لم يتبعوه» (٩٩) وطبعا لم تقم القوات الأندلسية بأعمال المطاردة أو محاولة استرداد طليطلة لعدم توفر الامكانات ، ولخوف كل واحد من ملوك الأندلس على ملكه ، ويمكن ان نضيف معرفتهم أكثر من سواهم بامكانات الأعداء العسكرية ، فنحن سنجد بعد وقت ضئيل معاودة الفونسو حملاته على المسلمين ومن ثم الاستنجاد ثانية بيوسف بن تاشفين .

ويستوحى تأييد لهذا مما رواه صاحب الحلل الموشية لدى حديثه عن فرار الفونسو قال :« ففر ...وسيوف المسلمين تتبعه حتى لجأ الى ربوة عالية اعتصم بها لتعذر مرتقاها ، وأحدقت بها الخيل ، فقال لهم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين : الكلب اذا ارهق لابد أن يعض،قد سلم الله المسلمين من معرته ، ولم يقتل منهم الا القليل ، فان هجمنا على هؤلاء ابلوا بلاء عظيما ، ولكن اتركوهم ولاحظوا حالهم ، فلما جن الليل فروا واصبحوا يوم السبت فلم يوجد لهم اثر ، ثم ثنى أمير المسلمين عنانه ، فنزل الناس بنزوله ، وقد ابان الله بصارمه تلك الشوكة ، واستأصل أولئك الجموع المشركة»(١٠٠) .

ومع هذا فعند الحميري صاحب الروض المعطار روايات وأراء جديرة بالاعتبار ، قال الحميري :« ولما انحاز الطاغية بشرذمته جعل ابن عباد يحرض على اتباع الطاغية وقطع دابره ، فأبى ابن تاشفين واعتذر بأن قال : إن اتبعناه اليوم لقي في طريقه أصحابنا المنهزمين راجعين الينا منصرفين فيهلكهم ، بل نصبر بقية يومنا حتى يرجع الينا أصحابنا ، ويجتمعون بنا ، ثم نرجع اليه فنحسم داءه ، وابن عباد يرغب في استعجال اهلاكه ويقول : إن فر أمامنا لقيه أصحابنا المنهزمون فلا يعجزون عنه ، ويوسف مصر على الامتناع من ذلك ، ولما جاء الليل تسلل ابن فرذلند ، وهو لايلوي على شي ، واصحابه يتساقطون في الطريق واحدا بعد واحد من اثر جراحهم ، فلم يدخل طليطلة الا في دون المائة .

وتكلم الناس في اختلاف ابن عباد وابن تاشفين ، فقالت شيع ابن عباد : لم يخف على يوسف أن ابن عباد أصاب وجه الرأي في جلته ، لكن خاف أن يهلك العدو الذي من أجله استدعاه فيقع استغناء عنه ، وقالت شيع يوسف : إنما اراد ابن عباد قطع حبال يوسف من العود الى جزيرة الأندلس ، وقال آخرون : كلا الرجلين اسر حسوا في ارتغاء ، وإن كان ابن عباد أحرى بالصواب»(١٠١) .

المهم ان سوء النوايا وانعدام الثقة بين الفرقاء والحرص على الملك ضيع على المسلمين مكاسب هذا النصر المؤزر ، وهكذا تبدد الوقت وضاعت الفرصة ، قال صاحب الحلل الموشية :« ولما قضى الله بهذا الفتح الجليل ، والصنع الجميل ، اقام المسلمون في جمع أسلابهم ، وضم عددهم مدة أيام ، فامتلأت أيديهم بالغنائم الوافرة والسبي الكثير ، واكتسب الناس فيها من آلات الحروب والأموال وسيوف الحلي ، ومناطق الذهب والفضة ما أغناهم .

وكان يوما لم يسمع بمثله من اليرموك والقادسية ، سياله من فتح ما كان أعظمه ، ويوم كبير ما كان أكرمه ، فيوم الزلاقة ثبت قدم الدين بعد زلاقها ، وعادت ظلمة الحق الى اشراقها ، نفست مخنق الجزيرة بعض التنفس ، واعتزبها رؤساء الأندلس ، فجزى الله أمير المسلمين ، وناصر الدين أبا يعقوب يوسف بن تاشفين ، أفضل الجزاء ، بما بل من أرماق ، ونفس من خناق ، ووصل لنصر هذه الجزيرة من حبل وتجشم الى تلبية دعائها ، واستبقاء ذمائها من حزن وسهل حتى هزم على يده أعداء الله المشركون ، وظهر أمر الله وهم كارهون » (١٠٢) .

وعاد يوسف الى اشبيلية ومعه ملوك الطوائف ، وقد شعر هؤلاء الملوك بتزلزل مواقعهم خاصة في أعين شعوبهم ، وانهم شبه تابعين ليوسف بن تاشفين ، يقول الأمير عبد الله :« ولما انقضت غزوته

تلك جمعنا في مجلسه ــ أعني رؤساء الأندلس ــ وأمرنا بالاتفاق والائتلاف ، وأن تكون الكلمة واحدة ، وأن النصارى لم تفترصنا

الا للذي كان من تشتتنا واستعانه البعض بهم على البعض،
فأجابه الكل أن وصيته مقبولة وأن ظهوره مما يجمع الكل على الطاعة والجري الى الحقيقة» ثم تحدث عن شكاوى قدمها بعض الحكام ضد بعضهم بعضا وعن موقف يوسف بن تاشفين من ذلك كله ، ثم أخذ يوسف يعد العدة للعودة مع قواته الى المغرب ، «وقد اطلع عيانا وسماعا من اختلاف كلمتنا ما لم ير وجها لبقائنا في الجزيرة ، وأنس الجميع ، ولم يتربص في البلاد ألا يوحش سلاطينها مما يتوقعونه من انحياش رعيتهم اليه ، فكل من شكا اليه ذلك الوقت من رعيته يقول له : لم نأت لهذا ، والسلاطين أعلم بما يصنعوه في بلادهم ، حتى ازداد بذلك محبة الى ما كان عليه في قلوبنا ، واليه استنامة وميلا ، ورجع الكل الى وطنه»(١٠٣).

وقيل الكثير عن الأسباب التي دعت يوسف الى العودة الى المغرب ، من ذلك ما نقله صاحب الحلل الموشية :« ولما فرغ من وقعة الزلاقة وانصرف أهل الأندلس الى بلادهم ، ورد عليه خطب أوجعه ، ونبأ افجعه بموت ابنه أبي بكر سير ، فتعجل إيابه من العدوة وصدره ، وقد قضى في عدو الملة وطره ، »(١٠٤) .

وقيل السبب الذي عجل بعودة يوسف هو موت أبي بكر بن عمر وتحرك ابنه ابراهيم ، ولقد عالجنا مسألة الوفاة من قبل ، يضاف الى هذا أن الزلاقة وقعت سنة٤٧٩هـ وذهبت المصادر التي دحضنا رواياتهاالى ان ابا بكرقد توفي سنة ٤٨٠هـ ، وقد تحدث صاحب روض القرطاس عن عودة يوسف بن تاشفين فقال :« واتصل بأمير المسلمين يوسف ...وفاة ولده أبي بكر ، وكان تركه مريضا بسبتة فاغتم لذلك وانصرف راجعا الى العدوة بسبب وفاة ولده ، ولولا ذلك لم يرجع ، فجاز الى العدوة ودخل حضرة مراكش ، فأقام بها الى سنة ثمانين وأربعمائة ، فخرج في شهر ربيع الآخر منها يتطوف على بلاد المغرب ، ويتفقد أحوال الرعية ، وينظر في أمور المسلمين ويسأل عن سير عماله في البلاد وقضاته»(١٠٥).

ويرجح ان جولة يوسف على آعماله كانت روتينية ، او انها

ارتبطت بتفجر مشاكل خطرة مع الناصر بن علناس صاحب قلعة بني حماد (في جزائر اليوم) فقد اغار ابن حماد على الأراضي المرابطية ، ويقال حدث هذا أثناء وجود يوسف بن تاشفين في الأندلس ، وهذا وفي محفوظات الفاتيكان نص رسالة مرسلة من البابا غريغوار السابع الى ابن حماد ، كما حفظ لنا ابن بسام في كتابه الذخيرة نص رسالة تقريع بعث بها يوسف بن تاشفين الى ابن حماد (١٠٦) .

وعلى جميع الأحوال شكل جواز القوات المرابطية الى الأندلس نقطة تحول في تاريخ هذا البلد وفي تاريخ المغرب أيضا ، فقد أعاد نصر الزلاقة التوازن العسكري والسياسي الى ديار الأندلس، وأجل سقوط هذه الديار عدة قرون ، كما أن ظهور المرابطين على أرض الأندلس اتاح الفرصة أمام مسلمي الأندلس وعلى رأسهم بعض الفقهاء للشكوى ضد ملوك الطوائف ثم التمرد على سلطانهم ، وسنرى أنه لولا ذلك لما سهل على يوسف بن تاشفين توحيد الأندلس وازالة ملوك الطوائف .

ولقد رفعت جملة الحوادث من مكانة المعتمد بن عباد في الأندلس واظهرت انه اقوى ملوك الطوائف واكثرهم جدارة ، وانه بالتالي منافس حقيقي للتوسع المرابطي في الأندلس ، لذلك وضعت الخطط لالازالته فحسب بل للحط من شأنه ونفيه ومعاملته بسوء كبير .
ولقد وقعت هذه المعركة بعد ست عشرة سنة من وقوع معركة منازكرد ، فمعركة منازكرد كانت الفيصل في العلاقات البيزنطية الاسلامية ـ أو لنقل العلاقات بين أوروبا الشرقية والمشرق الاسلامي ـ منذ القرن الرابع هـ / العاشر للميلاد ، بعدما انتاب الضعف الدولة العباسية وصارت اليد العليا في جبهة الثغور ، لابل داخل الشام والجزيرة ، لبيزنطة ، والشي نفسه حدث الآن في جبهة المواجهة الاسلامية مع أوروبا الغربية ، فبعد انتكاسات متوالية طوال ثلاثة أرباع القرن تلقت القوات الأوروبية ضربة ما حقة على بسيط الزلاقة ، ومع أن المسلمين في المشرق والمغرب لم يستثمروا ما كسبوه مباشرة ، لكن صوت الهزيمة طرق بشدة وعنف أبواب

أوروبا من الشرق ومن الغرب ، لاسيما وقد اجتاح التركمان آسية الصغرى بعد منازكرد ، ونشأت لهم دول على بعد أميال من القسطنطينية كذلك الحال في الأندلس ، فسنقرأ في الفصل التالي قصة إعادة الوحدة الى الاندلس واخذ المسلمين مجددا بزمام المبادرة العسكرية ، ولاشك أن هذا كله شحن اجواء اوروبا الغربية ، وزادها تعصبا وتأثرا بالنشاطات الدينية ، وهكذا استجابت شعوبها بسرعة لدعوة البابوية ـ كما سنرى ـ وحمل الاوروبيون شارة الصليب وخرجوا بحشود هائلة نحو المشرق لازالة الاسلام منه وتحويله الى وطن لاتيني وراء البحار .

الفصل الرابع

يوسف بن تاشفين وتوحيد الأندلس وازالة دولة الطوائف

راينا في الفصل المتقدم أن الأمير عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة ، كان من بين ملوك الطوائف الذين استقبلوا الأمير يوسف ابن تاشفين وشاركوا في معركة الزلاقة ، ومذكرات هذا الأمير الأندلسي على درجة عالية من الاهمية ، حيث أن موادها وثائقية ، وحين أجمل الأمير عبد الله نتائج الجواز الأول ليوسف ابن تاشفين قال :« واخذ أمير المسلمين في الانصراف الى بلاده ، وهو قد اطلع عيانا وسماعا من اختلاف كلمتنا ما لم ير وجها لبقائنا في الجزيرة»» (١)

ونظرا لعدم قيام المسلمين باستثمار ما منحهم اياه نصر الزلاقة ما لبث الفونسو السادس أن سعى الى لم شعثه وتدارك بعض ما خسره ومتابعة نشاطاته التوسعية بشكل أو آخر ، واستغل قيام صراعات حول بلنسية بين ابن عباد وآخر تغلب عليها اسمه ابن رشيق ، وفي الوقت نفسه نشطت بعض العصابات الاسبانية في منطقةمرسية واعمال لورقة وبسطه ، وهي الكورة التي عرفها المسلمون باسم تدمير ، وقام على مقربة من لورقة «حصن حصين على رأس جبل شاهق بينه وبين لورقة نصف يوم يملكه العدو»(٢) واسمه لييط ، شحنه الفونسو السادس بأعداد وافرة من العساكر وامرهم بالاغارة على الأراضي الاسلامية ، وهكذا كانت سراياه تغير شرقا وغربا ، اذ كان في موسطة بلاد المسلمين »(٣)

وخلال عامين انقضيا بعد معركة الزلاقة ترديت الأوضاع كثيرا وشرعت الوفود الأندلسية بالتوجه الى مدينة مراكش والالتقاء بيوسف بن تاشفين حيث شكت اليه سوء الأحوال الأمنية في الأندلس ، «فلم يزل وجوه الأندلس من تلك البلاد ، يترددون اليه

بالشكوى حتى وعد بالجواز اليهم ، اذا «(٤)أبرمت الاتفاقات مع ملوك الطوائف .

وكنا قد رأينا أن المعتمد بن عباد قد تصدر يوم الزلاقة ملوك الطوائف ، وادراكا من ألفونسو لهذا الحال « عمد الى حصن لييط الموالي لعمل ابن عباد فشحنه بالخيل والرجال والرماة ، وأمرهم أن يدخلوا من حصن لييط المذكور فيغيرون في أطراف بلاد ابن عباد دون سائر بلاد الأندلس ... فكانوا يدخلون منه خيلا ورجالا فيقتلون ويأسرون في كل يوم ، جعلوا ذلك وظيفة عليهم ، فساء ابن عباد ذلك وضاق ذرعا»(٥) .

ومن المقدر أن ابن عباد عرف بتفاصيل اتصالات الأندلسيين بيوسف بن تاشفين ، وأن يوسف أبدى استعداده للجواز الى الأندلس شريطة عقد اتفاق رسمي حول هذا الموضوع ، ونظرا لتبدل الأوضاع بعد الزلاقة ولأن يوسف بن تاشفين لم يعد الآن «الصحراوي ملك العدوة» بل أمير المسلمين والسيد القوي ، لم يقدم ابن عباد على مراسلته واستدعائه ، بل توجه اليه شخصيا فغادر اشبيلية على رأس وفد كبير وجاز البحر والتقى بيوسف ابن تاشفين على مقربة من تطوان وليس في مدينة مراكش ، ويفيد هذا وجود ترتيبات مسبقة أعدت لهذه الزيارة حتى جاء يوسف الى هذه المنطقة ، وروى صاحب الحلل الموشية أن يوسف بن تاشفين «قابله بالسلام والترحيب بوجه طلق وصدر رحب واكرام جم ، وقال له : ما السبب الذي دعاك الى الجواز الينا ، وهلا كتبت بحاجتك فقال له : جئتك احتسابا وجهادا ، وانتصارا للدين ، وقد أجرى الله الخير على يديك ، وحظك مما جئت به الحظ الأوفر وقد اشتد ضرر النصارى المستولين على حصن لييط ، وعظم أذاه بالمسلمين ، لتوسطه في بلادهم ، ولاجهاد أعظم منه أجرا ، ولاأثقل منه وزنا ، فتلقى أمير المسلمين مقصده بالقبول ، ووعده بالحركة والجواز ، فاستحثه واستوثق منه ، وصدر الى حضرة اشبيلية ، وتقدم الى كل طبقة من أهل مملكته بالاستعداد وأكثر أعمال السهام والمطارد ، وعمل العرادات وغير ذلك من الآلات » (٦)

في رواية صاحب الحلل هذه مسحة دعائية واضحة ، واكثر واقعية منها ما حكاه الامير عبد الله في مذكراته حيث قال : «وإن المعتمد بن عباد لما راى من خلاف ابن رشيق عليه وانه اراد ان يضع ابنه الراضي بمرسية عوضا عن الجزيرة ، صار بنفسه الى امير المسلمين ، وجاز اليه البحر ، يريد الطمأنينة ويحكم معه ما شاء من عمل في مرسية وغيرها ، وعظم له شأن لييط ، وانه في قلب البلد ، وأن لاراحة للمسلمين الا بفقده ، وعاقده على ان يأتي عليه بنفسه ورجاله لكي يتهيأ سلاطين الأندلس حربه بعددهم واجماعهم فيأمنوا من يقلعهم عنه» (٧) .

«وفي سنة احدى وثمانين واربعمائة جاز امير المسلمين الى الاندلس الجواز الثاني برسم الجهاد ... فركب البحر من قصر المجاز الى الجزيرة الخضراء ، فتلقاه ابن عباد بها بألف دابة تحمل الميرة والضيافة ، فلما نزل يوسف بالخضراء ، كتب منها الى أمراء الأندلس يدعوهم الى الجهاد ، وقال لهم : الموعد بيننا حصن لييط ، ثم تحرك يوسف من الجزيرة الخضراء ، وذلك في شهر ربيع الأول من سنة إحدى وثمانين واربعمائة (حزيران ١٠٨٨ م) فنزل على حصن لييط»(٨) .

وتجمعت القوات المرابطية والأندلسية امام حصن لييط «وكان بداخله من الروم الف فارس ، واثنا عشر الف راجل واتصلت الحروب ، وكثر الوارد ، وتمادى القتال على الحصن ليلا ونهارا مدة أشهر ، وكل أمير من أمراء الأندلس يقاتل في يوم بخيله ورجله .

واجتمع المعتمد بن عباد ويوسف بن تاشفين ، وظهر لهما من حصانته ومنعته واستعصامه ما أيسهم عنه ... وانه لايتأتى لهم أخذه الا بالمطاولة ، وقطع مادة القوت عنهم ، وكان من جملة من وصل من رؤساء الأندلس ابن رشيق صاحب مرسية الثائر بها على المعتمد بن عباد ، فشكا ابن عباد بابن رشيق لأمير المسلمين وذكر انتزاعه عليه ، وانه دفع جبايتها مصانعة للطاغية أذفنش ، فحضر

ابن رشيق ، واستفتى يوسف بن تاشفين في أمرهما الفقهاء فوجب الحكم على ابن رشيق ، فأمر يوسف بن تاشفين بالقبض عليه واسلامه في يد ابن عباد ، ونهاه عن قتله ، فثقفه ابن عباد فهرب للحين أصحاب ابن رشيق وقرابته وجميع محلته الى مرسية ، وانتزوا بها ، ومنعوا الميرة عن المحلة ، فاختلت امورها ووقع الغلاء بها ، وارتفع السعر فيها ، فضاقت بالناس الأحوال .

وفي اثناء ذلك استصرخ اهل الحصن سلطانهم ، فأخذ في الحشد ويمم الحصن في أمم لاتحصى ، فاقتضى راي يوسف بن تاشفين التوسعة على الحصن والتأهب للقائه ، فتأخر بمحلته ... وظهر له أن الأذفنش اذا وصل فغايته تخليص قومه واخلاء الحصن ويزول ضرره ، ورأى أن الصواب اخلاء الطريق له .

ولما وصله اللعين وجد قوما جياعا لايقدرون على امساك الحصن فأحرقه واخرج من كان فيه من قومه»(٩) .

ومثير للانتباه اخفاق هذه الحملة لحصانة ليبط ولتفجر مشكلة مرسية ، ومن اجل هاتين المسألتين جاز يوسف بن تاشفين الى الأندلس ، والمثير اكثر أن ابن تاشفين تجنب الصدام بقوات الفونسو السادس ، وفعل الشيء نفسه الفونسو وقد نعلل تصرف الفونسو هذا نتيجة ما كان قد نزل به في الزلاقة ، لكن لماذا تجنب يوسف بن تاشفين الصدام معه ؟ لعل السبب قد كمن في وضع القوات الأندلسية وفي أوضاع الأندلس بشكل عام ، ووصف ذلك كله الأمير عبد الله بقوله : "وكانت تلك سفرة أخرج الله فيها أضغان سلاطين الأندلس ورعيتهم في ذلك ياتون أفواجا شاكين لما وجدوا لمن اسندوا اليه فالراضي منهم يلتمس الزيادة ، والساخط يرجو الانتقام ، وجعلوا في شكاويهم فقهاءهم وسائط يقصدون نحوهم منهم الفقيه ابن القليعي قد صار خباؤه بتلك المحلة مغنطيسا لكل صادر ووارد يجد السبيل الى الطلب للقدر الذي قدره الله .

ورأى سلاطين الأندلس عند ذلك من تحامق رعاياهم وامتناعهم

من مغارم الأقطاع التي كانت عليهم مع احتياجهم الى الانفـاق مـا قلق به وساء الظن من اجله ، جيش يكلفـونه كل عام ، ومجـاملات تلزم المرابطين كثيرة ، وتجف متوالية لو فرط منها في شي لانخرمت عليهم الأحوال ثم رعايا تمتنع من تأدية ما تقوم به الحال الموصـوفة
فلا حيلة الا بين صبر يؤدي الى ملامة توجب عقـوبة ، أم امتناع يؤدي الى استئصال كالذي جرى .

ونسمع في هذا كله من اهل جهاتنا تهديدا وعصيانا أنكرناه لاتتم به مملكة ، ولايتهيأ معه قضاء حاجة ، ولقد كان القليعي المذكور في تلك المحلة يخاطب إخوانه بحضرتنا الا يعطونا شيئا ، ويعدهم بما كان ، فلما كان يأتيهم الخفر منا يقعدون بنا ، ونحن أحوج ما كنا اليه للانفاق ، لاسيما في تلك المحلة التي عدمنا فيهـا الأقـوات الا بالشراء كل يوم ، فدخل علينا من ذلك ضرر شنيع .

وطالت تلك المحلة الملعـونة ... وكشـفت العـورات ، فلم يزدد الرؤساء الا توحشا ولاالرعية الا تسـلطا ... وحـق لهـم ، مـع اختلاف كلمة الرؤساء وهم في أسباب الغرق ، فمن اغتر منهم طالب صاحبه وهو المطلوب ، وشغله ذلك عما هـو في سـبيله ... وكانت مقدمات سوء ، وزمانا على السلاطين عسيرا وسـعدا للمـرابطين مقتبلا »

ثم قدم الأمير عبد الله تفـاصيل جيدة عن مسـألة ابـن رشـيق وبين «أن أمير المسلمين ، لما رأى حال ابن عباد مع ابن رشـيق واختلاف ما بينهما ، أعمل في ذلك عقله ، ودبر برأيه وقال : ما تنبغي لنا مفاسدة ابن عباد من اجل ابـن رشـيق ، لاحتياجنا اليه فيما نحن بسبيله ونحن لم نأمن أمـر الرومـي ،والأوكد علينا في هذا الوقت مداراة ابن عباد حتى ترينا الأمور وجوهها »(١٠) .

ويستخلص الانسان من صورة التفاصيل التي حكاها الأمير عبد الله أن المسلمين انشغلوا أثناء حصارهم لحصـن لييط بخـلافاتهم وليس بالشؤون الحربية ، وان قدرات المرابـطين في القتـال ضـد الأماكن الحصينة كانت متدنية ، ومن المقدر أن يوسف بن تاشفين

كان مـدركا لهـذه الناحية وكان يعـرف ان جميع المدن الأندلسـية حصينة لايمكن لقواته الاستيلاء عليهـا ، ولهـذا تغـاضى ، الآن عن واحيانا شجع على تمرد عامة الأندلسيين على حكامهم ، وتحـالف بالوقت نفسه مع الفقهاء ، فلم يبخلوا بإصدار الفتـاوى بخلع ملوك الطوائف ، ولابد ان تردي الأوضاع داخل الأندلس كان مريعا حتـى تخلى الأندلسيون عن استقلالهم لصالح المرابطين .

وشـجع الفقهاء شـعب الأندلس على الامتناع عن دفع الضرائب لملوكهم ، ووجد هؤلاء الملوك الآن بحاجة إلى المزيد من الأموال لتنفق على تحصين ممتلكاتهم وتقوية جندهم واسـترضاء بعض القضـاة والفقهاء ، ونيل رضى رجالات المرابطين وفي الوقت نفسه الاستمرار بدفع الجزية لألفونسو السادس ،(١١) وهكذا تعقـدت الأمـور كثيرا وجاءت المحصلات جميعا لصالح المرابطين .

في الجواز الأول لم يتدخل يوسف بن تاشفين في المسائل الداخلية للأندلسيين ، لكنه في هذه المرة لم يكتف بأن أصبح يقوم بـالاصغاء إلى الشكاوى بل مارس صلاحيات السيادة ، فهو الذي امر باعتقال ابن رشيق ، وهو الذي استفتى الفقهاء ، وحين لم يعترض أحد على ممارساته جاء ذلك بمثابة إقرار بتفويضه بحـكم الأندلس ، ويحـق للمفوض بالسلطة اتخاذ الاجراءات المناسبة من عزل وتعيين وعقوبة وغير ذلك ، وهذا ما كان .

وامضى ابن تاشفين في الأندلس اربعة أشهر ، وحين عاد نحو المغرب عاد وقد اتخذ قراره بإزالة ملوك الطوائف ، ووضـع الأندلس تحـت حكمه المباشر ، وسيكون هذا في الحقيقـة تنفيذا للرغبـة المرابـطية الأساسية في التوسع بالأندلس ، لكن الذي حدث أن هـذا التـوسع تموه بلون الجهاد وإنصاف المظلومين وبالتحالف مع رجـال الدين ، ولقد ادهشت اوضاع الأندلس وتقدمها وغناها يوسف بن تـاشفين والمرابطين ، ولعله راى انه إن تركها لملوك الطوائف لابد وان تسقط للأعداء ، وهنا تمازجت المصالح والرغبات مـع القناعات الجهـادية والدينية ، قال عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجـب وهـو يصـف

أحوال يوسف بن تاشفين بعد عودته إلى المغرب إثر الجواز الثاني : « ورجع أمير المسلمين إلى مراكش وفي نفسه من أمر الجزيرة المقيم المقعد ، فبلغني أنه قال لبعض ثقاته من وجوه أصحابه : كنت أظن أني قد ملكت شيئا ، فلما رأيت تلك البلاد صغرت في عيني مملكتي ، فكيف الحيلة في تحصيلها ؟ فاتفق رأيه ورأي أصحابه على أن يراسلوا المعتمد يستأذنوه في رجال من صلحاء أصحابهم رغبوا في الرباط بالأندلس ، ومجاهدة العدو ، والكون ببعض الحصون المصاقبة للروم إلى أن يموتوا ، ففعلوا ، وكتبوا إلى المعتمد بذلك فأذن لهم ، بعد أن وافقه على ذلك ابن الأفطس المتوكل صاحب الثغور ، وإنما أراد يوسف وأصحابه بذلك أن يكون قوم من شيعتهم مبثوثين بالجزيرة في بلادها ، فإذا كان أمر من قيام بدعوتهم أو إظهار لملكتهم وجدوا في كل بلد لهم أعوانا .

وقد كانت قلوب أهل الأندلس قد اشربت ـ كما ذكرنا ـ حب يوسف وأصحابه ، فجهز يوسف من خيار أصحابه رجالا انتخبهم ، وأمر عليهم رجلا من قرابته يسمى بلجين ، وأسر إليه ما أراده ، فجاز بلجين المذكور ، وقصد المعتمد من ملوك الجزيرة ، فقال له أين تأمرني بالكون ؟ فوجه معه المعتمد من أصحابه من ينزله ببعض الحصون التي اختارها لهم ، فنزل حيث أنزلوه هو وأصحابه ». (١٢) .

على هذا استفاد يوسف بن تاشفين مع المرابطين من درس لبيط ، لكن ملوك الطوائف لم يأخذوا حذرهم ، أو لعلهم تصوروا أن هؤلاء المرابطين سيوفرون عليهم مادة بشرية تحميهم داخل المدن ، وذلك بعد سحب الحاميات كلها أو بعضها من الحصون وإحلال المرابطين محلها ، والمهم أن خطة يوسف بن تاشفين هي التي نجحت .

بعد عودة يوسف إلى المغرب إثر الجواز بدأ يعد العدة لتصفية ملوك الطوائف ، فهو واقعيا قد اعترف به الجميع سيدا للمغرب والأندلس ، ولكنه من حيث الواقع الشرعي لم يختلف وضعه عن

اوضاع ملوك الطوائف فالجميع كانوا من أهل السنة ، ولأهل السنة خليفة واحد هو مصدر الشرعية لديهم واعني بذلك الخليفة العباسي ، وبالنسبة للخلافة العباسية كان الوضع في الأندلس تعوزه من البداية الشرعية ، والآن بعد سقوط الخلافة الأموية لم يكسب ملوك الطوائف أية سمة شرعية ، فقد عدوا من الثوار المتغلبين ، لذلك توجب خلعهم ، وطبعا لم يحاول أيا من ملوك الطوائف الاتصال بالخلافة العباسية في بغداد للحصول على اعتراف بحكمه وتفويض لابل أنكى من هذا سعي بعضهم للحصول على الشرعية والتفويض من عند الفونسو السادس .

فبعد العودة من لييط دفع الأمير عبد الله لألفونسو جزية ثلاث سنوات تقدمت ، وهو يعرف تمام المعرفة أن المرابطين سيوجهون إليه اللوم الشديد على فعله، وقد أخبره ألفونسو مطمئنا له : « حتى أدرككم في ذلك طلب ، فعلي الذب عن مدينتكم » .(١٣) .

وحاول الأمير عبد الله عبثا التعاون مع الفقهاء وشراء رضاهم ، لهذا التفت نحو جنده وقلاعه وحصونه ، وأراد استخدام الجند وسيلة قمع ، وهكذا اعتقل بوساطة الجند الفقيه القليعي ، وأغدق على الجند الأعطيات فوثق بهم ، وهكذا قال : « وأراني جميع الجند من التأتي والانقياد والمناصحة ما حسبت أنهم يقاتلون عني الدجال فسررت بهذه الحالة واطمأننت إليها ، وقلت : هؤلاء أمة لايرون بي بديلا لانصافي لهم ورغد عيشهم معي ، وهم قد رأوا جند العدوة ، وإن أقل عبد لهم أغنى من غيرهم ، وأصلح حالة ، فلا يمكن استبدال الأدنى بالأفضل » .

وشغله أيضا أمر المغاربة من المرابطين الذين أسكنهم في القلاع فسعى لشراء رضاهم ايضا ، غير أن همه الحقيقي ظل متعلقا بشعب مملكته وهكذا قال : « وإنما وجست نفسي من الرعية لطمعهم في حط المغارم ، والذي شاع من الزكاة والعشر عند المرابطين » وطمأن نفسه انه مع وجود الجند على رؤوس الشعب لن يحدث ما يخشى منه ، ثم حدثته نفسه بناء على ما رآه في لييط أن

يزيد من مناعة قلاعه ، فقلعة واحدة قد تعرقل مسـيرة جيش كامـل اسمعه يقول : « وكم عسى يستطيع الجيش القادم على أن يعم جميع البلاد ، ومحاولة معقل واحد منها تطول ..... فصرفت وجه اهتبالي إلى تشييد الحصون وبنيانها وإعداد ما يصلحها لحصـار إن كان ، فلم أدع وجها من وجوه الحزم إلا فعلته : مـن إقـامة الأجبـاب ، وإعداد المطاحن ، وأنواع العدد مـن التـراس والنبـل والعـرادات وجميع الأقوات ، وقلعتها من القرى ، وأعددت لكل حصن قوته لأزيد من العام ، وفعلت أكثر من ذلك في المدينة حضرتي ، مـا استغني عن تحديده لاشتهاره »

وحدثته نفسه أن يوسف بن تاشفين لن يقدم على اتخاذ إجراء بحق ملوك الطوائف قبل « إبرامه لأمر الروم ، ولابد عند مناظرتهم مـن فرج : إن غلب المرابـط لم يفتنا الدخـول في طـاعته .... وإن غلب الرومي كنا منه على حذر » وصرف وجهه في الوقت نفسه نحو إعداد سفن في ميناء المذكب القريب حتى إذا « تغلب الرومـي ، أكون على البحر متصلا بالمسلمين ، ندافـع منه جهـدنا ، إلى أن نضـطر إلى الجواز وطلب السلامة بحشاشة أنفسنا ونتف من أموالنا » .(١٤)

كان هم كل واحد من المتغلبين في الأندلس ملكه ، وقد انعدم مـن قلوبهم شعور الارتباط بالأرض أو بالشعب ، والاهتمام بـالقلاع في هذه المرحلة أمر جديد في تاريخ الأندلس ، تشابهت به مع ما شـهدته بلاد الشام في الفترة نفسها ثم ما تلاها من الاهتمام بالقلاع ، فحتى قيام الحروب الصليبية صنعت المدن الشامية الكبرى تاريخ البـلاد ، وعاش الحكام في قصور خاصة بهم ، لكن منذ أواخر القرن الحادي عشر أخذت كل مدينة شامية تمتلك قلعـة حصـينة ، فيهـا اسـتقر الحكام ومنها حكموا ، وفي أيام الحروب الصليبية تم بناء المزيد مـن القلاع ، أو بعث قلاع جديدة ، وهـكذا انتـزعت القـلاع مـن المدن دورها ، وأخذ التاريخ السياسي والعسكري يستقطب حول القلاع .

وفي عودة إلى سياق الأحداث نجـد أن إجـراءات الأمير عبد الله وأمثاله لم تكن مجدية ، ذلك أن يوسف بن تاشفين تمكن من مراسلة

الخلافة العباسية في بغداد ، وحصل من الخليفة على الاعتراف مـع التفويض بحكم المغرب والأندلس ، وهكذا بات بالامكان اتخـاذ أي إجراء ضد ملوك الطوائف لكن بشكل محكم جدا فيه ضمان للنجاح . ففي سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م دخـل يوسـف إلى الأندلس للمـرة الثالثة.

لكن جاء دخوله هذه المرة بمبادرة شخصية منه دون الحـاجة الى استدعاء وابرام عهد مع واحد من ملوك الطوائف ، لقـد دخـل الى بلاد هو مالكها الشرعي ، يريده الشعب فيها ويدعمه الفقهاء الذين افتوه جميعا «بخلعهم ـ اي خلع امراء الأندلس ـ وقـالوا ليوسـف: نحن خصماؤك عند الله ، لأن هؤلاء لاتجوز طاعتهم لما ارتـكبوه من الفجور وانتهاك المحارم ، وضيعوا غالب البلاد» (١٥) .

ولدى وصول ابن تاشفين الى الجزيرة الخضراء «وافاه المعتمـد ابن عباد ، فتلقاه بعادته مـن التعـظيم ، واحتفـل في التضـييف والتكريم .

وتوالت عليه الأخبار من الأمير عبـد الله بـن بلقين بمـا يغيظـه ويحقده (١٦) ذلك ان ابن تاشفين سأل المعتمد «عما لهج الناس به من مداخلة الرومي ، فشهد بذلك للذي كان في نفسـه ... وأرسـل أمير المسلمين الينا كتابا يقول فيه : أقبل الينا ، ولاتتأخر ساعة واحدة

فرابني ذلك وهو موضع الانقباض ، لما تقدم مـن الطلب ، وأن بمحضره جميع أعدائنا ، والحاجة علينا في الوصول ، واعتـذرت اليه بتوجيه رسل : احدهما ولد حجاج والآخـرابـن مـا شـاء الله. فساعة وصولهما قرعها بكل ما نقـل اليه ، وأمـر بثقـافهما في الحديد على المقام ، وقال لهما : بالله ، اني غزوتـه كمـا نغـزو الفونش والذي يقـدر عليه فليصـنع ، وأتـاني بعض الفـرسان الناهضين مع الرسـل على أسـوأ حـالة ، مضروبين ملهـوفين ... فدهمني من هذا الأمر مالا مـرفع فيه ولاحيلة ، ولاظننتـه أن يجرى على هذه الرتبة .

وارسل على المقام كتبا الى اليسانه ، فأول ما طـاعت له ، والى

جميع حصون الغرب ، ... وكان من كتبه اليهم : أما بعد فقد (جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا) (١٧) ان لم تطوعونا(فأذنوا بحرب من الله ورسوله)(١٨)وان خطابه لم يرد على معقل منها الا والقى بيده ، وقام اهله على اخراج قائدهم حتى تناثرت المعاقل كلها كانتثار العقد ... ومن امتنع منها قاتلته الرعية ... حتى يلقي بيده .

فلم ندر ماندصنع ، واتسع الخرق على الراقع ، وقلت : لاطاقة لي بجميع أهل البلاد ، اذ غدروا وخرجوا عن الطاعة ، فبمن نمسك الحضرة ، ليس فيها خلق من غير جنس ممن كان في المعاقل ... ولاحيلة مع الرجل أكثر من رغبته في خلعنا ، ولاثم غيره يسند اليه فنستريح فيه من هذه الداهية العظمى والطامة الكبرى ولامنالممكن ان نوجه الى الرومي ... وان شعر بذلك أهل حضرتنا كانوا أول من يقاتلنا قبل المرابطين»(١٩) .

وبذل الأمير عبد الله غاية جهده لنيل الرضى من ابن تاشفين فأخفق وطلب منه المثول بين يديه وبعث اليه رسولا يقول له : «لاطاعة ولاصلح الا بالخروج «وذلك مع أمان «في النفس والأهل دون المال» ، وبعد مراسلات كتب يوسف اليه «ان كنت استوحشت من النزول الينا فتخير من بلادك موضعا تصير فيه ، ولتكن غير غرناطة لنرى فيها راينا»(٢٠) .

ووصف الأمير عبد الله الأحوال داخل غرناطة فبين ان الجند من البربر فقد هجروا طاعته ، وأعلنوا عن سرورهم بقدوم المرابطين – وباتوا «طامعين في الزيادة على أيديهم للجنسية ، واتفق رايهم على الا يلقوه بحجر ، وقدموا كتبهم بالطاعة» ووعدوه بالخروج اليه وتسليمه الأمير عبد الله والتبرؤ منه ، وبالوقت نفسه أعلن التجار انه لاطاقة لهم بالحرب وغادر كثير منهم غرناطة «وأما الرعية فبخ بخ ذلك ما كانت تبغي ، طمعا منها في الحرية وأنها لايلزمها غير الزكاة والعشر «وتخلى عن امير غرناطة الجميع «حتى الخدم من النساء والخصيان»

وبعث يوسف بن تاشفين بفرق من قواته لحصار غرناطة فهجر المدينة الى الأرياف جل سكانها وعلم الأمير عبد الله بإقبال يوسف نحوه فأسقط بيده ، وبعد تقليب لجميع أوجه الاحتمالات رأى عبد الله أنه لامفر أمامه من مغادرة دار ملكه والنزول الى مخيم يوسف بن تاشفين مسلما نفسه وملكه ، وطلب يوسف من الأمير عبد الله تسليم ما لديه من أموال ودفائن ، ففعل ، ومالبث أن تعرض لاهانات شخصية وأعمال تفتيش جسدية ، ثم نفي بعد هذا كله الى المغرب الأقصى ، فأقام فترة في سبتة ثم في مكناسة الزيتون وبعدها في أغمات .(٢١) .

وقيل بعد هذا ليوسف بن تاشفين «ثقفت صاحب غرناطة وأخوه منه ، وإن تركته ينصرف الى بلده ، طالبك بالثأر ، وأفسد عليك ما ترجو صلاحه ، مع شرته وحدته فهو بذلك مرسوم معروف ، فعاجل بثقافه يصفى لك ماتؤمل» ، وفوجى الأمير صاحب مالقه والقى القبض عليه وصودرت ممتلكاته ومقتنياته ، ثم «القي في الحديد ، وامر به الى السوس ، ولما كان طريقه على مكناسة لقيناه ، فأخبر بهول ما قاسى وبصرنا وهو على تلك الحال قد شقي بالكبل لعظمه ، أن يتحرك به ، فأوجب ذلك ما وسم به من الشر ، وان اهل مالقة رفعوا اليه حينئذ افعالا قبيحة ، وأيادي سيئة أسداها اليهم » ثم بعث الى السوس ليعيش هناك منفيا(٢٢).

وإثر تنفيذ هذه العملية عاد يوسف بن تاشفين الى سبتة ليتولى من هناك الاشراف على تصفية بقية ملوك الطوائف ، وقبل تبيان هذه الأعمال لابد من سؤال عن موقف ملوك الطوائف تجاه ما حدث في غرناطة ؟

اما صاحب الحلل الموشية فقد أورد أن « المعتمد بن عباد والمتوكل ابن الأفطس قدما عليه ـ يوسف ـ بغرناطة يهنئانه بما تهيأ له من ملك غرناطة ومالقة ، فلم يقبل عليهما وأعرض عنهما ، وانصرفا عنه الى بلادهما ، وادرك ابن عباد الندم على استدعاء يوسف بن تاشفين الى الأندلس ، وقال لخليفة المتوكل بن الأفطس : والله

لابد له أن يسقينا من الكأس التي سقى عبد الله بن بلقين»(٢٣) .

لقد أورد صاحب الحلل هنا بعض حقيقة ما حدث ، وأوف منه واكثر امانة وقربا من الأحداث الأمير عبد الله صاحب غرناطة المعزول ، فقد ذكر أن يوسف بن تاشفين وعد المعتمد بن عباد عندما التقاه إثر جوازه الثالث ، بغرناطة «وقال له : أنا رجل مغربي وليس قد مني أخذ مال ولابلاد ، وقد ترى ما رفع على صاحب غرناطة ، ونتوقع عليها من الرومي ، وليس غرضي اكثر من تخليصها ، فاذا صارت في يدي ، ولايمكنني إمساكها لبين بلاد الأندلس من العدوة ، وضعتها عند ذلك في يدك ، فتكون أعلم بما تصنع بها ، واقعد لما يصلح المسلمين

فلم يشك المعتمد أن ذلك منه كائن ، وعمل حسابا أخر ان قال في نفسه : إن لم يتهيأ أخذها بقعود صاحبها عن الخروج اليه ، فليست مما تؤخذ من وقفة واحدة ، ستنجر الحال من أجلها ، وتشيخ عليها المحلات كما صنع بلييط ، وتدخل الشتوة فيحتاج الى الانصراف ، وتبقى هذه المعاقل التي طاعت للأمير اكون زعيمها ، وفي خلال ما يتلوى أمر غرناطة احتيج الي ، وكان لي بذلك الصولة على الفريقين،ولانخلى من بركتها»(٢٤)لكن ما ان حقق يوسف بن تاشفين نجاحاته الأولى ضد غرناطة حتى بدأ يغير سياسته تجاه ابن عباد وحليفه ابن الأفطس ، وفقد الرجلان زمام المبادرة ، لابل فقدا استقلالهما ، وهكذا لم يتمكنا من فعل شي لصالح ابن بلقين ، وعندما خاطب كل واحد منهما بما نصه«هذا الأمر منجر اليكم ، واليوم بي وغدا بكم ، فلم يمكنهم قراءة الكتب دونه ـ ابن تاشفين ـ وعرضوها عليه ، فحنق علي ، وكتبت الأجوبة باملائه يقولون : إنما تريد ان تلطخنا بأفعالك ، ونحن قد برأنا الله »، ولم يكن هذا الموقف غريبا بالنسبة للأمير عبد الله ، فقد أملاه «الطاعة للمرابط والطمع ، عسى يحصل لأحد مزيد في بلاده ، ولايمكن لأحد منهم معونتي ولا الاستفساد من أجلي فنحن لم يعن بعضنا بعضا على الرومي فكيف على المسلم (٢٥) .

وبعد سقوط غرناطة ليوسف بن تاشفين طالبه المعتمد بن عباد بتسليمها له فلم يلتفت اليه ، وشعر المعتمد بالتهديد «وجزع جزعا شديدا ، وخاف أن يدنني به» فسارع بالفرار نحو قرطبة ، وحاول يوسف ثنيه ورده اليه فأخفق ووصل الى قرطبة ، وهناك حذر ابن الافطس وقال له: « انج بنفسك فقد ترى ما حل بصاحب غرناطة وغدا بنا.

ثم انه بعد ان ظهر للأمير نفوره ، وجه اليه يأمره بالقدوم عليه ، ويقول له : نريد الاجتماع بك فيما نحن بسبيله ، ليقول لا، فيجد السبيل ، كما فعل ، فراجعه ابن عباد : إن ذلك كان وقت كنت ضيفا وتريد الغزو ، فلزمتني معونتك بنفسي وجميع اموالي ، والآن انما انت لي جار مثل باديس وحفيده ، وانت أقدر مني على الشر بجنودك ، فلا يمكنني التغرير بنفسي ، عسى أنك تريد اخذ بلدي ، اذ لاتصح لك غرناطة الا بما يضاف اليها من الأندلس»(٢٦) .

وهكذا توترت العلاقات بين المرابطين وبين المعتمد بن عباد واستولى المرابطون على جزيرة طريف ثم وجهوا التعليمات الى المرابطين بالحصون فثاروا عليه(٢٧)«وقامت عليه الرعايا بكل قطر ، فأرسل اذ ذاك الى الرومي ، يستغيث به ، فقعد عنه خيفة من التغرير ، ... فلما تبين للأمير خلافة وقعده عنه شاور الفقهاء في امره ، فأشاروا عليه بغزوه»(٢٨) .

وسيرت الجيوش المرابطية ضد مدينتي قرطبة واشبيلية وسقطت قرطبة وكان المدافع عنها عباد بن المعتمد وكان يعرف بالمأمون ، وقتل عباد مع عدد من شخصيات المدينة ، ثم توجهت الجيوش ضد اشبيلية ، وبعد مقاومة شديدة سقطت للمرابطين يوم الأحد ٢٢ رجب سنة ٤٨٤ هـ ٩ ـ ايلول ١٠٩١ م(٢٩) .

واستباحت القوات المرابطية اشبيلية «ولم يترك البربر لأحد من اهلها سبدا ولالبدا ، وانتهبت قصور المعتمد نهبا قبيحا واخذ هو قبضا باليد» وارغم على الطلب من ولديه المعتد بالله والراضي تسليم

الحصنين اللذين كانا بأيديهما ، ففعلا وأما المعتمد بالله فإن القائد الواصل إليه قبض عند نزوله على كل ما كان يملكه ، وأما الراضي بالله فعند خروجه من قصره قتل غيلة وأخفي جسده ، ورحل بالمعتمد وآله ، بعد استئصال جميع أحواله ، ولم يصحب من ذلك كله ببلغة زاد ، فركب السفين ، وحل بالعدوة محل الدفين ، فكان نزوله من العدوة بطنجة ، فأقام بها اياما »(٣٠) ثم اخذ إلى مكناسة الزيتون ، فبقي بها مدة ثم أخذ إلى اغمات (٣١) حيث أمضى بقية حياته في فقر مدقع وذل لم يرتفع حتى موته .

وفي الربع الأول من هذا القرن زار صاحب ازهار البساتين اغمات حيث أمضى المعتمد بن عباد بقية حياته مع أسرته ، فقال : « في هذا المكان الساحر الذي تقع فيه أغمات حيث تنحدر المياه الصافية من اعالي الجبال المقاربة ، فتجعل من هذا المكان موضعا ساحرا فتشت عن قبر المعتمد طيلة صباح من أيام الربيع .... فلم أعثر على أثر ، ولا أتأسف على ذلك فقبره هو كل هذا المكان الجميل ، هو هذه الأشجار المخضرة ، هو هذه المياه الجارية ، هو هذه الشمس المحرقة ، هو هذه الظلال الكثيفة ، هو تلك الثلوج التي نراها تبرق عن بعد ، هو ذلك الشيء لايوصف والذي يبعث في النفس متعة ولذة ، ويفصلها عن هذا العالم الفاني ، هو ذلك النسيم الذي استنشقته ذلك الصباح في هذا المكان الفردوسي » (٣٢) .

وكان يوسف بن تاشفين قد وجه بعض قواته ضد المرية ، وذلك بعد الفراغ من أمر غرناطة ، وعرف صاحبها المعتصم بن صمادح أنه لن يقدر على مقاومة جيوش المرابطين ، فبعث ابنه معز الدولة إلى معسكر المرابطين للتفاوض مع يوسف بن تاشفين ، وكان هذا الأمير فقيها ، وقد خيل لأبيه أنه سيؤثر على ابن تاشفين ، لكن تقديره هذا لم يصب ، فالأمور كانت مشتعلة وكان يصعب إطفاء لهبها بالوعظ ، لذلك أمر يوسف بن تاشفين باعتقال هذا الأمير ساعة وصوله إليه ، وهنا تحيل المعتصم في تخليص ولده من الأسر فافلح ، وبالنظر لانشغال ابن تاشفين بأمر المعتمد بن عباد ، فتر

الضغط على المرية ، وكان ابن صمادح متقدما بالسن عليل الصحة ، ولما شعر بدنو منيته أوصى ابنه وولي عهده بقوله : « امتسك في هذه القصبة طول مقام ابن عباد في ملكه بإشـبيلية مـا اسـتطعت ، فإن رأيت ابن عباد قد خرج ، فلا تتربص ساعة واحدة وانج بنفسك إلى القلعة ، وادخل البحر بما قدرت عليه من ذخائرك ، إذ لامطمع لك في البقاء بعده » .

وبعد سقوط اشبيلية للمرابطين وفي السنة نفسـها ركب البحـر فوراوتظاهر أنه يريد النهوض إلى يوسف بن تـاشفين ، وفي وسـط البحر ، وبعدما بعد عن أعين الأسطول المرابطي تحول نحو الجزائر وهناك التجأ إلى قلعة بني حماد « واكرمه صاحب القلعـة وأمنه في ذخائره ، وأكرم ضيافته ، وخيره حيث يحب السكن فاختار تـدلس لأنها على البحر ، وليغيب عن عين السـلطان خـوفا مـن الطلب ، وانخمل في ذاته (٣٣).

وباستيلاء المرابطين على المرية باتوا سادة لمعظم ديار الأندلس ، وبيدهم كبريات مدنها مثل : اشبيلية وقرطبة ، وغرناطـة ومـالقة ، والمرية ، وجيان .

وفي سنة الاستيلاء على اشـبيلية اسـتولى المرابـطون ايضـا على مرسية ودانية وشاطبة (٣٤) وبعد هذا أعدو العـدة للاسـتيلاء على بلنسية وأعمالها ، وكان الحكم في بلنسـية بيد الأمير يحيى بـن ذي النون ، وكانت الولاية تحت حماية مملكة قشتاله وقد عسـكر فيهـا المغامر الاسباني السيد الكنبيطور مع فرسانه وقـوات متنوعة مـن المرتزقة ، ومع هذا تمكنت جيوش المرابـطين مـن الاسـتيلاء على بلنسية ، وقد فقد اثناء ذلك أميرها حياته ، وبموته انتهى حكم أسرة ذي النون ، أصـحاب طليطلة ثـم بلنسـية وكان ذلك سـنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م.

وبقي على المرابطين الآن تصفية ملك المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس ، وهو الذي كان اول من استنجد بالمرابطين ، وفي اراضيه قامت معركة الزلاقة ، واحتاج المرابطون لثلاث سنوات حتى تمكنوا

من إزالة ملك ابن الأفطس ، وذلك بوساطة إثارة الفقهاء والشعب ضده بسبب سياسته فهو كان يخاطب يوسف بن تاشفين « باظهار الطاعة والمشاركة في أمر الرومي ، ويخاطب الفونش ليستعين به على ملمة إن دهته من المرابطين »(٣٥) .

وكان ابن الأفطس شيخا يتبع هواه ويقدمه على عقله ، وعلى عكسه كان ابنه المنصور ، وقد حذره ابنه من اتباع هواه ، ونصحه بالتخلي عن بطليوس وقال له:« هذا التردد لا يجزئك ، ولا يغني عنك ما ترى من اظهار الطاعة للمرابط ، ولا طاعة أهل بلدك لك ومحبتهم التي كانوا يعرضون عليك ، فلو أنهم يرون بعض حقيقة في عزيمة لما ابقوا عليك ، كالذي رايت صنع بغيرك ، فأما أن تصفي للمرابط فلن تبلغ مرضاته إلا بالانخلاع له ، ووضع البلد في يديه ، وتقنع بأن تكون متحريا متخليا عن الرياسة فعاجل ذلك تجد عنده الأمان ، وإن نفرت نفسك عنه ، فلا تتأخر عن الفرار منه بنفسك وأهلك وجميع اموالك ، يجعلك الرومي في أي بلد شئت ، وربما سوغها لك ، كما فعل بابن ذي النون في بلنسية ، وتترك مدينة بطليوس ، لا تدخل على المسلمين داخلة ، فيحصل لك النجاة بمهجتك ، وسلامة البلد للمسلمين ، فقال له أبوه ، وسفه رايه :لا اترك موضعي وعسى أن تهيىء الأقدار ضد ما تظن ، فخرج عنها ابنه ، ونجا بماله وأهله ، واخذ لنفسه بالراي الذي أشار به على ابيه ، فبقي الشيخ لحينه حتى نفذ أمر الله فيه »(٣٦) .

وحاك المرابطون مؤامرة للاستيلاء على بطليوس ، بأن اطلقوا من سجنهم ابن رشيق صاحب المعتمد بن عباد ، وطلبوا منه أعداد خطة للاستيلاء على مدينة بطليوس وتوجه ابن رشيق الى هذه المدينة ، وهناك عمل على شراء بعض الحرس وزعماء المدينة ، « حتى وقع الاتفاق على أن يطرقها ليلا ، ويفتحون له الباب ، فكان من ذلك ما حاولوه ، وتعلقوا بالسور عند الأمارة التي كانت مع من داخله ، وتقبض على الشيخ وابنيه: الفضل

والعباس ، واحتوى له على اموال جسيمة ، وامر.... باخراجه للقتل بعد أن راى في نفسه هوانا عظيما ، وشدة على المال ، ونقم عليه ما كان من عمله مع النصارى والمعاقل التي أعطاهم ، فأمر بقتله مع ابنيه: الفضل والعباس.

وطاع جميع ذلك الثغر للمرابطين ، كأنه لم يكن قط لغيرهم ، ...ثم صار ابنه المنصور من جملة الروم حنقا لما جرى على أبيه ، يطلب الثأر ، ويتطرق معهم بلاد المسلمين »(٣٧) .

لم تبق دولة من دول الطوائف لم تخضع للمرابطين غير دولة بني هود في الثغر الأعلى في سرقسطة ، وكانت سرقسطة محاصرة من قبل قوات الفونسو يوم دخول يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للمرة الأولى ، واستفادت هذه المدينة بشكل غير مباشر من التحضيرات لمعركة الزلاقة ، بأن رفع عنها الحصار ، فهيأت أمامها الفرص للتماسك ، وخاصة بعد نصر الزلاقة ، وشكلت دولة بني هود سدا منيعا في وجه الاسبان ، وكانت اراضيها متداخلة مع ممتلكات ملوك قشتالة ، وكانت هذه الأراضي نائية في الشمال ، لم يكن من السهل على المرابطين الوصول إليها ، اللهم إلا عن طريق شرقي الأندلس.

وكان المرابطون بحاجة للوقت لتنظيم الأندلس إداريا وعسكريا وامنيا ، وذلك قبل الدخول في أية مغامرة عسكرية جديدة ، أضف إلى هذا أنهم أعلنوا دوما أنهم ازالوا ملوك الطوائف لتتاح أمامهم الفرصة للجهاد ضد الأعداء ، وكان لسان حالهم دوما يقول : « إنه لا ينبغي لنا قتال الروم ، ونترك وراءنا الأعداء ، ممن يواسي علينا معهم » (٣٨) .

وكان العمل على إزالة ملك بني هود فيه خدمة للأعداء وضرر على المسلمين وأدرك المستعين بالله أبو جعفر أحمد بن هود هذا « فحصن بلاده ، وملك زمام رعيته ، فخيف أمره ، ولم تدخل عليه بسبب ذلك داخلة ، وكان مع ذلك يهادي امير المسلمين ويكاتبه ، وقال له في مكاتبته:

نحن بينكم وبين العدو سد لا يصل إليكم منه ضرر ، ومناعين

تطرف ، وقد قنعنا بمسالمتكم ، فاقنعوا منابها ، إلى ما نعيذكم به من نفيس الذخائر....فأجابه يوسف بن تاشفين إلى ما أراده...فأقام ابن هود رضي البال ، يهدد النصارى بالمسلمين ، ويهدد المسلمين بالروم ، لكونه حائلا بينهم وبين بلاد الافرنج والأردمانيين (النورمانديين)....وكان يتحف أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ويهاديه مما تحصل بيده من نفيس الذخائر واليواقيت والجواهر ، ورفيع الدنانير»(٣٩) .

على هذا تأخر اسقاط دولة بني هود ، ولم يقدم المرابطون على اخضاعها لأنه كان لديهم في الداخل ما يكفيهم من مشاكل ، فلقد سقط جل بلاد الأندلس سياسيا وعسكريا بيد المرابطين ، وكان لهذا نفقاته الهائلة في مواجهة أوربا التي جاشت فيها بشدة روح الحروب الصليبية ، ولم تقتصر المشاكل على هذا الجانب ، فقد كان على المرابطين مواجهة المشاكل التي نجمت عن سقوط المغرب الأقصى في ايدي الأندلسيين إداريا واجتماعيا واقتصاديا وحضاريا بشكل عام ، ولهذا كله « تركوا الثغور المواجهة لبلاد العدو في حكم الأندلسيين ، لكونهم اخبر بأحوالها ، وأدرى بلقاء العدو ، وشن الغارات ، ولم يمكنوا من ولايتها أحدا سواهم ، مع الاحسان إليهم ، وكانوا متى ما وصلتهم خيل من العدوة ، بعثوا بها الى أهل الثغور »(٤٠) .

وبعد مضي عدة سنوات على إزالة دول الطوائف قام يوسف بن تاشفين سنة ٤٩٦ هـ / ١١٠٣ م بزيارة رابعة الى الأندلس ، وبرفقته ولداه ابو طاهر تميم ، وأبو الحسن علي ، الذي تولى الملك بعده ، وتجول في اقطار الأندلس وتفقد بقاعها ونظر في أحوالها فشبهها « بعقاب رأسه طليطلة ، ومنقاره قلعة رباح ، وصدره جيان ، ومخالبه غرناطة » وجناحه الأيمن بلاد الغرب ، وجناحه الأيسر بلاد الشرق »(٤١) .

وبعد هذا عاد يوسف الى المغرب ليرتب شؤون الملك من بعده ، وذلك بعدما طعن بالسن وقارب المائة عام ، وفي سنة

٥٠٠ هـ / ١١٠٧ م توفي يوسف بن تاشفين ، وحين توفي كان قد مضى على أحداث الحروب الصليبية في المشرق أكثر من عقد من الزمان ، توفي يوسف بن تاشفين بعدما عمر لمدة قرن من الزمان ، وبعدما طبع تاريخ هذا القرن في المغرب والأندلس بطابعه الشخصي ، فعلى يديه جاءت شخصية المغرب الأقصى الى الوجود الفعلي ، وبتوحيده للأندلس وضمها للمغرب الأقصى أعطى هذه البلاد هوية ماتزال قائمة حتى يومنا هذا ، قال عبد الواحد المراكشي يصف هذا الأمر: «وحين ملك يوسف أمير المسلمين جزيرة الأندلس وأطاعته بأسرها ، ولم يختلف عليه شيء منها عُدّ من جملة الملوك ، لأن جزيرة الأندلس هي حاضرة المغرب الأقصى ، وأم قراه ، ومعدن الفضائل منه ، فعامة الفضلاء من اهل كل شأن منسوبون اليها ، ومعدودون منها ، فهي مطلع شمس العلوم وأقمارها ، ومركز الفضائل وقطب مدارها ، وأعدل الأقاليم هواء وأصفاها جوا ، وأعذبها ماء ، وأعطرها نبتا ، وأنداها ظلالا ، وأطيبها بكرا مستعذبة وأصالا.

.....فانقطع الى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله ، حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم ، واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار »(٤٢) .

بعدما قدم يوسف بن تاشفين الى أرض المغرب الأقصى وحد البلاد وأزال منها الفساد والاضطراب، وسعى الى محو الظلم والاستغلال ، وهذا أيضا ما فعله في الأندلس ، فلقد كانت أنظمة الحكم في كل من الأندلس والمغرب مهترئة لا تتمتع بأي رضى أو قناعة شعبية ، وكان شعب المغرب والأندلس ينشد الخلاص من الفرقة والذل والضرائب الثقيلة والمغارم ، أراد شعب الأندلس أن يحصل على شيء من الأمن وان يسترد المسلم هناك كرامته ، وصحيح أن إزالة ملوك الطوائف تم بكثير من العنف ، ومرد هذا ليس لطبائع

المرابطين الاجتماعية ولسويتهم العقائدية ونظرتهم الاسلامية إلى الأمور فقط ، بل لأن ملوك الطوائف كانوا من السوء بدرجة ليس بعدها درجة ، ولم يكن من الممكن التعامل معهم بغير العنف الشديد .

أما موقف الأندلسيين بعد أمد من حكامهم من بداة الصحراء فذلك موضوع اجتماعي حضاري ، ولابد لكل تحول اجتماعي وحضاري وسياسي من ردات فعل ، المهم أن المرابطين تمتعوا أيام يوسف بن تاشفين بقسط كبير من الشعبية في الأندلس لأنهم « أظهروا في أول إمرتهم من النكاية في العدو ، والدفاع عن المسلمين ، وحماية الثغور ، ما صدق بهم الظنون ، وأثلج الصدور ، وأقر العيون ، فزاد حب أهل الأندلس لهم ، واشتد خوف ملوك الروم منهم ، ويوسف بن تاشفين في ذلك كله يمدهم في كل ساعة بالجيوش بعد الجيوش ، والخيل إثر الخيل ، ويقول في كل مجلس من مجالسه : إنما كان غرضنا في ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدي الروم ، لما رأينا استيلاءهم على أكثرها ، وغفلة ملوكهم وإهمالهم للغزو ، وتواكلهم وتخاذلهم ، وإيثارهم الراحة ، وإنما همة أحدهم كأس يشربها ، وقينة تسمعه ، ولهو يقطع به أيامه ، ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم في طول هذه الفتنة إلى المسلمين ، ولأملأنها عليهم – يعني الروم – خيلا ورجالا لاعهد لهم بالدعة ، ولاعلم عندهم برخاء العيش ، إنما هم أحدهم فرس يروضه ويستفرهه ، أو سلاح يستجيده ، أو صريخ يلبي دعوته » (٤٣) .

وطبعا لم يعش يوسف بن تاشفين ليحقق هذا الحلم الكبير ، ولم تتح الفرصة للمرابطين من بعده في استئناف النشاط الاسلامي في الشمال لأسباب كان منها طبيعة أهل الأندلس ، ثم قيام حركة الموحدين التي أدت إلى سقوط دولة المرابطين ، فشعب الأندلس سلم القياد للمرابطين بعدما عانى كثيرا من ملوك الطوائف ومن العدوان الخارجي ، فاستسلم بذلك للأمن المنفذ من قبل رجال الصحراء بكل خشونة وجفاف وقسوة ، لكن والحياة تتطور والأفكار

تتبدل ، ما أن استرد الأندلسيون انفاسهم حتى باتوا غير راضين عن حكم الصحراويين لهم فكانت هناك الثورات المتوالية .

لا شأن في هذا المدخل بما حدث بعد يوسف بن تاشفين ، ومفيد أن نختم حديثنا عنه بما وصفه به مؤرخ أندلسي غرناطي من أهل القرن الثامن ، ثم بالانطباعات التي خلفها رؤية قبره على صاحب كتاب ازهار البساتين : قال صاحب الحلل الموشية تحت عنوان « سيرة امير المسلمين يوسف بن تاشفين » : « كان رجلا فاضلا ، خيرا ، ذكيا فطنا ، حاذقا بيبا ، زاهدا ، يأكل من عمل يده ، عزيز النفس ، ينيب إلى الخير والصلاح ، كثير الخوف من الله عز وجل ، وكان اكبر عقابه الاعتقال الطويل ، وكان يفضل الفقهاء ، ويعظم العلماء ، ويصرف الأمور إليهم ، ويأخذ فيها برأيهم ، ويقضي على نفسه بفتياهم .

اقامت بلاد الأندلس في مدته سعيدة حميدة، في رفاهية عيش ، وعلى احسن حال ، ولم تزل موفورة محفوظة إلى حين وفاته رحمه الله ، وكان الجهاد انقطع بها منذ تسع وسبعين سنة ، من مدة ال عامر ، إلى حين دخوله إليها ، قدم أشياخ المرابطين فيها ، وكانوا أقواما ربتهم الصحراء ، نيتهم صالحة لم تفسدها الحضارة ، ولا مخالطة الأسافل » (٤٤) .

وبعدما فرغ صاحب ازهار البساتين من زيارة أغمات قصد مدينة مراكش ، قال : « فدخلت في ذلك المساء نفسه لمراكش ، وهنا ذهبت لزيارة قبر أخر ، فإذا رجعت من اغمات ومررت بباب أكنو تمر في طريق طوله ثلاثمائة متر ، تتبع في مشيك حائطا من الطين فتصل إلى باب الواحه غير متصلة ، وكلها مرقعة عليها سمة الفقر ، وتبصر من ثنايا ذلك الباب تحت ظل شجرة من المشمش على الأرض لبنات متجمعة بغير فن مسح عليها بالجير الأبيض : هذا هو قبر يوسف ابن تاشفين مؤسس مراكش ، وقائد المجاهدين الملثمين في فتح غرناطة وقرطبة .

وفي كثير من الأحيان حاول بعض أهـل الفضـل بناء قبـة على ذلك القبر ، ولكن ذلك الدفين العظيم المتعود على الهواء الطلق ، والعيشة تحت الخيام كان في كل مرة يهدم ما يبنون على قبره ، لأنه لايقدر أن يرى فوقه في نومه الأبدي سقفا من غير الأوراق المتحركة .
مات وسنه يفوق المائة ، وزاد ملكه على الخمسين سـنة ، وخـطب باسمه على منابر افريقيا والأندلس ، اي على ألف منبـر ، وتسـعة منابر ، وامتدت مملكته من بلاد فرنسا إلى مضيق جبل طـارق ، وفي المغرب من طنجة إلى جبل الذهب بالسودان ، اي على مسافة ثـلاثة اشهر طولا وعرضا ، وكان لايكنى إلا بأمير المسلمين » (٤٥) .

الفصل الخامس

العرب والصراع للسيطرة على البحر المتوسط

امتلك الوطن العربي شواطىء طويلة جدا على سواحل البحر المتوسط ، وأبحر العرب منذ أقدم العصور في داخل هذاالبحر ، ووصلوا بين أطرافه ، فقد أبحر الفينيقيون بين سواحل الشام وسواحل المغرب وأسسوا المدن والمراسي والمحطات التجارية ومسألة تأسيس قرطاج معروفة وكذلك حروب قرطاج مع روما ، وقامت هذه الحروب من أجل السيطرة على البحر المتوسط ، وانطلقت شراراتها الأولى من صقلية.

وكان عرب شبه الجزيرة قبل الاسلام يعرفون البحر المتوسط ويدركون مدى اهميته خاصة بالنسبة للتجارة ، فقد أعتاد اهل مكة على رحلتي الشتاء والصيف ، واوصلتهم رحلاتهم التجارية أحيانا إلى سواحل الشام ، فهاشم جد النبي صلى الله عليه وسلم توفي في غزة.

واهتم النبي صلى الله علية وسلم ببلاد الشام ومصر ، وفي أيامه راسل عليه الصلاة والسلام هرقل وملوك الغساسنة ومقوقس مصر ، ووجه اكثر من حملة عسكرية ضد بلاد الشام وكانت أخر حملة جندها بقيادة أسامة بن زيد صممت لترسل ضد بلاد الشام، وهذا ما كان بعد وفاته.

وفي أيام ابي بكر بعثت الجيوش لفتح بلاد الشام ، فور الفراغ من حروب الردة ، ورسمت خطة فتوح الشام على أساس أهتم بشواطىء المتوسط أولا ثم بداخل البلاد ثانية ، فجيش يزيد بن أبي سفيان تكلف بالشواطىء الشمالية ، وجيش عمرو بن العاص تكلف

بالجنوب ثم بفتح مصر ، ومن ثم توبعت أعمال الفتوح حتى الأندلس فجنوب فرنسا وشواطئها المتوسطية.

وشرع العرب منذ العصر الراشدي بالاهتمام بركوب البحر المتوسط والمرابطة عل شواطئه ، ومن مزايا البحر المتوسط كثرة الجزر فيه ، وللسيطرة على هذه الجزر فوائد جمة ، تتخذ قواعد للملاحة ومحطات للتجارة وللتزود بالمؤن ولأعمال عسكرية وسواها.

ففي ولاية معاوية على الشام لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب جرت المحاولات الأولى لركوب البحر المتوسط ، أو ربما لتصنيع أسطول عربي يدافع عن شواطىء الشام ومصر ويحول دون أية عمليات إنزال بيزنطية ، وفي أيام عثمان بن عفان ، أذن هذا الخليفة الراشدي لمعاوية سنة ٢٨ هـ / ٦٤٩ م بركوب البحر لغزو جزيرة قبرص ، وبالفعل قاد معاوية أسطولا تألف من عدة مئات من السفن بني بعضها في بلاد الشام وبعضها الآخر في مصر ، ووصل الاسطول قبرص ، وتمكن من فرض الصلح عليها دون قتال ، وتبعا لشروط خاصة بأن يدفع القبارصة للمسلمين جزية سنوية قدرها سبعة آلاف دينار ، وأن ينذروا المسلمين بمسير عدوهم من الروم إليهم ، وأن يقوم إمام المسلمين بتعيين البطريرك على قبرص ، وليس للمسلمين حق طلب النصرة العسكرية من القبارصة ، وعليهم أن يسمحوا لهم بدفع مبلغ سبعة آلاف دينار سنويا للامبراطورية البيزنطية ، وفي مرحلة تالية من حكم معاوية وضعت حامية عسكرية مسلمة في قبرص ظلت فيها حتى أيام يزيد بن معاوية (١) .

وفي أيام معاوية بعدما آلت إليه الخلافة ، استؤنفت حركة الفتوح العربية في الشمال الأفريقي ، وامتلك العرب استراتيجية متوسطية ، استهدفت تحويل هذا البحر الى بحيرة شامية ، وهكذا ربح العرب الحرب ضد الأساطيل البيزنطية في ذات الصواري ، ثم حاصروا القسطنطينية في محاولة لفتحها.

وفي أيام الوليد بن عبد الملك أكمل العرب فتح الشمال الأفريقي ثم فتحوا الأندلس فسيطروا على أحد منفذي البحر المتوسط ، وفي أيام

سليمان بن عبد الملك خليفة الوليد حوصرت القسطنطينية مجددا برا وبحرا لمدة سبع سنوات ، ولم يفلح العرب في الاستيلاء عليها.

وحكي الكثير عن نتائج هـذا الاخفـاق ، وانه حمـى أوربـا النصرانية وحضـارتها ، وتحـدث أميل لودفيغ في كتـابه البحـر المتوسط عن هذه المسألة بقوله: « وإذا مـا تـركنا جـانبا حـروب الاسلام ضد فارس ومصر لعدم وجود علاقـة مبـاشرة لهمـا بحياة البحر المتوسط ، وجدنا العرب يحاربون فريقين من الدول فيما بين القرنين السابع والتاسع ، يحاربون بيزنطه والجرمان ، ومـااتفق لسلطان ابناء الصحراء من سرعة نشـوء في قـوتهم البحـرية يقضي بالعجب ، ومن قول محمد (صلى الله عليه وسـلم): « نصر فـوق البحر يعدل عشرة انتصارات فوق البر » ومـن الواقـع أن العـرب غلبوا اسطول بيزنطـة عدة مـرات ، فتقـدموا حتـى رودس وقبرص ، ووجدوا بيزنطة مفتوحة أمامهم ، وهم لم يوقفوا إلا امام هذه المدينة نتيجـة لمقـاومة أسـوار ثيودور ، وبفعـل النار اليونانية ، التي اخترعت حديثا ، وكان حصار العرب لبيزنطة الذي دام سبع سنين أطول حصار تم في تلك الزاوية من العالم منذ عسكر اشيك أمام طروادة ، أي أطول من حصار صور وكورنثة وقـرطاجة وسرقوسة ، ومع ذلك فإن بيزنطة قاومت ، فأنقذت أوربة كمـايقال عادة ، ومن اي شيء انقذت في العادة؟ لو صارت أوربة مسـلمة منذ اثني عشر قرنا ما أصبحت اقل حضارة ولا أقل سـعادة...وذلك إلى أن جميع البحر المتوسط كان يحيي بحركة ثقافية ، وما كانت مـئتا سنة تمران حتى كانت الأمم المسنة قد تلقت من العـرب علم الجبـر والحساب العشري والرقاص ، واسـتعمال الآلات الفلكية والأدوية المخدرة ، وكما تعلمت منهـم الصـباغة والدبـاغة والوشي وصـنع الزجاج والخزف والبسط والورق ، كما تعلمت منهم البستنة والري وزراعة الأثمار الجديدة ، وفي فن البناء اقتبست أوربة مـن العـرب الأقواس المصنوعة على شكل نعل الفـرس ، والنقـوش على هيئة النباتات والحيوانات وفن الترصيع ، ثم إن العرب فجروا الماء داخل البيوت وفي الساحات والحدائق وفي كل مكان » (٢) .

وكان العرب بعدما أسسوا مدينة القيروان في داخل إفريقية وتقدموا في فتوحاتهم عادوا نحو ساحل المتوسط حيث أعادوا تأسيس مدينة تونس في موقع قرطاج ، واتخذوا هناك دار صناعة ،وامتلكوا أساطيل خاصة بهم نشطت ضد الشواطيء الايطالية وضد صقلية وغيرها من جزر المتوسط وكانت أهم النشاطات حسبما يلي:

ـ حملة سنة ٨٤ هـ /٧٠٣ م بناء على أوامر عبد العزيز بن مروان والي مصر ، وقد قادها أبن رافع الهذلي ، وقدمت الحملة من مصر الى سوسة ، وكان والي إفريقية موسى بن نصير ، ومن سوسة توجهت ضد سردينية ، على الرغم من تحذيرات موسى بن نصير ، فقد كان الموسم خريفا ، ولهذا تدمرت السفن أثناء العودة نتيجة لتعرضها للعواصف ، وحاول موسى استرداد بعض السفن المدمرة.

ـ حملة سنة ٨٥ هـ / ٧٠٤ م ، أرسلها موسى بن نصير وقادها ابنه عبد الله، وسميت غزوة الأشراف ، لكثرة الشخصيات العربية التي شاركت فيها ، وقد تكللت هذه الحملة بنجاح كبير.

ـ حملة سنة ٨٦ هـ / ٧٠٥ م ، أرسلها موسى بن نصير وقادها عياش بن أخيل ، وسارت ضد سرقوسة.

ـ حملة سنة ٨٩ هـ/ ٧٠٧ م ، بعث بها موسى بن نصير ضد سردينية ، وقادها عبد الله بن مرة ، وقد عادت بأعداد كبيرة من الأسرى وكميات من الغنائم.

ـ حملة سنة ٩٢ هـ /٧١٠ م بناء على أوامر موسى بن نصير توجهت أيضا ضد سردينية ، وقد غرقت في طريق العودة.

وتوقفت الحملات اعتبار من هذا التاريخ ضد صقلية وسردينية ، لانشغال الأساطيل في عمليات فتح الأندلس.

ـ حملة سنة ١٠٢ هـ/ ٧٢٠ م قادها محمد بن أوس الأنصاري ضد صقلية ، وعاد محملا بالغنائم الى إفريقية فوجد والي البلاد يزيد بن

ابي مسلم الانصاري قد قتله حرسه ، فعرضت عليه أعمال الولاية ريثما يعين الخليفة واليا جديدا.

ـ حملة سنة ١٠٩ هـ /٧٢٧ م قادها والي إفريقية بشر بن صفوان نفسه.
ـ حملة سنة ١١٠ هـ / ٧٢٨ م وجهها والي إفريقية الجديد عبيدة ابن عبد الرحمن السلمي ضد صقلية فاصطدمت بالقوات البيزنطية وهزمتها.
ـ حملة سنة ١١١ هـ / ٧٢٩ م وجهها الوالي نفسه ، شاركت بها مائة وثمانون سفينة ضد صقلية ، لكنها تعرضت لكارثة بسبب العواصف وقلة احتياط قائدها.

ـ حملة سنة ١١٢ هـ / ٧٣٠ م وجهها الوالي نفسه ضد صقلية ، وعادت مظفرة.
ـ حملة سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م وجهها أيضا الوالي نفسه ضد سردينية وكانت أيضا مظفرة.
ـ حملة سنة ١١٥ هـ / ٧٣٣ م وجهها مجددا الوالي نفسه واصطدمت مع القوات البيزنطية ففقدت عددا من السفن.
ـ حملة سنة ١١٦ هـ / ٧٣٤م وجهها والي إفريقية الجديد عبيد الله ابن الحبحاب ضد صقلية فاصطدمت بالاسطول البيزنطي ونشبت معركة غير حاسمة.

ـ حملة سنة ١١٧ هـ/ ٧٣٥ م وجهها عبيد الله بن الحبحاب ضد سردينية
ـ حملة سنة ١١٩ هـ/ ٧٣٧م وجهها الوالي نفسه واستهدفت سردينية
ـ حملة سنة ١٢٢ هـ/ ٧٣٩ م وجهها الوالي نفسه واستهدفت فتح صقلية ، وبعدما حققت بعض النجاحات استدعيت للعودة بسبب ثورات الخوارج التي تفجرت
ـ حملة سنة ١٣٠ هـ/ ٧٤٧ م أمر بها عبد الرحمن بن حبيب الفهري المتغلب على المغرب ، فتوجهت ضد صقلية ،

ـ حملتان سنة ١٣٥ هـ / ٧٥٢ م بعث بهما عبد الرحمن بن حبيب ضد كل من سردينية وصقلية ، وفي هذه الآونة سقطت دولة بني أمية (٣) ، وشهدت بلدان المغرب مرحلة تاريخية جديدة ، ولم تعرف البلاد الاستقرار حتى تأسيس دولة الاغالبة ، وفي عصر الأغالبة في القيروان ورقاد تمت عملية فتح صقلية ولم يقد جيوش الفتح الى صقلية قائد عسكري بل قادها قاضي المسلمين اسد بن الفرات ، وهاكم الحكاية :

نقرأ في كتب الاخبار التي اتت على ذكر الامام اسد بن الفرات وفتح صقلية انه في احد ايام سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م تجمهر اهالي مدينة سوسة في تونس يتقدمهم امير البلاد زيادة الله بن الأغلب ومعه أركان دولته ، تجمهروا قرب مرسى المدينة لوداع الامام اسد بن الفرات ، الذي كان متوجها على راس اسطول كبير لفتح جزيرة صقلية .

وخاطب اسد المتجمهرين قائلا :« والله يامعشر المسلمين ماولي لي اب ولاجد ولاية قط ، ولارأى احد من سلفي مثل هذا قط ، وما رأيت ماترون الا بالأقلام ، فأجهدوا انفسكم ، واتعبوا ابدانكم في طلب العلم وتدوينه ، وكاثروا عليه واصبروا على شدته ، فانكم تنالون به الدنيا والآخرة » . ودلالات هذه العبارات وان قيلت بمناسبة عسكرية ، هي غير عسكرية ، ومرد هذا الى طبيعة اختصاص قائلها ، فأسد بن الفرات كان قبل ان يكلف بقيادة حملة صقلية يشغل وظيفة قاضي المسلمين في افريقية ، وعد اول علماء الغرب الاسلامي واكثرهم فقها ، والبحث في سيرة أسد بن الفرات واعماله يقتضي لأهميته اثارة عدد من القضايا البالغة الخطورة، ذلك انه على كثرة عدد العلماء والفاتحين في التاريخ الاسلامي، يكاد اسد بن الفرات ان يكون وحيدا ، في تفرده بالجمع بين الفقه والاجتهاد والقضاء ، والامارة ، وحياته على هذا مرتبطة وثيق الارتباط بتاريخ دولة الاغالبة في تونس ، وبمسألة انتشار فقه المالكية في الغرب الاسلامي ، وبالصراع للسيطرة على البحر المتوسط وفتح جزيرة صقلية .

وعلى الرغم من جلالة هذه الأمور ، واهميتها القصوى ، فـان المصادر العربية شحيحة المعلومات حولها ، ومن المثير للدهشة ان مصنفات التاريخ الاسلامي العامة لم تتعرض بشكل يشفي الغليل لهذه الأحداث الجسام ، فقد اهتمت بشكل مكثف بأحداث الأقاليم المركزية لديار الخلافة ، ولم تحفل كثيرا بسرد تفاصيل أخبار ما جرى في الأقاليم النائية عن بغداد ، كإفريقية مثلا ، حتى وان وقعت هنالك أحداث على درجة عالية من الخطورة وعميق الأثر مثل فتح صقلية !

وهنا نفزع الى كتب التاريخ المحلية مع مصنفات التراجم ـ ان وجدت ـ لنحصل منها على مانحن بحاجة اليه من معلومات ، ومعلوم ان الغرب الاسلامي عرف حركات تاريخ نشطة ، وتدوينا غنيا نسبيا للأخبار ، ولكن المشكلة هنا أن هذه الحركة ولدت متأخرة عن وقت الحوادث المبكرة ، ثم ان عددا من المدونات المبكرة مازالت محجوبة عنا ، لم تصلنا كاملة او لم تصلنا بالكلية .

ولحسن الحظ ان كتاب البيان المغرب لابن عذارى المراكشي قد وصلنا كاملا ، ومع أن صاحبه صنفه في مطالع القرن الثامن للهجرة (٧١٢ هـ) فإنه اعتمد بتفاصيله الهامة على كتابات المؤرخين الذين سبقوه مثل ابراهيم الرقيق القيرواني وغيره ، ومعلومات ابن عذارى عن دولة الأغالبة في القيروان وفتح صقلية على درجة عالية من الأهمية والفائدة ، ومثل ابن عذارى يأتي بعده ابن خلدون ، فالذي أودعه في مقدمته ومتن كتابه العبر عن الغرب الاسلامي عظيم الفائدة ، بسبب اطلاعه الواسع على مؤلفات مؤرخي المغرب والأندلس الذين تقدموا على عصره ، ثم بسبب اشتغاله بالسياسة وتقلبه في عدد من الوظائف ونظرا لرحلاته الواسعة .

وقد قام في القرن الماضي العالم الايطالي ميكائيل عماري بنشر (سنة ١٨٥٨) كتابه الحافل «المكتبة العربية الصقلية» وفيه جمع اغلب ما تناثر في كتب العرب من اخبار عن صقلية والصقليين أيام دولة المسلمين ، والف كتابا آخر بالايطالية بعنوان «تاريخ العرب

بصقلية» جاء في خمسة أجزاء ضخمة ، ومن بين العرب يأتي المؤرخ الجزائري الاستاذ أحمد توفيق المدني على رأس الذين كتبوا عن صقلية وخاصة كتابه«المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا» ثم الدكتور احسان عباس الذي كتب أطروحة عن صقلية اهتم بها بالجوانب الأدبية والحياة الثقافية للعرب فيها ، وجاء بعدهما عزيز أحمد فكتب تاريخ صقلية الاسلامية » هذا وأولت بعض الدراسات حول الدولة الأغلبية مثل كتاب محمد الطالبي موضوع صقلية أهمية خاصة .

ولدت الخلافة العباسية ولادة خراسانية مشرقية ، وقد ظلت هذه الخلافة طيلة حياتها غارقة في بؤرة مشاكل المشرق ، ولذلك يلاحظ ان اهتمام هذه الخلافة بالجناح الغربي من ديار الخلافة كان من الدرجة الثانية ، كما انها عجزت منذ أيام ولادتها عن مد سيطرتها عليه جميعا ، يضاف الى هذا كانت الدولة العباسية دولة قارية نادرا ما اهتمت بالبحر المتوسط او فكرت ببناء أساطيل للنشاط فيه .

وفي العصر العباسي المبكر أرسلت بغداد عدة حملات نحو الشمال الأفريقي ، وقامت بمحاولات متعددة للحيلولة دون استقلال جميع بلدانه ، ولكنها اخفقت ونجح الأمير الأموي عبد الرحمن بن معاوية في تأسيس حكمه في الأندلس ، كما نجح عبد الرحمن بن رستم في اقامة إمامة تيهرت الاباضية (في عمالة وهران جزائر اليوم)ونجح بنو مدرار الصفرية في تأسيس امارتهم في سجلماسة على طرف الصحراء ، ونال آل سليمان بن عبد الله بن الحسن بن علي بن ابي طالب التوفيق في تأسيس دويلة لهم في منطقة تلمسان ، وتمكن ادريس أخو سليمان من تأسيس دولته في المغرب الأقصى ، وكانت هناك من قبل دولة برغواطة على الساحل المغربي في بلاد تامسنا

وادراكا من بغداد لهذا كله وخشية أن تمتد الحركات الاستقلالية الى بلدان المغرب الأدنى ومصر ساعدت على قيام دولة الاغالبة وذلك في أواخر القرن الثاني للهجرة ، ولقد حازت دولة الاغالبة على

استقلالها ، لكنها لم تقطع قط وشائجها بالولاء للخلافة العباسية،

ولم تنعم دولة الأغالبة بصداقة أي من دول الشمال الافريقي ، وكان نفوذها الفعلي على القبائل البربرية في الداخل غير قائم عمليا ، ثم انها لم تنعم بالاستقرار الداخلي الا بشكل نسبي، فقد عانت دوما من الاضطرابات الداخلية والضغوط الخارجية، وحفل تاريخها بفتن الجند ، وهكذا عندما وجدت نفسها محاصرة من الداخل انشدت نحو سواحل البحر المتوسط ، وتورطت في صراعاته السياسية والتجارية .

وكما سلفت الاشارة شغل البحر المتوسط منذ فجر التاريخ دور القلب النابض بالنسبة للحضارات ، فعلى شواطئه قامت ثم تطورت الديانات السماوية والفلسفات ، ومن بلدانه انتشرت الى بقية اجزاء العالم، وكان هناك صراع دائم بين القوى المختلفة حوله للتحكم بشؤون الملاحة فيه والسيطرة عليه وتحصيل الثروة .

ورأينا انه بعد قيام الاسلام ، ومع انتشاره في المشرق والمغرب باتت أوربا محاصرة من قبل العرب ، وخاصة أوروبا الغربية، ونطاق الحصار الذي فرضه العرب كان جديدا كليا : لغويا وقانونيا وحضاريا ودينيا ، مما أدى الى تغيير جذري للنظم الاقتصادية والقانونية والحضارية العامة والدينية في أراضي روما الغربية ، ذلك أن جميع الطرق لم تعد تقود الى روما بل الى حواضر الاسلام ، وتعطلت سياسة استيراد القمح وسواه الى اوروبا، فوجدت أوروبا الغربية نفسها مضطرة الى الاعتماد على الذات بالانتاج المحلي ، ومن ثم اكتشاف الأجزاء الشمالية منها ، وإزالة الغابات لزراعة الحبوب مكان الأشجار ، وهكذا قيل انتهت فعليا العصور الكلاسيكية القديمة وبدات العصور الوسطى ، فحلت اللهجات ذات الجذور الجرمانية محل اللغة اللاتينية ، وأخذت النظم الاقطاعية بالظهور ، وهذا موضوع سنعود اليه في الجزء الثالث المقبل من كتاب المدخل .

ولم يقتصر عمل العرب في سبيل السيطرة على المتوسط بالاعتماد

على الأساطيل بل اهتموا بتحصين شـواطىء بـلادهم ، فـأقاموا المواقع الدفاعية ، ومنائر الانذار ، وبعد سقوط الخلافة الأمـوية وحلول الخلافة العباسية محلها ، ولعدم اهتمام هذه الدولة القـارية بالبحر والسفن ضـعفت السـيطرة العـربية على شـواطى المتوسط ، وزاد الاعتماد على انظمة الدفاع ، مما أدى الى تـطور كبير في قواعد هذا النظام ، واخذت أعدادكبيرة من العلماء والزهاد بالالتجاء الى مواقع الدفاع والمرابطة فيها ، وهكذا بـدات مـواقع الدفاع هذه تعرف باسم الرباطات ـ جمع رباط ـ ومع الأيام اخذت الرباطات تـؤدي وظـائف دينية ثقـافية ، وذلك بـالاضافة الى مقاصدها الحربية ، وصارت الرباطات مـراكز للعلم اقبـل عليهـا الطلاب ، وحوت المكتبات ، وشغل رجـالاتها انفسـهم بـالتعليم والتثقيف والنسخ وغير ذلك ، ونجم عن هذا تـأثير مـزدوج داخلي وخارجي ، بحيث صار بامكان اصحاب الرباطات التأثير بـالرأي العام ، وفي رسم السياسة العامة واتخاذ القرارات الهامة (٤) .

ولقد كان لنظام الربـاطات دوره الأهـم على شـواطى الشـمال الأفريقي ، خاصة في أرجاء سواحل دولة الأغالبة ، ولقـد ازدهـر هذا النظام بشكل رائع ومعطاء خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة، ومازالت شواطى تونس تحوي آثار عدد من الرباطات مثل رباط المنستير وسواه .

واهتمت دولة الأغالبة بتأمين مـوارد اقتصـادية كافية ، وملكت جيشها الخاص ، ورعت الحركات الثقافية في القيروان ، واعتنت بالعلم والعلماء ، وقلدت السـياسة الدينية للخـلافة العبـاسيه في المركز ، وكانت حركة المواصلات بين بلدان المغرب والمشرق نشـطة جدا ، حيث تدفق التجار والحجـاج وطـلاب العلم مـن الشـمال الأفريقي على بلدان المشرق ، وكان لهذا أعظم الآثار على مسـتقبل الغرب الاسلامي وافريقيا وحتى على أوروبا .

وحينما يعرض المرء تاريخ قيام الاسلام يلاحظ ان موقع مكة على طرق قوافل التجارة العالمية قبل الاسلام مـع وجـود الكعبـة فيهـا

دفعها نحو تزعم عالم شبه جزيرة العرب ،ثم هيأها لتكون مركز قيام الاسلام ،ومرة ثانية بعد قيام الاسلام وانتشاره في الشمال الافريقي والأندلس ،وجد المسافرون من الغرب نحو الشرق أن المدينة المنورة هي محطتهم الأولى والعظمى قبل التوجه نحو العراق

وهكذا نال القادمون للتعلم والتفقه دروسهم الاسلامية الأولى في المدينة ، ثم ذهبوا نحو استكمال التعليم في العراق ، وكثير منهم لم يذهب ، بل اكتفى بما نهله من دار هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومعروف أن المدينة كانت عاصمة الاسلام الأولى ، فيها عاش كبار الصحابة ، وفيها تأصلت معارف الشريعة الاسلامية ، وفي المدينة نشطت الأعمال الفكرية في القرن الأول للهجرة ، وأثمرت في القرن الثاني بقيام مدرسة أهل المدينة في الفقه على يد الامام مالك ابن أنس ، وحين جاءت هذه المدرسة الى الوجود ، كانت مدرسة أخرى كبيرة قد قامت بالكوفة في العراق على يد الامام أبي حنيفة النعمان بن ثابت .

ومن الملاحظ أن الخلافة العباسية كان لها سياسة دينية خاصة، فأبو جعفر المنصور ، وهو المؤسس الفعلي للخلافة العباسية، أدرك بفكره المخطط مكانة الأداة الدينية في خدمة المقاصد السياسية والمصالح الاستراتيجية للدولة ، لذلك اهتم بالدين وبرجاله ، يضاف الى هذا ان عالم القرنين الثاني والثالث للهجرة (الثامن والتاسع للميلاد) قد عرف تيارات فكرية سياسية نادت بوحدة المذهب العقائدي للدولة ، وهذا ما نراه في الامبراطورية البيزنطية في حركة عبادة الصور ، وفي حياة شارلمان وتأسيسه للامبراطورية الكارلونجية في الغرب الأوروبي وعلاقته بالبابوية،

وطبيعي أن نجد لدى العباسيين الاهتمام بالدين ، فهم قد وصلوا الى السلطة بوساطة ثورة انطلقت من مفاهيم الاسلام القائمة على المزج بين العمل الديني والدنيوي ، واختلف حالهم عن بني أمية،

فمعاوية نال الخلافة اغتصابا بقوة السلاح ، بينما نالوها عن طريق شرعية الثورة وحق الوراثة .

وبعد شيء من التردد اعتمد العباسيون على مدرسة العراق الفقهية التي اسسها أبو حنيفة ، وفي الغرب الاسلامي ، خاصة في الأندلس والدول المستقلة ، وجد الأمراء والحكام انفسهم بحاجة إلى تقليد طرائق العباسيين ، أو لنقل إن الحكم الذي تم نيله ـ هنا وهناك ـ بالاعتماد على الصراع بين العصبيات القبلية وسواها وجد نفسه بحاجة إلى دعائم لسلطته غير عمليات التوازن بين القوى القبلية ، فكان أن لجأ إلى اعتماد سياسة دينية خاصة ، وطبعا إن هذا العمل أمر لابد منه في اية دولة اسلامية وخاصة لدى دول المواجهة مع أعداء الاسلام ، ولابد من القول هنا إن الدين بكل تأكيد لم يكن قط افيون الشعوب ، فالأفيون يخدر ، بل كان محركا للشعوب ، وكان بلا شك أخطر الأدوات الاستراتيجية في التاريخ ومازال كذلك

وفرضت ظروف المواجهة في الغرب الاسلامي التشدد والتعصب والتظاهر بالمثالية ، ومثالية الاسلام كانت تؤخذ من مدينة النبي صلى الله عليه وسلم لامن كوفة ابي حنيفة ، وتلميذ المدينة ظهيره أعلى وأمتن من ظهير تلميذ الكوفة ، يضاف إلى هذا إن تبني الخلفاء العباسيين لفقه أهل العراق قد جعل القائمين على مدرسة المدينة يفتشون على مناطق نفوذ لهم ، ويمكن أن نجد شواهد على هذا في حياة الامام مالك بن انس ، فهو قد أظهر اكثر من مرة المعارضة للسلطة العباسية والتحبيذ لأمراء من الغرب الاسلامي .
من هذا كله نخلص إلى القول بأن العالم الاسلامي عاش بعد قيام الثورة العباسية مباشرة وطوال سنين عديدة في القرن الثاني للهجرة في ظل مدرستين للفقه والتشريع ، وهما مدرسة المدينة ، ومدرسة الكوفة (أو العراق) ومن الملاحظ أنه بعد وقت ليس بالطويل بذلت محاولات لدمج المدرستين في مدرسة جديدة واحدة .

واستهدفت عملية المزج الوصول إلى حل وسط بين الطرفين بشكل

منطقي مؤصل ، وهذا ما نشهده في سيرة كل من الامامين الشافعي واسد بن الفرات ، وكما هو مشهور نجح الامام الشافعي في عمله ، واخفق ــ كما سنرى ــ اسد بن الفرات ، لأن الشافعي نجا من ظلمة الوظيفة ، ولم يعش في دياجير الولاية إلا لوقت قصير ، وهكذا اوقف حياته على العلم ، وأما ابن الفرات فإنه في الوقت الذي كان عليه فيه العطاء تولى وظيفة القضاء اولا ، ثم جمع إلى القضاء إمارة الجيش الذي توجه إلى صقلية لفتحها ، وقد توفي اثناء تادية هــذه المهمــة ، فهل ياترى جاء تعيينه في وظائفه بناء على خطة مسـبقة ، ام ان ذلك جاء بالصدفة ؟

وفي سبيل الحصول على الاجابة لنبدا اولا بالتعرف إلى سيرة حياة الامام أسد بن الفرات : ولد الامام أسد في مدينة حران الشـامية ، التي كان مروان بن محمد آخر خلفاء بني امية قد اتخذها مقرا له ، وحدثت ولادته كما هــو مــرجح ســنة اثنتين واربعين ومــائة للهجرة (٧٥٩ م) وكان والده جنديا من جنود العباسيين اصله من خراسان ، وقد ترك هذا الجندي مدينة حــران إلى إفــريقية في حملة عسكرية وجهتها بغداد ضد خوارج المغرب من الاباضية الذين كانوا مسيطرين آنئذ على أجزاء كبيرة من المغــربين الأدنى والأوســط ، ودخل أسد بن الفرات مدينة القيروان وله من العمر عامــين ، وقــد اقام فيها مع أسرته خمس سنوات ، ثم تحولت أسرتــه إلى مــدينة تونس ، فأقامت بها نحو تسع سنين ، وخــلال هــذه الســنين تعلم القرآن ، وأخذ يختلف إلى حلقات مشاهير علماء تونس ، وفي مطلع سن الشباب يمم أسد وجهه نحو المشرق ، فحــل بــالمدينة المنورة ، والتحق بحلقة الامام مالك بن أنس ، فأخذ عنه علوم أهل الحجاز ، وروى عنه كتاب الموطأ ، وكان ابن الفرات كثير الســؤال ، شــديد الالحاح يلتهم العلم التهاما ، ويود لو ان الامام مالكا أوقف وقته كله عليه ، ولما تعذر هذا نصحه الامــام مــالك بــالذهاب إلى العــراق للالتحاق بالامام محمد بن الحسن الشيباني ، صاحب الامــام ابــي حنيفة وخليفته .

وبالفعل توجه ابن الفرات نحو العراق ، والتحق بالامام محمد بن

الحسن ، واكمل على يديه تحصيله لعلوم الامام مالك بحكم انه كان من تلاميذه السالفين ، كما اخذ عنه علوم مدرسة اهل العراق ، ومكث ابن الفرات في العراق مدة لابأس بها ، ولقد أولى الامام الشيباني ابن الفرات عظيم عنايته ، فقد عرف فقره ، لذلك اسكنه معه في دار واحدة ، وقام بتأمين نفقته ، وخصه بمجالس للتدريس خاصة ، وتحدث ابن الفرات عن علاقته بالامام الشيباني ووصف حاله معه بأنه قال له :" إنني غريب ، قليل النفقة ، والسماع منك نزر ، والطلب عندك كثير ، فما حيلتي ؟ فقال لي : إسمع مع العراقيين بالنهار ، وقد جعلت لك الليل وحدك ، فتأتي فتبيت عندي وأسمعك ، قال ابن الفرات : فكنت ابيت عنده ، وكنت في بيت في سقيفة ، وكان يسكن العلو ، فكان ينزل إلي ويجعل بين يدي قدحا فيه ماء ، ثم يأخذ في القراءة ، فإذا طال الليل وراني نعست ، ملأ بيده منه ونفح به في وجهي فأنتبه ، وكان ذلك دابي ودابه حتى اتيت على ما أريد من السماع عليه » .

لقد زق الامام الشيباني ابن الفرات بالعلم زقا ، ورعاه طوال إقامته في العراق ، وعندما أكمل ابن الفرات تحصيله ، وكان الامام مالك ابن أنس قد توفي ، اخذ ابن الفرات الطريق نحو المغرب ، فحط رحاله في مصر ، والتحق بالامام عبد الرحمن بن القاسم ، احد كبار تلاميذ الامام مالك ورواة علمه القدماء ، ولازمه ابن الفرات « فكان يغدو إليه كل يوم ويسأله ويجيبه ابن القاسم ، حتى دون ستين كتابا وسماها الأسدية » وقد حوت هذه المدونة الأسدية راي مدرسة اهل المدينة حول جميع المسائل التي تعلمها ابن الفرات في العراق .

وعاد ابن الفرات إلى القيروان يحمل معه علوم مدارس الاسلام ، ويروى أنه « لما عزم على الرحيل من مصر وجه معه ابن القاسم بضاعة وقال له : إذا قدمت إفريقية فبعها واشتر بثمنها رقوقا ، وانسخ الكتب » ، ولما حل أسد بن الفرات في القيروان ، اظهر ما كان لديه من أسديته وأسمعها الناس ، وانتشرت العلوم التي حملها اسد إلى القيروان ، وانتشر معها صيت أسد بن الفرات ، وذاعت

شهرته ، ولعل أهم الذين سمعوا الأسدية منه هو الامام سحنون ، فبعدما مضى أسد بن الفرات إلى صقلية قام الامام سحنون باستخراج مواد مدونته من أسدية ابن الفرات ، ومعروف أن مدونة الامام سحنون هي أعظم كتب المالكية في الغرب ، وانه إلى الامام سحنون يعود الفضل في توطيد أقدام المالكية في الشمال الأفريقي ، فبعدما تغيب أسد بن الفرات غدا الامام سحنون أعظم علماء إفريقية مكانة ، وأكثرهم نفوذا وشعبية وشهرة .

واثناء عمل ابن الفرات في القيروان سعى نحو وضع قواعد مدرسة للفقه جديدة قوامها مبادىء مدرستي العراق والحجاز ، لكن النجاح لم يتحقق له لأسباب منها انه لم يملك الوقت الكافي للتفرغ لمهمته ، فقد كلف سنة أربع ومائتين (٨١٩ م) بمهمة القضاء من قبل الأمير زيادة الله بن الأغلب ، ثم إنه في هذه الفترة وسنوات عدة مقبلة عانت امارة الأغالبة من اضطرابات للجند كادت أن تودي بالحكم الأغلبي ، ونجا ابن الفرات خلال سنوات الفتنة من التورط فيها ، وكان دائما مع ماتمليه عليه الشريعة لا أهواء القوى المتصارعة ، وعندما قضي على اضطرابات الجند رأت الادارة الأغلبية انه من الأسلم للمستقبل اشغال الجند بنشاط حربي خارجي ، وفي هذا نرى احدى خلفيات الحملة ضد صقلية (٥).

شكلت جزيرة صقلية بموقعها الجغرافي مكانا استراتيجيا هاما ، وحصنا منيعا وسط البحر هيمن على حركة الملاحة بين شرقي البحر المتوسط وغربيه ، كما كانت بمثابة جسر انتقلت عبره الحضارات ، وعنت السيطرة على صقلية دائما القدرة على مراقبة كل السواحل الأفريقية والايطالية ،كل هذا بالاضافة لما تنعم به صقلية ذاتها من ثروات ، وماتدره أراضيها من خيرات ، وصقلية كانت دائما موضع صراع بين قوى ايطاليا وافريقيا .

لقد رغب العرب دوما في فتح صقلية وانتزاعها من الامبراطورية البيزنطية ، وتحين الأغالبة فرصهم لفتحها عام ٢١٢ هـ/ ٨٢٧ م ، وساعدهم على الشروع في قهر اراضيها ما وصلت اليه أحوالها

انذاك من اضطراب وتدهور وفساد ، ذلك أن الولاة البيزنطين كانوا قد أسرفوا في استغلال مواردها دون عناية بأحوال السكان ، لذلك أجدبت الأراضي الزراعية وهجرها الفلاحون ، واشتغلوا بالرعي ، كما كسدت التجارة والصناعة بسبب الضرائب الباهظة ، لذلك انهارت الأحوال عامة ، واضطربت أمور المجتمع بسبب ما اعتادت بيزنطة عليه من نفي المجرمين والخارجين على القانون اليها من جموع المنبوذين وأعداد كبيرة من العبيد ، وكانت أحوال الكنيسة سيئة ، ومكانتها متداعية لتخليها عن مهامها الأساسية وانصراف رجالاتها والقائمين عليها الى مباهجهم الدنيوية .

ولاشك أن هذه الأحوال قد شجعت الأغالبة على التخطيط لفتح صقلية ، حيث يتحدث المؤرخون عن انفجار العديد من الاضطرابات في الجزيرة في مطلع القرن الثالث للهجرة ، وكان أهمها حركة أوفيماس (فيمي في المصادر العربية) فقد ذكر ابن الأثير في تاريخه الكامل « أن ملك الروم بالقسطنطينية استعمل على جزيرة صقلية بطريقا اسمه قسطنطين سنة احدى عشرة ومائتين ، فلما وصل اليها استعمل على جيش الاسطول انسانا روميا اسمه فيمي ، كان حازما شجاعا ، فغزا افريقة ، وأخذ من سواحلها تجارا ونهب ، وبقي هناك مديدة ، ثم إن ملك الروم كتب الى قسطنطين يأمره بالقبض على فيمي مقدم الاسطول وتعذيبه ، فبلغ الخبر الى فيمي ، فأعلم أصحابه فغضبوا له ، وأعانوه على المخالفة ، فسار في مراكبه الى صقلية واستولى على مدينة سرقوسة ، فسار اليه قسطنطين ، فالتقوا واقتتلوا فانهزم قسطنطين الى مدينة قطانية ، فسير اليه فيمي جيشا فهرب منهم فأخذ وقتل ، وخوطب فيمي بالملك ، واستعمل على ناحية من الجزيرة رجلا اسمه بلاطة ، فخالف على فيمي وعصى ، واتفق هو وابن عم له اسمه ميخائيل ــ وهو والي مدينة بلرم ــ وجمعا عسكرا كثيرا فقاتلا فيمي وانهزم فاستولى بلاطة على مدينة سرقوسة ، وركب فيمي ومن معه في مراكبهم الى افريقة ، وارسل الى الأمير زيادة الله يستنجده ويعده بملك جزيرة صقلية ، فسير معه جيشا في ربيع الأول سنة اثنتي عشرة ومائتين »(٦)

في الحقيقة كان بلاطة قد راسل الأمير زيادة الله ، بعـد التجـاء فيمي اليه ، وعرض عليه طلبا فيه عدم مساعدة فيمي والوقـوف على الحياد ، ولم يعلن زيادة الله عن قراره في الوقوف الى جانب واحـد من الطرفين ، فهو بالأصل كان يريد الاستيلاء على الجزيرة ، والآن تهيأت الفرصة ، لكن الحملة تحتاج الى نفقات كبيرة ، واعداد للرأي العام في دولته ، ولم يكن يطمع بالحصول على مساعدات من الخلافة العباسية ، مع أن هذه الخلافة كانت الآن في ظل حكم المأمون نشطة عسكريا في منطقة الثغور مع بيزنطة ، ولذلك التفـت الأمير زيادة الله نحو الفقهاء ، وعلماء الدين ، فعن طـريقهم كان مـن الممـكن اعلان الجهاد ، وتجنيد العساكر ، وجمع الأموال اللازمة ، لهذا عقد مجلسا لبحث مسألة صـقلية والصراع فيهـا ، وحضر المجلس الى جـانب رجال الدولة عدد من الفقهاء مع القاضي الامام أسـد بـن الفـرات ، وقام المجتمعون بفتح ملف العلاقات الاسلامية الصقلية ، فذكر بعض الفقهاء بأنه توجد معاهدة للهدنة بين المسلمين والبيزنطين قـديمة ، ينبغي التمسك بها ، وقام الامام أسد بن الفرات برفض هذا الموقف وافتى بأن المعاهدة هي بحكم الملغاة ، لأن الجانب البيزنطي خرقها اكثر من مرة ، ولم يتمسك بشروطها ، وانه من واجبات الأمير اعلان الجهاد ، ونفذ الأمير الأغلبي قرار قاضي المسلمين ، فـأعد اسـطولا كبيرا من سبعين سفينة ،شحنها بعشرة الاف مقاتل من الرجـالة ، وسبعمائة من الفـرسان ، وببـراعة متناهية وفهـم سـياسي عميق اسندت قيادة هذه الحملة الى القاضي اسد بن الفرات ، فاجتمعت له بذلك الامارة والادارة والقضاء في آن واحـد .

وفي ربيع شهر ربيع الأول من عام ٢١٢ هـ/ حـزيران ٨٢٧ م اقلعت الحملة العربية من ميناء سوسة تريد جزيرة صقلية ، وتوقفت أولا أمام مدينة مازر ، وهناك التقت بالاسطول البيزنطـي للجـزيرة فسحقته ، ودخل المسـلمون الجـزيرة ، وأخـذوا يحتلون مـواقعها الواحد تلو الآخر ، وشرع ابن الفرات بحصار مدينة سرقـوسة بـرا وبحرا ، بعدما ما أتاه المدد من القيروان ،ومن المفيد هنا ملاحظته أن

قاضي افريقية رفض حين توجه لغزو صـقلية أن يصـطحب فيمـي واعوانه

وأثناء حصار سرقوسة وصل اسطول بيزنطي كبير لفك الحصار عنها ، وامده اسطول من البندقية ، وبسبب ذلك ولتأخر النجدات من القيروان ، أصيب جيش الاغالبة بانتكاسة ، لكن على الرغم من ذلك لم يتوقف عن متابعة الجهاد ، ثم أصـيب بـانتكاسة ثـانية ، حيث انتشر الطاعون بين صفوفه ، واثناء هذا مات أسد بن الفرات قـائد الحملة ، وكان ذلك سنة ٢١٣ هـ/ ٨٢٩ م (٧)

لقد استغرقت أعمال فتح صقلية اكثر من سـبعين سـنة خـاض العرب خلالها ملاحم رائعة حتى خلصت الجـزيرة لهـم ، واخفقـت جميع جهود الأمبراطورية البيزنطية في الحفاظ عليها ، وقبل الحديث عن مراحل الفتح ثم تاريخ الجزيرة ومحاولات التوسع مـن هناك في ايطاليا مفيد أن نقدم وصفا موجزا لجغرافية هذه الجزيرة.

قام عماري في كتابة " المكتبة الصقلية » بجمع مـاجاء في المكتبـة العربية عن جغرافية صقلية في قرابة ١٦٠ صـفحة ، ومـن هـذه المواد :

قول ابن حوقل :« وأما صقلية فجزيرة طولها سـبعة أيام في اربعـة أيام ، والغالب عليها الجبال والقلاع والحصون ، وليس لهـا مـدينة مسكنة ، معروفة غير المدينة المعروفة ببلرم ، وهي قصبة صقلية على نحر البحر من الشمال ، ... عليها سور من حجارة مـانع شـامخ ، يسكنها التجار ، وفيها المسجد الجامع »

وتحدث الشريف الادريسي عن صقلية باسهاب ، ومن ذلك قوله :« جزيرة صقلية فريدة الزمان فضلا ومحاسن ، ووحيدة البلدان طيبـا ومساكن ، وقديما دخلها المتجولون من سائر الأقطار ، والمتـرددون بين المدن والأمصار ، وكلهم اجمعوا على تفضيلها وشرف مقدارها ، واعجبوا بزاهر حسنها ، ونطقوا بفضائل ما بها ، وما جمعتـه مـن متفرق المحاسن ، وضمته من خيرات سائر المواطن ...

فأما صقلية المقدم ذكرها ، فـاقدارها خطيرة ، واعمالها كبيرة ، وبلادها كثيرة ، ومحاسنها جمـة ، ومناقبهـا ضـخمة ، فإن نحـن حاولنا احصاء فضائلها عددا وذكرنا احـوالها بلدا بلدا ، عز في ذلك المطلب ، وضاق فيه المسلك ، لكنا نورد منهـا جمـلا يسـتدل بهـا ، ويحصل على الغرض في المقصود فيها إن شاء الله تعالى . فنقـول : إن هذه الجزيرة .. مائة بلد وثلاثون بلدا بين مدينة وقلعة ، غير مابها من الضياع والمنازل والبقاع» (٨).

ووصف أبو حامد الغرناطي جزيرة صـقلية وقـد لفـت انتبـاهه بركانها المشهور فقال :« وفي بحر الروم جزيرة يقال لها صقلية فيها جبل قريب من البحر تخرج منه نار تضيء بالليل الى عشرة فـراسخ ... لايحتاج معها احد في تلك المواضـع الى ضـوء ولا الى سراج في طريق ، ولا في قرية لكثرة ذلك الضوء ، ويخرج مـن تلك النار جمـر كبار كأعدال القطن يتقطع ، فيقع بعضها في البر فيصير حجرا ابيض خفيفا يطفو على الماء لخفته ، والذي يقع في البحر يصير حجرا أسود مثقبا تحك به الأرجل في الحمام ، يطفو على الماء ايضـا ، وإن وقـع جمر من تلك النار على حجر أو رمل احترق الحجر ، واشـتعل كمـا يشتعل القطن حتى يقع ذلك الحجر ويصير غبارا كالكحل» (٩).

ومن أشهر مدن صقلية :

بلرم : هي من أهم مدن الجزيرة قديما وحديثا ، جميلة الموقع والمنظر معتدلة المناخ ، مياهها متدفقة ، وهي فينيقية التـأسيس ، اتخـذها العرب حاضرة لحكمهم في صقلية ، وغدت مـركزا حضـاريا هـاما خاصة في ظل الكلبيين في العصر الفاطمي ، ومازال بعض مـواقعها تحمل الطابع العربي الاسلامي من ذلك:

قصر الفوارة ــ ويقع فوق جزيرة تحيط به بركة صناعية من جهـاته الثلاث ، وقد بني أيام حكم الأسرة الكلبية ، واتخذه فيما بعـد الملوك النورمانديين مكانا للهوهم وخلاعاتهم ، ومازال خرائبه ماثلة حتى الآن ، ونضيف الى هذا القصر قصر العزيز ثم قصر القبـة والقصر الملكي ، وهو أية من أيات الفن والجمال ، كان مقر الدولة والأمـراء

العرب ، وفي ضواحي بلرم العديد من الأبنية العربية والآثار الهامة .
مسينا: وهي ايضا مدينة جميلة الموقع ، وذات اهمية عالية ، لها ميناء واسع النشاط ، اتى زلزال في مطلع هذا القرن على مبانيها وسكانها.
ترميني: هي مدينة تكاد أن تكون اسلامية خالصة بحاراتها وازقتها ودورها ، وطرائق العيش فيها ، وهي نشطة الحياة فيها الكثير من الحمامات الحارة.
مازره: وكانت مدينة اسلامية حافلة الشهرة والنشاط ، ماتزال تحتوي على بعض المؤثرات الاسلامية .
مرسى علي : وكانت هذه المدينة من أكثر الموانيء نشاطا وحركة ، لأنها ربطت صقلية بافريقية.
اطرابنش: من مشاهير المدن أيام المسلمين بها مرسى على شكل هلال كان نشطا وله علاقات مع افريقية .
طبرمين: وكانت أهم المعاقل البيزنطية ، قاومت العرب طويلا ، وبعدما افتتحوها دكوها دكا ، وعلى مقربة منها قرية القنطرة العربية ثم قرية الزعفرانة ، وماتزلا لأن تحتفظان بهذين الاسمين .
سرقوسة : وكانت قبل الفتح العربي أشهر مدن صقلية ، تعرضت دوما لغاراتهم ، وهي مدينة ذات جمال رائع وبهاء وجلال.
نوطس : كانت ايام المسلمين مركز ولاية ، وذات أهمية عالية وظلت هكذا حتى القرن السابع عشر (١٠)

وسارت عمليات فتح صقلية في البداية بنجاح كبير، فبعد ثلاثة أيام من الاقلاع من سوسة وصلت القوات العربية الى مرسى مازره ، وبذلك قطعت في كل يوم مسافة مائة كليومتر ، ونزل العرب في مازره وفتحوها ، ذلك انهم لم يجدوا من يدافع عنها ، وهكذا أتيح لهم انزال معداتهم وماحملوه معهم .

في هذا الوقت بلغت الأخبار بلاطة فخف نحوهم على راس قوات عملاقة ، قيل بلغت عشرة أضعاف القوات العربية ، واعلن بلاطة انه سيقذف بالعرب الى البحر ، وتصدى له العرب واعترضوا سبيله

خارج مازرة ، وتقدم أسد بن الفرات على رأس القوات العربية وبيده اللواء ، وهو يتلو آيات من القرآن الكريم ، وشجع جنده ورفع من معنوياتهم ، وحمل المسلمون معه بصدق وعزيمة ، فهزموا عدوهم هزيمة ساحقة .

وفرت فلول قوات بلاطة نحو سرقوسة، ولاحقها المسلمون بدون تمهل وبذلك استولوا على جنوب صقلية ، ووقفوا أمام أسوار هذه المدينة ، واخفق المسلمون في اقتحام هذه المدينة الحصينة ، وطال الحصار وقلت المؤن لدى المسلمين ، وطالب بعض الجند اسد بن الفرات بالعودة الى تونس ، فأدبهم ، وتابع الحصار ، واخذت المؤن والمساعدات تصل الى داخل سرقوسة وكذلك وصلت بعض المساعدات الى العرب ، واستمر أسد بن الفرات يناضل حتى أجهده القتال فتوفي شهيدا ، ودفن تحت أسوار سرقوسة .

واختار المسلمون اميرا جديدا اسمه محمد بن أبي الجواري ، وكانت معنوياتهم قد تدنت فاتخذ الأمير الجديد قرارا بالانسحاب واخلاء الجزيرة والعودة الى افريقية ، وفيماهم منسحبين واجههم اسطول كبير قدم من القسطنطينية نجدة لسرقوسة ، وسد الاسطول البيزنطي الطريق أمام المسلمين ، فعادوا مضطرين الى الجزيرة ، وعزموا على الجهاد والصبر حتى الشهادة ، ووصلت في ساعات الشدة هذه بعض الامدادات من افريقية ، والأهم أنه وصل الى الجزيرة اسطول اندلسي قوي بقيادة أصبغ بن وكيل الذي اشتهر باسم « ابن فرغلوش ».

واتفق المسلمون معا على متابعة الجهاد في الجزيرة وصد الروم عنها ، على أن تكون الامارة عند تحقيق النصر لابن فرغلوش ، وحقق العرب عدة انتصارات وتوجهوا الآن لفتح مدينة قصر يانة ، فحاصروها ، وفي سنة ٢١٦ هـ / ٨٣١ م حل الوباء بين صفوف المسلمين فمات بسببه ابن فرغلوش ، ثم مات محمد بن ابي الجواري، فولى المسلمون امورهم اميرا جديدا اسمه عثمان بن قهرب.

في هذه الأثناء انسحب الأندلسيون الى بلادهم فبادر زيادة الله ابن الأغلب بارسال جيش جديد الى صقلية قوامه ثلاثين الفا بقيادة امير عرف باسم زهير بن عوف ، فاشتد ساعد المسلمين واستؤنفت حركة الفتوح ، وسار العرب من نصر الى نصر .

وتوجه العرب الآن ضد مدينة بلرم ، وقاومهم الروم من داخلها مقاومة شديدة ، وحدث أثناء الحصار أن تمكنت قوة عربية سنة ٢١٩ هـ/ ٨٣٤ م من فتح مدينة مسينا ، مما كان له أكبر الآثار على الوضع في بلرم ، وهكذا في سنة ٢٢٠ هـ/ ٨٣٥ م تفاوض الروم مع العرب على أن يسلموهم بلرم شريطة السماح لهم بالانسحاب بحرا الى القسطنطينية ، وهذا ماكان واتخذ العرب بلرم عاصمة لهم في الجزيرة ومنها أخذوا يتابعون أعمال الفتح.

وبات الروم الآن والقوات المسيحية محصورين في مثلث من صقلية يمتد من الشرق نحو الجنوب الغربي من مسينا الى قصريانة ثم يرجع من قصريانة نحو الجنوب الشرقي الى مدينة نوتو ، وحاول المسلمون خرق هذا المثلث أولا باحتلال قصريانة فأخفقوا ، ثم باحتلال سرقوسة فأخفقوا ايضا ، وفي سنة ٢٢١ هـ/ ٨٣٦ م توفي الأمير زهير بن عوف ، فولى امر الجزيرة اغلبي هو أبو الأغلب ابراهيم بن عبد الله بن الأغلب .

رأى الأمير الجديد أن وضع المسلمين وقواهم في نمو مضطرد ، لكن المساعدات البيزنطية لم تنقطع عن الجزيرة فقرر عزلها بحريا ، وحقق الاسطول العربي نجاحات واسعة حيث دمر السفائن البيزنطية واستولى على بعض منها وذشر الرعب في قلوب جميع الأعداء.

وتمكن المسلمون سنة ٢٢٣ هـ/ ٨٣٨ م من احتلال جزء من قصر يانة ثم انسحبوا منها ، وفي هذه الآونة وزع العرب نشاطاتهم بين اكمال فتح صقلية وفتح الجنوب الايطالي ، وبالفعل تدخل العرب في ايطاليا أولا لصالح مملكة نابولي واستطاعوا احتلال أجزاء واسعة من ايطاليا واستولوا على مدينة باري الساحلية ، ووصلت

قواتهم الى أرباض روما لاحتلالها ، لكن نشوب بعض الخلافات الداخلية بين صفوفهم ردتهم .

ومنذ سنة ٢٣٨ هـ/ ٨٥٣ م غدت مدينة باري مقرا لامارة عربية مستقلة تحكم الجنوب الايطالي ، واليه نقلت المعارف العربية والفنون على اختلاف الوانها ، وهكذا عبرت الحضارة العربية عبر صقلية والجنوب الايطالي الى داخل أوربا مما سيكون له فيما بعد ابعد الآثار واهمها.

وفي سنة ٢٣٩ هـ/ ٨٥٤ م حاول العرب مجددا فتح روما والاستيلاء ايضا على جميع سواحل ايطاليا ، وفتح جزيرة كريت ــ وهذا موضوع سنعود له بعد قليل ــ وحقق العرب نجاحات كبيرة في البحر ضد الأساطيل الأوربية ، ومجددا بدأ البحر المتوسط يتحول الى بحيرة عربية ، وتوالت النجاحات داخل صقلية ، وتمكن العرب ايضا من فتح جزيرة مالطة ، لكن المؤسف أن امكانات دولة الأغالبة كانت لاتسمح بمتابعة الانفاق على مشاريع الجهاد البحرية والبرية ، ولنتذكر أن فتح صقلية احتاج سبعين سنة ، وقد نجم عن النفقات الكبيرة وسواها أزمات خانقة داخل أوساط الأغالبة وفي افريقية عامة ، وفيما جهود الأغالبة منصرفة الى ايجاد الحلول للمشاكل الداخلية ولمتابعة الجهاد في صقلية وفي الجنوب الايطالي (١١) ، استغل دعاة الدعوة الاسماعيلية هذا الوضع ، فنشطوا في ديار كتامة وسواها ، وأخيرا تمكن أبو عبد الله من الاطاحة بالحكم الأغلبي واقامة الخلافة الفاطمية في المغرب.

إنه قدر لايعرف الرحمة ، كيف أطيح هكذا بدولة الأغالبة العربية وجبهات الجهاد بالمتوسط بأمس الحاجة اليها والى قواها ، والشيء نفسه تكرر فيما بعد على أرض المغرب العربي ، فعندما تفرغت دولة المرابطين لاسترداد الاراضي العربية ، تعرضت هي الأخرى لما نجم عن دعوة المهدي بن تومرت ، وسقطت دولة المرابطين للموحدين ، وذهبت بعض الآراء حديثا الى ابن تومرت كان باطنيا؟ (١٢).

لقد بحثت في تاريخ قيام الدولة الفاطمية في أكثر من كتاب ، وليس بودي البحث في هذا الموضوع مجددا الآن ، بل الذي ابتغي تبيانه أن عبد الله المهدي ، اول خلفاء الدولة الفاطمية لم يستقر طويلا في مدينة القيروان ، ولم يتخذ مدينة تونس عاصمة له ، بل أنشأ مدينة المهدية على ساحل المتوسط ، ولقد كان للفاطميين سياسة بحرية خاصة بهم وامتلكوا أساطيلهم ، لكنهم لم ينشطوا مثل الأغالبة ، ذلك أن أعينهم كانت ترنو نحو المشرق للانتقال إليه ، ومع ذلك لم يقصروا في الحفاظ على هيبة ملكهم ، وقد انعكس هذا كله على أوضاع صقلية .

بعيد دخول ابي عبدالله الداعي الى رقاد ، وازالته لملك بني الأغلب ، راسله بعض المتنفذين في صقلية بالاعتراف بالسلطة الجديدة ، وكانت الأوضاع في الجزيرة آنذاك على درجة عالية من الاضطراب ، واستمرت كذلك وزاد الفاطميون بسياستهم الاستبدادية الخرقاء في اضطراب الأحوال فيها واضعافها ، ففي سنة ٢٩٧ هـ/ ٩١٠ م بعث المهدي الفاطمي الحسن بن أحمد بن أبي خنزير واليا من قبله على صقلية ، وكان ابن أبي خنزير هذا من زعماء كتامة ، فيه جفاء و جهل وعصبية ، أراد تغليب العنصر البربري على الجزيرة ،فقاومه أهلها وطردوه ، وعين المهدي واليا جديدا على الجزيرة ، لكن الأمور لم تعرف الاستقرار ، وأعلنت صقلية استقلالها وسلمت الحكم لأحمد بن زيادة الله بن قرهب ، وكان من أقرباء الأغالبة ، وانتمى ابن قرهب بالولاء الى الخلافة العباسية مما اثار خوف المهدي الفاطمي ، وفي سنة ٣٠١ هـ/ ٩١٣ م بعث المهدي باسطوله وجيشه ضد صقلية ، فرده أهل صقلية بعدمادمروابعض سفنه وفي سنة ٣٠٣ هـ/ ٩١٥ م ارسل المهدي حملة ثانية ضد صقلية ، واستخدم وسائل الأرهاب وجيش دعاته ، فكان لذلك أثاره ، حيث دانت الجزيرة مجددا للفاطميين واعتقل ابن قرهب وحمل إلى افريقية حيث أعدم ، ومع هذا ما لبثت الأمور أن عادت إلى الاضطراب في الجزيرة ، وكان لهذا تاثيرات مدمرة ، وقد تزامن مع ذلك مع بدايات نشاطات شعوب النورمان ، فأخذ هؤلاء ينشطون قرب صقلية ويسعون للتعاون مع

مسيحييها لكسب قاعدة في أطراف الجـزيرة ، وكان المسـلمون قـد شغلتهم شؤونهم الداخلية وصراعاتهم عما سوى ذلك .

استمرت الأحوال المتردية في صقلية حتى سنة ٣٣٥ / ٩٤٦ م ، ففي هذه السنة عين الخليفة الفاطمي الثالث - المنصور اسـماعيل الحسن بن علي بن أبي الحسين الكلبي الكتامي اميرا على صقلية ، فأسس فيها حكم أسرة وراثية استمرت تحكم الجزيرة حتى تـاريخ سقوطها للنورمان ، وعرفـت هـذه الأسرة بـالأسرة الكلبية ، وقـد استمر حكم هذه الأسرة أكثر من قرن ، وخلال ذلك عاشت الجـزيرة خيرة أيامها ، فقد تعربت ، وازدهـرت فيهـا الثقـافة العـربية ، واستطاع أمراء الكلبيين الدفاع عن صقلية ضـد محـاولات القـوى البيزنطية والأوربية وهزموها في عدة معـارك مشرفـة وهـكذا ظـل الجنوب الايطالي بأيدي المسلمين ، لا بل حاولوا فتح روما .

لقد أرسل الحسن بن علي عدة حملات ضد الجنوب الايطالي ،وفي سنة ٣٥٤ هـ/ ٩٦٥ م خاض ضد الجيوش البيزنطية معركة المجاز التي عدت من أعظم معارك التاريخ الاسلامي ، فيها دمر القـوات البيزنطية ، فقد التقت هذه القوات بشرذمـة قليلة مـن المسـلمين ، صمدت امام تفوق العدو العددي فانتصرت ، وقتـل المسـلمون مـن البيزنطيين «خلقا عظيما حزت منهم رؤوس عشرة الاف » والطريف في خبر هذه المعركة أن الحسن بن علي «اعتل .... لفرط الفرح بما أنعم الله به عليه ، فكانت وفاته من حمـى حـادة لسـبعة أيام (١٣) ، وهكذا أعيقت أعمال استثمار نتائجها الكبيرة ، وليت الأمـر اقتصر على هذا !

حدثت هذه المعركة أيام المعز لدين الله الفـاطمي ، وكانت الخـلافة الفاطمية مشغولة بمد سلطانها على جميع بلدان المغرب ، اسـتعدادا لتوجيه جيوشها ضد مصر ، لذلك عندمـا وصـل الى المهـدية وفـد بيزنطي للتفاوض على الصـلح اسـتقبل بـالترحاب ، وتعـاقد البيزنطيون مع المعز لدين الله على عدم معاودة الهجوم على صقلية ، وذلك مقابل ان يخلي المسلمون لهم طبرمين ورمطة التي كان سكانها

من المسيحيين ، أي أن ما أخفقت بيزنطة في الحصول عليه في معركة المجاز بقوة السلاح نالته بالمفاوضات ، وهكذا نال العدو قاعدة على ارض صقلية ، كانت نقطة الانطلاق لاسقاط هذه الجزيرة .

فبعد معركة المجاز بأمد قصير تمكنت جيوش الفاطميين من الاستيلاء على مصر ، والى مصر ارتحل المعز لدين الله الفاطمي ، وهناك تورطت الخلافة بالصراع ضد القرامطة ومن أجل السيطرة على بلاد الشام ، وتركت صقلية بامكاناتها لوحدها لتواجه قوى أوربا المتنامية خاصة في المجال البحري لدى النورمان ولدى جمهوريات ايطاليا الناشئة .

وتأثرت صقلية بتردي أحوال الخلافة الفاطمية ، وبتمزق الأندلس وبقيام حكم دول الطوائف ، ثم بما شهدته ساحات المغرب من رفض للولاء الفاطمي ، وهجرة قبائل هلال وسليم وقيام دعوة الرباط ، ورسم صورة ملخصة للأحوال في صقلية لسان الدين بن الخطيب بقوله :«ثم تداول ولاية صقلية أمراء من هذا البيت إلى أن انقطع عنهم امداد المسلمين ، لاشتغال كل جهة بما يخصها من الفتن ، فكان استخلاص العدو لها في سنة خمس وثمانين واربعمائة (١٠٩٢ م) .

وكان عدو الله الذي تغلب عليها الملك رجار ، وهو الداهية ، العديم النظير في أبناء جنسه : حزما ودهاء وسياسة »(١٤)

وتحدث الشريف الادريسي عن سقوط صقلية في كتابه نزهة المشتاق الذي قدمه لروجر الثاني بن قاهر صقلية فقال :«ولما كان في سنة أربعمائة وثلاث وخمسين سنة من سني الهجرة ، افتتح غرر بلادها وقهر بمن معه طغاة ولاتها واجنادها الملك الأجل والهمام الأفضل المعظم القدر ، السامي الفخر رجار بن تنقريد ، خيرة ملوك الأفرنجيين ، ولم يزل يفرق جموع ولاتها ، ويقهر طغاة حماتها ، ويشن عليهم الغارات في الليل والنهار ، ويرميهم بصنوف من الحتوف والبوار ، ويعمل فيهم ماضي الشفار ، وعوامل القنا الخطار

إلى أن استولى على جميعها غلبة وقهرا وفتحها قطرا فقطرا ، ، وملكها ثغرا فثغرا ، وذلك في مدة ثلاثين عاما .

واقرهم على اديانهم وشرائعهم ، وامنهم في انفسهم وامـوالهم واهليهم وذراريهم ، ثم اقام على ذلك مدة حياته إلى ان وافاه الأجل المحتوم »(١٥)

لقد قاومت صقلية مدة ثلاثين سنة لوحدها ، وحين سقطت ؛ سقطت عسكريا ، ولم تسقط من جوانب الحضارة والنظم ، ولم تقم محاولات جادة لاستردادها ، وقد ورث النورمان املاكها في إيطاليا ، ولم يكتفوا بهذا بل احتلوا مالطة وهاجموا سواحل الشمال الأفريقي فاحتلوا المهدية وغيرها ، ولا شك أن هذا التراجع العربي كان له ابعد الآثار في أحداث الحروب الصليبية ، ولقد أعطى الحكام النورمان لجمهوريات ايطالية البحرية امتيازات تجارية واسعة في جزيرة صقلية ، وسمحوا لهم باستثمار مؤسسات التجارة والصناعة التي كان العرب قد شيدوا صروحها بكل عناية وبراعة ، وفي المحصلة، «إن اعتداءات النورمان على ايطاليا وصقلية وشواطىء الأدرياتيكي ، وهجمات جنوى وبيزا في المياه الغربية للبحر المتوسط وهجمات الأقطاعيين الفرنسيين في الأندلس ، وحركات البنادقة في المياه البيزنطية ، بالاضافة إلى التشجيع القوي الذي بذلته البابوية واتباع الاصلاح الكلوني للقيام بهجوم عام على المسلمين من أجل دوافع دينية ، ثم العاطفة الدينية التي دفعت بالآلاف من مسيحي غرب أوربا لزيارة الأماكن المقدسة ، هذه الاتجاهات كلها تفاعلت فيما بينها لانتاج ما نسميه بالحرب الصليبية الأولى ، ويمكن القول بعبارة أخرى : إن الحرب الصليبية الأولى تمثل خليطا مركبا من عدة عناصر كانت تعمل منذ أمد في أحداث غرب البحر المتوسط ، وتتلخص في العاطفة الدينية ، وجشع البحارة الايطاليين والمغامرين الاقطاعيين للحصول على السلب والنهب ، والرغبة في كسب الامتيازات في ميداني النقل والتجارة»(١٦)



ولم ينتزع العرب من الامبراطورية البيزنطية جزيرة صقلية فقط بل فتحوا أيضا جزيرة كريت (أقـريطش)وحـولوها إلى قـاعدة بحرية عربية متقدمة وظلوا محتفظين بها لفترة طويلة ، وبـالاضافة الى كريت امتلكوا جزر الأندلس الشرقية - البليار - ومن المفيد أن نختم هذا الفصل بـالحديث عن كريت ، ذلك أن الحـديث عن جـزر البليار هو مرتبط بتاريخ الأندلس والمغرب ، ولا يعنينا بهذا المدخـل مباشرة (١٧)

وتعد جزيرة كريت بين أهم جزر المتوسط عرفت الحضارة قبـل أن تعرفها بلاد الأغريق ، وكانت لها عبر التاريخ علاقات مـع مصر والشام وسواها ، وبعد قيام الاسلام ونجاح حركة الفتوحات حاول العرب اكثر من مرة فتح هذه الجزيرة ، لكن بيزنطـة دافعـت عنهـا وحالت بينهم وبين ذلك حتى مطلع القرن الثالث للهجرة .

واختلفت حكاية هذا الفتح عن غيرها من الفتوحات البحـرية ، فقـد كان فتحا «شعبيا» - اذا جاز التعبير - ولم يكن فتحـا رسـميا ، وراءه دولة أو نظام حاكم ، ونحن نذكر أن فتح الأندلس كان بحـريا من بعض الجوانب ، وقد امتلك أهل الأندلس اسـاطيلهم منذ فتـرة مبكرة ، ولا صحة لما ذهبت إليه بعض الآراء مـن أن الأندلس صـار لديها أساطيلها بعدما تعرضت لمخاطر الفيكونكغ ، وجـابت السـفن والأساطيل الأندلسية جميع بقـاع المتـوسط للتجـارة والنقـل والأغراض الأخرى ، وجرت العادة في الأندلس أن «كل بلد يتخذ فيه السفن أسطول ، يرجع نظره إلى قائد من النواتية يدبر أمـر حـربه وسلاحه ومقاتلته ، ورئيس يدبر أمر جريه بـالريح أو بـالمجاذيف ، وأمر ارسائه في مرفئه »(١٨)

وبما أن الأساطيل العربية قد ملكت السيطرة على البحر المتوسط ولامتداد الشواطىء العربية شرقا وغربا ، فقـد اعتـادت السـفن الأندلسية على الرسو في أي بلد اسلامي .ارادت ، يقول ابـن خلدون: « والساكنون بسيف هذا البحر وسواحله من عدوتيه يعـانون مـن أحواله ما لا تعانيه امه من أمم البحار ، فقد كان الروم والأفـرنجة

والقوط بالعدوة الشمالية من هــذا البحــر الرومــي ، وكانت أكثــر حروبهم ومتاجرهم في السفن ، فكانوا مهرة في ركوبــه والحــرب في أساطيله ....

فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم ، وصارت أمــم العجــم خولا لهم وتحت أيديهم ، وتقرب كل ذي صنعة إليهم بمبلغ صناعته ، واستخدموا من النواتية في حــاجاتهم البحــرية أممــا وتــكررت ممارستهم للبحر وثقافته ، اســتحدثوا بصراء بهــا ، فشرهــوا الى الجهاد فيه ، وأنشأوا السفن فيه والشــواني وشــحنوا الأســاطيل بالرجال والسلاح ، وامطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر مــن أمم الكفر ، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر ، وعلى حافته مثل الشام وافريقية والمغرب والأندلس .....

وكان المسلمون لعهد الدولة الاسلامية قد غلبوا على هــذا البحــر من جميع جوانبه ،وعظمت صــولتهم وســلطانهم فيه فلم يكن للأمــم النصرانية قبل بأساطيلهم بشيء من جوانبه ، وامتطوا ظهره للفتــح سائر أيامهم ، فكانت لهم المقامات المعلومــة مــن الفتــح والغنائم ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه "(١٩)

وكانت بعض الأساطيل الأندلسية قد اعتادت على الرســو أمــام ميناء الاسكندرية عند قفولها من الغزو « ليبتــاعوا مــا يصــلحهم ، وكذلك كانوا على الزمان ، وكانت الأمــراء لا تمــكنهم مــن دخــول الاسكندرية ، انما كان الناس يخرجون اليهم فيبــايعونهم»(٢٠)لقــد روى هذا الكندي في كتابه ولاة مصر ،وعرض ذلك لدى الحــديث عن وقائع سنة ١٩٩ هـ/ ٨١٤ م ،وكانت أوضاع مصر أنذاك مضطربة بدأت المشاكل فيها منذ أواخر ايام الرشيد واشــتدت اثناء الصراع على الخلافة بين الأمين والمأمون ،واضطرمت في الفترة التــي مــكث فيها المأمون في مدينة مرو، واستولى اثناء بعضها ابراهيم بن المهدي على عرش الخلافة في بغداد.

وكان والي مصر المطلب بن عبد الله الخزاعي ، وعهد هذا الوالي

إلى محمد بن هبيرة بن هاشم بـن حـديج بـولاية الاسـكندرية ، واستخلف هذا الوالي عمر بن عبد الملك (ويقال له ايضا عمـر بـن هلال) على ولاية الاسكندرية التي لم تنعم بالاستقرار ، ووجد فيها عدة قوى تصارعت من أجل السلطة في الاسكندرية .
وقام والي الفسطاط المطلب بن عبد الله ، بعزل عمر بن عبد الملك عن الاسكندرية وعين بدلا عنه أخاه الفضل بن عبد الله ، وغضب عمر بن عبد الملك من عزله وتعيين المطلب لأخيه بدلا عنه وأراد الاستيلاء على السلطة في الاسكندرية والخروج على والي مصر المقيم في الفسطاط .
في هذه الآونة كان قد تغلب على بلدة تنيس القريبة أحد قـادة الجند واسمه عبد العزيز الجروي ، وطمع بالاستيلاء على مصر ، وعندمـا سير والي الفسطاط ضده حملة نهـرية هـزمها عند شـطنوف على النيل وأسر اميرها السري بن الحكم ، ودعا الجروي عمر بـن عبـد الملك للتحالف ، فاستجاب وقرر الثورة بالفضل بن عبد الله وطـرده من الاسكندرية ، ولكي يحقق هدفه رأى أن يسـتعين بـالأندلسيين المرابـطين أمـام ميناء الاسـكندرية .وكان عدد هؤلاء الأندلسـيين يتراوح مابين الأربعـة آلاف الى الخمسـة وكان قـوام اسـطولهم أربعين سفينة ، ويرجح أنهم لجأوا الى الاسكندرية في مطلع الخريف لذلك العام ، واستجاب هؤلاء لطلب عمر بن عبد الملك فاستولوا معه على الاسكندرية ، ونادى عمر بن عبد الملك الآن بالجروي واليا على مصر ، لكن أهل الاسكندرية غضـبوا مـن تـدخل الأندلسـيين في شؤونهم فثاروا بهم وأخرجوهم من المدينة بعدما قتلوا عددا منهـم ، وهكذا عاد الفضل بن عبد الله الى عمله .

ولم يجلب هذا الأمن والاسـتقرار الى الاسـكندرية ، حيث قـام المطلب بن عبد الله بعزل أخيه الفضل وعين بـدلا عنه اسـحق بـن أبرهة بن الصباح ، ثم مالبث أن عزله وعين بدلا عنه أبـا بـكر بـن جنادة بن عيسى المعافري ، الذي انتمى الى عشيرة قوية ، ومع هـذا لم يعد الاستقرار الى الاسكندرية لأن الأوضاع اضطربت بشـدة في الفسطاط حيث تحالف الجروي مع أسيره السري بن الحـكم ضـد المطلب واجتذبا بعض جند الفسطاط إليهما مما اضطر الفضـل الى

مغادرة مصر الى الحجاز بحرا ، وتسلم الولاية في الفسطاط السري ابن الحكم بناء على اجماع الجند وكان ذلك في رمضان سنة ٢٠٠ هـ/ ٨١٥ م •

وفي هذه الأثناء تمكن عمر بن عبد الملك من طرد المعافري من الاسكندرية واستولى على مقاليد الأمور فيها من جديد ، وبذلك اتاح مجددا السبيل للأندلسيين للنزول في بر الاسكندرية ودخول المدينة ، والتسلط على اهلها ، الذين كانوا قد أخرجوهم من قبل ونقموا عليهم سلوكهم ونسبوا إليهم مفاسد كثيرة •

وظلت خواطر اهل الاسكندرية غير مرتاحة لتسلط الأندلسيين ، ولهذا قرر عمر بن عبد الملك اخراجهم الى سفنهم ، وهكذا فسدت العلاقة بين الطرفين ، وتربص الأندلسيون شرا بعمر بن عبد الملك •

وساعدت أوضاع الاسكندرية الأندلسيين على احكام قبضتهم عليها ففي ظل الأوضاع المضطربة والنزاعات على السلطة خرج من بين صفوف أهل المدينة حركات شعبية كان أبرزها واحدة عرفت بالصوفية ، تبنى أفرادها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وصاروا يسيرون في المدينة وقد علقوا على أعناقهم المصاحف « ويعارضون السلطان في أمره ، فتراس عليهم رجل منهم يقال له أبو عبد الرحمن الصوفي ، فصاروا مع الأندلسيين يدا واحدة ، واعتضدوا بلخم ، وكانت لخم أعز من في ناحية الاسكندرية ، فخوصم أبو عبد الرحمن الصوفي الى عمر بن هلال في امرأة ، فقضى على ابي عبد الرحمن ، فوجد في نفسه من ذلك ،وخرج الى الأندلسيين ، والف بينهم وبين لخم ، ورجا أهل الأندلس أن يدركوا من عمر بن هلال ، فساروا الى عمر وهم زهاء عشرة ألاف من لخم ومن الأندلسيين ، ومن ضوى إليهم فحصروه في قصره ، فعلم عمر أن القصر لايمنعه منهم ، وخاف أن يدخل عليه عَنوة ، فيفضح في حرمه ، فاغتسل وتحنط وتكفن ، وأمر أهله أن يدلوه إليهم فدلي ، فأخذته السيوف فقتل ، ثم دلي إليهم أخوه محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج فقتل ، ثم دلي إليهم ابن

عمه ابو هبيرة الحارث بن عبد الواحد فقتل ، ثم دلي إليهم حديج بن عبد الواحد فقتل وانصرف القوم ....

وكان مقتل عمر بن هلال واهله في ذي القعدة سنة مائتين ، ثم فسد أمر لخم والأندلسيين عند مقتل عمر بن هلال ، وقام بأمر لخم رباح بن قرة ، وسار الى الأندلسيين فحاربهم فانهزمت لخم ، وظهر الأندلسيون بالاسكندرية عنوة في ذي الحجة سنة مائتين ، فولوها ابا عبد الرحمن الصوفي ، فبلغ من الفساد بالاسكندرية والقتل والنهب ما لم يسمع بمثله ، فعزله الأندلسيون عنها ، وولوا رجلا منهم يعرف بالكناني ، ثم حاربت بنو مدلج أهل الأندلس ، فظفر بهم الأندلسيون فنفوهم عن البلاد »(٢١)

وكانت أنباء تغلب الأندلسيين على الاسكندرية قد وصلت الى عبد العزيز الجروي المتغلب على تنيس ، ولم يرضه ما حدث لحليفه عمر ابن هلال ، وقرر استرجاع الاسكندرية من الأندلسيين ، وقام بعدة حملات ضد هذه المدينة وحاصرها أكثر من مر ة فأخفق ، ثم إنه « سار الى الاسكندرية مسيره الرابع ،فأغلق الأندلسيون حصنها ، فحاصرهم الجروي أشد الحصار ، ونصب عليهم المنجنيقات ، واقام على ذلك سبعة أشهر من مستهل شعبان سنة أربع ومائتين الى سلخ صفر سنة خمس ، فأصاب الجروي فلقة من حجر منجنيق ، فمات سلخ صفر سنة خمس ومائتين ، ومات السري بن الحكم بالفسطاط بعده بثلاثة أشهر » (٢٢)

لقد مكث الأندلسيون يتحكمون بالاسكندرية اكثر من عشر سنوات ، حيث ظلت الأمور مضطربة في مصر وفي المشرق ايضا ، ويبدو أن عدد الأندلسيين في الاسكندرية ازداد كثيرا بوصول أندلسيين جدد اليها لاسيما من سكان ربض قرطبة الذين ثاروا ضد الأمير الحكم بن هشام في سنة ٢٠٢ هـ/ ٨١٧ م فبطش بهم ، وهدم الربض وأجلى اهله (٢٣) فجاء بعضهم الى المغرب الأقصى « فصعدوا الى مدينة فارس ، وكانوا ثمانية الاف بيت ، فنزلوا عدوة الأندلس وشرعوا بها في البناء يمينا وشمالا ... فسميت عدوة الأندلسيين » (٢٤)

وترجم ابن الأبار في الحلة السيراء للحكم بن هشام فتحدث عن فتنة ربض قرطبة ووصف تدمير الربض وشتات سكانه حيث ساروا « كل بحسب ما أمكنه ، واستمروا ظاعنين على الصعب والذلول ... متفرقين في قصي الكور وأطراف الثغور ، ولحق جمهورهم بطليطلة لمخالفة أهلها الحكم ، ولجأ أخرون الى سواحل بلاد البربر ، واصعدت منهم طائفة عظيمة ـ نحو الخمسة عشر الفا ـ في البحر نحو المشرق ، حتى انتهوا الى الاسكندرية » (٢٥)

وفي المشرق ترك المأمون مرو وجاء الى بغداد ، وأعاد هيبة الدولة العباسية واستقرارها في المركز ، واهتم بشؤون مصر ، فوجه عبد الله بن طاهر بن الحسين الى مصر ، فأقبل على راس قوة برية بحرية ، وتمكن من الاستيلاء على مدينة الفسطاط ودخل اليها « يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من ربيع الأول سنة احدى عشرة » ثم قرر الزحف ضد الاسكندرية ، ونزل عليها « في ربيع الأول سنة اثنتي عشرة ، وحصرها بضع عشرة ليلة ، فخرج اليه أهلها بأمان ، وصالح الأندلسيين على أن يسيرهم من الاسكندرية حيث احبوا ، على أن لايخرجوا في مراكبهم احدا من مصر ، ولاعبدا ولاأبقا ، فإن فعلوا فقد حلت له دماؤهم ، ونكث عهدهم ، وتوجهوا، فبعث ابن طاهر من يفتش عليهم مراكبهم ، فوجد فيها جمعا من الذين اشترط عليهم أن لايخرجوهم ، فأمر ابن طاهر باحراق مراكبهم ، فسألوه أن يردهم الى شرطهم ففعل » (٢٦)

وسار الأندلسيون نحو جزيرة كريت حيث تمكنوا من فتحها ، لكن لماذا نحو كريت ، ومن اين ولدت هذه الفكرة لديهم ؟ يبدو أن الأندلسيين كانوا أثناء سيطرتهم على الاسكندرية قد تابعوا نشاطاتهم داخل البحر المتوسط ، وقد اضطروا لذلك لتأمين المؤن واسباب الاستمرار ، وهكذا اغاروا على كريت عدة مرات ، ولربما أغاروا على صقلية ايضا ، وفي السنة التي نزل فيها عبد الله بن طاهر الفسطاط بعثوا ضد كريت « عشر سفن أو عشرين ، عادت بكثير من الأسرى والغنائم ، بعد أن عرفت المكان معرفة دقيقة» (٢٧)

ولعلهم قصدوا كريت بعد مغادرتهم الاسكندرية لأنهم عرفوا أخبار مشروع الاغالبة لفتح صقلية الذي شرع في تنفيذه في العام نفسه ، وكان الأندلسيون حين قصدوا كريت تحت لواء قائد منهم اسمه أبو حفص عمر بن عيسى البلوطي ، ونزلوا على شاطىء كريت دون أن يلقوا مقاومة ، ولانعرف هل نزلوها للاغارة فقط أم للفتح ، وينقل فازلييف عن المصادر البيزنطية انه « لم يكد جند العرب يبتعدون عن الشاطيء الى الداخل قليلا حتى أمر ابو حفص بحرق السفن ، فلما رجع العرب الى الشاطيء كادوا يثورون لما أحسوا من يأس خوفا على نسائهم واطفالهم، فهداهم ابو حفص حينئذ وامتدح لهم غنى الجزيرة ، وجمال الكريتيات وصلاحهن للزواج.

فلما استقر العرب في الجزيرة ابتنوا حصنا حصينا أحاطوه بخندق عميق ، فسمي لهذا بالخندق ، ومن هنا جاء كما نعرف الاسم الحديث كاندى »(٣٨) واذا صحت هذه الرواية لم تكن فكرة الاستقرار في كريت موجودة إلا في راس البلوطي ، ومهما يك من امر أكمل العرب فتح كريت ، ويقول فازلييف « واخذ العرب تسعا وعشرين مدينة لم تحفظ لنا اسماؤها ، واسترقوا سكانها ولم يسمحوا للمسيحين بالاحتفاظ بدينهم إلا في مدينة واحدة » وانتمى الأندلسيون بعد استقرارهم في كريت الى الخلافة العباسية (٢٩)

كان على عرش القسطنطينية الامبراطور ميخائيل الثاني من الأسرة العمورية (٨٢٠ ـ ٨٢٩ م)وحاول هذا الامبراطور الحيلولة بين العرب وبين فتح صقلية ،كما جهد في سبيل استرداد كريت فأرسل لهذا الغرض ثلاث حملات بحرية باءت جميعا بالاخفاق (٣٠) وكانت في هذه الآونة جبهة الثغور العربية البيزنطية مشتعلة ، ففي منطقة الثغور اقام الخليفة المأمون وهناك قضى ، وبعد المأمون قام المعتصم بحملة عمورية الشهيرة ، ولاشك أن هذه الضغوط الشديدة على بيزنطة قد ارغمتها على توزيع امكاناتها العسكرية وهذا قد سهل بعض الشيء فتح كل من صقلية وكريت •

لقد احتفظ العرب بجزيرة كريت مدة تبلغ قرنا ونصف القرن

خاضوا خلالها معارك شديدة ضد الأساطيل البيزنطية ، واستطاع البيزنطيون استرداد كريت في الفترة التي تلاشت بها قوى الدولة العباسية ، وفي المقابل عاشت الامبراطورية البيزنطية في ظل حكم الأسرة المقدونية فترة ازدهار وقوة عسكرية ، وانجبت هذه الأسرة واستخدمت عددا من كبار القادة العسكريين كان من اشهرهم نقفور فوقاس ، واستطاع نقفور أن يجتاح منطقة الثغور الشامية ، ولم تثمر جهود سيف الدولة الحمداني في التصدي له حيث اقتحم على راس قواته مدينة حلب واحدث فيها مذبحة مهولة ودمارا مروعا وساق منها قطارا من الأسرى فيه أكثر من عشرين الف فتى وفتاة ، ونقفور هذا نفسه استغل الضعف العربي فقام بحملة كبيرة ضد كريت في سنة .٣٥ هـ/ ٩٦١ م واستطاع الاستيلاء عليها بعد ما واجه مقاومة هائلة ، وعندما وصل خبر سقوطها إلى القسطنطينية تقبله شعبها بفرح عظيم ، وعلى العكس شعر المسلمون بحزن عميق وأسى كبير ، ومع انهم في إفريقية وفي مصر ملكوا ما يكفي من الامكانات لاسترداد الجزيرة تواكلوا واهملوا الأمر ، واكتفى المعز بكتابة رسالة تهديد إلى بيزنطة وتقريع إلى كافور الاخشيدي ، لكن ذلك لم يجد ، والمشكلة هنا أن هموم المعز كانت منصرفة نحو احتلال مصر ، وهموم كافور كانت مستقطبة حول الدفاع عن ملكه ، (٣١) وكانت الأندلس منصرفة نحو همومها مع أعداء الشمال والصراع ايضا مع الفاطميين في بر المغرب الاقصى والبحر مع مشاكل اخرى ٠

لقد توالت الانتكاسات العربية في البحر المتوسط ، ومن الجانب الآخر كانت قوى أوربا تتصاعد ، وقد اثر هذا تأثيرا كبيرا على مسار أحداث الحروب الصليبية ، وتعاظم التدهور في هذا المجال في المشرق اكثر منه في المغرب ، وقد اجمل ابن خلدون حكاية العرب والبحر المتوسط بقوله :« والمسلمون ٠٠٠قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر ، وسارت اساطيلهم فيهم جائية وذاهبة ، والعساكر الاسلامية تجيز البحر في الأساطيل من صقلية الى البر الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية ، فتوقع بملوك الافرنج ، وتثخن في

ممالكهم ...وانحـازت أمـم النصرانية بـأساطيلهم الى الجـانب الشمالي الشرقي منه ، من سواحل الأفرنجة والصـقالبة وجـزائر الرومانية لايعدونها ، وأساطيل المسلمين قد ضريـت عليهـم ضراء الأسد على فريسته ، وقد ملأت الأكثر من بسـيط هـذا البحـر عدة وعددا ، واختلفت في طرقه سلما وحربا ، فلم تسـبح للنصرانية فيه الواح •

حتى إذا أدرك الدولة العبيدية والأموية الفشل والوهن ، وطرقها الاعتلال مد النصارى أيديهم الى جزائر البحر الشرقية مثل صـقلية واقريطش ومالطة ، فملكوها ، ثم الحوا على سواحل الشـام في تلك الفترة ، وملكوا طرابلس وعسقلان وصـور وعكا ، واسـتولوا على جميع الثغور بسواحل الشام ، وغلبوا على بيت المقدس ، وبنوا عليه كنيسة لاظهار دينهم وعبادتهم ، وغلبوا بني خزرون على طرابلس ، ثم على قابس وصفاقس ، ووضعوا عليهم الجزية ، ثم ملكوا المهدية مقر ملوك العبيديين من يد أعقاب بلكين بـن زيري ، وكانت لهـم في المائة الخامسة الكرة بهذا البحر ،وضعف شـأن الأسـاطيل في دولة مصر والشام إلى أن انقطع ، ولم يعتنوا بشيء من أمره لهذا العهد ، بعد أن كان لهم به في الدولة العبيدية عناية تجاوزت الحد كمـا هـو معروف في أخبارهم ، فبـطل رسـم هـذه الوظيفـة هنالك ، وبقيت بإفريقية والمغرب فصارت مختصة بها ••••

ثم تراجعت عن ذلك قوة المسـلمين في الأسـاطيل لضـعف الدولة ونسيان عوائد البحر ، بكثرة العوائد البدوية بـالمغرب ، وانقـطاع العوائد الأندلسية ، ورجع النصارى فيه الى دينهـم المعـروف مـن الدربة فيه ، والمران عليه ، والبصر بأحواله ، وغلب الأمـم في لحته وعلى أعواده ، وصار المسلمون فيه كالأجـانب إلا قليلا مـن أهـل البلاد الساحلية لهم المران عليه لو وجـدوا كثـرة مـن الأمصـار والأعوان ، أو قوة من الدولة تستجيش لهم أعوانا ، وتوضح لهم في هذا الغرض مسلكا »(٣٢)

ملاحق الكتاب

أسد بن الفرات

(من المقفى للمقريزي ـ مجلدة برتو باشا)

اسد بن الفرات بن سفيان ، ابو عبد الله ، مولى بني سليم ، قاضي إفريقية ·
اصله من ابناء جند خراسان ·

ومولده في سنة أربع واربعين ومائة ، واقام بالكوفة · وكتب عن اهلها وكتب بالري عن جرير بن عبد الحميد ·

واخذ الموطأ عن مالك بن انس ، وروى عنه المسائل الأسدية ، وهو معدود من كبار اصحاب مالك ·
قدم مصر ، ومضى الى إفريقية ، وولي القضاء بها من قبل زيادة الله ابن إبراهيم بن الأغلب شركة مع ابي محرز محمد بن عبد الله بن قيس في ····

ثم غزا جزيرة صقلية وذلك أن اهلها كانوا معاهدين· فنزع بعض أهلها الى زيادة الله يستدعيه الى دخول الجزيرة ، وذلك أن ملك الروم سخط عليه ، وكتب الى صاحب صقلية أن يعاقبه ويمثل به · فلما خافه استدعى أصحابه الى الخلاف معه فأجابوه · فمضى في مراكبه نحو سرقوسة إحدى مدائن جزيرة صقلية ، فنزل بمرساها وقاتل البطريق الذي كان بها حتى قتله ، ثم لبس الديباجة التي يلبسها الملوك والخف الأحمر ، واخذ الأموال التي بسرقوسة ، واستولى عليها ، واعطى أصحابه الأموال ، ثم رغب الى زيادة الله في أن يمده ·

فجمع زيادة الله العلماء وشاورهم في غزو صقلية · وكان في

عهدهم أنهم إذا دخل عندهم رجل من المسلمين مرتدا أن يسلموه الى المسلمين فأحضر زيادة الله أسد بن الفرات وابا محرز ،في أخرين وسألهم عن ذلك ، فقال أسد : نسأل رسلهم إن كانوا احتبسوا أحدا من المسلمين ارتد عندهم •

فسألوهم فقالوا نعم ، فعلنا ذلك ، ولا يحل لنا في ديننا رد من اتى إلينا ودخل في ديانتنا •

فقال أسد : قد نقضوا عهدهم وجاز لنا أن ننقض ما عقدنا لهم ، وإنما تتآدى إلينا الحقائق عنهم برسلهم فبهم عاهدناهم وبهم نجعلهم ناقضين ، وقد قال الله تعالى :« فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وانتم الأعلون »(١)• فكما لاندع السلم ونحن الأعلون فكذلك لانتمسك به ونحن الأعلون •

فأخذ زيادة الله بقول أسد وأمر بإنشاء المراكب والاستعداد للغزو • وعرض أسد نفسه على زيادة الله للخروج في الغزاة ، فولاه على الجيش ، وفيهم أشراف أهل إفريقية من قريش ، والعرب ، والجند ، والبربر ، والأندلسيين ، وأهل العلم والبصائر ، وأقره على القضاء مع قيادة الجيش • فخرج في حفل عظيم ، وعدة جليلة في شهر ربيع الأول سنة أثنتي عشرة ومائتين • فقال لمن حوله والله ما ولي أبي ولا جدي ولاية قط ، ولا رأى احد من اهل بيتي ولا سلفي مثل هذا الجمع يتبعه ، ولا بلغت ما ترون إلا بطلب العلم فأجهدوا انفسكم في طلبه ، فإنكم تنالون به الدنيا والآخرة •

واجتمع لزيادة الله من المراكب سبعون مركبا ، وجعل فيها سبعمائة فرس ، ثم فصل أسد بالعساكر يوم السبت للنصف من شهر ربيع الآخر ، فكانت طريقه على قلعة البلوط ، ثم على قرى الريش ، ثم سار الى قلعة الدب وقرية الطاووس • وذلك أنهم أصابوا في القلعة دبا أنيسا ، وفي القرية طاووسا • ثم سار الى معركة بلاطة فظهر له فيها جمع من الروم فنازلهم وواضعهم الحرب فانهزم المشركون ، وأصيب لهم خيل وسلاح • ومن ذلك اليوم

سميت معركة بلاطة • ثم دخل الى حصون الروم ومـدنهم وقـراهم ينسفها ويغير عليها • وبعث السرايا الى قصـور صـقلية وقـراها فأصابوا سبيا كثيرا ، ومن الدواب والمواشي مـا لا يحصى كثـرة • وكثرت الغنائم عند المسلمين فصاروا في رغد من العيش ، حتى نزل على سرقوسة ، وحصر اهلها اشد الحصار ، ونصب عليهم المجانيق وقاتلهم برا وبحرا •

وكانت المراكب تأتيهم من القسطنطينية لتنصرهم ، فـربما تغلب المسلمون عليها قبل دخولها • وبث السرايا من كل جهة ، واختـلط الناس المنازل من سرقوسة الى قـطانية ومـا حـولها ، وتـزوج المسلمون في الروم وسكنوا القرى ، وسـارع الناس الى إمـدادهم والغزو إليهم من إفريقية والأندلس وغيرهما ، وانتهم مـراكب مـن الأندلس فيها كليب الأعرج ورجل يقال له المشاط فنزلوا وافتتحـوا قلعة تعرف بقلعة حفص • واحرق اسـد مـراكب سرقـوسة وقتـل جماعة من أهلها فانقطعت المواد عن سرقـوسة ، واشـتد عندهـم الغلاء وذبحوا خيولهم • واشير على اسد ان يرجع وقيل له . سلامة مسلم واحد خير من الروم بأسرهم ، فأبى أن يرجع وقال : ما كنت لأضيع على المسلمين غزاة وفيهم خير كثير •

وامر بالزحف واخذ اللواء بيده وقرأ سورة يس حتى فرغ منها ، ثم قال : أيها الناس ، لاتهـابوهم ، إنهـم عبيدكم ، هـربوا مـن ايديكم ، ثم هم قد وقعوا لكم يشير الى من انهزم من الروم عند فتح إفريقية •

ثم إنه زحف وقاتل قتالا كثيرا ، واشتدت الحـرب ، وهـزم الله المشركين ، وكانوا في مائة الف وخمسين الفا ، وقتل بلاطة ملكهم في خلق كثير منهم • وجرح اسد، فلم تزل به جراحته حتى مـات وهـو على حصار سرقوسة في شهر رجب سنة ثلاث عشرة ومائتين فـدفن بمدينة بلرم •

جرجي الأنطاكي وزير روجار

(من المقفى للمقريزي ـ مجلدة برتو باشا)

جرجي بن ميخائيل الأنطاكي ، وزير روجار ملك الافرنج بجزيرة صقلية • كان من جملة النصارى وعمل هو وأهل بيته لملك القسطنطينية مدة ورفع عليه وعلى أهله فأمر الملك بوصولهم إليه بالأهل والولد ، فجمعوا في مركب وخرجوا في أربعين نفسا فلقيهم أسطول السلطان تميم بن المعز بن باديس صاحب بلاد الغرب ، وذلك في سنة نيف وثمانين واربعمائة ، وهو راجع من غزو جزائر القسطنطينة ، فأخذهم واتي بهم الى المهدية من أرض إفريقية • فسألوا الحضور بين يدي تميم فأمر بإحضارهم فذكروا أنهم حساب وأن السلطان ينتفع بهم في الخدم. فأحسن تميم اليهم وقلدهم الامور. فظهر نصحهم وولى جرجي هذا عاملا على مدينة سوسة وجعل سمعان أخاه بين يديه وكان لم يبلغ الحلم. فجعل يلتقط الأخبار من اخوته ومن غيرهم ويوصلها اليه. فبلغ السلطان يحيى ابن تميم عن سمعان أنه نقل عنه كلاما. فضاق به صدره وثقل على يحيى بن تميم فأمر من خنقه ليلا.

ومات السلطان تميم وقام من بعده ابنه يحيى بن تميم فخافه جرجي ، وكتب الى السلطان عبد الرحمن (٢) وزير الملك روجار بن روجار ملك الفرنج المعروف بأبي تليس صاحب جزيرة صقلية يأمره فيه أن يبعث له شيذيا غزوانيا ليهرب فيه • فوصل الشيني الى المهدية في سنة اثنتين وخمسمائة ، وفيه رسول الى السلطان يحيى ابن تميم • فأخذ جرجي وجميع اقاربه وسار بهم بحيث لم يعلم به أحد •

فلما قدموا عليه أحسن إليهم وولاهم الدواوين بصقلية فأظهروا النصح فصار لهم عنده منزلة • وشب الملك روجار وشارك عبد الرحمن الوزير في الأمر والنهي • فتقرب إليه جرجي بكل ما يوافقه • فبعث جرجي رسولا الى مصر كرات متعددة •

ولم يزل جرجي يسعى بالسلطان عبد الرحمن حتى أخذه روجار وجعله في قفص حديد وقتله • وولى وزارته ابا الضوء كاتب إنشائه ، وكان من أهل الأدب ، فلم ينهض بالأمر فولى جرجي الوزارة فجمع الأموال ورتب قواعد الملك وحجب روجار عن الرعية ، وجعل له زيا كزي المسلمين ، لا يركب ولا يظهر للرعية إلا في الأعياد ، وبين يديه الخيل المسومة بسروج الذهب والفضة ، والأجلة المرصعة بالأحجار ، والقباب بالهوادج ، والبنود المذهبة والمظلة والتاج على راسه •

ونعت جرجي بالسيد الأجل المرتضى عز الملك المظفر فخر الجلال نظام الرئاسة زعيم الجيوش شرف الوزراء أمير الأمراء • واوقف روجار على سير الملوك ، وأمر كاتبا من كتابه يعرف بالحنش فجمع له سيرة •

فلما كانت سنة ثلاث واربعين وخمسمائة عند اخذ المهدية بلغت شوانيه مائتي شيني ومائة طريدة ، غير الحمالة • فخرج جرجي في الأسطول بنفسه وفتح الجزائر التي بين المهدية وصقلية •ثم صار في ملكه من سواحل إفريقية ما بين أول طرابلس الى الحمامات بقرب تونس ، وفي البر الى قرب القيروان • واتسعت دولة روجار بتدبير جرجي • فلما وقع الغلاء في المغرب مع الفتن ، رحل إليه من الأمراء والقضاة والفقهاء والأدباء والشعراء عالم كبير ، فأوسعهم جرجي وروجار رفدهما وانزلاهم عندهما ، فعمرت الجزيرة أحسن عمارة وقصدها السفارة من كل البلاد بأنواع البضائع وطرف التجارة ، الى ان كانت سنة ست واربعين وخمسمائة ، مات جرجي الوزير وهو في التسعين • فأقر روجار ولده ميخائيل بن جرجي في الوزارة •

ثم مات روجار في العشر الأول من ذي الحجة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة .

جعفر بن محمد الكلبي الصقلي

(من المقفى للمقريزي ـ مجلدة برتو باشا)

جعفر بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي الحسين ،الكلبي ،الصقلي ، أمير صقلية •

كان من أمراء بني ابي الحسين بصقلية يتوارثون إمارتها مدة سنين واول من ولي منهم الحسن بن علي في سنة ست وثلاثين وثلاثمائة من قبل الامام المنصور بنصر الله أبي الطاهر إسماعيل بن محمد القائم بأمر الله بن عبيد الله (٣) المهدي الفاطمي •

ثم ولي بعد الحسن بن علي ابنه ابو الحسين أحمد بن الحسن ، ثم ابو القاسم علي بن الحسن بن علي ، ثم ابنه جابر بن أبي القاسم علي ، ثم جعفر بن محمد هذا •

وكان أبوه أبو عبد الله محمد بن الحسن قد قدم الى مصر مع المعز لدين الله ، ومات بالقاهرة. فلما مات المعز واستخلف من بعده ابنه العزيز بالله أبا منصور نزار بن المعز ، ونافق حمزة بن ثعلة الكتامي بأسوان في سنة ثمان وستين وثلاثمائة أخرج اليه جعفر بن محمد هذا ، فأخذه ودخل به القاهرة ومعه أمواله وجواهره ونعمه ، فلما قتل
أبو القاسم علي بن حسن أمير صقلية لعشر بقين من المحرم سنة اثنتين وسبعين في الجهاد،وقام من بعده ابنه جابر كتب قوم من أهل صقلية الى العزيز يعرفونه عجز جابر عن القيام بأمر صقلية • فأمر العزيز جعفر بن محمد هذا أن يمضي من مصر الى صقلية وعقد له بولايتها • وقد كان في رتبة ابيه من الوزارة والحال الجليلة • فخاف منه الوزير يعقوب بن كلس وأراد إبعاده ، فحسن للعزيز

ولايته صقلية وعرفه أن الثغر يتلف ما لم يله ، فتمت حيلته وولاه العزيز •

فخرج من القاهرة في البر ، ومعه خيل يسيرة فوصل الى مدينة المنصورية يوم الأربعاء لخمس خلون من صفر سنة ثلاث وسبعين وبين يديه عشرون فرسا بالسروج المحلاة المثقلة ، وخمسة بنود مذهبة وخمس عماريات ، ومه سبكتكين التركي فلقيه عبد الله بن محمد الكاتب وأنزله • فنادى مناديه في الناس بإعطاء الأرزاق السنية ، فأتاه جماعة من الناس فلم يحمل ذلك عبد الله ونادى :« من مضى الى جعفر بن محمد بن الحسن فقد حل دمه » • واخذ قوما سائرين نحوه فضرب أعناقهم • فرحل عند ذلك للنصف منه يريد المهدية ، ورحل معه عبد الله فأتته ثاني يوم وصوله خمسة مراكب حربية من صقلية بهدايا جليلة وعدة عظيمة بعث بها إليه ابن عمه جابر بن أبي القاسم • فركب فيها يوم الجمعة لليلتين بقيتا من صفر وسار الى صقلية فتسلمها من جابر بغير مدافعة واستقامت له أموره •

وكتب إليه العزيز في سنة خمس وسبعين يأمره أن يدفع الى الراهب الذي هو أبو جاريته السيدة العزيزية ، القلاع التي افتتحها جده الحسن علي بن بي الحسين، وأن يدفع إليه كل شيء عنده من قديم وحديث فقدم الراهب الى صقلية فأنزله جعفر ووكل به ومنع أن يدخل عليه أحد ، حتى إنه كان إذا عبر الحمام صحبه عدة من المسلمين حتى يدخل ويخرج فيردونه الى موضعه • فأقام على هذا نحو أربعة أشهر • ثم جمع له كل شيخ وعجوز وعليل من النصارى ودفعهم إليه ، وهم نحو مائة نفس وأمره بالرحيل ،(فأفلت وما صدق بنجاته) فمضى الى القسطنطينية ، وكتب الى العزيز بما كان فيه مع جعفر • وامر جعفر بعد مسير الراهب فاشترى مركبا اندلسيا وشحنه بطرائف الأندلس واظهر أن ابن أبي عامر بعثه إليه،

وكتب الى العزيز بأن صاحب الأندلس قد كتب إليه يدعوه الى طاعته ويعده أن يقطعه من الأندلس كل ما يسأله • فكتب إليه العزيز بأن

سلفه من بني أبي الحسين ما عرفوا قط إلا طاعته وطاعة أبائه ـ يحضه عليها ـ فبقي جعفر يداري أمره ، والقلاع بأيدي المسلمين ، فلم يرم أن مات في يوم (...) سنة خمس وسبعين وثلاثمائة فولي بعده أخوه عبد الله بن محمد.

تاج الدولة الكلبي

(من المقفى للمقريزي ــ مجلدة برتو باشا)

جعفر بن يوسف بن عبد الله بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي الحسين ،الكلبي ، أبو محمد ، ابن أبـي الفتـوح ــ ويقـال أبـي الفتح ــ الأمير تاج الدولة ، سيف الملة ابن الأمير ثقة الدولة ·

أحد أمراء صقلية المعروفين بـ« بني أبي الحسين »· قام بـأمر صقلية نيابة عن أبيه الأمير أبي الفتـح ثقـة الدولة يوسـف لما فلج وتعطل جانبه الأيسر في سنة ثلاث وأربعمائة ، فلقبه الحـاكم بـأمر الله منصور بن العزيز بـ« تاج الدولة وسـيف الملة » فـاستقر على ولايته ·

وفي آخر رجب سنة خمس وأربعمائة خالف عليه أخوه الأمير علي ابن يوسف ، فقتله بمعونة أخويه أحمد وحسن ·

ثم خرج أهل صقلية عن طاعته لظلمه وحصروه ، فخـرج إليهـم أبوه يوسف في محفة حتى ردهم عن محاربته ، وصرفه عنهم ، وولى عليهم ابنه تأييد الدولة أحمد الأكحل بن يوسف في سـادس المحـرم سنة عشر وأربعمائة ، وسيره من صقلية الى القـاهرة فقـدمها · وسار أبوه من بعده إليها بأموالها وكانت كثيرة جدا ·

جوهر الجدالي

(من المقفى للمقريزي ـ مجلدة برتو باشا)

اصله من قبيلة جداله احدى قبائل البربر في صحراء بلاد المغرب التي يخرج اليها من السوس الأقصى.

قدم مصر حاجا في عشر الخمسين واربعمائة ، ومر في طريقه بالسوس الأقصى على رجل يقرأ عليه مذهب الامام مالك وحديث النبي صلى الله عليه وسلم . فسمع منه فأعجب به . فلما عاد من الحج الى السوس قصد ذلك الفقيه . فلما سمع كلامه قال له : يا فقيه ، ما عندنا من هذا الذي تذكره شيء إلا الشهادتين والصلاة .

فقال له الفقيه : فاحمل معك من يعلمهم عقائد الاسلام وكمال دينهم . قال : فابعث معي أحد الفقهاء ، وعلي حفظه وبره واكرامه.

فأرسل معه فقيها من طلبته يقال له عبد الله بن ياسين فدخل الجوهر وعبد الله بن ياسين الى الصحراء ، وفيها قبائل ، منهم لمتونة ، وجدالة ولمطة ومسوفة وغيرهم ، فنزلا على قبيلة لمتونة ، وهي على ربوة عالية . فلما عاينا القبيلة نزل الجوهر عن جمله واخذ الجمل الذي عليه عبد الله بن ياسين ، تعظيما له .

وأقبلت أعيان لمتونة يتلقون الجوهر الجدالي ليهنئوه ـ كما جرت العادة ـ بالسلامة ، وكان من اكابر تلك الصحراء . فرأوه يقود ذلك الجمل فقالوا له : من هذا ؟

فقال : حامل سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد جاء يعلم أهل الصحراء ما يلزمهم في دين الله من الاسلام .

فرحبوا بهما وانزلوهما . ثم اجتمعت طائفة كبيرة من تلك القبيلة وقالوا : تذكر لنا ما أشرت اليه انه يلزمنا .

فقص عليهم عبد الله عقائد الاسلام وقواعده وبين لهم ، حتى فهم ذلك اكثرهم . ثم اقتضاهم الجواب فقالوا : اما ذكرت من الصلاة والزكاة فذلك أمره قريب ، وأما قولك : من قتل يقتل ، ومن سرق يقطع ، ومن زنى يجلد ، فأمر لاذلتزمه ، ولاندخل تحته . اذهب الى غيرنا !

فرحل عبد الله والجوهر عنهم ، والجوهر الجدالي يجر زمام جمل عبد الله بن ياسين . فنظر اليه شيخ كبير السن من لمتونة ، فقال : ارايتم هذا الجمل ؟ لابد أن يكون له في هذه الصحراء شأن يذكر في العالم .

وانتهوا الى جدالة قبيلة الجوهر ، فتكلم عبد الله بن ياسين فيهم وفيمن اتصل بهم من القبائل . فمنهم من سمع وأطاع ، ومنهم من عصى . ثم إن المخالفين لهم تحيزوا وتحزبوا . فقال عبد الله بن ياسين للذين اقبلوا عليه وقبلوا سنة الاسلام : قد وجب عليكم أن تقاتلوا هؤلاء المخالفين للحق ، الذين انكروا دين الاسلام واستعدوا لقتالكم . فألفوا لكم حزبا واقيموا لكم راية ، وقدموا عليكم أميرا . فقال الجوهر : أنت الأمير .

قال عبد الله : لايمكنني هذا ، إنما انا حامل أمانة الشرع واقص عليكم نصوصه ، وابين لكم طريقه ، واعرفكم سلوكه ، ولكن كن أنت الأمير ! فقال الجوهر : لو فعلت هذا لتسلط قبيلي على الناس وعاثوا في الصحراء ، ويكون وزر ذلك علي .

فقال عبد الله بن ياسين : فهذاابو بكر بن عمر راس لمتونة وكبيرها يفعل ذلك .

فأجاب . فعقدوا له راية وبايعوه بيعة الاسلام ، وتبعته زمرة من قومه وسماه عبد الله بن ياسين امير المسلمين ، وعادوا الى جدالة وجمعوا اليهم من امكن من الطوائف الذين حسن اسلامهم وسماهم عبد الله « المرابطين ».

وتألبت عليهم أحزاب من الصحراء معاندون من أهل الشر والفساد (فلم يقاتلهم المرابطون بل استعان ابن ياسين وأبو بكر بن عمر على اولئك الأشرار بالمصلحين من قبائلهم ، فاستمالوهم وقربوهم حتى حصلوا منهم تحت زرب عظيم وثيق نحو الفي رجل من أهل البغي والفساد) (٤) وتركوهم اياما بغير طعام. ثم أخرجوهم شيئا بعد شيء وقتلوهم عن آخرهم. ومن ذلك الوقت دانت لهم أكثر القبائل واستقام خلق كثير.

ولما ولي الأمر ابو بكر بن عمر استبد به دون الجوهر فداخل الجوهر الحسد وشرع في فساد الأمر سرا . فعلم ذلك ، وعقد له مجلسا وثبت عليه ما ذكر عنه فحكم فيه بأنه يجب عليه القتل لأنه نكث البيعة وشق العصا ، وهم بمحاربة أهل الحق . فقال الجوهر :« وأنا ايضا أحب لقاء الله حتى أرى ما عنده ».

ثم كثرت طائفة المرابطين ، وساروا لقتال الفرنج فقتل عبد الله ابن ياسين ، وذلك في عشر الستين وأربعمائة . ثم جمع ابو بكر بن عمر قبائل السوس حتى اخذ مدينة سلجماسة ، وولى عليها يوسف ابن تاشفين اللمتوني ، من بني عمه ، وعهد اليه من بعده . فلما مات أبو بكر ، خلفه يوسف بن تاشفين ، ودعي بأمير المسلمين . فافتتح بلاد المغرب شرقا وغربا بأيسر سعي ، وبنى مدينة مراكش . ثم أخذ المعتمد بن عباد ملك الأندلس . ثم مات فقام من بعده ابنه علي بن يوسف ، ثم اسحاق بن علي بن يوسف . وقتل اسحاق سنة اثنتين واربعين وخمسمائة ، وانقضت دولة الملثمين التي أنشأها الجوهر الجدالي بقيام دولة الموحدين على يد محمد بن تومرت.

الوزير اليازوري

(من المقفى للمقريزي - مجلدة برتو باشا)

الحسن بن علي بن عبد الرحمن ، ابو محمد اليازوري ، الوزير الأجل الأوحد المكين ، سيد الوزراء وتاج الأصفياء ، قاضي القضاة وداعي الدعاة ، علم المجد ، خالصة امير المؤمنين ، الناصر للدين .

كان ابوه من أهل ضيعة من ضياع فلسطين يقال لها «يازور» ، وله بها حال متسعة كبيرة . فلما اتسعت حاله ، وكثر ماله ، انف من المقام بها وتحول الى الرملة وسكنها فشهر بها . وعرف بالصدق في القول وسماحة النفس ، فتقدم الشهود بها ، ورد اليه قضاء اكثر اعمال الرملة . ونشأ له ابنان اصغرهما الحسن هذا . فخلف أخاه القائم بعد أبيه ، واربى على ابيه وأخيه في حسن الطريقة وجميل السيرة وشرف الأعلاق .

واتصل بخدمة خيرة جارية الوزير علي بن احمد الجرجرائي فأحسنت اليه واعتنت به ومنعت من التعرض لصرفه من الحكم الى ان توفيت ، فصرف عن الحكم .

وقدم الى القاهرة وتلطف بكثرة مداخلته وتوصل الى خدمة السيدة أم الخليفة المستنصر وواظب خدمتها وخدمة حواشيها ولازم بابها للسعي في عوده الى الحكم بفلسطين . وصار يتردد الى الوزير ابي نصر صدقة بن يوسف الفلاحي حتى اختص به وافضى اليه بما يجده من استبداد أبي سعد سهل التستري بأمور الدولة وما يلقى من امتهانة له ، فيشاركه في التدبير عليه ويلقنه من ذلك ما يجد

به سبيلا الى المكر به . فنفر منه أبو سعد ومقته وهم بالايقاع به ، فعوجل وقتل ، واليازوري مع ذلك يتردد الى قاضي القضاة وداعي الدعاة قاسم بن عبد العزيز بن النعمان ولاينقطع عنه ليرده الى الحكم ببلده . ففهم القاضي سوء راي ابي سعد التستري فيه فانحرف عنه ولم يلتفت اليه . واستمر عليه لهذا بعد قتل ابي سعد.

فاتفق ان قاضي القضاة حضر يوما بباب البحر، احد ابواب القصر، على عادته في كل اثنين وخميس ، وجلس ينتظر خروج السلام اليه ، وجلس معه من الشهود من جرى رسمه بذلك ، فدخل اليازوري وجلس معهم فالتفت اليه القاضي وقال له . بأمر من جلست ههنا ؟ اتظن ان المجالس كلها مبذولة لكل احد أن يجلس فيها ؟ لهذا مجلس لايجلس فيه الا من اذنت له حضرة الامامة وشرفته به . اخرج ، فوالله لاتصرفت على ايامي ابدا.

فخرج ورجلاه لاتكادان تحملانه ، ووقف على باب البحر الى أن خرج قاضي القضاة ، فسار في أعقابه وسبقه ووقف بباب داره ، فلما نزل صقع (٥) له استعطافا لئلا يريه أنه وجد من كلامه ، فلم يعره طرفه ودخل ، فانصرف اليازوري . ولقيه القاضي ابو عبد الله محمد بن سلامة القضاعي خليفة قاضي القضاة فقال له : ياأبا محمد ، قد كان يجب أن لاتريه وجهك عقيب ما جرى لك معه اليوم .

ثم انصرف عن القضاعي واقبل على ابي عبد الله احمد بن محمد ابن ابي زكريا خليفة قاضي القضاة فخاطبه بأجفى من خطاب القضاعي له . فتركه وقد عظم همه .

ووافى منزله فوجد قد حضر اليه من ضياعه ثلاثون حملا من التفاح لتباع بمصر ، فأنفذ منها خمسة احمال الى الوزير الفلاحي ، وبعث لقاضي القضاة خمسة احمال وللقائد الأجل عدة الدولة رفق خمسة احمال ولابن ابي زكريا ثلاثة احمال وللقضاعي خمسة احمال ، وفرق حملين على حواشيهم ، وكان ثمن هذه الأحمال يبلغ جملة ثلاثمائة دينار فلم يلتفت احد منهم اليه ولاعطف

عليه .. (٦) ولاتقدم منا اليه مــن الجميل مــا يوجــب أن يكافــئنا عليه . وهذا رجل حر له مروءة توجب أن نصطنعه ونحقق حسن ظنه بنا .

وركب اليازوري من الغد ووقف عند باب البحر فلما اقبل رفق من داره يريد القصر تلقاه وسلم عليه ، فأكرمه ورحــب بــه وســأله عن حاله ، ثم دخل الى القصر وقضى حق الخدمة وخــرج فوجده واقفــا على حاله. فسلم عليه. وسار معه الى داره حتى وصل اليها ، فانثنى اليازوري راجعا. وأقام على ذلك اياما.

فخف على قلب رفق ، وقويت رغبته في اصــطناعه . وصــار اذا وصل الى داره أمــر اليازوري بالنزول معــه ، فينزل ويجلس معــه ويحادثه ، وكان حلو الحديث فــكه المحــاضرة . فــأطال جلوســه معه ، وبقي رفق اذا غاب عنه يشتاق اليه ، واذا هــم بــالقيام عنه امسكه الى ان تحضر المائدة ، واكثر منه حتى عد من خواصه .

ولما ضجرت أم المســتنصر مــن عرض خــدمتها على ابــي نصر ابراهيم أخي ابي سعد سهل التستري ، وامتناعه ، حتى وقفــت امور خدمتها وبقي بابها مغلوقا مدة ثلاثة اشهر ، قال رفق في بعض الأيام لليازوري ، وقد افضى به الحديث الى كثرة رغبة الســيدة أم الخليفة في أبي نصر وامتناعه : إني أرى رايا ، فما عندك فيه ؟

قال اليازوري : ما هو ؟
قال : تكتب رقعة تلتمس خدمة السيدة وتعرض نفسك عليها .
فقال اليازوري : كنت اظن جميل رايك في وإيثارك مصلحة حالي فاكذبني ظني .
فقال : بماذا ؟

قال : لهزئك بي . فاني قد اجتهدت في العود الى قرية كنت فيها فبخل علي بها . فــكيف إذا تعــرضت لهــذا الأمــر الكبير ومناواة الوزراء ؟
فقال له : اما ترضى بي سفيرا لك في هذا الأمــر وعلي اســتفراغ

الوسع لوجوب حقك علي ؟ فإن قضت الأقدار ببلوغ الغرض في ذلك، فقد ادركنا ما نؤثره . وإن تكن الأخرى ، فعلى أكثر من العطلة ما نحصل .

فاستجاب الى ذلك ، وكتب رقعة يعرض نفسه وماله على السيدة ، ويخطب خدمتها ويبذل الاجتهاد فيها . فأخذ رفق الرقعة وركب من الغد الى القصر ، ودخل الى السيدة وقد أحضرت أبا نصر وعاودته في الخطاب وهو على حاله من الامتناع الى ان اضجرها. فانتهز رفق الفرصة بضجرها وقال : يا مولاتنا قد طال غلق بابك ووقوف خدمتك وكثرة امتناع الشيخ أبي نصر مما تريدينه منه . وههنا من أنت تعرفينه ، وهو رجل مسلم وقاض ، وكثير المروءة ، وهو مستغن بماله واملاكه عن التعرض لمالك ، وهو ثقة ناهض كاف .

فقالت: من هو؟
فقال القاضي أبو محمد اليازوري وهذه رقعته ، فأمرته بتسليمها الى أبي نصر. وقالت: ما تقول فيه؟

فلم يصدق بذلك وقال: يامولاتنا ، هو والله الثقة الأمين الناهض الذي يصلح لخدمتك ، وفيه لها جمال ، وما تظفرين بمثله .
فوقع ذلك منها بالموافقة لما كان في نفسها من الغيظ بامتناعه عليها ، وقالت لرفق : قل له يجلس في داره غدا الى أن انفذ اليه .
فسر رفق بذلك سرورا كبيرا وخرج ، فرأى اليازوري فقال له : أقمح أم شعير ؟
قال : بل بر يوسفي ــ وقص عليه وقال له : اغد الى دارك فلا حاجة الى الاجتماع اليوم ، واذا كان الغد فاجلس حتى يأتيك رسول السيدة .

ففعل ، وجاء من الغد الرسول يستدعيه . فركب الى باب السيدة وقد جلست له وراء المقطع ، وردت اليه امر بابها والنظر في ديوانها الذي هو باب الريح ، فبلغ ذلك الوزير أبا نصر صدقة بن يوسف الفلاحي فشق عليه كون هذا الأمر لم يكن على يده مع علمه

انه لايقدر عليه ، فإن السيدة لم تكن تسمع قـوله لما في نفسـها منه بقتل ابي سعد ، ولم يسعه الا المجاملة . واستدعى امراء الاتراك وامرهم بالمضي اليه وتهنئتـه ، فلمـا دخلوا على اليازوري تلقـاهم واعظمهم لسـعيهم اليه ، وعندمـا هنؤوه شـكرهم واثنى عليهـم وقال : ما انا الا خادم ونائب لموالي الأمراء . اسأل في تشريفي بما يعن لهم من خدمة انهض فيها وابلغ الغرض فيما يرسمون .

فنهضوا ، وقام لوداعهم واتوا الى الوزير (الفلاحي) واعلمـوه بما كان من اليازوري ، فقلق لذلك . ولم تـطل الايام حتـى قبض على الوزير وقتل ، واقيم بعده في الوزارة ابو البركات الحسين بـن محمد الجرجرائي . فأقبلت حال اليازوري تـزيد ومنزلتـه تـرتفع وامره يتأكد وخلعت عليه السيدة خلعة ثانية ، ولقب بـالمكين الأمين عمدة امير المؤنين . وامرته أن لايقوم لأحد ، فان خـدمته لاتقتضي اعظام احد اذا دخل اليه . فـكان يعتـذر الى مـن يأتيه مـن الجلة الرؤساء والاكابر عن ترك القيام ويقول : لو ملكت اختياري لبالغت في تكرمتكم بما تستحقونه ـ الى أن تمهد عذره في ذلك ، مـا خـلا القائد الأجل عدة الدولة رفق الذي كان سفيره : فانه كان اذا اقبـل اليه وثب قائما ووفاه حقه مـن الاعظـام فبلغ ذلك السـيدة فقـالت له : لاتتحرك لأحد بالجملة !

فكان بعد ذلك اذا جاء ، يعتذر اليه فمـكث كذلك مـدة ، وحـاله اخذة في الترقي ورئاسته تزداد اجلالا الى أن صـار يحضر بحضرة الخليفة المستنصر اذا اراد ان يستدعي الوزير كما كان قد تقرر لأبي سعد التستري مع الوزير الفـلاحي فشـق هـذا على الوزير ابـي البركات . وذلك انه كان اذا حضر اليازوري عند المستنصر تحـدث طويلا ، وتكون السيدة من وراء المقـطع فيدور بينهـم الكلام فيمـا يحتاج ثم تستدعي الوزير ابي البركات فاذا دخل وعرض ما يريد من امور الدولة لايجيبه الا اليازوري ، ثم يلتفت الى الخليفة بعـد مـا يجيب الوزير ويقول : اليس هو الصواب ؟

فيقول الخليفة : نعم .

ويخرج الرسول من وراء المقطع ويقول عن السيدة : هو الصواب . فصار الوزير كأنه انما يعرض على اليازوري لاعلى الخليفة والسيدة،ولايقدر على الاعتراض فيما يقوله ولايجد بدا من امتثال ذلك .

فشق عليه ما صار اليه واخذ في اعمال الحيلة فأشار عليه ابو الفضل صاعد بن مسعود أن يحسن للخليفة تولية اليازوري القضاء ، فاذا تقلد القضاء وقع في هور كبير وشغله عن ملازمة السيدة فيصل الوزير حينئذ الى استخدام ولده مكان اليازوري ، ويستوي له الأمر ويملك جهتي السلطان والسيدة .

فاتفق حضور قاضي القضاة قاسم بن عبد العزيز بن النعمان عند الوزير وتقلقة من خليفتيه ابي عبد الله محمد القضاعي وابي عبد الله احمد بن ابي زكريا وشكوى المذكورين من قاضي القضاة مع توعك ابي محمد اليازوري وتخلفه في داره اياما فخلا الوزير بالخليفة واعاد عليه ما ذكره كل من القاضي وخليفتيه وشنع أمر قاسم وقبحه . فقال الخليفة : فمن نستبدل به ؟

فقال : عبيدك كثير ، وبين يديك من يتجمل الحكم به مع ثقته وأمانته وقربه من خدمتك.

فقال : ومن هو ؟

قال: القاضي ابو محمد.

قال :ذاك في خدمة مولاتنا الوالدة ، ولاتفسح له في ذلك

فقال: ياأمير المؤنين هي ـ خلد الله ملكها ـ اغير على دولتك واحسن نظرا اليها من ان تحول بينها وبين ما يجملها ومع هذا فلم ينقل مما هو فيه الى ما هو دونه ، بل الى ماهو أوفى منه .

فأجاب الى ذلك وقام وقد استقر لهذا وتم له ما أراده ، وشرع في الحال في كتابة سجله واعداد الخلع له ليخلع عليه في غد ذلك اليوم خوفا من نقض ما استقر .

وبلغ ذلك كله القائد رفق فأنفذ الى اليازوري وقص عليه الخبر وقال له : تلطف في امرك كما تريد ـ فعظم هذا على اليازوري وخاف

من ابعاده عن خدمة السيدة ، فانها كانت اجل الخدم واوفاها واسناها محلا واغناها : فان كل من كان في الدولة من وزير وامير وغيرهما محتاج اليه .

فلما كان مع عشاء الآخرة حمل على نفسه وهو محموم ، وركب الى باب الريح ، ودخل وأعلمها مكانه، فأكبرت حضوره في مثل ذلك الوقت مع ماتعلمه من توعك بدنه ، فخرجت وراء المقطع وسألته عن حال مرضه وما الذي دعاه إلى العناء في هذا الوقت على ماهو عليه ، فرمى نفسه بين يديها وقص عليها القصة كلها وقال : إنما الغرض إبعادي عن خدمتك وحرماني السعادة التي الحقتني بها ليقع التمكن مني .

قالت : وما الذي تكره من ذلك ؟

فقال : يامولاتنا ، هور الحكم واسع ، وأحوال قاضي القضاة قاسم بن النعمان فيه مشهورة ، ولو كانت جارية على النظام المستقيم لشغلت عن خدمتك ، فكيف والحاجة داعية إلى تجديد إصلاحه وإحكام نظامه ، وفي هذا شغل كبير ؟

فقالت : لايضيق صدرك بهذا الأمر ، فبابي لك ، وخدمتي موفورة عليك ولاأستبدل بك أبدا .

فقال : يامولاتنا ، قد قدمت القول إن هور الحكم كبير واسع ، واشتغالي به يحول بيني وبين ملازمة بابك .

فقالت : خلفاؤك في الحكم ، القضاعي وابن ابي زكريا هما ينفذان من الاحكام مايجوز تنفيذه . فإذا تحررت الأحكام نزلت ففصلت ذلك ، وقرر لنزولك يومين في الجمعة لفصل الأحكام . فإذا نزلت كان ولداك ينوبان عنك في تنفيذ أمور خدمتي . وهذا التقرير لايغلبك فعله.

فقبل الأرض لها ودعا وشكر وانصرف .

فلما كان في غد ذلك اليوم وهو الثاني من المحرم سنة إحدى واربعين واربعمائة ، استدعي إلى حضرة أمير المؤمنين وخلع عليه وقرىء سجله في الايوان ، وخرج والدولة بأسرها بين يديه ، فأقام في تنفيذ

الاحكام عدة ايام وولداه ينوبان عنه في بـاب الريح . وجعـل الوزير يبعث للسيدة من يطارحها في ذكر بـابها ويعـرض لهـا بـذكر ولد الوزير . فقالت : وما هو الأمر الذي يعجز ولدا القاضي أبي محمـد عنه ، وقد لقنا فعل ابيهما وفهما منه مايحتاجان إليه ، ومع ذلك إلى ان يجيء ابوهما ، وما كنت بالذي يستبدل به بوجه ولاسبب .

فلما سمع ذلك الوزير ابو البركات ، اسقط في يده وقـال : أردنا وضعه ، والله تعالى يريد رفعه .

فقال له أبو الفضل صاعد : أما إذا جرى الأمر بخلاف مـا ظنناه واملناه ، فليس إلا مجـاملة الرجـل ومـواثقته على السـلامة ، فتواثقاوتعاهدا . وصار لايسلم على الوزير ولايجتمعان إلا يومـا في الشهر ، يحضر إليه في داره . فإذا صار إليه احتجب الوزير عن كل احد ، وخلا به ، وبالغ في إكرامه ، وهو في الباطن يدبر عليه ، فكفاه الله امره ، وقبض عليه وشغرت رتبـة الوزارة عدة ايام ، والسـيدة تعرضها على اليازوري وهو يمتنع . فأقيم أبو الفضل صـاعد وخلع عليه وعمل واسطة لاوزيرا فصار إذا أحب أن يعرض على الخليفـة أمرا مما يتعلق به يتقدم اليازوري إلى الحضرة ، ثم يستدعي بـأبي الفضل ، فإذا عرض ما أحب لايجيبه إلا اليازوري ، فصار في نفسه منه مثل ماكان في نفس غيره من الوزراء . واقبل ينصب عليه ويحمل الرجال على مكروهه ويوهمهـم أنه إذا سـأل لهـم زيادة أو ولاية ، يعترضه اليازوري بما يبطل رايه ويفسده . فـاستدعى ناصر الدولة حسين بن حمدان بعض خواص اليازوري وقال له : اعلم أن القاضي له من الثناء الجميل كثير ، ونحن شاكرون له ، معتـذرون بجميله ، مفتقرون إلى جاهه في جميع امورنا .وأعتقاؤه من هذا الأمر لايبرئه من ذمنا إن وقفت حوائجنا ، ويكون الشـكر فيه لغيره إن قضيـت . وهذا الرجل عميد الملك هوذا يحمل الرجال عليه ويشعرهم أنه يجهد في قضاء حوائجهم ، وانه يعترضه بما يبطلها عليهم ، وفي هذا الأمر ما يعلمه . فقل له عني : ياسيدنا ، أما إذ تريد شكر الرجال وسلامة صدورهم لك وخلاص نياتهم في طاعتك ، فادخل في هذا الأمـر . فإن احسنت عرفوا ذاك لك وشـكروه منك ، وإن اسـأت كان لك ضرره

وشره . وإلا فاعتزل جانبا ولاتلعب بروحك مع الرجال لئلا يتلفك ابو الفضل . وإن اذن لي في المثول بحضرته ذكرت له ذلك .

فلما بلغ هذا لليازوري قال له : امهلني الليلة وبكر إلي .

فبكر إليه وهو خال فقال له : اعد علي قول ناصر الدولة .

فأعاده فقال : اقره عني السلام وقل له : والله إلا ادخل فيه ويكون لي خيره وشره !

فأبلغ ذلك ناصر الدولة ، فقال : هذا هو الصواب .

فلما كان بعد يومين قرئ سجله بالوزارة ولقب بالوزير الأجل ، الأوحد ، المكين ، سيد الوزراء ، وتاج الأصفياء ، وقاضي القضاة ، وداعي الدعاة ، علم المجد ، خالصة امير المؤمنين ، وخلع عليه في اليوم السابع من المحرم فنظر في الوزارة ، ومضى فيها مضي الجواد ، ونهض مسرعا بنهوض غبر به في وجوه من تقدمه .

وكاتب ملوك الأطراف فأجابوه بما يليق بقدره ووفور حقه من الرئاسة ، ما خلا معز بن باديس صاحب إفريقية ، فإنه قصر به في المكاتبة عما كاتب به من تقدمه من الوزراء ، وكان يكاتب كلا منهم « بعبده » ، فجعل مكاتبته « صنيعته » . وكان لابن باديس بالقاهرة نائب ، فاستدعاه اليازوري وعتب صاحبه وقال له : أظنه انتقصني عمن تقدمني إذ لم اكن من اهل صناعة الكتابة . وإن لم اكن اوفى منهم ، فما اكون دونهم . ومن رفعه السلطان ارتفع و إن كان خاملا ، ومن وضعه اتضع وإن كان جليلا نبيلا ، فاكتب إليه بما يرجعه إلى الصواب .

فكتب إليه بذلك ، وقد اذكى اليازوري عليه عيونا يطالعونه بما يتفوه به ، فلما وقف ابن باديس على كتاب وكيله قال : ما الذي يريد مني هذا الفلاح ؟ اكتب له « عبده » وهو اكار ؟ والله لاكان هذا أبدا ! وإن الذي كتبت به إليه لكثير .

فطالعه عيونه بقول ابن باديس . فأحضر الوكيل وقال له : قد جرى صاحبك على عادته في الجهل . فاكتب إليه بما يردعه ، وإلا عرفته بنفسي إذ لم يعرفني .

فكتب إليه بذلك فأجاب بأقبح من الأول . فدس اليه اليازوري من تلطف حتى أخذ سكين دواته . فلما وصلت إليه احضر الوكيل وقال له : قد كنت اظن بصاحبك أن الذي حمله على ما كان منه نزوة الشبيبة وقلة خبرة بما تقضي به الأقدار ، وانه إذا نبه تنبه . فإذا الجهل مستول عليه ، وظنه بأن بعد المسافة بيننا وبينه يمنع من الانتصاف منه ، والوصول إليه بما يكره . وقد تلطفنا في اخذ سكينه من دواته ، وهاهي ! فأنفذها إليه وأعلمه انا كما تلطفنا في اخذها فإننا نتلطف في ذبحه بها ـ ودفعها إليه ، فكتب الوكيل بذلك إليه فازداد شرا وبطرا وطغيانا . فدس إليه من أخذ نعله ـ وكان يمشي في الأحذية السندية ـ فلما وصلت احضر الوكيل وأعلمه بما انتهى إليه من جهل صاحبه ، وقال : اكتب إلى هذا البربري الأحمق وقل له : إن عقلت واحسنت ادبك ، وإلا جعلنا تأديبك بهذه

فكتب إليه ، فجرى على عادته في إطلاق الكلام القبيح ، فتشمر له حينئذ اليازوري ، وبعث مكين الدولة الحسن بن علي بن ملهم ، أحد الأمراء ، إلى طرابلس المغرب ، وبها من العرب زغبة ورياح وقد حدثت بينهما حروب ، فسار إليهما بخلع كثيرة واموال وافرة ليصلح بينهما . فتحمل ماكان بينهما من الدماء ، ودفع إليهم الديات ، وزاد في إقطاعاتهم . وبعثهم على محاربة إفريقية وابساحهم ديار ابن باديس،وقام في هذا قياما عظيما حتى سار المذكورون واستولوا على اعمال القيروان وضايقوا ابن باديس وحصروه إلى أن نفدت أمواله وقلت عدده،وتفلت منه رجاله واشرف على التلف ففر بحشاشته في زي امرأة من القيروان إلى المهدية ، وترك حرمه وداره وأمواله وغلمانه . فأخذ العرب المدينة وقتلوا الرجال وسبوا النساء ونهبوا ماكان في قصوره وجالوا في المدينة وأخربوها . وحمل ما نهب إلى القاهرة من الآلات والأسلحة والعدد والخيام ، وكان لدخول ذلك يوم عظيم .

وكان في البحيرة طائفة يقال لها بنو قرة قد اقتطعوها وملكوها وعمروا ضياعها ، واشتدت شوكتهم ، وخشن جانبهم وعظم امر

مقدميهم حتى انتشر ذكرهم وذل لهم عدوهـم وثقـل أمـرهم حتـى (على) ولاة الاسكندرية ، واجتمع معهـم الطلحيون فصـاروا يدا واحدة . وكانت لهم واجبات على الدولة ، ولم يكن لهم إقطاع ، بـل كان مايستحقونه من واجباتهم يحمـل مـع واجبـات العسـكر بالاسكندرية إلى الوالي فينفقه فيهم . وكان الوالي بـالاسكندرية في سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة ناصر الدولة حسين بـن حمـدان والد ناصر الدولة الثائر بالقاهرة على المستنصر . فلما انقضت سنة اربع وأربعين وأربعمائة استحق الطلحيون على الدولة عن واجباتهم ثلاثة الاف دينار ، فـواصلوا اقتضـاء ناصر الدولة إنفـاقها فيهـم ، فوعدهم ، وكتب إلى الحضرة يلتمس لهم ذلك . فوعده الوزير انه إذا حمل إلى رجال العسكر استحقاقاتهم حمل ذلك في جملته ، وكان قد بقي لحمل المال مدة شهرين ، فـاستبعدوا الصـبر إلى ذلك الوقـت وواصلوا مطالبته ، وحملوا بني قره على معونتهم عليه ، فاضطهدوه والزموه بالمسير معهم ومع جيرانهم الطلحيين إلى الحضرة لالتماس ذلك . فلم يجد بدا من إجابتهم ، وسار معهـم إلى الجيزة وطلع إلى الوزير وعرفه الحال . فقال : ما اخـرنا ذلك عنهـم إلا لأن السـنة كثيرة النفقات والطوارىء . ولكن هذه الف دينار ، فخذها وانفقهـا فيهم إلى أن نحمل باقي مالهم مع مال العسكر .

فأخذ الألف وعاد إليهم وعرفهم ما قال الوزير . فامتنعوا من أخذ الالف ، وذكروا أنهم قد تعبوا وكلفوه المسير معهم ولايرجعـون إلا بعد قبض الثلاثة الاف . والزموه بالعود . فعـاد وعرف الوزير مـا كان منهم . فغضب وامر لهم بألف أخرى وقال : قد ذكرنا لك انا لم نؤخر عنهم ذلك إلا لضيق الحال وانتظار ما يصل من الريف فنحمـل إليهم باقي استحقاقهم . ولم يبق الآن إلا الف ، ونحن نحمل اليهم ذلك بعد هذا .

فعاد اليهـم ناصر الدولة ، فـأبوا إلا اخـذ الجميع ، وانهـم لايبرحون من مكانهم إلا بجميع مايستحقونه وجفـوا في الخـطاب . فعاد الى الوزير وعرفه ما كان منهم. فاشتد غضبه وقال: اجـابتهم

الى ماالتمسوه دفعة بعد أخرى طمعهم. ووالله لاأطلقت لهم درهمــا واحدا! ــ واستعاد الألفي دينار من ناصر الدولة ، وتقــدم بتجــريد العسكر لهم. فتسرع من خذف مع يمن الدولة كافور الشرابي وساروا اليهم ، اذا بهم متأهبين للقائهم ، فجرت بينهم نوبة قتل فيهــا اثنان من العسكر ، وحال بينهمــا الليل. فلمــا بلغ ذلك الوزير عظــم عليه اقدامهم على العسكر ، سيما بني قرة ، فانهم كانوا أشد حربا مــن الطلحيين.

وكان بالقاهرة من مقدميهم ثلاثة نفر ، وهم ضيوف مــكرمون ، فأشير على الوزير بقبضهم ليكف عادية باقي بني قرة • فــاستدعى صاحب الستر سيف الدولة مبشر ، ومتولي الشرطــة ســنان الدولة ابن جابر ، ومتولي الصناعة عظيم الدولة عطــاء ، وأمــرهم بــأخذ الثلاثة ليلا وتسييرهم تحت الحفــظ والحــوطة الى الجيزة والتحيز بهم عن العسكر الى حيث يأمنون على انفسهم ، وتخلية ســبيلهم • ففعلوا ذلك • وأصبح الناس وقد علموا بمضيهم • وكلموا الوزير في ذلك فقال : قبح السمعة في القبض عليهم وهم في ضيافتنا منعني من ذلك • فهم في هذه الحال كالحــرم • فلم اســتجز فعــل ذلك ، بــل اطلقتهم ، ووالله لا اخذتهم إلا من ظهور دوابهم !

فقال شخص من الأكابر يعرف بعجلان بن مطر اللواتي • قد فعل هذا الوزير شيئا لم يسبقه إليه احد ، مــن إطــلاق هؤلاء القــوم ، واستحيى فيهم بما فعله • ووالله ليظفرن بهم لأن هذا تقليد البغي ، فإن كان فيهم بعد ذلك كائن فالدائرة عليهم •

فكأنما نطق بالغيب : فإنهــم تشــمروا عند وصــول الثــلاثة الى الحاجر ونزلوا به • واخذ الوزير يجر العساكر لهم حتى كمل له مــا أراد ، وسيرها وقد تجمعت حشود بني قرة • فالتقوا بــكوم شريك فكانت الدائرة عليهم وقتــل منهــم خلق كثير وانهــزموا • فتبعهــم العسكر ظنا أنهم يعــودون الى اللقــاء ، فلم يثنهــم شيء عن قصــد برقة ، وأسلموا أموالهم وكل ما في أيديهم للنهب ، ففاز به العســكر وغنموه ، وانقلعت شــأفة بني قــرة والطلحيين مــن البحيرة ، الى

اليوم ، وبقوا مشردين مطردين يجاورون العربان على اقبح صورة اربعين سنة ٠

وقد كان الوزير لما اخرج العسكر لقتال بني قرة ، فذد أهل الدولة رايه ، وحكموا انهم لاينتقلون من البحيرة ابدا لقوة بأسهم وشدة شوكتهم ولائتلافهم بالطلحيين ٠ فأكذب جميل فعله ظنهم ٠ ثم إنه رأى في كون العساكر في أعمال البحيرة كلفة كبيرة ٠ فنقل بني سنبس من الداروم بفلسطين ، وكانوا قد ثقلت وطأتهم بتلك الأعمال وصعب أمرهم ، فسدّى بهم الى البحيرة ، وهم أعداء قيس ، واوطأهم ديارهم واقطعهم ارضهم ، فامتحى اسم بني قرة ٠

وكان تجهيزه العساكر لبني قرة في شهر رمضان سنة ثلاث واربعين واربعمائة ، وتسييرهم في مستهل شوال ٠ فخطأه الناس كلهم وغلطوه في فعله وحكموا بانه لم يجرد قط عسكر في شوال فظفر ، وانهم لايأمنون على العسكر ان يهزم وينكسر ٠ وكان يمن الدولة له زم القصور والخدمة في الرسالة ، وهو ايضا زمام الأتراك والقيصرية ، وليس في الدولة من يجري مجراه جلالة ، وبينه وبين الوزير مباينة شديدة ، ويتوقع له الشر ويتربص به الدوائر ٠ فصار ينتظر انهزام العسكر ليقبض عليه ، والأقدار تؤيده بالسعادة العظيمة ٠ فلما أراد ان يسير العسكر من الجيزة رتب على الميمنة سنان الدولة بن جابر ، وعلى الميسرة حصن الدولة حيدرة بن منزوي ، وجعل في القلب ناصر الدولة بن حمدان ، وهو المقدم عليهما. وقرر معه أن يكون اللقاء في يوم الخميس الخامس من شوال ،بطالع تخيره له ٠ وبعث معه عدة من طيور الحمام ليطالعه بما يكون منه ومنهم يوما بيوم ٠ فلما كان اليوم الذي تقرر فيه اللقاء ، جلس الوزير في داره وهو شديد القلق كثير الاهتمام بأمر العسكر ، واحتجب عن الناس لشغل سره بهذا الأمر ٠ وجلس ينتظر سقوط الطائر بما يكون ٠ فلم يزل كذلك الى الساعة الخامسة من النهار ٠ فقام ليجدد طهارته وعبر بالبستان وقد أطلق الماء في مجاريه ، فرأى ورقة تمر على وجه الماء فأخذها متفائلا بها فوجدها

أول كتاب كان وصل من القائد فضل الى الحاكم بأمر الله ، قد ذهبت طرته وعنوانه وبقي صدره ، وهو : كتب عبد مولانا الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين من المخيم المنصور في الساعة الخامسة من نهار يوم الخميس الخامس من شوال ، وقد اظفره الله عز وجل بعدو الله تعالى وعدو الحضرة المطهرة أبي ركوة المخذول • وهو في قبضة الاسار ، والحمد لله رب العالمين •

فلما وقف على ذلك سجد الى الأرض شكرا لله تعالى واستشعر الظفر وعجب من موافقة اليوم وعدة الأيام من شوال والاعلام بالظفر • ثم تجهز للصلاة ، فما فرغ حتى سقط الطائر بانكسار بني قرة وانهزامهم وبما من الله تعالى به من الظفر بهم • فأخذ الكتاب والورقة التي وجدها في الماء وركب الى القصر ودخل الى الخليفة المستنصر بالله وأوقفه على الكتاب ، فسر وابتهج • وأراه الورقة التي وجدها في الماء وقال : هذا أعجب يا أمير المؤمنين ــ وحدثه حديثه •

فعجب من هذا الاتفاق ثم تواصلت الأخبار من ناصر الدولة بالبشرى وشرح الحال في الظفر وانهزام القوم • فخلع على الوزير ، وزيد في ألقابه : الناصر للدين ، غياث المسلمين • فقوي أمره ، وذل خائب أعدائه ، وعادوا يتقربون إليه بالخدمة ، فأغضى عنهم ولم يؤاخذ أحدا منهم • وقدمت الرؤوس ممن قتل وأموال كثيرة من أموال اهل البحيرة •

فلما خلا سر الوزير من اهل البحيرة ، نظر في امر مدينة صقلية فإن اهلها كانوا اعلنوا خلافهم ، وكاتبوا ابن باديس صاحب إفريقية وملكوه عليهم ، فأساء فيهم السيرة • فثاروا به واخرجوه وكاتبوا ملك الروم فبعث إليهم بطريقا فحكم فيهم مدة ، فلم يصبروا له ووثبوا به وأخرجوه عنهم ، وبعثوا إلى المستنصر يطلبون عفوه ويستصرخونه فكتب الى مستخلص الدولة الكلبي ابن ابي الحسين ، فوليهم مدة • ثم بعثوا يشكون منه ، فسير الوزير صمصام الدولة ابن لؤلؤ ، احد الأمراء ــ وكان رجلا عاقلا ــ ومعه

خلع نفيسة وامره ان يصلح ذات بينهم ، فإن رضوا بأبن ابي الحسين خلع عليه وقرأ سجله بتجديد ولايته •

وإن امتنعوا من الطاعة له ، لبس هو الخلعة وقرأ سجلا كتب له بولاية صقلية ، وأن يتلطف في إخراج بني أبي الحسين من جزيرة صقلية ويحملهم الى القاهرة. فسار الى صقلية وتحدث في الصلح • فامتنعوا من ذلك ولم يجد فيهم حيلة فاظهر سجله ولبس خلعته فرضوا به • واخرج جميع من كان بصقلية من بني ابي الحسين ، وهم زيادة على ثلاثين رجلا ، وخلت منهم • فاستقام أمره •

وبعث الوزير رسله الى اليمن ، وقد ثار فيها علي بن محمد الصليحي • فما زالوا به حتى دخل في طاعة الدولة وبعث النجاوى الى القاهرة ، ومعها هدية جليلة تبلغ عشرة الاف دينار • فجاء من ذلك ما ليس في المظنون ولم ير مثله فيما تقدم •

ثم إنه عطف على النوبة واضعف عليهم البقط فحملوه واستمر بعده وكانت الهدنة قد انعقدت مع الروم في وزارة أبي نصر الفلاحي ، وقدم من قبلهم رسولان ، أحدهما يعرف بابن اصطفانوس هو المتكلم ـ وكان داهية اديبا شاعرا نحويا فيلسوفيا نظارا ، ولد ببلاد الروم ونشأ بأنطاكية ، ودخل الى العراق واخذ عن العلماء والأدباء ، فاشتهر ذكره وبعد صيته •

والآخر صاحب حرب يعرف بميخائيل • فأعجبهما حسن زي الدولة وكريم أفعالها وجميل سيرتها ، سيما ميخائيل فإنه أطربه ذلك ، وكان خيرا عاقلا • فلما عادا الى بلادهما ، قضت الأقدار بموت متملك الروم وتملك ميخائيل هذا بعده • فاقام في المملكة نحو الخمس سنين •

وقصر النيل بمصر في سنة اربع واربعمائة ، ولم يكن بالمخازن السلطانية شيء من الغلال ، فاشتدت المسغبة وغلا السعر.
وكان لخلو المخازن سبب :وهو ان الوزير الناصر للدين ابا محمد اليازوري لما اضيف إليه القضاء في وزارة أبي البركات الجرجرائي ، كان ينزل الى جامع عمرو بن العاص بمصر في يومي

السبت والثلاثاء من كل اسبوع ليجلس في الزيادة منه للحكم ، على رسم من تقدمه من القضاة، فإذا صلى العصر طلع الى القاهرة • وكان في كل سوق من اسواق مصر عريف على ارباب كل صنعة يتولى امورهم • ومن عادة اخباز مصر في ازمنة الغلاء انها متى بردت لم يرجع منها الى شيء لكثرة ما تغش به • وكان لعريف الخبازين دكان يبيع الخبز ،وبجانبها دكان رجل صعلوك يبيع بها الخبز ايضا ، والسعر يومئذ اربعة ارطال بدرهم وثمن • فرأى الصعلوك ان خبزه قد كاد يبرد ، فخاف من كساده فنادى عليه :اربعة ارطال بدرهم ليرغب الفقير فيه • فمال الناس إليه لأجل تسمحه بثمن درهم ، واشتروه بأجمعه ، وبقي خبز العريف لم يعطف عليه أحد فغضب، ووكل بالرجل عونين من الحسبة أغرماه عشرة دراهم • فلم يطق ذلك ومضى الى الجامع واستغاث بقاضي القضاة وكان هناك• فأحضر المحتسب وانكر عليه فقال :العادة جارية باستخدام عرفاء في الأسواق على أرباب الصنائع ، وتقبل قولهم فيما يذكرونه ، وقد حضر عريف الخبازين بالسوق الفلاني واستدعى عونين من الحسبة ، فوقع الظن انه انكر شيئا يوجب فعل ذلك ، فاستدعى القاضي الخباز وامره ، فقص على المحتسب خبره • فقال القاضي للمحتسب :رجل يرخص على الناس أقواتهم فيجازى على ذلك بما يؤذيه _ ثم سأل الخباز كم أخذ منه • فقال : اخذ مني العريف خمسة دراهم ، وكل ما في يدي مائة درهم •

فقال :يصرف هذا العريف عاجلا ، ويغرم ما اخذه من هذا المسكين ويعاد إليه •

والتفت الى صاحب دواته فقال له : انظر ما معك فادفعه الى هذا الخباز فناوله قرطاسا فيه ثلاثون رباعيا ، فكاد عقل الخباز يذهب من شدة فرحه • وعاد الى دكانه فإذا عجنته الثانية قد خبزت فنادى عليها : خمسة ارطال بدرهم ! فمال الناس إليه واشتروا خبزه لرخصه • فخاف من هناك من الخبازين تلاف أخبازهم ، فإنها بردت ، وباعوا مثل بيعه • فنادى : ستة ارطال بدرهم !فقادتهم

الضرورة الى بيع أخبازهم كذلك • وصــار يريد مــكايدة العــريف بإرخاص السعر ويزيد رطلا رطلا ، والخبازون يتبعونه في بيعه خوفا على بوار أخبــازهم ، الى أن بلغ النداء : عشرة أرطــال بــدرهم ، وانتشر ذلك في سائر البلد ، وتسامع به الناس فتسارعوا إليه ، حتى إنه لم يخرج قاضي القضاة مــن الجــامع إلا والخبــز في جميع البلد عشرة أرطال بدرهم •

وكانت العادة انه يشترى للديوان السلطاني في كل سنة غلة بمائة الف دينار وتجعل متجرا، فلما عاد قاضي القضاة الى القــاهرة مثــل بحضرة الخليفة المستنصر ،وعرفه ما من الله تعالى به في هذا اليوم من إرخاص السعر ، وتــوفر الناس على الدعاء لأمير المؤمنين ، وان الله ــ جلت قدرته ــ فعل ذلك ، وحل إســعاد الناس بحســن نية امير المؤمنين في رعيته بغير موجب ولا فاعل له ، بل بلطف الله تعالى واتفاق قريب يسير • وقص عليه الخبر ثم قال :يا أمير المؤمنين ،إن المتجر الذي يقام بالغلة فيه اوفى مضرة على المسلمين ، وربما انحط السعر عن مشتراها فلا يمكن بيعها ، حتى تتغير في المخازن وتتلف . والمصلحة ان نقيم متجرا لاكلفة على الناس فيه ويفيد اضعاف فائدة الغلة ولايخشى عليه من تغير في المخازن ولا انحطاط سعر : وهو الخشب والصابون والحديد والرصاص والعسل وما اشبه ذلك . فامضى المستنصر له ما رآه ، واستمر ذلك ودام الرخــاء على الناس مدة سنين .

ثم قصر النيل في سنة سبع واربعين بعد خمس سنين من نظره في الوزارة ، ولم يكن بمخازن الســلطان مــن الغلة الا مــا ينصرف في جرايات من في القصور ومطبخ الخليفة وحواشيه لا غير . فورد على الوزير من ذلك ما شغل سره وكثر له فكره . ونزع السعر الى ثمانية دنانير التليس(٧) الدوار ، واشتد الامر على الناس.

ففتح الله له من التدبير ان نظر في امــر النواحــي . وكانت عادة التجار ان يقرضوا المعاملين حين اعسارهم وضيق الحال عليهــم في المقام للديوان بما يجب عليهم من الخراج ، مالاً يبتاعون بــه منهــم

غلاتهم عند ادراكها ليصيبوا فيها ربحا. فاذا استقرت مبايعتهم حضروا مع المعاملين الى الديوان وقاموا عنهم للجهبذ بما كتب عليهم ، ويثبت ذلك في روزنامج الجهبذ مع مبلغ الغلة . فاذا ادركت غلاتهم وصارت في الجرون (٨) اكتالها التجار وحملوها الى مخازنهم يريدون فيها السعر الغالي . فمنع الوزير من ذلك في هذه السنة ، وكتب الى العمال بسائر النواحي ان يستعرضوا روزنامجات الجهابذة ويحصروا منها ما قام به التجار عن المعاملين ومبلغ الغلة الذي وقع الابتياع عليه وان يقوموا للتجار ما وزنوه للديوان ويربحوهم في كل دينار ثمن دينار، تطييبا لقلوبهم ، وان يضعوا ختومهم على المخازن ويطالعوا بمبلغ ما يحصل تحت ايديهم فيها .

فلما تحرر ذلك جهز المراكب لحمل الغلات من النواحي ، واودعها في المخازن السلطانية بمدينة مصر ، وقرر ثمن التليس ثلاثة دنانير بعد ما كان بثمانية دنانير . وسلم الى الخبازين ما يبتاعونه لعمارة الاسواق ، ووظف ما تحتاج اليه مصر والقاهرة ، فكان الف تليس دوار كل يوم :مصر ، سبعمائة . والقاهرة ثلاثمائة . فاستمر لهذا التدبير مدة عشرين شهرا حتى ادركت غلة السنة الثانية ، فتوسع الناس بها وزال عنهم الغلاء ،وما كادوا يتالمون لحسن هذا التدبير .

وبلغ ميخائيل متملك الروم (٩) ما بمصر من الغلاء المذكور ، فراى لكثرة محبته في الدولة ان يحمل الى القاهرة مائة الف قفيز من الغلة وقدم كتابه وعين الغلة والكيل الذي تستوفى به عند وصولها ، وسيرها الى انطاكية ، واعد هدية الهدنة على العادة وهدية من ماله ، فضعّف هدية الهدنة . فلما راى الروم ذلك منه نفرت قلوبهم وظنوا به الميل الى الاسلام وقتلوه واقاموا بعده رجلا يعرف بابن سقلاروس(١٠) من اهل انطاكية ، وكان عسيرا لجوجا خبيث الطباع . فقبض على الهديتين وقال : انا انفق ثمنهما على قتال المسلمين .

وكان للوزير عيون بالقسطنطينية فكتبوا اليه بذلك . فسير مكين الدولة ابن ملهم الى اللاذقية في عسكر ، فسار اليها وحاصرها .

ونودي في بلاد الشام بالغزو الى بلاد الروم . فلما اشتد الامـر على اهل اللاذقية بعثوا إلى ابن سـقلاروس بمـا هـم فيه . فـكتب إلى المستنصر يستوضح ما الذي اوجب ذلك ؟ ـ فـكتب إليه بـأن الذي فعله في نقض ما استقر مع من تقدمه من الهدنة وقبضة الهدية اوجب ذلك . فأجاب بأنه يحمل الهدية . فـاشترط عليه إطـلاق كل مـن في بلاده من الأسرى . فأجاب بأنه إذا أطلق من لهم في بلاد الاسلام من اسرى الروم ، أطلق من عنده من المسلمين . فأجيب بـأنه لايصـح التماسه لذلك : فإن من أسر من بلاد الروم تفرقوا في الممالك بالعراق والدولة الفاطمية والمغرب واليمن وغير ذلك ، ولا حـكم للحضرة على جميع الممالك حتى يرتجع منها من صار في أيدي اهلها . وبلاد الروم بخلاف ذلك ، ومن حصل فيها من المسلمين كان كمن هـو معتقـل في دار واحدة لايمكنه الخروج منها إلا بإرادتهم ، وبين الحـالين فـرق كبير . فاجاب بإنه يطلق من في بلاده من اسرى المسلمين . فاشترط عليه مع ذلك النزول عمـا صـار في أيدي الروم مـن الحصـون الاسلامية ، فامتنع من ذلك وقال : إذا أسلم إلينا ما صـار في أيدي المسلمين من حصون الروم ، سلم مـا في أيديهـم مـن حصـون المسلمين . فثقـل اليازوري الجيش بجيش أخـر وقـدم عليه الأمير السعيد ليث الدولة ففتحت اللاذقية . وأجيب ابن سـقلاروس بـأنه لايصح أن يسلم إليه ما صار في أيدي المسلمين من الحصون لأنهـم قد ابتنوا فيها العمارات وانشأوا البسـاتين فـلا يصـح تسـليمها اليهم . فإنه يصير المسلمون لهم ذمة ، فاجاب بأنه يدفـع إليهـم ثمن أملاكهم وينقلهم إلى بلاد المسلمين . ثم اجابوا إلى تسليم ما في أيديهم من الحصون الاسلامية .

وكانت العادة جارية بأنه إذا وصلت هدية الروم أن تقـوم في بيت المال ، وتحمل إليهم هدية قيمتها نحو الثلثين مـن هـديتهم ليصـير للاسلام مزية عليهم بالثلث . فاشترط الوزير على ابن سـقلاروس أن تكون قيمة ما يحمل إليهم من الهدية عوضـا عن قيمـة هـديتهم النصف من ذلك . فأجابوا إليه .

فاشترط الوزير أن يؤدي إليه جزية كل من تضمه دار البلاط ، التي هي دار الملك ومحل الملك ومكانه . فامتنع من ذلك . فثقل الجيش بجيش ثالث ، فأوغلوا في بلاد الروم يقتلون ويأسرون وينهبون ، فاشتدت بلية الروم ، وبعث ابن سقلاروس مكاتباته بالاذعان إلى القيام بالجزية عن دار البلاط ، وشرع في تجهيزها فبلغت نيفا وثلاثين الف دينار ، وحمل ذلك إلى انطاكية . فبلغه صرف الوزير اليازوري ، فأعيدت إلى القسطنطينية . وزينت بلاد الروم لموته وكثر فرحهم بما صرف عنهم من خشونة جانبه .

واتفق انه كان بالعراق رجل يعرف بأبي الحارث البساسيري صار اسباسلار كبير القدر يبلغ اقطاعه نحو ثلاثين الف دينار ، فوقع بينه وبين الوزير رئيس الرؤساء ابي القاسم بن المسلمة وزير القائم بأمر الله العباسي في سنة سبع واربعين واربعمائة وعانده الى ان اخرجه من بغداد ، فقصد ديار بكر • وكاتب المستنصر ، وهو بأعمال حلب يرغب في الخدمة ويعرض نفسه ويستأذن في الوصول الى الحضرة ، وانه في ثلاثمائة غلام . فأخذ الوزير الكتاب وقبله احسن قبول. واستشار أهل الدولة في الاذن له، وكلهم اشار بذلك وان في قدومه ما يوجب مجيء غيره طمعا فيما ناله من الكرامة ، وفيه زيادة في عدد رجال الدولة . فلم يوافق على مجيئه وقال : هذا الرجل قد كان اقطاعه بالعراق ما يزيد على ثلاثين الف دينار ، ومعه أولاد مولاه الملك ابي طاهر بن كاليجار وغيرهم من اولاد الملوك ، واجلهم اقطاعه الف ومائتا دينار ، فإن اقتصر به على مثل ما لهم من الواجب لم يرض ، وإن زيد عليه كان قبيحا . وايضا فإنا لانطيق من عندنا اليوم من الاتراك ، فكيف اذا انضاف اليهم مثل هذه العدة؟ والصواب أن يبقى بحيث هو ، ونحسن اليه ونقيمه لمناصبة أعداء الدولة. فإن نهض بذلك كان النفع للدولة والاسم لها. وإن قصر عنه كان ذلك برأسه.

واتفق وصول طغر لبك السلجوقي من خراسان بالغز الى بغداد في هذه السنة ، وللوزير بها أعين . فكتبوا اليه بوصوله وأنه مزمع

على المسير من بغداد الى بلاد الشام ليملكها كما ملك بغـداد . فقلق من ذلك لعظم أمر طغر لبك ، وأنه دوخ الممالك وقتل الملوك واحتـوى عليها وانتشر صيته وكبر في نفوس الملوك شأنه ولم يبـق له معـاند يخافه .فرأى أن الحيلة أبلغ في مراده من دفعه عن البلاد بالاستعداد لكثرة ما معه من العساكر . وكتب اليه يهنئه بقـدومه الى العـراق ويبذل له من الخدمة ما يوفي على أمله ، وأن أرض مصر كلها بحكمه وأنه وإن كان مستخدما لدولة ويدعو اليها ، فإنه يعلم كثرة الاختلاف ممن يجاورها في نسبها واتفاق الكلمة ووقوع الاجمـاع على الرضى بالخليفة الصحيح النسب الصريح الحسب الهاشمي العباسي، وأنه لايمتنع من الاقرار له بـذلك ـ وأعطـاه صـفقة يديه على مبـايعته وتسليم الدولة اليه ، وأنه قد اتصل به ازماع حضرتـه على التـوجه الى الشام ، وأنه اشفق من تسليمها اليه أن تـطأها عسـاكره مـع كثرتها وتجمعها فتخربها وتعفي اثارها . فإن رأى اعفاءها من وطء العساكر لها ووصول ركابها اليها على وجـه الفـرجة والنظـر الى دمشق وحسنها ، فلها عالي رأيها.

فلما وقف طغر لبك على كتاب اليازوري قال . هذا كتـاب رجـل عاقل ، يجب أن يعتمد ما أشار به ـ وأذن للعسـاكر في العـود الى بلادها . فمضى كل عسكر الى وطنه ، وقوض خيامـه وضربهـا على الجانب الغربي يريد الشام . فـكتب عيون الوزير اليه بـذلك ، فقلق شديدا وكتب الى طغر لبك لا تغرنك الأماني والخدع بأن أسلم اليك اعمال الدولة وأخون أمـانتي لمن غذاني فضـله وغمـرني احسـانه وتتعين علي طاعته وموالاته . فإن كنت تسلم الي ما في يدك لصاحبك من بلاد العراق وأعمـالها ، سـلمت اليك مـا في يدي لصـاحبي . والواجب أن تكون كلمة الاسلام مجموعة لابن بنت النبي ، الذي هو أولى بمكانه مـن غيره . وإن رغبـت الى مـا في الموادعة والمهـادنة انتظمت الحـال بين الدولتين وأمـن الناس بينهمـا . فإن أبيت إلا الخلاف ونزع بك الهوى الى الظنون الفاسدة والأطمـاع الكاذبـة ، فليس لك عندي إلا السيف . فإن شئت فأقم ، وإن شئت فسر

ففاظ ذلك طغر لبك وقال . خدعني هـذا الفـلاح وسـخر مني ـ وكتب الى ابـراهيم ينال أخيه . رد إلي العسـكر مسرعا ـ فـأنفذ ابراهيم ليردهم فلم يرجع احد منهم وقالوا : فينا من بينه وبين وطنه شهران وثلاثة وخمسة ، وقد سرنا معه حتى وطـىء الأعمـال وملك البلاد وفتح المدن واحتوى عليها وفاز فيها ، ولم نحصل منه الا على التعب والنصب والخيبة . واذا كنا لم نصب في طول سفرنا خيرا فما عسى أن نؤمله اذا عدنا ؟ ـ ومضوا . هذا وقـد بـث اليازوري عيونه وجواسيسه في عسكر طغر لبك واستفسد أعيانهم والطفهـم واكثـر امانيهم ومواعيدهم ، وتوصل الى زوجة طغر لبك ، والى ابـي نصر منصور الكندري وزيره ، والى ابراهيم ينال اخيه وصاحب جيشه فمالوا اليه وتقاعسوا عن طغر لبك . ومـا كفـاه ذلك حتـى حمـل الخاتون زوج طغر لبك على قتله ، فقالت : امـا بيدي فـلا ، ولكني اتحيز عنه بغلماني ، وهم حمية عسكره ـ وكانت عدتهم نحـو اثني عشر الفا ـ وفي اعتزالي بهم عنه ضعف لجانبه . واعتزلت عن طغـر لبك بهم ، وكان ذلك سبب الظفر به .

ثم أن طغر لبك بعث في سنة خمسين واربعمائة الى سنجار الفين وخمسمائة من الغز الى البساسيري فقدمها وظفر بها وقتل جميعها وافلت منهم نحو المائتي فـارس . فلم يقـاتل بعـدهـا رجـال الدولة الفاطمية ، وعاد عن بغداد ، فقـوي البسـاسيري وكثـف جمعـه . وقصد أعمال العراق يفتحها بلدا بلدا ، والوزير يمده بما يستعين بـه على ذلك من المال والراي والتدبير ، الى ان وصل الى بغداد ونـاصب القتال ، وقسم عسكره فرقتين ، فرقة تقاتل في النهار ،واخرى تقاتل من صلاة المغرب الى الفجر ، حتـى دخلهـا واقبـل يملك محـالها وشوارعها الى ان وصل دار الخلافة وحصرها ونصب عليها القتـال من كل جانب وفرق النقـابين في جميع جهـاتها . فلمـا اشرف على اخذها صعد القائم بأمر الله الى أعلى الدار واستشرف على الناس واقبل ينادي : يا اهل بغداد ! ـويحضهم على نصرتـه والدفـاع عن حوزته . واستذم من قريش بن بدران وطلب منه الأمـان ، فـأخذه ومنع منه البساسيري ، واسلمه الوزير ابـن المسـلمة . واسـتولى

البساسيري على دار الخلافة بما فيها وكسر منبر الجامع وقال : هذا منبر يعلن عليه ببغض آل محمد ـ وانشأ منبرا اخر وخطب عليه للمستنصر . ثم لف ابن المسلمة في جلد ثور وصلبه حتى جف عليه فمات . واقامت الخطبة للمستنصر اربعين جمعة ، والقائم معتقل في قلعة الحديثة عند مهارش نحو عشرة أشهر . وعزم اليازوري أن يحمل الى مهارش عشرة آلاف دينار ويستخلص الخليفة من يده ويحمله الى القاهرة على حال جميلة ، فاذا قرب منها تلقاه بأهل الدولة احسن لقاء وبالغ في اكرامه وانزله في القصر الغربي وحمل اليه ما يناسبه واقام له الراتب السني في كل يوم وجعل له مائة دينار في كل يوم وجعله يركب في موكب المستنصر بين يديه يحجبه . فاذا ركب بين يديه عدة ركبات وانتشر في الأقطار خبر هذا الحال ، خلع عليه وعقد له الوية الولاية للعراق وكتب عهده بتقليده اياه وسيره اليه وأعاده الى مملكته وخلافته من قبله . فمنعه حادث القدر ، الذي حل به قبل ادراك ما في نفسه.

وكانت حلب قد تغلب عليها صالح بن مرداس من امراء بني كلاب في أيام الظاهر لاعزاز دين الله علي بن الحاكم ، وكثف امره ، الى أن ولي أمير الجيوش انو ش تكين الدزبري دمشق وأعمال الشام فحاربه وقتله . فقام من بعده ابنه شبل الدولة — نصر فحاربه الدربزي وقتله ايضا ، وملك حلب واستخلف عليها من غلمانه رضي الدولة منجوكتين فأقام بها عدة سنين . فلما مات الدزبري تغلب على حلب ثمال بن صالح بن مرداس في وزارة الجرجرائي . فكتب اليه بولايتها وقرر عليه مالا يحمله في كل سنة . وتمادى الحال على ذلك الى أيام الوزير الناصر للدين أبي محمد اليازوري ، فلم يرض بذلك . وعلم أنه لايطيق صرفه ، فرجع الى عادته في اعمال الحيلة واستعمال الخديعة ، وبعث اليه بقاضي مدينة صور ، فساس الأمر مع ثمال واحكم التدبير فيما قرر معه ، ووعده ومناه حتى نزل من قلعة حلب وسلمها الى وال من قبل المستنصر ، وسار من حلب يريد القاهرة . فلما بلغ الى رفح بلغه القبض على اليازوري فقال :والله ـ اني اموت بحسرة نظرة الى من استنلني من ذلك الملك

واخرجني بلا رغبة ولا رهبة الا بحسن السياسة . ولو رام ذلك مني لتعذر عليه .

وكان له من المآثر المرضية والخلال والأفعال الجميلة والأخلاق الرضية ما يتجمل الملوك بذكرها : منها انه كانت له مائدة يحضرها كل قاض وفقيه واديب وجليل القدر ، فيجتمع عليها قريبا من عشرين نسمة . حدث القاضي عمدة الدولة ابن حميد قال : كنت اجلس على يساره . فاذا ازدحموا وكثر تضايقهم على المائدة ، جذبني اليه حتى يكاد ينحرف عن مجلسه . فاذكر يوما ونحن مجتمعون ، اذ استؤذن على الفقيه ابي عقبة ، فأمر بدخوله . فلما دخل لم يجد موضعا فجذبني اليه بحيث صرت اذا مددت يدي الى المائدة لا أرجعها الى فمي الا بكلفة ، خوفا أن أصيبه بها . فبينا انا كذلك وقد مددت يدي ورجعتها ، وهو قد مد يده فلم أمهل حتى ترجع فأصاب مرفقي جؤجؤ(١١) صدره ، فورد علي أمر عظيم من ذلك ، وتأخرت وقبلت الأرض وقلت : قد بسطنا إنعام سيدنا الى حيث لانستحقه ، واخرجنا الى سوء الأدب . ولو انعمت بنصب مائدة نجتمع عليها بحضرته لكان لنا في ذلك الشرف الأوفى والفخر والأسنى ، ولم ننته الى هذا الحد في سوء الأدب.
فقال : وما الذي أوجب قولك هذا حتى ذكرت ما ذكرت ؟ ولقد نكدت بايراده .

فقلت : ياسيدنا نسيء آدابنا فتغفر ونعترف بالخطأ فتذكره علينا ، ونعتذر عن ذلك فتلومنا عليه . فما ندري بماذا نقابل احسانك ، ولا بأي لسان نشكر تفضلك .

فقال : وما الذي كان حتى تحتاج الى كل هذا ؟ ـ واقبل يجذبني وانا اتقبض ، حتى زاد تمكني باجتذابه لي فوق ما كنت عليه أولا ، وقرب كتفي من صدره ، وهو منطلق الوجه ظاهر البشر . وكان قبل ذلك اليوم يسمع حديثنا على المائدة ولايكاد يجيب لانه كان كثير الصمت قليل الكلام لانسمع منه الا اللفظ القليل عن الكلام الكثير . فأبتدأ ذلك اليوم يتحدث بما يستطاب حتى يزيل عني ما اعتراني من

الغم بما كان مني ، واقمت معه خمس عشرة سنة قبل وزارته ملازما له في المبيت والصباح ، فكنت اراعيه في حالاته كلها ليلا ونهارا فلا اراه يتغير علي منهـا شيء ، ولايتبين لي منه غضب مـن رضى .
فحدثت ابي بذلك فقال : يا بني ، اني لم اكن لأؤثر سماع ذلك منك ، فكيف سماع غيري له ؟ فلا تحدث به احدا ، وتلطف في تأمل ذلك الى ان تقف عليه ، فانك اذا حدثت به نسبت الى غلظ الطبع وثخانة الحس ، والبله .

فاقبلت ادقق التأمل له في حالتي غضبه ورضاه ، شهورا قبـل أن يتبين لي : فـكان اذا رضي اوردت وجنتـاه بحمـرة . واذا غضـب اصفرت محاجر عينيه . فعرفت ابي بذلك فقال : يا بني، هذا غاية في سكون النفس وصحة الطباع واعتدال المزاج.

وكانت طبائعه قريبة من الاعتدال ، فاذا احس بميل طباعه عمـا يعهده ، اخذ في اصلاحه حتى تعود الى الاستقامة.
وحدثت بعض من كانت تقوم بخدمته من النساء قالت : كنت اتـولى صلا ح ما يشربه من الدواء في كل يوم، وكان لايعـطل شربـه يومـا واحدا .

وذلك انه كان يشرب السكنجبين والورد اسبوعا ، ثم يريح نفسه ثلاثة ايام ، ثـم يشرب النقـوع المغلي في الشـتاء ، والمنجـم في الصيف ، اسبوعا لكل منهمـا ، ويشرب مـاء البـزور اسـبوعا ويشرب ماء الجبن ثلاثة ايام ، ويشرب ماء البقل اسبوعا ، ثـم يشرب الراوند المنقوع كذلك ، ويريح نفسه بين كل دواءين ثلاثة ايام ولا يخل بذلك في صيف ولاشتاء .

وكان ندي الوجه كثير الحياء لايكاد يرفع طرفه الا لضرورة . ولم يسمع منه قط في سؤال لفظة «لا» ، بل كان اذا سئل فيما يرى اجابة سؤاله اليه يقول «نعم» بإخفاض من طرفه وخفوت من صوته . فإذا سئل فيما لايرى الاجابة اليه يطـرق ولايرفـع بصره . وعرف هـذا منه ، وكان لايراجع فيه الا بعد مدة .

وكان كل من يحضر مائدته يستدعي منه الحضور بين يديه ليلا ليسمروا عنده ، وكان فيهم من يشرب المسكر ، فإذا حضروا عرف كل منهم مجلسه الذي تقرر له . وكان كل من لايشرب النبيذ يجلس عن يمينه ، ومن يستعمله يجلس عن يساره ، وتوضع بين يدي كل منهم الفواكه الرطبة واليابسة ، ويتفرد من لايشرب بحلاوة توضع بين يديه ، ومن يشرب يعمل بين يديه ما يستعمله ، وستارة الغناء مضروبة . فيجلسون بين يديه ، وهو مشغول يوقع ، وهم يتحدثون همسا وإشارة ، الى أن ينقضي اربه من التواقيع ، فيسند ظهره وينشطهم للحديث فيتحدثون . ويقول لمن عن يمينه : قد تجدد اليوم كذا وكذا ، فما عندكم فيه ؟ - فيقولون : سعادة حضرة سيدنا تمهد له صواب الآراء ، وقد خصها الله تعالى من ذلك بما لاتهتدي عبيدها اليه .

فيقول : بل يقول كل منكم ما عنده في ذلك ، ولايقوم في نفس واحد منكم أن ما راه خطأ فيمسك عن ذكره ، فربما كان الصواب مقرونا بذلك الراي وهو ضالة تصيب من لم تجر عادته بإنعام الفكرة فيه .

فيصقع أحدهم ويقول : الذي يراه العبد على وجه الخدمة كذا وكذا فلا يزال يسمع من واحد واحد حتى يستكمل الجماعة . ثم يعطف على شماله فيقول : قولوا ! - فيفعلون كفعل الأولين ، وهو يسمع ولا يرد على احد شيئا ، فلا يصوب المصيب ولايخطى المخطى ، ويبيت يضرب الآراء بعضها ببعض حتى يتمحض له الصواب ، ويصبح يرمي فلا يخطىء . وهكذا كانت أفعاله طول مدته ، لم يستبد قط برأيه ولاأنف من المشورة ، بل يقول: المستبد برأيه واقف على مداحض الزلل ، وفي الاستشارة حل عقول الرجال .

وبهذا العقل تم له ماكان يدبره حتى أثر في جميع ما رامه من أطراف الدنيا أثارا بقي ذكرها دهرا طويلا .

وأراد أن يعرف قدر ارتفاع الدولة وما عليها من النفقات ليقايس

بينهما . فتقدم الى أصحاب الدواوين بأن يعمل كل منهم ارتفاع ما يجري في ديوانه ، وما عليه من النفقات فعمل ذلك وتسلمه متولي ديوان المجلس وهو زمام الدواوين ، فنظم عليه عملا جامعا واختصره أيام (دولته)فجاء ارتفاع الدولة الفي الف دينار ، منها الشام : الف الف دينار ونفقاته بازاء ارتفاعه ،ومنها الريف وباقي الدولة : الف الف دينار ، يقف منها عن مغلول وينكسر عن موتى وهراب ومفقود أبواب : مائتا ألف دينار وتبقى ثمانمائة الف دينار ، ينصرف منها للرجال عن واجباتهم وكساويهم ثلاثمائة الف دينار ، وعن ثمن الغلة للقصور : مائة الف دينار، وعن نفقات القصور مائتا الف دينار . وعن عمائر ، وما يقام للضيوف الواصلين ، من الملوك وغيرهم ، مائة الف دينار ، ويبقى بعد ذلك مائتا الف دينار حاصلة يحملها كل سنة الى بيت المال المصون ، فحظي بذلك عند الخليفة ، وتمكن منه ، وارتفع قدره عنده . وكانت الدولة طول نظره في عرس ، لتوالي الفتوحات في أيامه وعمارة الأعمال بحسن تدبيره واستخدام الكفاة فيها بجودة اختياره .

وكان المستنصر يحضر عنده في كل يوم جمعة ويبيت عنده في لذة ومسرة ، فيحضر اليه من التحف والطرف والغرائب ما لايكاد يقدر عليه غيره . فاستمر على ذلك ثماني سنين . فكثر الحاسد له على ما يتأتى له من السعادة وتعينه عليه الأقدار . واستطال حساده مدته فابتغوا له الغوائل ونصبوا له الحبائل ، وركبوا عليه المناصب حتى كان هلاكه بأقل الناس قدرا وأحقرهم ، وأدناهم منزلة وأضعفهم قدرة ، وهم من أطراف الخدام ، ليبين الله اياته للناس ليعلموا أن الله على كل شي قدير : وذلك ان اثنين من أطراف المستخدمين ، احدهما خادم يعرف بفرج المغراوي كان في حاشيته ، والآخر خازن في بيت المال يتولى خزانة الفرش يعرف بتنا ، تمحلوا له الأباطيل ونمقوا الأحاديث وزخرفوا القول وحكوا انه نقل الأموال الى الشام في التوابيت وفي شمع سبكه ، وأنفذه الى القدس والى الجليل ، وانه قد عول على الهرب الى بغداد . فصدق

ذلك وقبض عليه بغير ذنب الا الملل والحسد الذي جـرت عادة الملوك به . وان مللهم بغير علة وحسدهم على تظافر من ينعمون عليه بمـا يصير في يديه ليتجمل به ، فيكون ذلك سبب حسدهم ومللهم .

واتفق ان المستنصر التمس من صفي الملك ولد الوزير عمل دعوة يدعوه اليها ، فدافعه عن ذلك ، استعظاما لحضوره عنده . فـأقام مدة حتى بعثه الوزير الناصر للدين على تكلف عملها ، فـاهتم لذلك وصنع ما يليق إعداده . وتقـرر الحـال على يوم . فلمـا تهيأ ذلك حضر صفي الملك الى ابيه وأعلمه بإنجاز ما يحتاج اليه ، فصار معه الى الدار بخواصه فرأى ما تقصر عنه كل صفة مـن ذلك انه فرش مجلسين بديباج بياض كله وفيه جامات كبـار حمـر بنقـوش كأجل من الأعدال ، وفي كل مجلس ثلاث مراتب وبساط ملء المجلس وسرادقين ـ يعني : سـتارتين ـ وحجلتين للصـدر ـ يعني شمخانتين ـ وكل مرتبة ثماني قطع ، ثمن ذلك خمسة الاف دينار .

فأقبل كل من حضر يبالغ في صفته ، الا ابـن حميد فـانه صـار ساكتا فلحظه الوزير . وطـاف المجـالس واسـتعرض كل مـا أعده ، وهو يقول : يزاد لههنا كذا ، ويترك هنا كذا ـ ثم عدل الى بيت الطهارة فدخله ، وقد اعد في دهليزه من الفرش والآلات والطيب وفي داخله من الفواكه والمشمومات كل مستحسن .

واستدعى ابن حميد منفردا ، وجلس في دهليزه وقال : ياعمـدة الملوك ما لي لم اسمعك تؤمن على ما قالته الجماعة ؟
فاعتل بما لم يقبله الوزير ، والزمه أن يصدقه فقال : ياسـيدنا عندي احد رايين : إما أن تـأمر بإزالة لهـذه الفـرش ونصـب غيرها مما هو مستعمل ، أو تحمله الى الخليفة اذا انقضى جلوسـه عليه .

فقال : وما هو هذا ؟ اليس هو مما انعـم بـه وصـار الي مـن فضله ؟ وما قدره حتى تمتد عينه اليه وتتطلع نفسه له ؟ اما إزالتـه ونصب غيره ، فما كنت لأكسر نفس هذا الصـبي . وإن امـرت بإزالته حزن وانكسرت نفسه ـ وقام

فحضر المستنصر واقام يومه في الدار ، واحضر اليه ما اعد له من الطرف . وركب اخر النهار وعاد الى قصره . وحضر خواص الوزير عنده على عادتهم . فانفرد بابن حميد وقال له : ياعمدة الدولة ، والله ما أخطأ حزرك فيما قلته بالأمس : منذ دخل الخليفة الى الدار الى ان خرج لم يطرف طرفة عن تأمل الفرش ، فاذا وجهت طرفي نحوه اطرق وتشاغل .

فقال : ياسيدي ، اذ فات الأمر الأول ، فلا يفوت الثاني .
فقال: والله لافعلت ، ولاغممت صفي الملك بحرمانه اياه !

واتفق ايضا ان ابن حميد دخل على الوزير في يوم بكرة ، وقد قدمت الدابة الى باب المجلس ، فخرج ليركب ، وعليه ثوب اسمر اللون مليح السمرة . فدنا منه ليصلح ثيابه لما ركب ، وجعل يلمس الثوب . فسار الوزير وعاد . فلما انقضت المائدة قال لابن حميد قد لحظتك اليوم تنظر الثوب الذي كان علي ، فعجبت من ذلك فلما مثلت بحضرة مولانا كنت بحيث جرت العادة . فأقبل يتأمل الثوب ، ولم يزل يزحف من الدست حتى قرب مني فتغافلت عنه ، ولحظته وقد مد يده الى الثوب ليلمسه ، فقلت في نفسي : زال عجبي من عمدة الدولة اذا كان الخليفة على هذه الصفة ، وهو ثوب ملحم خراساني .

فقال : الملوك اذا انعموا على أحد ممن في دولتهم نعمة وتظاهر بها ، استحال الاحسان والاصطناع حسدا ومللا .

وكان الوزير شريف الأخلاق ، عالي الهمة ، كريم الطباع ، وطيء الأكناف ، مستحكم الحلم ، واسع الصدر ، ندي الوجه ، يستقل الكثير ويستصغر كل كبير . فكان راتب مائدته في كل يوم كموائد الملوك في الأعياد والولائم . وكان لايبتاع لمطبخه من الطير ماهو معرق ، ولامصدر ، وسعر المعرق ستة اطيار بدينار ، والمصدر اربعة بدينار ، والمسمن ثلاثة بدينار ، والفائق اثنان بدينار ، فيعمل المسمن لداره ومن فيها ، واما مائدته فلا يقدم عليها الا الفائق .

فاتفق حدوث الغلاء في سنة سبع واربعين واربعمائة ، وصار الخبز طرفة من الطرف لقلته وغلاء السعر من قصور النيل ، والمستنصر يحضر دار الوزير في كل يوم ثلاثاء على عادته ، وتقدم اليه المائدة ، فيراعي حالها فيجدها على ما يعهد لم يختل منها شيء، حتى الدجاج الفائق . فقال لصاحب مطبخه : ويلك ! يكون راتب مائدة الوزير الدجاج الفائق ومائدتي دون ذلك ؟

فقال : يامولانا ، ما ذنبي اذا قصر بك اصحاب دواوينك ومطابخك ولم (يطلقوا لمائدتك ما التمسه منهم ؟ والوزير ، فلا يتجاسر وكلاؤه أن) (١٢) يقصروا في شيء مما جرت به العادة في راتب مائدته وغيرها ، مع تقدمه اليهم في كل يوم بالزيادة فيها وفي راتب داره.

وكان الوزير ايضا اذا اعطى هنأ ، واذا انعم على انسان اسبغ ، واذا اصطنع احدا رفعه الى ما تقصر عنه الآمال والأماني. مع عظيم الصدقة وجزيل البر الذي عم به اهل البيوتات بما اقامه لهم من المشاهرات على مقاديرهم ، والأشراف سكان المنامة ، والفقراء واهل الستر بالقرافة بما يواصلهم به من البر والكسى ، ويجري ذلك على يد ابن عصفور احد الشهود بمصر ووكيل السيدة الوالدة ، فكانوا يظنون ان ذلك من انعامها وبرها او من انعام المستنصر . فلما قتل الوزير انقطع عنهم ما كان يصل اليهم من بره ، فاستنصروا بذلك (الوكيل) وواصلوا الخطاب فيه وقالوا : قد جفينا من مولانا ومولاتنا وانقطع برهما عنا ، فلو اذكرتهما بنا ؟ ـ واكثروا من ذلك على ابن عصفور . فقال لهم: الذي كنتم ترون ماكان ليجيئكم حتى يبعث الله ناصر دين أخر ! فحينئذ يأتيكم منه ماكان يصلكم به .

فقالوا : نحن التمسنا من مولانا ومولاتنا ، ولم نلتمس من ناصر الدين ، فقال : ما كان يجيئكم ذلك الا من الوزير ، فان بعثه الله لكم فعساه يبركم بما كان يبركم به ، فعجبوا من ذلك ،

واكثروا من الترحم عليه .

ولما تظافر الغلامان على الوزير حتى تم من القبض عليه ماتم ، لم يشعر مستهل المحرم سنة خمسين واربعمائة الا وقد قبض عليه فكتب رقعة الى ابي فرج البابلي ، لموضع تقدمته له ، وبما احسن به اليه وانعم عليه ، وانه هو الذي رفعه على جميع اصحاب الدواوين ، واستخلصه دونهم ، وظن انه يجازيه على ما صنع اليه ، ويفي له فخاب ظنه ، ونص الرقعة بعد البسمله : عرفنا يا أبا الفرج ، أطال الله بقاءك وأدام عزك ، تغير الرأي فينا ، وسوء النية والطوية فان يكن هذا الأمر صائر اليك ، فاحفظ الصحبة وار ع واجب الحرمة . وان يكن صائرا الى غيرك فابتغ لنفسك نفقا في الأرض . على أنانشير عليك اذا دعيت اليه الا تتأبى عنه ، فانه اصلح لك واعود علينا ، والسلام .

فدعي البابلي واستقر في الوزارة بعد اليازوري ، فتجرد لمقابلة احسان مصطنعه بكل قبيح ، وذكره في مجالسه بما لايستحقه منه . وكانت هذه الرقعة اعظم ذنوبه عنده ، فكان يقول . يخاطبني وهو على شفير القبر بنون العظمة ! ـ ولايذكره الا بالسفيلة والسقائط.

ولم يقنعه كونه في الاعتقال بمصر حتى نفاه الى تنيس في صفر هو واولاده ونساؤه وحاشيته ، فاعتقلوا بها . وشرع في التدبير على قتله خوفا من الرضى عنه .

فحدث عظيم الدولة متولي الستر قال : كنت في جملة الصقالبة الموكلين على الناصر ثم على البابلي بعده ، فكنت ارى من رئاسة الناصر ـ على شبيبته ـ ورجاحته ، وسكون جاشه ، ومن طيش البابلي وخفته ونقصه ، ما اعجب منه . وهو أني لماكنت موكلا بالناصر ، كنت اراه ملازما بالعتبة بباب المجلس في القاعة لايتغير مكانه ، وكان البابلي يتعلى عليه ويراسله بما يمض ويوصينا اذا مضينا اليه بالجلب على فتح الباب والاكثار من قلقلته عند الفتح ، لنرعبه بذلك ، فوالله ما يكترث اليه ولا ينزعج . واذا دخل

اليه تذكار متولي الستر يكون جلوسه منه في الاعتقال كجلوسه منه في وقت وزارته ، ويخاطبه بما يرضى به فيجيبه عنه بسكون وهدوء كأنه في الدست جالسا . فأذكر وقد دخل اليه يوما فجلس ونحن وقوف بين ايديهما اكثر من ثلاثين صقلبيا ، فأدى إليه ما أوصاه البابلي به ، واجابه عنه . فنهض ولبس نعله وقال له. يا سيدي ، صرفتني عن الستر بغير ذنب ثم أعدتني إليه بغير مسألة . فما كان معناك في ذلك ؟

فرفع طرفه إليه كأنه والله يخاطبه من دست الوزارة وقال له: كان صرفك في الأول برايي واختياري . ثم أعدتك كذلك برايي لما عرفته من ميل مولانا إلى استخدامك .

فخرج تذكار وهو يقول : انظروا إلى هذا الرجل في سكون جأشه وقلة احتفاله في الجواب مع حاجته إلي في مثل هذا الوقت الذي تحقق قدرتي على الاحسان إليه فيه وعلى الاساءة . فوالله ما خاطبته إلا وانا اظن انه سيجيء بما يمهد عندي عذره فيه ، فلم يكن منه غير ما سمعتوه . ووالله ما اجد سبيلا إلى مقابلته بغير الجميل ، لما كنت اشاهد من افعاله وجميل سيرته .

وكان اكثر وقته صائما ، ولا يكاد يفطر إلا اقله ،ذاك ، وهوكثير التلاوة ، ولا يسأل عن شيء من طعام ولا شراب .وكنت من حاله عجبا .

كان في حال وزارته كثير الصمت ، مواصل الاطراق ، شديد سكون النفس ، هادىء الطبائع .فكنا نحمل ذلك منه على التيه والصلف والاعجاب وقلة احتفاله بالناس .فلما صار في حالة القبض والخوف كانت حاله على مثل ما كنا نشاهده منه ونتهمه فيه .

واخذ البابلي كلما حضر بين يدي المستنصر يكثر التثريب على اليازوري ، إلى ان كان اليوم الذي شغبت عليه الأتراك ووطئوا دراعته . فإنه لما دخل على المستنصر قال: يا امير المؤمنين ، إنه لا ينفذ لك امر ، ولا يتم لي نظر ، وهذا الكليب في قيد الحياة .

فقال: ومن هو هذا الكليب ؟

فقال: الحسن بن علي بن عبد الرحمن اليازوري .

فقال : أيها الوزير ، أعلم اني لم أصرف اليازوري عن خدمتنا ولنا في إعادته رغبة . فطب نفسا ودع ذكره ، فأنت أمن مما تخافه من جهته .

فقال : والله ، إن هذا لعجب فيمن حسن متابك ، يا أمير المؤمنين ، عنه ، مع قبيح فعله وماهم به من قتلك ، حتى إن السقية اقامت تدور في قصرك أسبوعا كاملا .

(فقال : أيها الوزير ، اقامت السقية تدور علي في قصري اسبوعا كاملا ؟) (١٣) .

قال : نعم.

فأطرق متعجبا وبقي متفكرا وامسك . فظن البابلي بإمساك الخليفة أنه راض مما يفعله مع اليازوري ، وخرج ، واستدعى طاهرا كاتب السر وسير ه‍لقتله . فنمى الخبر إلى أم المستنصر وقالت : أنت يا مولانا أمرت البابلي بقتل اليازوري ؟

فقال : لا.

قالت : قد سير طاهرا ابن غلام رشيد لقتله .

فاستدعى المستنصر سعيد السعداء وانفذه إلى البابلي وقال: قل له : لم نأمرك بقتله ، فأنفذ من يعيد طاهرا ويمنعه من النفوذ .

فالفاه سعيد السعداء في الحمام ، فأعتذر إليه. فقال : لابد من الدخول إليك! ــ ودخل وأدى الرسالة إليه. فقال : نعم ، هوذا اخرج وأسير من يعيده .

وطول في الحمام. ثم خرج ، فإلى أن يكتب الكتاب ويسير النجاب ، جد طاهر في السير ووصل قبله إلى تنيس . فلم يدخل النجاب حتى نفذ الحكم في اليازوري . وذلك أن طاهرا لما وصل دفع كتاب البابلي إلى الأمير جمال الدولة صبح والي تنيس وفيه . إنا قد سيرنا طاهرا فيما انت تقف عليه من جهته ، فتثبت منه فيه وتحضر معه لانجازه وتحذر من تأخيره من اليوم إلى غد .

فقال: وما الذي وصلت فيه ؟

فأخرج تذكرة بخط البابلي فيها : إذا وصلت يا طاهر أعزك الله ، إلى تنيس ، وقد شقيت ولهثت من العطش ، فلا تبل ريقك بقطرة دون أن تحضر حسن بن علي بن عبد الرحمن اليازوري إلى دار الخدمة وتمضيحكم السيف فيه . فقد كتبنا إلى الأمير جمال الدولة بمعونتك على ما نستدعيه من ذلك ، فقدمه ولا تؤخره إن شاء الله.

فقال له الوالي : أنت خليفة صاحب الستر ، ومرسل من جهة السلطان ، والأمر الذي وصلت فيه ممتثل . فأمض الحكم فيه .

فقال : بحضورك.

قال : وما معنى حضوري إذا بلغت غرضك فيما وصلت فيه ؟

فقال : لا بد من حضورك!

وانفذ من احضر اليازوري من الدار التى اعتقل به . فلما حضر اجلس على مصطبة باب الدهليز ، وطاهر على مقابلته في مصطبة ، والصقالبة والسعدية خدام الستر وقوف ، والسياف قائم .وقال طاهر : ياحسن ، يقول لك مولانا : اين اموالي ؟

فلم يجبه ولم يرفع طرفه اليه. فقال له: لك أخاطب ياحسن بن علي بن عبد الرحمن. يقول لك أمير المؤمنين: أين أموالي؟ فلم يجبه ورفه طرفه ونظر الى طاهر والى الجماعة القيام وقال لطاهر: يا كلب تجيء وهذا معك ـ وأشار الى حيدرة السياف ـ وتسألني بعد ذلك ؟ ولكن قل له: يا مولانا ، قبض علي وأنا آمن على نفسي فإن كان عندي مال ، فقد وجدته في داري. وكتب داعيك وثقتك المؤيد في الدين في القمطرة الفلانية تشهد بذكر مالك أين هو.

فأشار طاهر إلى الذين معه فأخذوا اليازوري وضربت عنقه في الحال . وسار لوقته عائدا ، ومعه رأس اليازوري ، الى القاهرة ، فبلغ ذلك المستنصر فاغتم لقتله ، وحقد على البابلي حتى صرفه . وكان قتله في ليلة الثاني والعشرين من صفر سنة خمسين

واربعمائة . والقيت جثته على مزبلة إلى ان ورد امر المستنصر بعد ثلاثة ايام بتكفينه وتجهيزه والصلاة عليه . فغسل في مسجد وحنط بحنوط كثير وكافور ، وحمل بين العشاءين ومعه المشاعل ودفن .ثم حضر صقلبي بعد ذلك ومعه الراس فدفنت معه في القبر .

ولم يتمكن احد في الدولة المصرية بعد الوزير يعقوب بن كلس تمكن اليازوري .وحكي انه حج في صباه .فلما زار قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم نام في الحجرة النبوية ، فسقط عليه شيء من الخلوق الملطخ بحائط الحجرة . فأتاه بعض خدام الحجرة وأيقظه وقال له : أيها الرجل ، إنك ستلي ولاية عظيمة . وقد بشرتك ، ولى منك الحباء والكرامة .

فصار إلى ما صار حتى إنه سأل المستنصر بالله ان يكتب اسمه على سكة الذهب والفضة فاذن له في ذلك . وطبعت باسمه نحو شهر ثم بطلت . وامر المستنصر الا يسطر هذا في السير . وكانت صفة سكته :

ضربت في دولة أل الهدى
من أل طه وال ياسين
مستنصر بالله جل اسمه
وعبده الناصر للدين

في سنة كذا

ومن طريف التخلصات في المكاتبة ما وقع له ، وهو ان العالي بالله إدريس ابن المعتلي بالله يحيى بن الناصر علي بن حمود بن ميمون بن حمود بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن عبد الله /بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب صاحب الأندلس كتب إلى المستنصر بالله من مدينة مالقة مكاتبة فيها :« من امير المؤمنين العالي بالله إلى أمير المؤمنين المستنصر بالله ».

فعيب عليه بمصر قلة تصوره ومعرفته بأنه لا يجوز أن يكون امير

المؤمنين في زمان واحد إلا واحدا . ثم ألجأت الضرورة إلى مــكاتبته بنحو ما كتب ، وكان اليازوري إذ ذاك في الوزارة وتدبير أمور مصر فقال : أنا أخلص لكم هذه القضــية وأعلقهــا بمعنى دقيق لا يبدين للمكاتب ـ وكان صــاحب حيل ـ فــكتب إليه . مــن أمير المؤمنين المستنصر بالله معد إلى العالي بالله أمير المؤمنين بمالقة.

الحسن بن عمار الكلبي

(من المقفى المقريزي ـ مجلدة برتو باشا)

الحسن بن عمار بن علي بن أبي الحسين ـ واسمه محمد بن الفضل بن يعقوب أمين الدولة أبو محمد الكلبي ، أحمد شيوخ كتامة كان أبوه في خدمة الامام القائم بأمر الله ابي القاسم محمد بن عبيد الله المهدي ، فبعثه على رجال كتامة الى تونس في فتنة أبي يزيد مخلد بن كيداد الذكاري ، وقد سبقه اليها مسنويه بن بكر الهواري من قبل ابي يزيد ، ودخلها في عاشر صفر سنة اربع وثلاثين وثلاثمائة ، فقتل وسبى وهدم الدور ، ولقي عمارا فقاتله وهزمه عمار وتبعه الى تونس وقتل كثيرا من أصحابه وأخذ ثلاثة الاف جمل تحمل طعاما وغيره ، وعاد الى القائم بالمهدية ، فأمره أن يقيم بسوسة. ثم مات القائم ، وكان مع ابنه المنصور بالله ابي الطاهر اسماعيل حتى مات وقام من بعده ولده المعز أبو تميم معد. فسار من قبل أخيه الحسن بن علي متولي صقلية على اسطول الى بلاد الروم وعاد ، فخرجت عليه ريح شديدة بالقرب من صقلية فعطب الاسطول بأسره وغرق القائد في يوم الجمعة لعشر بقين من جمادى الآخرة سنة خمس وأربعين وثلاثمائة ودفن من الغد بصقلية.

ثم إن الحسن بن علي افتتح في سنة اثنتين وخمسين قلاعا بجزيرة صقلية ونزل على قلعة رمطة فحار بها فطال عليه أمرها فرجع إلى جزيرة صقلية وترك على رمطة ابن اخيه ابا محمد الحسن ابن عمار صاحب الترجمة ، فأقام عليها وطال مقامه . واستغاث الروم بصاحب القسطنطينية. فوجه إليهم عسكرا في البر وعسكرا في البحر ، والتقى ابن عمار مع مقدمة الروم في نصف شوال منها بشرذمة يسيرة فرزقه الله الظفر وقتل قائد الروم صاحب عسكر البر

واسر صاحب عسكر البحر ، وانهزمت عساكرهم فتبعهم المسلمون فحزوا منهم عشرة آلاف راس ، وغرق منهـم في البحـر خلق كثير. وكان في طريقهم خرق عميق في الأرض فحال بينهم وبين رؤيته الغبار فتواقعوا فيه وقت الهزيمة وسقط الخيل والرجال وصـار بعضهـم على بعض فهلك فيه مـن الروم خلق لايحصـيهم إلا الله فمـاتوا كلهم ، واسر منهم بعد هذا كله الفا اسير فيهم مائة بطريق . واخـذ من اموالهم وسلاحهم وكراعهم ما يقصر عنه الوصـف . ونزل مـن قلعة رمطة نحو الف علج خوفا وجزعا.

واقام الحسن بن عمار محاصرا لها ، ووجه بالقائد والبـطارقة والرؤوس وكتاب الفتح إلى مدينة صقلية ، فخرج إليهم الحسن بـن علي بالعدة والعساكر فتلقاهم فراى مـا سره وفـرح بـذلك فـرحا شديدا ، ثم انصرف فاعتل من إفراط الفرح بحمى حادة ومات بعـد ذلك بسبعة أيام لاثنتي عشرة بقيت من ذي القعدة من هـذه السـنة. وفتح الله قلعة رمطة على يد الحسن بن عمار لثلاث بقين منه ، فقتل جميع من كان بها من الرجال وسبى النساء ، واسـتولى على جميع ما فيها من نعمة ومتاع وغير ذلك.ثم قدم من صقلية على المعز في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة بالمهدية ، فخرج معه لحرب ابي خزر يعلى الزناتي الثائر.

ثم عاد فبعثه في يوم الثلاثاء لتسع خلون من شـوال سـنة تسـع وخمسـين (وثـلاثمائة) على الأسـطول إلى مصر. فـانتهى إلى طرابلس . واقلع منها يوم الخمسين لثمان بقين مـن شـوال سـنة ستين وثلاثمائة. ثم قدم إلى القـاهرة يوم الاثنين رابـع ربيع الأول سنة إحدى وستين ، ثم لما قدم الأسطول في ذي القعدة مـن المغـرب خرج عليه ابن عمار في ذي الحجة وسار إلى تنيس ولقـي اسـطول القرامطة فأخذ منه سبع قطع واسر خمسمائة رجل.

ثم سار في رجب سنة إثنتين وستين إلى الحوف على عشرة الاف فواقع القرامطة.

ومازال بالقاهرة بقية أيام العزيز ، ولما احتضر العـزيز بـالله

بمدينة بلبيس استدعى القاضي محمد بن النعمان والحسن بن عمار هذا واوصاهما بولده ابي علي المنصور ومات. فأقيم في الخلافة بعده ابو علي ولقب بالحاكم وسار إلى القاهرة وسنه إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر . فأنفق في المغاربة وكتامة وشرطوا أن لا ينظر في امورهم إلا ابن عمار. وذلك انه اعطى لكل واحد من شيوخ كتامة لما انفق فيهم من خمسة الاف دينار الى ما دونها ، وأعطى شبابهم على أقدارهم . وكان العزيز قد غضب عليهم لخذلانهم القائد جوهر في نوبة هفتكين وعرف الوزير يعقوب بن كلس ذلك فاطرحهم حتى ضاعوا وساءت حالاتهم وتفرق كثير منهم في الصناعات . فتنبه ابن عمار (إلى) حالهم فاجتمع شيوخ كتامة عند المصلى خارج القاهرة ، وقد خالفوا على الحاكم . فخرج إليهم ابن عمار وما زال بهم حتى احضرهم إلى القصر وقرر لهم ما ارضاهم به وأنفق فيهم ، وحلف للحاكم ثم حلفهم وحلف عليه الحاكم بأمر الله في يوم الثالث من شوال سنة ست وثمانين وثلاثمائة . وقلده سيفا من سيوف العزيز بالله وحمله على فرس بسرج من ذهب ، وكناه ، ولقبه « امين الدولة ». وقال له: « أنت اميني على دولتي ورجالي ». وقاد بين يديه عدة خيول ، وحمل معه خمسين ثوبا من سائر البز الرفيع . ونزل من القصر إلى داره في موكب عظيم. وقرأ سجله قاضي القضاة محمد بن النعمان بجامع مصر في خامسه . فاستكتب ابا عبد الله (•••) الموصلي واستخلفه على اخذ رقاع الناس وتوقيعاتهم. وألزم سائر الناس بالترجل له فترجل كل رئيس في طائفته . وقرر لكتامة سبعة أعطية في السنة وأنفق فيهم وحمل رجالاتهم ــ وهم نحو الألف ــ على دواب الاصطبل التي خلفها العزيز ، ولم يترك احدا من الشيوخ حتى حمله على الفرس والفرسين بالمراكب الحسنة من خزائن القصر.

وسير سلمان بن جعفر بن فلاح إلى الشام على عسكر ، وخلع عليه ، وقلده سيفا مذهبا ، وحمله على فرس ، وقاد بين يديه اربعة افراس بمراكبها ، وانعم عليه إنعاما زائدا ، وانفق في المغاربة السائرين معه ، وبعث إليه بخزانة مال على ثمانية وستين بغلا فيها

اربعمائة الف دينار وسبعمائة الف درهم ، وبعث إليه بستة واربعين حملا من السلاح وعشر جمازات عليها الدروع وست قباب بفرشها واجلتها ومناطقها وسائر آلاتها ، وست جمازات بجنب الة الديباج الملون وثلاثين جمازة بـأجلة وعشرة أفراس وثلاث بغلات بمراكبها ، ومنديل يحمله خادم فيه ثياب من ثياب العزيز وسيف من سيوفه.

وصار ابن عمار ينزل ويركب من باب الحجرة التي فيها الحاكم فيشق القصر راكبا ، والزم سائر الناس بالتبكير إلى داره ، وكانوا يزدحمون على بابه وفي دهاليزه ، وبابه مغلق . ثم يفتح بعد حين فيدخل الأعيان إلى قاعة الدار ويجلسون على حصير ، وهو جالس في مجلسه لا يدخل إليه احد مقدار ساعة . ثم يأذن للأعيان كالقاضي ووجوه كتامة القواد فيدخل اكابرهم .ثم يؤذن لسائر الناس فيزدحمون ولا يقدر أحد على الوصول إليه ، فمنهم من يومىء إلى تقبيل الأرض ، وهو مع ذلك لا يرد السلام على أحد.

فإذا خرج لا يتمكن من تقبيل يده إلا قوم بأعيانهم . وباقي الناس يقبل بعضهم الركاب ، وبعضهم يومىء إلى تقبيل الأرض .

وانفد ما في الأصطبلات من الخيول فـأنعم على كتامة بـألفين وخمسمائة فرس ، واخرج للحملان والقود شيئا كثيرا ، وحمل من الخيل والبغال والنوق لسلمان بن فلاح زيادة على الف راس ، وباع من الخيل والبغال والنجب والحمير ما يتجاوز الوصف حتى بيعت الناقة بستة دنانير .وقطع اكثر الرسوم التي كانت تطلق للأولياء من الأتراك وغيرهم .وقطع أكثر ما كان من المطابخ واقتصر على البعض .وقطع ارزاق جماعة من اصحاب الراتب ، وفرق كثيرا من جواري القصر على الناس ، وكان فيه من الجواري والخدم عشرة الاف جارية وخادم ، فباع من اختار البيع واعتق من سأل العتق ، كل ذلك طلبا للتوفير .

وحمل إلى سلمان بن فلاح جل رحل العزيز وامتعته ،واصطنع احداث المغاربة ، فكثر عبثهم وامتدت أيديهم إلى اخذ الحرم من

الطرقات ، وسلبوا الناس في الشوارع وغيرهـا .فكثرت شكاية الناس منهم فلم يشكهم . ثم إنه فرط في الأمر حتى تعرضوا لغلمان الأتراك يريدون أخذ ثيابهم .فثار بسبب هذا شر قتل فيه واحد من المغاربة وغلام من الأتراك .فاجتمع شيوخ الطائفتين وصاروا احزابا .فقام ابن عمار في نصرة المغاربة ، ووقعت الحرب بين الفريقين ، وقتل جماعة منهما .فانطلقت الألسنة من كل منهما بالقبيح في حق الآخر ، واقاموا على المصاف يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء تاسع شعبان فركب بينهما ابن عمار يوم الخميس بآلة الحرب وحفت به المغاربة .وتجمعت الأتراك ، وكانت بينهما وقائع قتل فيها عدة رجال وجرح كثير ، وجمعت الرؤوس بين يدي ابن عمار .فأنكر ذلك وعرف أنه اخطأ في ركوبه ، فعاد إلى داره .

ونزل إليه برجوان ليصلح بينه وبين الأتراك .فعندما دخل إليه برجوان ركب غلمان الأتراك دار ابن عمار فعاد برجوان إلى القصر ، وامتدت أيدي النهابة إلى دار ابن عمار واصطبلاته ، وإلى دار رشأ غلامه ، فأخذوا منها ما لا يحصى كثرة . وكان أكثر من نهب المغاربة الذين اصطنع أحداثهم .فسقط في يده ونجا بنفسه إلى داره بمصر ليلة الجمعة لثلاث بقين من شعبان سنة سبع وثمانين وثلاثمائة وعزل عن النظر ، فكانت مدة أيام نظره أحد عشر شهرا تنقص خمسة أيام .ولزم داره بمصر سبعة وعشرين يوما .ثم خرج إليه الأمر بعوده إلى القاهرة فعاد وترك داره ليلة الجمعة خامس عشرين شهر رمضان .واقام بها لا يركب ولا يدخل إليه أحد إلا اتباعه وخدمه .ورسم بإطلاق رسومه وجرايات حشمه وكل ما كان له في أيام نظره من فاكهة وثلج وغيره ، ومبلغ ذلك من ثمن اللحم والحيوان والفواكه والتوابل خمسمائة دينار في كل شهر ، وسلة فاكهة في كل يوم بدينار ، وعشرة ارطال شمع كل يوم وحمل ثلج عن يومين .

فلم يزل ملازما لداره إلى ان اذن له الركوب يوم السبت الخامس من شوال سنة تسعين .فركب إلى القصر ونزل موضع نزول الناس

بأسرهم ،وواصل الركوب الى يوم الاثنين رابــع عشرة ، فــأحضر عشية إلى القصر وجلس بــه إلى عشــاء الآخــرة ، ثـــم اذن له في الانصراف .فعندما قام ثار به جماعة مــن الأتــراك قــد أعدوا لقتله فقتلوه واحتزوا رأسه ودفنوه مــوضعه .ثــم ســأل أهله في نقله إلى تربته ، فحمل إليها بالقرافة .وكانت مدة إقامته بعد عزله عن النظر إلى أن قتل ثلاث سنين وشهرا واحدا وثمانية عشر يوما.

محمد بن حسن الكلبي

(من المقفى المقريزي ـ مجموعة ليدن)

محمد بن الحسن بن علي بن ابـي الحسـين ، ابـو عبـد الله ، الصقلي ، أحد أمراء صقلية المعروفين ببني أبي الحسين ولد سـنة تسع عشرة وثلاثمائة •

وقدم من صقلية الى المهدية على المعـز لدين الله في سـنة ثمـان وخمسين وثلاثمائة عندما كتب المعز الى الأمير ابي القاسم احمد بن الحسن بن علي أن يرحل الى إفريقية بأهله وماله وجميع مـن يتعلق به ، فاستخلف على صقلية يعيش مولى ابيه الحسن بن علي•

وقدم أبو عبد الله هذا الى مصر مع المعز ، وكان اخص الناس به واقربهم إليه • فلم يزل بالقاهرة الى أن مـرض ، فعـاده المعـز في مرضه • ومات لاحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة ثلاث وستين وثلاثمائة ، فغسله القاضي النعمان بن محمـد وصـلى عليه المعز ، وفتح تابوته ،واضجعه بيده هو وابنه الأمير عبد الله بن المعز ودفن في داره بالقاهرة .

واجاج بن زلو اللمطي (١٤)

من أهل السوس الاقصى • رحـل الى القيروان فـأخذ عن ابـي عمران الفاسي ثم عاد الى السوس فبنى دارا سماها بدار المرابطين لطلبة العلم وقراء القرآن ، وكان المصامدة يزورونه ويتبركون بدعائه واذا اصابهم قحط استسقوا به • فسـمعت الشـيخ ابـا مـوسى (عيسى) بن عبد العزيز الجـزولي يقـول : اصـاب الناس جـدب بنفيس • فذهبوا الى واجاج بن زلو اللمطي وهو بالسوس • فلمـا وصلوه ، قال لهم : ما جاء بكم ؟ فقالوا له : قحطنا وجئناك لتـدعو الله لنا ان يسقينا • فقال لهم : إنما مثلكم كمثل قوم ابصروا جبـح نحل فظنوا أن فيه عسـلا ! ولكن انزلوا عندي فـانكم اضـياف • فأضافهم ثلاثة ايام • فلما عزموا على الانصراف وجـاؤوه لوداعه ليرجعوا الى بلادهم قال لهم : إياكم ان ترجعوا من طـريقكم الاولى التي أتيتم فيها فارجعوا مـن طـريق اخـرى لتسـكنوا في الغيران والكهوف من الأمطار • فلمـا انصرفـوا عنه أرسـل الله عليهـم السحائب بالامطار ودامت عليهم الامطار فلم يصلوا الى بلادهم إلا بعد ستة أشهر ••••••

رسالة جوابية من الخليفة الحكم المستنصر الى الامبراطور البيزنطي تيوفيل (١٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

اما بعد ، فقد بلغني كتابك ، تـذكر فيه الذي كان عليه مـن مضى منكم لأولينا من المودة الصادقة ، وانه قد دعاك ذلك إلى مـكاتبتنا ، وإرسال قرطيوس رسـولك إلينا لتجـديد تلك المودة ، وتـرتيب تلك المصادقة ، وتسأل أن ينعقد فيما بيننا وبينك من ذلك ما نتمسك به ، ونتواصل له ، ونبعث رسلا من عندنا إليك ، ليعلموك بـالذي نحـن عليه من الرغبة فيما حضضت عليه ، ودعوت إليه ، لتثبت بقـدومهم عليك مودتنا ، وتتم به صداقتنا .

وفهمنا ماذكرته من أمر الخليفـة مـروان رضى الله عنه وصـلى عليه ، ومن وشائج قرابتنا منه ، وأسيت لما استلب مـن سـلطانه ، واستبيح من حرمه ، واستحل من دمه ، وماكان مـن الفـاجر ابـى جعفر تربه الله ، وجـراءته على الله ، واغتـراره بـه ، وانتهـاكه لمحارمه ، والله قـد أحصى عليه ذلك ، فاسـفه منه ، فهـو لامحـالة يجازيه جزاء سعيه .

ثم الذي ذكرته من فعل الخبيثين ابن مراجل وابـن مـاردة أخيه بعده ، من إلحادهما في نحلتهما ، وإساءتهما لسيرتهما ، ورغبتهما في رعيتهما ، وشدة وطـأتهما عليهـم ، واسـتحلالهما دمـاءهم واموالهم ، وما ذكرت من حضور وقت زوال دولتهم ، وانقطاع مـدة سلطانهم ، وتأذن الله برد دولتنا ، وسـلطان ابـائنا ، الذين نبـأت عنهم الكتب ونطقت بهم الرسل ، وأوجب لهـم الاجمـاع ، وحـازه إليهم البرهان ، والذي حضضت عليه من الخـروج إليهـم ، وطلب

الثأر منهم ، ووعدته من نصرتك لنا ، بما ينصر الصديق صديقه ، ومن يعلم هواه فيه ومودته له ، وما عطفت عليه من امر ابي حفص، ومن معه من جالية بلدنا ، وغلبتهم على ما غلبوا عليه من بلدك ، وخضوعهم لابن ماردة ودخولهم في طاعته ، وما سألت من اهل الانكار لذلك والانفة منه ، وحكيت من امراء إفريقية في نزعهم عن ابن ماردة ، وخلافهم عليه ، واستثقالهم لدولته ، وكل ما حكيت من ذلك وقصصته في كتابك ، فقد قرأناه وفهمناه .

واما ما رغبت من مودتنا ، واحببته من مصادقتنا ، واردت تجديده وتوصيله والتمسك به وتوثيقه ، مما كان عليه اولوك لأولينا ، فقد رغبنا منك في مثل الذي ذكرته من حرصك على مواصلتنا ، وان نتمسك من ذلك ، بما كان عليه سلفنا ، وما لم يزل من كان قبلنا من الملوك يتمسكون به ، ويتحاضون عليه ، ويحفظه بعض لبعض ويشدون ايديهم به .

واما ما ذكرت من امر الخليفة مروان بن محمد رحمه الله ، فإن الله تعالى احب ان يكرمه بما انتهك من حرمته ، ونكث من بيعته ويسوقه إلى رحمته ، وان يشقي بذلك من ركبه منه ، ويخزيه ويعذبه عليه .

واما ماكان عليه الفاجر ابو جعفر في تعذيبه العباد ،وظلمه وجراته على الله ، وانتهاكه لمحارمه ، فإن الله قد اخذه بذنبه ، واستدركه ببغيه ، وصيره من عذابه ونكاله ، إلى ما لاإنقطاع له ، ولاتخلص منه ، جزاء بما اجترح ، وكذلك حكم الله في اهل معصيته ، واولي الاجتراء والافتراء عليه .

واما ما ذكرت من امر الخبيث ابن ماردة ، وحضضت عليه من الخروج إلى ما قلته وذكرته من تقارب انقطاع دولته ودولة اهله ، وزوال سلطانهم ، وما حضر من وقت رجوع دولتنا ، وازف من حين ارتجاع سلطاننا ، فإننا نرجو في ذلك عادة الله عندنا ، ونستنجز موعوده إيانا ، ونمتري حسن بلائه لدينا بما جمع لنا من طاعة من قبلنا ، من اهل شامنا واندلسنا واجنادنا وكورنا وثغورنا ، وما لم

نزل نسمع ونعترف ، أن النقمة تنزل بهم والدائرة تحل عليهم من أهل المغرب بنا وعلى أيدينا ، فيقطع الله دابرهم ، ويستأصل شأفتهم إن شاء الله تعالى .

وأما ما ذكرت من أمر أبي حفص الأندلسي ، ومن صار معه من أهل بلدنا ، في خضوعهم لابن ماردة ، ودخولهم في طاعته وما سألت من النظر في أمورهم ، والانكار لفعلهم ، فإنه لم ينزع إليه منهم إلا سفلهم وسوادهم وفسقتهم وأباقهم ، وليسوا في بلدنا ولا برتبتنا فنغير عليهم ، ونكفيك مؤنتهم ، وإنما اضطروا إلى الدخول في طاعة ابن ماردة ، لمأمنهم من بلاده ، ودنو ناحيتهم من ناحيته ، ولم نكن نحسبك تعجز عنهم ، ولاتصعب عن نكايتهم ، ولاتتوقف عن إخراجهم عما تطرقوه من بلدك ، وإذ ترى مكانهم به من موضعك وإن الله بحوله وقوته وفضله ومنته رد إلينا سلطاننا بالمشرق وما كان تحت أيدي أبائنا منه نظرنا في ذلك بما فيه صلاح لنا ولك ، واستقامة لطاعتنا وطاعتك ، وعرفنا الذي يكون من معونتك على ما دعوت إليه ، وحضضت عليه بما يعرفه الصديق لصديقه ، وذو المودة لأهل مودته ، ولم يضع لك عندنا مارعيته من حقنا وقمت فيه من حفظنا .

وقد أدخلنا رسولك قرطيوس علينا ، وكشفناه على الذي أوصيت به إلينا ، وعن كل ما يجب لصديق أن يعرفه من حال صديقه ، ووجهنا إليك بكتابنا مع هذا رسولين من صالحي من قبلنا ، فاكتب إلينا معهما بالذي أنت عليه من الأمر الذي كتبت به إلينا ، والذي يجب عليك من سائر خبرك ، ومتعة عافيتك لننظر فيما يتصرفان به من عندك على حسب ما يأتينا به من عندك إن شاء الله .

رسالة الراهب الفرنسي يشوع ورد الباجي عليها (١٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وعلى اله

رسالة الراهب من أفرنسة ـ دمرها الله ـ الى المقتدر بالله صاحب سرقسطة ·

الى الصديق الحبيب الذي نؤمله ان يكون خليلا مدانيا ،المقتدر بالله على دولة هذه الدنيا الملك الشريف ،من الراهب احقر الرهبان ، الراغب في الانابة والايمان بالمسيح يسوع ،ابن الله سيدنا'''

لما انتهى الينا ـ ايها الأمير العزيز ـ امرك الرفيع في الدنيا وبصيرتك في تبين احوالها المتغيرة ،راينا أن نراسلك وندعوك ،لتؤثر الملك الدائم على الملك الزائل الفاني . وإنك قد رأيت كتابنا اليك الذي راجعت عليه مراجعة نبيلة على حسب نظر أهل الدنيا ،ولم تكن بحسب مطلوبنا من المراجعة الروحانية ، ولذلك تراخى زماني بمراجعتك اذ توقعنا أن نتكلف تعبا لا نجتني به ثمرة ، وحقا إن القادر على الكل الذي اصطفى اولياءه قبل خلق العالم ،ولم يسبق ـ في علمه ـ هلاكهم ،قد أنار قلبك ،وأشعره للايمان بالاله المسلم لك ، وهو الرحمن الرحيم ،الغفور ،الذي يهديك لمعرفته ،وليس يسعنا أن نتراخى عن الاجتهاد في تتميم هذه المصلحة بجميل معونته لتشترك معنا في ملكوته إن اثرت ذلك ' ولهذا الأمر ،اشخصنا اليك من اخواننا من يورد عليك كلاما الهيا ـ على مايوفقهم الله اليه ـ ويشرحون لديك حقيقة دين النصارى ،ويقرون عندك معرفة المسيح سيدنا الذي لاينبغي لنا الايمان بأحد سواه ،ولانرتجي النجاة إلا به

،فهو الاله الذي اتخذ حجابا على صورتنا لينقذنا ـ بدمه الطاهر ـ من هلكة ابليس

ولقد كنا ـ ايها الملك الشريف (نود أن)(١٧) نورد كثيرا من هذا القول لولا ما نتوقعه من تألمك بسماعه ، وفي ذلك كله برهان الملة المسيحية ، وبيان جلالتها ، وإن الاحاطة بكنهها مما يعجز دونه ادراك الانسان وملك الله ـ تعالى ـ اجل واعظم من ان يدركه فهم الانسان او يصل اليه بعلم الكلام الان من أيات الله القادر على كل شيء أن يشرح صدور الآدميين ويدخل روح العلم في قلوبهم ليتمكن الايمان في نفوسهم

ولما كانت الدنيا ـ من قبل ـ معمورة بالضلال ، والعالم مدنسا بعبادة الأوثان ، حسن عند الله القادر في ـ اخر العهد ـ أن يعيد الزمان جديدا ، ويستدرك الصلاح الذي فات العالم في ادم الوالد الأول ، وذلك أمر قد اهتدى اليه اباؤنا من قبل ابراهيم واسحق ويعقوب ، والأنبياء افصحوا به من بعدهم ، وهو عهد من الله مؤكد قبل التوراة وبعد تنزيل التوراة أن يكون الالتحام المقدس معلوما.
وليس هذا مما تختص به مصاحفنا فقط بل هو منصوص في مصاحف اليهود والمخالفين لنا ببيان واضح، وان الشيطان اللعين الذي عرض أهل هذه الدنيا للموت ، بجسده لأدم ، حاول تغيير هذه الملة المقدسة بعد اقبال الحوار بين الذين هدوا اهل الأرض بالموعظة،
وبعد ظهور الشهداء الأصفياء على ابليس بالغلبة ، الذين هرقوا دماءهم في أقطار الأرض في ذات الله ، وفي سبيل شريعته المقدسة،
فلم يستطع أن يغري اهل الدنيا ، ويحملهم على ضلالهم القديم من عبادة الأوثان فشبه على بني اسماعيل في أمر الرسول الذي اعترفوا له بالنبوة ، فساق بذلك انفسا كثيرة الى عذاب الجحيم .
وقد كان فيما سلف من ذنوب ابليس وتضليله للعباد ما يلقيه العذاب الأليم يوم القيامة من الله سيدنا ايشوع المسيح ، وقد ضاعف تلك الذنوب بما أوبق فيه هذه الذمم العظيمة .

فاعتبر ـ ايها الملك الشريف ـ ولاتؤثر شيئا على نجاة نفسك يوم

الحكم والجزاء ، فإنا مخلصون في تخدم أمورك ، ومسارعون الى تفديتك بنفوسنا ، ومتى قبلت قولنا وعملت برأينا ، وتقررت عندنا إجابتك الى ما ندعوك اليه من قبول كلمة النجاة الذكية التي نعرضها عليك لم نتوقف عنك عن اللحاق بك ،فتأمل أيها الحبيب ،ما يحق عليك العمل به والمسارعة اليه واغتبط بما يدين عليه اخواننا في هذا القطر من الدعاء ، وبذل الصدقات الزاكية عنك ، ومامنهم أحد رآك ولا شاهدك ، وانما يتبرع بذلك رغبة في أن يهديك الله الى مرضاته.

والسلام عليك ـ ياأيها الحبيب ـ من سيدنا المسيح الذي أذهب الموت ، وقهر الشيطان ، ورحمة منه وبركة باستنقاذك من حبائل ابليس التي كنت فيها متورطا الى الآن ، ونسأل الله الذي له القدرة والعظمة ، الذي من أجله خلق كل شيء ، ومن دونه لم يخلق شيئا ان يهديك ويثبت في نفسك ما دعوناك اليه ، وحضضناك عليه .

وإن لم يظهر لك ياأيها الحبيب مراجعتنا بجوابك على ما تضمنه كتابك لدفات الكتب ، فأودع ذلك إخواننا هؤلاء واطلعهم على سرك، وما يتمثل في نفسك ، ونحن نضرع الى سيدنا ايشوع المسيح أن يتولى رعايتك ، ويتكفل سلامتك ، ويهديك الى دينه المقدس، ويسعدك بالايمان الصحيح به أمين .

وهذا جواب الفقيه القاضي الجليل الفاضل ابي الوليد الباجي - رحمة الله عليه ورضوانه على هذه الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على محمد وعلى آله وسلم

العزة لله والصلاة على رسوله

تصفحت - أيها الراهب - الكتاب الوارد من قبلك ، ومامذنت به من مودتك ، واظهرته من نصيحتك ، وأبديته من طـويتك ، فقبلنا مودتك لما بلغنا من مكانتك عند أهل ملتك ، واتصـل بنا مـن جميل ارادتك ، ونبهتنا - لعمر الله - بنصيحتك ، على ما يلزمنا من ذلك لك ، ولولا ما كنا نعتقد من بعد مستقرك ، وتعـزر وصـول كتبنا اليك لكنا احرياء ان نأتي من ذلك مـا يلزم ، ونسـلك منه السـبيل الأوجب ، ولكنت عندنا جديرا بعرض الحق عليك ، وايصـاله اليك فقد قرر لدينا من وصل من رسلك ، وأهل ملتك علينا ما تظهره مـن حرصك على الخير ، ورغبتك في الحق ، مما قوى رجاءنا في قبولك له ، واقبالك عليه ، واخذك به ، وانابتك اليه ، وقد كان ورد علينا - قبل هذا - كتابك وما اقترن به من دعوى حاملة المحـال الذي كان يجب الا يخاطب به من له اقل حس بالاحساس أو يختلج بخاطر من له أدنى فهم من احياء اموات ، واعظـم رفـات ، فـألنا القـــول وأوليناه الاعراض والصفح ، وجاوبناك جواب من يعتقد مـا ظهـر منك ، وبلغنا عنك ، من خـطرات الغفلة انك أرسـلتها دون تـأمل واظهرتها دون تحصيل ولاتحقق ، مـع انه يجـوز على ضـعفاء المسلمين من ذلك ما يجوز على جماعتكم من تجويز محال وتصـحيح ما هو غاية الابطال ، فقصـدنا الرفـق والتـأنيس لك ، وكان ذلك

افضل ما روجع به من ترجى عودته ، وينتظر انابته وفيئته ، فانما يستعمل الاغلاظ لمن يتيقن عناده ، ويتبين اصراره ، ولم يرج انقياده ، ونحن نرجو ان نرفعك عن هذه المحطة ، ونخلصك من هذه الوصمة ، بفضل الله وعونه وتأييده ونصره .

ولما تكررت علينا رسائلك ووسائلك تعينت علينا مفاوضتك ، بما رضيناه من مسائلك ، ومعارضتك فيما اخترناه من منهجك في النصح ، الذي يجرى اليه اهل الفضل ، وأمرنا الله به على السنة الرسل ،وكففنا عن معارضتك على ما استقبحناه من خطابك، وسخطناه من كتابك ، من سب الرسل الكرام ، والأنبياء المعظمين عليهم السلام ، وانحرفنا عن ذلك الى ان نحذرك ونذرك ونعذرك فيما لم يبلغك علمه ، ولم يتحقق لديك حكمه ، ونبالغ في الرفق بك ، والتبيين لك على منهج الخطب والرسائل ، ولاعلى طريق البراهين والدلائل ، مساعدة على مذهبك في كتابك، وموافقة لك في مقصدك ، فعسى أن يكون أقرب الى استمالتك ، وابلغ في معارضتك ومعالجتك.

وأنا لنربأ بمثلك ، ونرفع قدرك عما استفتحت به كتابك من ان عيسى – صلى الله عليه وسلم – ابن لله تعالى ، بل هو بشر مخلوق وعبد مربوب لا يعدو عن دلائل الحدوث من الحركة ، والسكون ، والزوال ، والانتقال ، والتغيير من حال إلى حال ، وأكل الطعام والموت الذى كتب على جميع الأنام مما لا يصح على إله قديم ، ولا يمكن عند ذي راي سليم ، ولو جوزنا كونه ، صلى الله عليه وسلم – مع هذه الصفات ، والأحوال المحدثات ، إلها قديما ، لنفينا أن يكون العالم او شيء مما فيه محدثا مخلوقا لأنه ليس في شيء مما ذكرنا من البشر والعالم ، وما فيه من الحيوان والجماد من دلائل الحدوث غير ما في عيسى – صلى الله عليه وسلم – وإن الله – تعالى – خلق عيسى – عليه السلام – من غير اب كما خلق ادم – صلى الله عليه وسلم – من تراب ، وقد حملت بعيسى أم ، ولم تحمل بادم أنثى ولا ذكر ، فإذا

لم يكن آدم الاها ـ وهو الأب الأول ـ بل مخلوق ، فعيسى أولا أن يكون الاها وهو من ذرية آدم وولده ، بل هو عبد مربوب ، وإن هذا لواضح لمن جهل معنى الحدوث ، ولم يميز الخالق من المخلوق!

وأما من نظر في شيء من ابواب العلم ، وايد باعتبار وفهم ، فعلامات الحدوث أوضح ، ودلائلها أصح من ان تخفى او تشكل أو يمتري في أمرها من له من العلم أدنى محل وقد ظهر على أيدي سائر الرسل ـ عليهم السلام ـ من الآيات الواضحة ، والمعجزات الباهرة مثلما ظهر على يدى عيسى ـ عليه السلام ـ وأكثر ، فلو جاز أن يدعى لعيسى ـ عليه السلام ـ بشيء مما ظهر على يديه من إحياء ميت وإبراء أكمه وابرص ، بأنه ابن لله ـ تعالى ـ لجاز أن يدعى ذلك لأبراهيم لما ظهر على يديه من سلامته من النار بعد أن قذف فيها ، ولم ينجح عيسى من عدد يسير من البشر راموا ـ بزعمكم ـ صلبه وقتله ، ولجاز أن يدعى ذلك لموسى عليه السلام لما ظهر على يديه من قلب العصا حية وفلق البحر ، ولجاز أن يدعى لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما ظهر على يديه من انشقاق القمر ، ونبع الماء من بين أصابعه ، وتسبيح الحصى في يده ، وحنين الجذع إليه وغير ذلك من الآيات لكن الآيات لا تقتضي تجويز المحال ، وإحالة الجائز الممكن.

وإذا كان ربنا ـ تعالى ـ قديما ـ سبحانه أن يكون محدثا أو مخلوقا ، وكان من وجدت فيه دلائل الحدوث من الأكل والشرب والزوال والانتقال لا يكون إلا مخلوقا مربوبا لم يدل إحياء الموتى على يديه أنه إله معبود وإنما يدل ظهور ذلك على يدى مدعي النبوة أنه نبي صادق لأن ما فيه من صفات الحدوث لا تحيل كونه نبيا .

ولو جاز أن يقال إن عيسى ـ عليه السلام ـ هو الخالق لما ظهر من ذلك على يده والمنفرد بفعله لجاز ان نقول إن أدم وإبراهيم وموسى ومحمدا وسائر الأنبياء ـ عليهم السلام ـ انفردوا بخلق ما ظهر من ذلك على أيديهم ، وأن جميعها من خلقهم وأنهم

ـ لذلك ـ الهة معبودون ' وذلك محـــال ، فـــلا خالق إلا الله ، ولا معبود سواه ، وهؤلاء انبياء مكرمون ، ورسل مؤيدون صدقهم الله ـ تعالى ـبما ظهر على ايديهم من المعجزات التـى لا يقـدر عليهـا غيره ، ولا يصح ان يخلقها سواه ، وامر الدنيا احقر وشانها انفـر وأنذر من ان يغتر بها ذو عقل او يسكن الى غرورها ذو لب ، وإنمـا هي دار اختبار واعتبار ، وليست بدار جزاء ولا قرار ، فالسعيد من عمل فيها وتزود منها الى دار المقام الذى لا ينقضى بل يتـأبد ، حيث ينفرد ربنا بالملك ، ويصير من اطاعه وافرده بالعبادة وأمن بـرسله وكتبه إلى رضاه في دار النعيم ، ويصير من أشرك به وكفر بشيء مـن كتبه او أحد من رسله الى سخطه في دار الجحيم ، ونرجـو أن الله ـ تعالى ـ يجنبك بـالاسلام منهـا ، ويبعـدك بـالانتقال الى دين محمد ـ عليه السلام ـ عنهـا ، وإن الله ـ تعـالى ـ انار قلوب جماعة المسـلمين بـالاسلام ، واعزنا بـه واكرمنا بـاتباع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورضـينا له ، وخصـنا بـالقران الكريم (الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) (١٨) أفضل الكتب والخـاتم لهـا ، والحـاكم عليها ، والمصدق لها .تضمن علم الأولين والآخـرين ، وأنار قلوب المؤمنين بالحق المبين ، نحمد الله على مـا خصـنا بـه ، وهـدانا له ، (وماكنا لنهتدي لولا أن هـدانا الله) (١٩) ويلزمنا الاجتهـاد في النصح لك والرفق بك ، والحرص على أن تكون من جملة هذه الأمـة المكرمة ، ومن أهـل هـذه الملة المعـظمة ، الناسـخة لجميع الملل ، والحاكمة على سائر الفرق ، فتفوز برضى رب العالمين وتنجـو من سخطه ، وتنال ثواب يوم الدين ، وتخلص من معرته ، وتسـعد في الدنيا بالكون من جملتنا ، وتحظى بالقرب من نفوسنا

واما ملكوت رب العالمين فهو المنفرد به - تعالى - لا ينبغـي أن يشركه فيه طائع ولا عاصي ، ولا بر ولا فـاجر ، وإن اردت بـذلك أن يكون من اطاعك في ملك الله -تعالى - فذلك حال من عصاه ، وحال اهل الدنيا ، والأخرة ، لا يخـرج احـد عن ملكه ، ولكنهـا الفـاظ تستعملها في غير مواضعها لأنك لا تعرف مقتضـاها ، ولـودننا أن

الله - بفضله - ييسر لك الهجرة إلينا ، والمثول لدينا ، فتسمع الكلام على حقيقته في معاني هذه الألفاظ ، وتقيم وجوهها واستعمالها على ترتيبها ، وتسمع الكلام الالهي على الحقيقة ، كلام رب العالمين ، تولي حفظه ربنا - عز وجل - وعمر به السنتنا وقلوبنا ، فلا يمكن أحد تغييره ولا تبديله ، ولا صرفه عن وجهه ولا تحريفه ، فلو قرع سمعك منه سورة واحدة ، او اية كاملة ، لرجونا أن يكون ذلك مما ينور قلبك ، ويستولي على نفسك ، ويعود بك الى الدين الأفضل والسبيل الأمثل (ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين) (٢٠) وقد وردا متحملا كتابك فما أورد إلا كلام البشر الذي جرت عادة أهل الضعف بايراده عند العجز والفشل ، والتبلد والخور ، مع التحير والانقطاع ، والاضطراب في الدعاوى والأقاويل ، وادعيا في أول الأمر من المحال قريبا مما ادعى الوارد قبلهما مع تكذيبهما له فيما نقل عنك ثم الت حالهما الى مثل ما الت حاله إليه من تكذيب انفسهما ، وتكذيب المعبر عنهما فيما نقل عنهما ، وترجمه من قولهما .

وعندنا من علم شريعتكم ، واختلاف اخبساركم في ملتكم ، وما تورده كل طائفة من شبهكم في الأقانيم والاتحاد ومعنى اللاهوت والناسوت والجوهر وغير ذلك من تنميقات اناجيلكم مالو أبدينا اليهما اليسير منه لحيرهما وبهرهما ، وعلما أن عندنا من جملهما وتفاصيلهما ما لم ينته اليه أحد من أهل ملتكم ، ولا وصل الى تفريعه وتتبع معانيه أولكم وآخركم ، لكنا آثرنا الرفق بهما والاخفاء عليهما ، والتأنيس لهما ، وألنا لهما القول ، وأبدينا اليهما نبذة خفيفة من الأمر مما لا تنفر منه نفوسهما ، ولاتتوجع من سماعه خواطرهما ، آخذين في ذلك بأدب الله - تعالى - في أمثالهما.

وقد رأينا ما في كتابك مما خالفت فيه جميع أهل ملتك فإنه ليس في فرق النصارى من يقول إن المسيح لا ينبغي الايمان بأحد سواه ، بل هو الايمان بالأب عندكم واجب ، والأب لم يتحد بالناسوت عندكم ، وإنما اتحد به الابن ، فمن لم يؤمن بغير الابن

كفر بالأب ، وقد تقدم في كتابك أن المسيح ابـن الله ، وهـذا نقض لقولك إنه لا ينبغي الايمان بغير المسيح الذى هو الابن.

ولو تتبعنا مــا في كتــابك مــن التناقض ، وفســاد الوضع ، ومســتحيل القــول ، لما ســلم منه الا اليســير الحقير ، لكنا ـ وفقنا الله وإياك ـ حملنا ذلك منك على ما عهدناه من أهل ملتك من قلة العلم ، والبعد عن مقاصد المناظـرة ، وتــرك المدارسة والمحاورة مع تمويهات لا تصح ، وتلفيقــات لا تثبــت ولا تنصر ، وأرجــو أن يوفقــك الله ، بإرشــادنا لك ، إلى تــرك التمــويه ، والتعلق بــالمغالطة والكذب ، ويعــوضك علم الحقائق ، وصحيح المقاصد ، وادب المناظـرة التــي تفضى بــك الى السبل اللائحة، والحقائق الواضحة ،وقد جـرى مــن كلام الواردين من أصحابك اللذين اخترتهما للذيابة عنك من هذا النحو مــا اتبعــاه بالتحير والتبلد والانكار له بعد الاقرار به ، ولوددنا أن تصــير إلينا فنبلغ الغرض من تعليمك ، ونتمكن مــن تفهيمــك ، ونبين لك مــن تحقيق الكلام وتحــريره ، وتفصــيله وتــوجيهه ، وتــرتيب الأدلة ومقتضاها ، وإحكام البراهين ومنتهاها ، مايزيل كل سخيفة مــن نفسك، ويطهر من دنسها قلبك ، فتعاين الحق جليا واضحا ، والدين قويا لائحا على أن ملك الله تعالى أعظم من أن يحيط به فهم إنسان أو تستوعب صفاته بكلام أو بيان ، فمن عظمته ـ تعالى ـ وقدرته وعزته ، انفراده عن الأشراك والأنداد ، واستغناؤه عن الصــاحبة والأولاد. (ما أتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق) (٢١) تفــرد بــالخلق والانشــاء ، وكشــف الضر والبلوى ، وبعــث النبيين مبشرين ومنذرين ، فــأخبروا عن ربنا بعظيم قــدرته ، وعلو كلمتــه ، وإتمــام مشــيئته ، وبينوا شرائعه ، واوضحوا من تأملها إلى الحق ، وتنكب من خــالفها إلى الشرك ، ولولا الكلام ما عرف الجائز من المحال ، ولا تبين الهــدى من الضلال.

وما نحلة ولا ملة الا وهــي تــزعم أن نفــوسها نيرة بمــا

تعلمه ، منشرحة بما تعتقده ، وكذلك تقول البراهمة الذين يكذبون الرسل ، والدهرية الذين يدعون الأزل ، والفلاسفة القائلون بقدم العالم ، والثنوية المثبتون لخلق النور والظلام ، فما أحد من هذه الفرق إلا وهو يدعي أن نفسه اسكن إلى ما تعتقده ، وأوثق بما تنتحله ، وأنور بما تزعم انه يعلمه من نفوس مثبتي الرسل ، ومتبعي الكتب لكن وضع الكلام ونشره ، وتمييزه ووصفه يعلي الحق ويثبته ، ويدحض الباطل ويمحقه ، وإن الله ـ تعالى ـ جعل الدنيا دار تكليف وفتنة ، ليبلونا أينا أحسن عملا ، وجعل الآخرة دار ثواب وعقاب ليثبت المؤمنين المحسنين ، ويعذب الكافرين المشركين ، وجعل من اسباب الفتنة إبليس اللعين ، وبعث النبيين يهدون إلى صراط مستقيم (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) (٢٢) فهدى بالنبيين من شاء بفضله ، وخذل بابليس اللعين من شاء بعدله.

فأول الرسل إلى أهل الأرض أبونا أدم ـ عليه السلام ـ دعا الى عبادة الله وحده لا شريك له ولا ولد ، وكذلك الرسل بعده. كلما نسيت شريعة ، وتقادم عهدها ، بعث الله رسولا الى أهل الأرض يجددها ويؤكدها ، إلى أن بعث الله ـ تعالى ـ نبيا اسمه عيسى ـ عليه السلام ـ فدعا قومه إلى عبادة ربه ومنشئه وخالقه ، فآمن به اليسير ، والعدد القليل الذين لم يطيقوا منعه ممن اراده من أعدائه الكافرين المكذبين لما جاء به من قبله ، حتى رفعه الله إليه ، واختار له ما لديه ، (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم). (٢٣) وقد بذل دمه ـ بزعمكم ـ حرصا على استنقاذ الناس من الضلالة فما آمن به الا العدد اليسير ، وقد آمن بغيره من الأنبياء ممن لم يبلغ هذا المبلغ أمثال من آمن بعيسى ، فما إن توفي محمد ـ عليه السلام ـ حتى آمن به العدد العظيم الذي استحوذ به البلاد ، وتغلب على الآفاق ، وأظهره الله على الدين كله(ولو كره المشركون) (٢٤) ثم استفتح بعده باثر وفاته أصحابه بلاد الفرس على بعدها عن مكانه ، وتمكين سلطانها ، وعظم شأنها وقدرها ، واستفتحوا بلاد الشام وهي كانت افضل بلادكم ومكان

شريعتكم ، وإليها ينتهي حجكم وعبادكم فما صار لمن تـزعمون أنه إلهكم مع بذل دمه إلا اقل ما صار للمربوبين الآدميين من النبيين مع إعزاز الله لهم ، وحمايته إياهـم ، ولو كان عيسى إلهـا قـادرا لما احتاج إلى ذلك ، ولخلقهم مؤمنين ، ولو شـاء الله أن لايعصي مـا خلق الفتـن ولا إبليس اللعين ، ولكن الله ـ تعـالى ـ خلق للجنة اهلا للجنة بتوفيق الله ـ تعالى ـ يعملون ، وخلقَ للنار أهلا للنار بخذلان الله يعملون ، ولو علم الغيب عيسى ـ علية السلام ـ لما بذل دمه طمعا فيما لم يتم له ، ولا حصـل له منه شيء فـاعتبر ـ أيهـا الراهب ـ ضعف ماانت عليه ، وفضـل مـا ندعوك إليه ، فعسى أن يوفقك الله ويهديك ، فتصير بعلم الله بكونك مـن جملتنا ، وفيئتـك إلى ملتنا ، فقد بلغنا من إرادتك للخير ورغبتك فيه وحرصك عليه ما حرصنا به على إرشادك وهدايتك ورجـونا سرعة انقيادك وإنابتـك (وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت) (٣٥).

ومن اغرب ما تأتون به قـولكم إنه بـذل دمـه في خـلاص العبـاد ، وكيف يكون للرب دم ، والدم مـن الأجسـام المحـدثة المخلوقـة ، ولو حـررتم الكلام لزعمتـم أنه دم الناسـوت دون اللاهوت ، وللزمكم أن تقولوا: إن المصلوب هو الناسوت دون ابـن الله ـ تعالى ـ لكنكم حققتم أن إلهكم صلب ومات ، وهذه صـفة لا تصح إلا على محدث مخلوق ، لأن الحياة القديمة لا يصح عدمهـا . ولئن جاز هذا عليه ليجوزن على ابيه ـ بزعمكم ـ لأنه على صـفة ابنه بل هو عندجماعة منكم ، فكيف يكون إلها قـديما حيا قيمـا لم يزل من يجوز عليه الموت ، وعدمت حياته؟ وكيف لم يذهب عن نفسه الموت ، ولم يقدر على دفعه عنها وأذهبه ـ بزعمكم ـ على ما ذكرته في كتابك ؟ وإن جاز أن يموت ويكون مع ذلك إلها فما نمنع على هذا أن يكون من رأيناه أو سمعنا خبره ـ قديما ـ لم يزالوا آلهة ، وإن كان لهم اب أو ماتوا وفنيت حياتهم وعدمت ؟ وهل يصح أن يبلغ منه هذا المبلغ من الجهل الواضـح ، وتجـويز قلب الحقـائق ، ودعوى المحال إلا من سقطت مقالته واستحكمت جهالته وعميت بصـيرته ؟ فكيف يكون من هذه حاله يدعو إلى ما هو عليه ، ويندب إليه ؟ وهل

يمكن أن يكون في المقالات المستحيلة أو المحال المرذولة أشد فسادا من هذه التلفيقات التي تخجل من يوردها ، ولا يكاد يصح تكليف من يجوزها ويعتقدها ؟ وإني لا أعتقد أن مثل هذا لا يخفى عليك مع قلة المعرفة ، والبعد عن النظر في الأدلة لأن هذا ليس مما يدرك بدقيق النظر ولا يحتاج فيه إلى تأمل ، بل هو مما تناله أوائل العقول أو يدركه ببديهة من له أدنى تحصيل ، واظن أن الحامل لك على هذا احد امرين: إما انك لم تر من الشرائع غير ما قد نشأت عليه ، فاعتقدت أن سائر الشرائع تجرى هذا المجرى في الاستحالة والفساد ، فرأيت أن تستمر على ماوجدت عليه سلفك ، إذ لم يظهر لك سبيل إلى ماهو افضل منه ، أو رأيت انك قد نلت بهذا المحال عند جهال أهل ملتك منزلة تكره أن تنحط عنها ، وتبعد منها إذا انتقلت إلى الدين الصحيح لعلمك انك لا تنال درجة أدونهم منزلة في العلم ، فكيف بدرجة اعلامهم وأئمتهم وذوي التقدم منهم ؟.

ومن طريف ما تأتون به وتضحكون سامعه منكم قولكم:

« إن عيسى ابن الله » ـ تعالى عن ذلك ـ وتقولون إنه من ولد داوود ـ عليه السلام ـ وهذا ثابت في إنجيلكم ، ومتلو من كتابكم ، وتزعمون أن جبريل إذ بشر مريم به قال لها: « إنه يكون عند الله عظيما ، ويكون اسمه يسوع ، ويدعى بابن الله ، ويورثه الله ملك أبيه داود » ولا تحملون ذلك على أن داود أبوه من قبل مريم لأنها لم تكن من ذرية داود ، وإنما تحملون على انه أبوه من قبل يوسف النجار الذي تزعمون أنه كان زوجا لمريم ، فإذا كان عيسى من ولد داود ، وداود عبد مخلوق وجد بعد أن لم يكن ، ومات بعد أن حيا ، فكيف يكون عيسى الابن خالق ابيه وإلهه ؟ وكيف يكون ابا لداود المخلوق وابنا لله الخالق ؟وهل هذا إلا جهل بمعرفة الابن من الأب ، والقديم من المحدث والخالق من المخلوق ؟ ومن بلغ هذا الحد من الجهل لم يصح له اعتقاد شرع ، فكيف يدعو إليه ويتكلم عليه ؟ ولكن قلة التأمل مع حب الظهور يوجب التفريط ، ويورث التبلد والتحير ، نسأل الله العصمة.

وقد اختلفت فرقكم في الاتحاد الذي سميتموه التحاما اختلافا لعلة لم تبلغك ، ولو كنت لدينا لأريناك في هذا من كلام متقدمي أهل ملتك ثم من تقريع المسلمين على ذلك ، وتتبع الحجج لهم وعليهم بما لم يبلغه أحد منهم قط ، ولاسمعناك من غرائبه وعجائبه وتلفيقاته وتناقضه وفضائحه واضطراب رواة الاناجيل ما يملا سمعك ، ويطيش له لبك ، لكن الكتاب لا يحتمل التطويل لا سيما لمن لم يرد التأليف وإنما أراد التقريب وخاف تحير من ورد عليه الاكثار بالشرح والتفسير ، وما أحد من أهل الملل ، واتباع الرسل ممن تقدم عيسى — عليه السلام — ولا ممن تأخر عنه يقر بأنه وجد الالتحام الذى تدعونه في كتب ولا تنزيل ، ولا أخبر به نبي ولا رسول. وقد انزل ربنا في كتابه الكريم أن عيسى بشر بنبينا محمد — صلى الله عليه وسلم — فإما أن يكون علم هذا عندكم، وإلا فقد كتمه احباركم ، ومحوه من أناجيلكم ، فقد قرأناها معربة وعلمنا من اختلافها واضطرابها مادلنا على أنه قد دخلها التحريف والتبديل والزيادة والنقصان.

ومن ذلك ما في الانجيل من رواية متى انه بين ابراهيم ويوسف الذي تزعمون انه زوج مريم اثنتان واربعون ولادة.وفي رواية لوقا بين ابراهيم والمسيح خمسة وخمسون رجلا ليس فيهم من اسماء الذين في رواية متى الا عدد يسير . ولاتكاد هذه الروايات تتفق في شيء، والايمان بها عندكم واجب على اختلافها لأن الانجيل كتابكم واصل شرعكم ، فكيف يصح لكم الايمان بما يختلف ولايتفق ، ويتباين ولايتعاضد ، وكتابنا المحفوظ يحفظه الصغير والكبير لايمكن أحد الزيادة فيه ولاالنقصان . والذي يقراه ممن في أبعد المشرق هو الذي يقرأ به ممن في ابعد المغرب دون زيادة حرف ولالفظة ولا اختلاف في حركة ولانقطة .

واني لأعجب ايها الراهب — على ماينقل الينا من فضلك في قومك ، وتقدمك عند أهل ملتك ، مما يبدو من فرط غفلتك وعدم معرفتك فيما تضمنه كتابك من أن إبليس اللعين يقدر أن يضل من

شاء الله أن يهديه الى الدين القويم مع قولنا وقولك في كتابك (إن الله على كل شي قدير)(٣٦)

فأي قدرة له اذا كان قد بذل دمه في نقض ما شرعه ابليس وغيره من خلقه ، فلم يقدر على اصلاح ما افسده ، ولااسترجاع ما احدثه ، ولاتقويم ماعوجه ، وإبليس اللعين لم يبلغ فيما ناله من ذلك سفك دمه ، ولاتغير حاله، ولاتجسد لغير جسده ، ولاانتقل الى غير ماكان عليه ؟ إن هذا لما كان يجب أن لايجوز على اضعف الناس علما ، واقلهم فهما ، ولكن ليس هذا باغرب من قولكم إن إبليس عرج بعيسى الاله بزعمكم ، ورقى به اعلى جبل واراه زهرة الدنيا وقال له إن عبدتني ملكتك جميع هذا ، فلما سمع بذلك المسيح من كيد إبليس اللعين عاذ من شره واستجار من فتنته بصيام اربعين يوما ، واربعين ليلة ، فأمسك إبليس عنه فهل لمن حور هذا على ربه واخبر به عنه مسكة او بقيت بينه وبين التمسك بالحقائق والديانة نسبة ؟ اليس الاله هو الخالق لابليس والقادر على هلاكه متى شاء ، والمالك للأرض والسموات وما بينهما دون شريك ولاتمييز ، فكيف يخاف من هذه صفته بعض خلقه أن يفتنه ؟ أو كيف تحمل ابليس الأرض أو تظله السماء وهو يخاطب ربه ويدعوه الى عبادته ؟ وبعد أن يثيبه على ذلك ويملكه زينة الحياة الدنيا وهى ملكه ومن خلقه ، وربه يخاف فتنته ويستجير منه بالصيام ؟

وكيف يقول إنه يعاقبه في الآخرة بالعذاب الأليم ونار الجحيم وهو لايستطيع ان يخلص نفسه منه ومن فتنته في الدنيا ؟ وهل قدرته في الآخرة الا كقدرته في الدنيا ؟

وكيف تزعم انه سليم من حبائل إبليس وخدعه وهو يخاف على نفسه ويحتاج الى من يسلمه منه وهو القاهر والخالق لابليس ، كيف شاء ، والمهلك له اذا شاء ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا

وإن الله — تعالى — بلطفه وحكمته ، وعطفه ونعمته ، بعث

محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ فختم به الرسالة واكمل به النبوة وجعله آخر المرسلين ، وبعثه الى جميع العالمين ، ففضله بهذه الدرجات الرفيعة ، وابقى شريعته الى يوم الدين ، واكرمه بهذه المنة العظيمة . بعثه على حين فترة من الرسل ، ودروس من السبل ، وجهل بالشرائع ، وبعد عن معرفة الأديان والمذاهب وقد دخل جميعها التبديل والتغيير ، وقد خالفت اليهود وسائر الملل عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ وردت ما جاء به ، وانكرت ما دعا اليه ، واختلفت النصارى بعده على فرق ، كلها قد ضلت عن السبيل المستقيم والمنهج القويم ، واظهرت من الجهالات ما تحيله العقول ، وعبدت المجوس نيرانها ، وادعوا لله الصاحبة والأولاد ، وجعلوا له الأشراك والأنداد فابتعثه الله من خير الأمم وهم بنو اسماعيل ـ عليه السلام ـ ثم من خير بني اسماعيل وهم قريش قطب العرب وافصحها السنا واخلصها عنصرا وارجحها في معاني الدنيا عقولا ، واثقبها افهاما ، واتمها دهاء ، واعظمها غناء ، واكرمها اخلاقا ، واجودها اكفا واطيبها اعراقا ، فقام منفردا فيهم يدعوهم الى عبادة الرحمن ، وخلع الأوثان فخالفه في ذلك القريب والبعيد ، والعدو والصديق ، فآتاهم بالآيات المعجزات التي لايصح فيها تمويه ولاتلبس ، ولاتخييل ولاتحريف ، من انشقاق القمر بحضرة جميع من امن به وكفر ، ممن غاب عنه ومن حضر ، ونبع الماء من بين أصابعه في قدح صغير حتى توضأ منه العدد الكثير ، وتسبيح الحصى في يده ، وحنين الجذع اليه ، وإطعام العدد الكثير من الطعام اليسير ، وري الجيش العظيم من الماء القليل الذي لايكفي النفر اليسير ، وإبراء العيون بإمرار اليد عليها وغير ذلك من المعجزات التي لو شئنا أن نتتبعها لعظم بذلك الكتاب وخرجنا عما قصدنا من الاختصار ، وقد تتابع ذلك في مقامات جمة بمعاينة جميع الأمة ، والاخبار بالغيوب على وجه تباين التكهن والاتيان بقصص الماضين ، وذكر الأنبياء المتقدمين على حقيقة ماكانوا عليه ـ مما لايبلغه من افنى عمره في تعلم ذلك ومدارسة اهل العلم به ـ من غير ان يعلم بمدارسة كتاب ولامذاكرة أصحاب وقد

علم أن مثل هذا لايخفى لمن تناوله وإن رام ستره وكتمانه . ثم اكرمه الله ـ تعالى ـ بالمعجز الذي فضله الله على جميع النبيين والمرسلين وهو القران الذي تحدى به الأنس والجن اجمعين . قال الله تعالى: (قل لئن اجتمعت الأنس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرأن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)(٢٧) فتحدى به العرب والعجم وجميع الأمم ، والعرب في ذلك الوقت اهل فصاحة وبيان وتناه في ذلك الشأن ، فلم يستطع احد منهم على ان يأتي بسورة من مثله مع ما اخرجهم اليه خلافهم له من سفك دمائهم ، وهتك استارهم ، واخذ اموالهم ، والاستيلاء على بلادهم واموالهم ، وخروجهم عن اوطانهم ، ومفارقتهم اباءهم وابناءهم وإخوانهم وازواجهم ، وكان إتيانهم بسورة من مثله لو استطاعوا ذلك اسهل عليهم من تكليف الحرب ، والصبر على الم الجراح ، فكيف بالصبر على جميع ما ذكرناه مع انه نشأ معهم وبينهم ، ولم يتعلم مالم يتعلموه ، ولالقي من لم يلقوه ، ولاانفرد بالدرس دونهم ، والقراءة بينهم ، فقد قرأ غيره ودرس وعلم وتعلم وكتب ، والى زماننا هذا ، لم يستطع احد ان يأتي بسورة من مثل سوره ، ولاباية من اياته ، وهذه اعظم معجزة على يدى نبي لأن كل معجزة كانت قبله قد امتنعت مشاهدتها ، وانقضى وقتها ، وانما ينقل الينا ذكرها ، ونخبر عنها ، والخبر يدخله الصدق والكذب ولولا ان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ اعلمنا بصحتها وهو الصادق لما وقع لنا العلم بوجودها ، ومعجز القران باق بين اظهرنا ، ودائم عندنا ، لاينقطع وقته ولاينقضي الى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ، يدل في كل وقت وأوان على صحة ما جاء به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من شريعته ، التي اختارها له ، افضل الشرائع وابينها حكمة ، واوضحها احكاما ، واتمها قواما ، فأمرنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن نؤمن بالله وحده لاشريك له ولاظهير ، ولاند ولاصاحبة ولاولد ، ونؤمن بملائكته وكتبه ورسله وان المسيح عيسى بن مريم عبد الله ورسوله ، ونؤمن بالبعث بعد الموت ،والحساب والثواب والعقاب

وأن من آمن بمحمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وبما جاء به فلا بد له من الجنة ، وأن من كفر به أو بشيء مما جاء به فإنه مخلد في النار ، وشرع لنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإقام الصلاة وايتاء الزكاة والصيام والحج وجهاد من كفر ، وصلة الأرحام ، ورغب في التواضع والعدل والاحسان ، والبذل ، والتساوي في الحق ، وأداء الأمانة ، والصدق ، والتناصف والتعاطف والتعاون على البر والتقوى ، والأخذ بمحاسن الأخلاق في السر والجهر ، والتزهد في الدنيا والتنفل فيها ، والتجافي عنها ، والانقياد لها ، وحضنا على تعلم العلم واوجبه علينا ، وندبنا اليه ، والى الارتحال في طلبه ، والتتبع لدقيقه ، ودفع الشبه المعترضة عليها ، والمعارضة لها ، وأعلمنا أن ذلك من أرفع أبواب شريعتنا ، وأفضل ما يصرف اليه همته أولو الفضل منا ، ونهانا عن المنكر والفحشاء واتباع الضلالة والأهواء ، والكبر والخيلاء ، والظلم والعدوان ، والكذب والبهتان واخذ من ذلك كله في خاصته بأبلغ غاية من إتعاب نفسه في العبادة ، وتكلف منها مالم يستطع عليها غيره ممن عاصره وأتى بعده ، ووقايته لأصحابه بنفسه في الحروب وأوقات الشدائد ، واجتناب كل مانهى عنه من المآثم وقبيح الأحوال ، ومذموم الخلال من حيث لو كان من أمة توارثوا الشرائع من أول الأزمان ثم لم ينتقلوا عنها ولاتبدلوا بها بل دونوا فيها الدواوين وصنفوا فيها التصانيف والتواليف ، وكثر فيها علماؤهم وائمتهم ، وكثر الوارث لذلك عنهم ممن قطع عمره بقراءة ذلك ودرس كتبها ، وملازمة علمائها لقصر عما ظهر منه من صحيح الأحكام ورفيع الأحوال، والاصابة في الأقوال والأفعال ، والتصرف والزي والأكل والشرب ، والجلوس والمشي ، والأخذ والاعطاء ، وجميع الحركات والسكنات واللحظات وذلك كله مما يشهد عنه من فهم معانيه وتأمل في ذلك مقاصده وعرف وجه الصواب فيها ، وأنه من عند الله الذي يوفق أنبياءه ، ويرشد رسله وأولياءه ، ويشرع لهم الشرائع التي تشهد بصدقهم صحتها وتبين الحكمة في تفاصيلها وجملها .

وكان ــ صــــلى الله عليه وســــلم ــ مــــع ذلك ــ متقللا مــــن الدنيا ، مؤثرا غيره بهـــا حين تعــــذرها ووقــــت الشـــح بيسيرها ، مطرحا لها ، معرضا عنها حين إقبالها مع عظيم ما فتح عليه منها وبسط له فيها ، يبثها في أهل ملته والمســتحق لهــا مــن غيرهم لم يمنعهم انحرافهم عنه ، وتكذيبهم له من اتيانهــم العــدل، وانصافهم بالقول والفعل ،وكان حظه وحظ اهله وأقاربه من الدنيا وما فتح عليه منها اقل حظ ،لم يشبع هو واهله من طعام ثــلاثة ايام متوالية ولالبس ولاالبسهم الا اخشن الثياب ، ولاسكن ولااســكنهم الا ادون المساكن ، ولايدعي محالا ولايقول انه يعلم مــن الغيب الا ماأعلمه الله تعــالى ، فـــان ســئل عن غيره صرف علمــــه الى الله تعالى ، ولايدعي انه يغفر ذنب احد من أمته ، فأن سئل الدعاء دعا للسائل بالمغفرة ، واعلمنا انه لايغفر الذنوب الا الله ، ولايؤاخذ بها سواه ، يجالس العبد ، ويزور الضعيف، ويرحم الصغير ، ويوقــر الكبير .

لو جاز عليه مــع ذلك الكذب لجــاز على مــوسى وعيسى وســائر الأنبياء ، فإنا لانعلم صدقهم ، ولاميزنا ما جاؤوا به من الحق ممــا جاءنا به الكاذبون والمتخيلون من الباطل والكذب الا بمــا ظهــر على ايديهم من الآيات البينات ، وما اتى بــه محمــد ــ صــلى الله عليه وسلم ــ ابين واوضح ، واتم وابلغ ، ولو جاز لكم ان تقــولوا : إن ماأتى به محمد من جملة التخيل لجاز للدهرية والفلاسفة والبراهمة والثنوية الذين يكذبون الرسل ان يقولوا : ان جميع ما جاء به موسى وعيسى وسائر الأنبياء ــ عليهم السـلام ــ مــن ذلك البــاب وهــــو قولهم ، ولما كذبتهم اياتهم ومعجزاتهم ، ووجب عليهــم تصــديقهم لزمكم وجميع الأمم تصديق محمد ــ عليه السلام ــ فما جاء به أبين واظهر واعظم .

وإنك أيها الراهب الذي تحرص على تخليصك مــن الضــلالة أن سمعت نصحنا لك وأطعتنا فيما به أمرناك وردت الآخــرة في جملتنا من اتبـــــاع محمــــــد ــ عليه الســـــــلام ــ النبــــــي المكرم

فتسعد بشفاعته ، وتشرب من حوضه ، وتسكن الجنة معه ، ونحــن نســأل الله - تعــالى - أن لا يعــدل بنا عن الطــريقة المثلى ، ولا يصرفنا عن سبيل الهدى ، وأن يستنقذك من مكائد إبليس التــي أنت فيها متورط ، وبحبائلها متعلق ، وبخدعها متحير ، من تمادى عليها نال الشقوة ، وطول الحسرة في عرصة القيامــة ، ويوم الندامــة ، يوم لاينفع نصح ، ولايقبل عذر(ويوم يعض الظالم على يديه) (٢٨) (ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا) (٢٩) ولامستقر يومئذ الا الجنة أو النار ، فمن آمن وعمل صالحا فالجنة مأواه ، ومن جعل لله صاحبة أو ولدا فدرك النار مثواه ، أعاننا الله منها ، وأماتنا على الاســلام المبعد عنها.

فلا يغرنك - أيها الراهب - حظوتك عند أهل ملتك ، ومكانتك في مكانك ، واستجلاف نفوسهم ، واستمالة قلوبهم بألفاظ تزخرفها ، لا تعلم معانيها ، ولا تعرف حقيقة المراد بها ، ولا مقتضى القول فيهــا من قولك : «الجواب الروحاني ، والكلام الالهي » وما أشبه ذلك مــن ألفاظ كثيرة سمعتها فنقلتها إلى غير مــوضعها ، واســتعملتها على غير وجهها ، فإنك لو سئلت عن مقتضى ذلك لأسلمتك عدم معــرفتك الى العي والحصر والعجز عن التقدم والتأخر ، فإن استعمالك لهــا على غير وجهها دليل على جهلك بها .

فإن قبلت نصحي ، وسمعت موعظتي ، أخرجناك بعون الله مــن ظلمة الجهل الى نور العلم ومن حيرة الشك إلى تيقن الحق ، وأريناك من طرق الاستدلال ، وتمييز البراهين ما يشرح صدرك ، وينور قلبك وتعلم به الحقائق ، ومعاني هذه الألفــاظ التي أنت بها معجب ومخطىء في ايرادها على غير وجهها ، وتتيقن انها من اقــل ابــواب الكلام ، واضعف مــا يتمســك بــه نوو الأحــلام ، وإن ابيت إلا الاستكبار والعتو ، والاصرار والغلو ، والالحــاد والطغيان ، والعناد والعصيان ، فانك لن تعجز ربك ، ، ولن تنجو من ذنبــك وذنوب مــن اتبعــك وضــل بــك ، والكلام بغير علم في الدين كذب وإفــك على رب العالمين (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أولئك يعرضون على

ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم الا لعنة الله على الظالمين) (٣٠)

فلا تؤثر على خلاص نفسك ، وخلاص من تبعك شيئا من عرض الدنيا وزخرفها ، فإنك لا ينفعك جهل من اغتر بك فيها يوم الورود على ربك .

وقد أودعنا صاحبيك الواردين علينا سرا وجهرا ، وبدءا وعودا ما نعتقده مما أعزنا الله به من الاسلام ، وخصنا به من بين الانام ، وأكرمنا به من اتباع نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولايتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) (٣١) « فقل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين» (٣٢) والله نسأله أن يهديك ويهدي بك من قبلك فتفوز بأجورهم وتكون سببا الى استنقاذهم ، فأنت - فيما بلغنا - مطاع فيهم (والسلام على من اتبع الهدى) (٣٣) .

كمل جواب الفقيه الأجل القاضي الأعدل ابي الوليد الباجي - رحمه الله وغفر له ونصر وجهه - بمنه وكرمه وجوده ، إنه ذو رحمة واسعة ورب غفور.

رسالتا المعز لدين الله الفاطمي الى الامبراطور البيزنطي بشأن كريت والى كافور الاخشيدي حول الشأن نفسه (٣٤)

فصل من كتاب كتب به المعز (صلع)الى طاغية الروم في امـر اهـل اقرطيش

قال : وكان طاغية الروم قـد رغب الى امير المؤمنين المعـز لدين الله (ص) في الموادعة ، وبذل له على ذلك أمـوالا ، وكانت رغبتـه اليه في الموادعة مدة طويلة او ابدية إن وجد ذلك ، فراى الامام لما تبين له ان ذلك خير للاسلام والمسـلمين وليسـتجمعوا فيقـووا على حـرب المشركين ، ان أجابه الى موادعة خمس سنين .

ثم اتصل به بعـد ذلك ، وقبـل أن تنقضي مـدة الموادعة ، انه أرسـل الدمستق ـ الذي هو اقرب رجاله درجة اليه واخصهم بـه ـ في عدة من السفن كثيرة وجيوش ثقيلة حتى اناخ بها على جزيرة اقرطيش ، وهم في دعوة بني العباس . فلما حل بهم من ذلك ما لا قوام لهم بـه ، وعلموا أنه ليس عند بني العبـاس نهضـة ولا لهـم لديهـم نصرة ، ارسلوا مركبا فيه رجال من قبلهم مع وجه مـن وجـوههم الى امير المؤمنين المعز لدين الله يستغيثون به ويسألونه استنقاذهم واغاثتهم فلم ير صـلوات الله عليه ـ وإن كانوا تنكبـوا عنه ـ أن يخيب رجاءهم عنده ، ولا أن يسلمهم للمشركين . فأمر عندما اتصـل بـه خبرهم وقبل أن يصل اليه رسولهم ، بالأخذ في الأهبة والعـدة ليكون نفوذ الأساطيل اليهم في أول زمان الامكان . ثم قـدم الرسـول عليه وادى عنهم ماارسلوه به اليه .

فراى أن ينبذ الى المشرك عهده كما أمر الله (تع) بذلك في كتـابه ، إن هو اصر على حربهم ، وامـر بـكتاب في ذلك اليه ، وامـلاه على الكاتب بحضرة من بين يديه بكلام ما سمعت اجزل ولا ابلغ منه .

فقال بعد أن خيره بين آن يقلع عن حرب أهل اقرطيش وبين أن ينبذ اليه عهده ـ كما نبذ رسول الله (ص) الى مشركي العـرب عهـدهم وأرسل علياببراءة فقرأها في الموسم عليهـم ـ ولقـول الله أصـدق القائلين :" وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم " (٣٥) .

ثم قال له في كتابه (عم):
ولاترى أن دعوة أهل اقرطيش قبل اليوم الى غيرنا وقد انابوا اليوم الينا واستغاثوا بنا ، مما يوجب لك عندنا تمام الموادعة بتركهم اليك وترك اعتراضك فيهم . إن امتناع اهل الباطل من اهـل الحـق ليس بمزيل حقهم وإن تغلبوا عليه دونهم ، بل هو لهم بتصيير الله (تـع) اياه اليهم . فأقرطيش وغيرها من جميع الأرض لنا ، بما خولنا الله منها واقامنا له فيها ، اطاعنا منها من اطـاع وعصـانا مـن عصى ، وليس بطاعتهم يجب لنا ان نملك ولابعصيانهم يحق علينا ان نترك ، ولو كان ذلك لكان الأمر اليهم لا لله (تع) الذي خـولنا ولا لنا ، إن شاؤوا اعطونا وإن احبوا منعـونا ، كلا ! إن ذلك لله الذي له مـا في السموات وما في الأرض وهو الذي اصطفانا وملكنا واعطـانا ، ولو كان ذلك للخلق لما وسعنا قتال من امتنع منهـم ولا رد مـا انتـزعوه بالغصب من ايدينا اذا اقدرنا الله على ذلك وبه قوانا .

فإن قلت انت غير ذلك ، وانت ترى ما في يديك لك ، فقد كان رومانس تغلب عليك وعلى أبيك من قبلك ، ثـم دارت لكمـا عليه الدائرة. فإن رايت أن من احتجز شيئا وتغلب عليه فهو له دون صاحب الحق الذي ملكه ، فلم يكن لك ولا لأبيك القيام على رومانس ولا انتزاع مـاصار اليه من بين يديه فهذه سبيل اهل الحق عندنا ، فإن اعترفت لها فقـد انصفت وإن جهلتها فلم يكن جهلك اياها حجـة على مـن عرفهـا . وعهدك إن تماديت على حرب مـن اناب الينا منبـوذ اليك ، فـانظر لنفسك ولأهل ملتك فإنا مناجـزوك واياهـم الحـرب بعـون الله لنا وتأييده ، ولاحول ولاقوة إلا به .

وفي مثل ذلك الى صاحب مصر :

قال واستمد اهل اقرطيش هؤلاء صاحب مصر وهم من اهل دعوتـه

تجمعهم دعوة آل عباس ، ومراكبهم بخيرات بلدهم واطعمتها تمير أهل مصر ، وهداياهم تصل الى عمالها ، فعجز عن نصرتهم . وسأل من ينظر لأمير المؤمنين فيما قبله في أن يكتب اليه (صلع) في اغاثتهم واستنقاذهم ، وارسل قوما كانوا منهم قبله ليسألوا أمير المؤمنين (صلع) ويرغبوا اليه في ذلك ، ثم اظهر انه ينصرهم ورمى بعض مراكب في البحر لما اتصل به انكار العامة عليه للتخلف عن نصرتهم .

فكتب أمير المؤمنين المعز لدين الله (ص) الى من يكاتبه بمصر جوابا عن كتابه اليه بذلك يخبره انه قد أمر باخراج الأساطيل واخذ في عدتها .

وكان فيما كتب به اليه : أن قل لصاحبك : إن الله ــ سبحانه ــ قد خولنا من فضله وامدنا من معونته وتأييده بما نرى انا بحوله وقوته ونصره لنا واظهارنا على عدونا نكف ايدي الكفرة عما تطاولت اليه من حرب هذا الصقع والايقاع بأهله . وقد انتهى الينا انك اظهرت الحركة الى الجهاد وامداد هؤلاء القوم بمراكب من قبلك ، وانت لعمري بذلك أجدر لقربهم منك واتصالهم بك وميرهم بلدك وكونهم واياك في دعوة واحدة . ولو أسلمناهم اليك وقعدنا عنهم لما كان لك ولا لهم علينا حجة في ذلك ، ولكنا اثرنا نصرة امة جدنا محمد (ص) ولم نر التخلف عن ذلك وقد رجونا له ، والقوا بأنفسهم الينا فيه . ونحن لانحول بينك وبين الجهاد في سبيل الله ، ولانمنعك من تمام ما أملت منه ، فلا يكن مايتصل بك من انفاذ اساطيلنا يريثك عن الذي هممت من ذلك ، وأن تخشى على من تبعث به وعلى مراكبك منا ، فلك علينا عهد الله وميثاقه انا لانكون معهم الا بسبيل خير ، وانا نحلهم محل رجالنا ، ونجعل ايديهم مع ايدينا ونشركهم فيما افاء الله علينا ونقيمهم في ذلك وغيره مقام رجالنا ، ومراكبك مقام اساطيلنا حتى يفتح لنا إن شاء الله ، ثم ينصرفوا اليك على ذلك أو يكون من امر الله وقضائه ما هو فاعله . فاعلم ذلك وثق به منا ، ففي تظافر المسلمين على عدوهم واجتماع كلمتهم اعزاز لدين الله وكبت لأعدائه . فقد سهلنا لك السبيل ، والله على مانقول وكيل .

فإن وثقت بذلك ورأيت ايثار الجهاد فاعمل على ان تنفذ مراكبك الى مرسى طبنة من أرض برقة ، لقرب هذا المرسى من جزيرة اقـرطيش ، ويكون اجتماعهم مع اسـاطيلنا بهـذا المرسى مسـتهل ربيع الآخـر بتوفيق الله وقوته وتأييده ونصره وعونه.

والا ترى ذلك فقد أبلغنا في المعذرة اليك والنصيحة لك ، وخرجنا مما علينا اليك . ونحن بحول الله وتأييده ونصره وعونه مسـتغنون عنك وعن غيرك ،وعلى عزم وبصيرة في انفاذ اسـاطيلنا ورجـالنا وعدتنا وماخولنا الله إياه واقدرنا عليه مما نرى بحوله وقـوته أنا نبلغ بـه مانؤم اليه بذلك ونصمده نحوه . فبـالله نسـتعين ، وعليه نتـوكل ، وعلى تأييده نعول ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

رسالة من الخليفة الحافظ الفاطمي الى روجر المتغلب على صقلية

(من صبح الأعشى للقلشندي ج ٦ ص ٤٥٨ ـ ٤٦٣)

من عبد الله ووليه عبد المجيد أبي الميمون الامام الحافظ لدين الله أمير المؤمنين الى الملك بجزيرة صقلية وانكورية وانطالية وقلورية وسترلو وملف وما انضاف الى ذلك ، وفقه الله في مقاصده ، وارشده الى العمل بطاعته في مصادره وموارده ٠

سلام على من اتبع الهدى ، وامير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلي على جده محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين ، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين ، الأئمة المهديين ، وسلم تسليما ٠

اما بعد،عرض بحضرة أمير المؤمنين الكتاب الواصل من جهتك ، ففض ختامه واجتلي ٠ وقرىء مضمونه وتلي ، ووقعت الاصاخة الى فصوله ، وحصلت الاحاطة بجمله وتفاصيله ٠ والاجابة تأتي على أجمعه ، ولا تخل بشيء من مستودعه ٠

أما ما افتتحته به من حمد الله تعالى على نعمه ، وتوسيعك القول فيما أولاك من إحسانه وكرمه ، فان مواهب الله تعالى ومننه التي جعل تواليها اختبار شكر العبد وامتحانه على انه بخائنة الأعين وما تخفي الصدور عليم. وهو القائل فيمن أثنى عليهم:(أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم)(٣٦) لايزال مضاعفها ومرادفها ومتبعا سالفها آنفها ، وهو يوليها كلا من عبيده بقدر منزلته عنده ، ويخص أصفياءه بأوفى مما تمناه الامل المبالغ

وده ، والله تبارك وتعالى يمنح أمير المؤمنين وآباءه الأئمة الراشدين ما غدت مستقدمات الحمد والشكر عند لوازمه مستأخرة ، اذ كان أفردهم دون الخليقة أعطاهم الدنيا ثم أعطاهم معها الآخرة. واختصهم من حبائه بما لايحصيه عد،وخولهم من آلائه بما لايقوم بشكره أحد.

وأما ما ذكرته ، من افتتاحك الجزيرة المعروفة بجربة لما شرحته من عدوان أهلها وعدولهم عن طرق الخيرات وسبلها ، واجترائهم في الطغيان على أسباب لايجوز التغافل عن مثلها واستعمالهم الظلم تمردا ، وتماديهم في الغي تباهيا في الباطل ، وغلوا يأسا من الجزاء لمااستبطئوه ، فإن من كانت هذه حالته حقيق أن تكون الرحمة عنه نائية ، وخليق أن يأخذه الله من مأمنه أخذة رابية ، كما انه من كان من أهل السلامة وسالكا سبيل الاستقامة ،ومقبلاعلى صلاح شأنه ، وغير متعد للواجب في سره واعلانه ، تعين أن توفر من الرعاية سهمه، وتجزل من العناية نصيبه وقسمه ويؤمن ما يقلقه ويزعجه ، ويقصد بما يسره ويبهجه ،ويصان عن أن يناله مكروه ، ويحمى من أذى يلم به ويعروه .

وأما شكرك لوزيرك الأمير تأييد الدولة وغضدها عز الملك وفخره نظام الرياسة أمير الأمراء ، فإن من تهذب بتهذيبك وتخلق بأخلاقك وتأدب بتأديبك لا ينكر منه إصابة المرامي ، ولا يستغرب عنده نجح المساعي ، وواجب عليه أن لا يجعل قلبه إلا مثوى للنصائح ، وأن لا يزال عمره بين غاد في المخالصة

وأما المركب العروس ووصول كتاب وكيله ذاكرا ما اعتمده مقدم أسطولك من صونه وحمايته ، وحفظه ورعايته ، واعادة ما كان أخذ منه قبل المعرفة بأنه جار في الديوان الخاص الحافظي ، ففعل يجمل عنك صدره ، ويليق بك أن ينسب إليك ذكره وخبره ، ويدل على علم اصحابك برأيك وإحكام معاقدة المودة ، ويعرب عن إيثارك إبرازها كلما تقادم عهدها في ملابس بهجة مستجدة ، وهذا الفعل من خلائقك

الرضية غير مستبدع ، وقد نخرت منه عند أمير المؤمنين ماحصل في اعز مقر واكرم مستودع ، لاجرم أن أوامره خرجت الى مقدمي اساطيله المظفرة بما يجنيك ثمرة ما غرسته ، ويعلي منار ثنائك الذي قدرته على أقوى أصل اسسته ، وقد نفذت مراسميه بإجرائك على غلاتك المستمرة في المسامحة بما وجب للديوان عما وصل برسمك على مراكبك ، وبرسم الأمير تأييد الدولة وزيرك ، والرسولين الواردين عن حق الورود الى ثغر الاسكندرية ، حماه الله تعالى ، ثم الى مصر ، حرسها الله تعالى ، وحق الصدور عنها وكل ما يصل من جهتك فعلى هذه القضية •

واما شكرك على الاسرى الذين أمر أمير المؤمنين بإطلاقهم إجابة لرغبتك ورسم بتسييرهم إليك محافظة على مرادك وبغيتك فأوزعنا شعارهم انهم عتقاء شفاعتك وارقاء منتك ، فذلك من الدلائل على ما ينطوي عليه من جميل الراي وكريم النية ومن الشواهد بأنه يوجب لك مالايوجبه لأحد من ملوك النصرانية.

واما سؤالك الآن في إطلاق من تجدد أسره، وإنهاؤك أن ذلك مما يهمك امره فقد شفعك أمير المؤمنين بالاجابة إليه على ما الف من كريم شيمته ، وسير إليك مع رسولك من تضمن الثبت ذكر عدته •

وقد علمت ما كان من أمر بهرام ووصوله الى الدولة الفاطمية ـ خلد الله ملكها ـ شريدا طائرا ، قد نبت به أوطانه ، وقذفته دياره ، لامال له ولا حال ، ولا عشيرة ولا رجال ، فقبلته أحسن قبول ، وبلغت به في الاحسان ما يزيد على السول ، وغمرته من الانعام ما يقصر عن اقتراحه كل أمل ، وجعلته فواضلها يقلب الطرف بين الخيل والخول ، وكانت اموره كل يوم في نمو وزيادة ، واحواله توفي على البغية والارادة ، إلى أن جرت نوبة اقتضى التدبير في وقتها أن عذقت به الوزارة ، ونيطت به السفارة ، فوسوس له خاطره ما زخرفه البطر وزينه ، وصوره الشيطان وحسنه ، واظهر ما ظهرت اماراته ووضحت أدلته وعلاماته ، فاستدعى قبيله وأسرته ، وجنسه وعشيرته بمكاتبات منه سرية ، وخطوط عثر عليها بالارمنية ،

فكانوا يصلون أول أول إلى أن اجتمع منهم عشرون الف رجل من فارس وراجل ، ومن جملتهم ابناء اخيه وغيرهما من اهله ، فدلوه بالغرور ، وحملوه على ما قضى بالاستيحاش منه والنفور ، وقووا عزمه فيما يؤدي الى اضطراب الأحوال واختلال الأمور ، فامتعضت العساكر المنصورة مما أساء به سياستهم ، وأبوا الصبر على ما غير به رسمهم وعادتهم ، فلما رأى أمير المؤمنين ذلك استعظم الحال فيه ، وتيقن أن التغافل عنه يقضي بما يعسر استدراكه وتلافيه ، فكاتب وليه وصفيه الذي ربي في حجر الخلافة ، وسما به استحقاقه الى أعلى درج الانافة ، وحصلت له الرياسة باكتسابه وانتسابه ، وغدا النظر في أمور المملكة لايصلح لغيره ولا يليق إلا به السيد الاجل الأفضل ، وهو يومئذ والي الأعمال الغربية ،وصدرت كتب أمير المؤمنين تشعره بهذا الأمر الصعب ، وتستكشف به ما عرا الدولة من هذا الخطب ، فأجاب دعاءه ولبى نداءه ، وقام قيام مثله ممن اجزل الله حظه من الايمان ، وجعله جل وعز حسنة هذا الزمان واختصه بعناية قوية ،وامده بمواد علوية ، وايده باعانة سماوية ،تخرج عن الاستطاعة البشرية • فجمع الناس وقام خطيبا فيهم بأعمالهم على ما يزلفهم عند الله ويحظيهم ، وموضحا لهم ما يخشى على الدولة من الأمر المنكر ، فاجتمعوا إليه كاجتماعهم يوم الحشر ، وغصت النجود والأغوار ، وامتلأت السهول والأوعار ، وضاقت الأرض على سعتها بالخلائق ، وارتفعت في توجههم لطلب المذكور الأعذار والعوائق ، ولم يبق فضاء ، الا وهو بهم شرق ولاأحد الا وهو منزعج بقصده وعلى تأخر ذلك قلق ، وكان بهرام وأصحابه بالاضافة اليهم كالشامة في اللون البسيط ، وكالقطرة في البحر المحيط ، وساروا مع السيد الأجل نحوه مسارعين وعلى الانقضاض عليهم متهافتين . فلما شعر بذلك لم يبق له قرار ، ولاذ بالهرب والفرار ، يهجر المناهل ويطوي المراحل ويرى الشرود غنما ، ويعد السلامة حلما . واستقرت وزارة أمير المؤمنين لهذا السيد الأجل الافضل الذي لم تزل فيه راغبة ، وله خاطبة ، ونحو توليه اياها متطلعه ، والى نظره فيها مبادرة متسرعة ، ولم تنفك لزينة دستها

مستبطنة وفي التلهف على تأخر ذلك معيدة مبدئة ، فأحسن الى الكافة قولا وفعلا ، وعمل في حق الدولة ما لم يجعل له في الوزراء شبها ولا في الملوك العظماء مثلا ، وغدا للملة الحنيفة حجة وبرهانا ، وأولى الأولياء اعزازا وتكريما ، والأعداء اذلالا واهوانا وصان الخلافة عن نفاذ حيلة وتمام غيلة ، ومخادعة ماكر ، ومخاتلة غادر ، فلذلك انتضاه امير المؤمنين حساما باترا ماضي الفرار ، واجتباه هماما في المصالح لايطعم جفنه غير الغرار ، واصطفاه خليلا وظهيرا لتساوي باطنه وظاهره في الصفاء ، واستخلصه لنفسه لمفاخره الجمة التي ليس بها من خفاء ، وانتظمت الأمور بكفالته في سلك الوفاق ، وعمت الخيرات بوزارته عموم الشمس بأنوارها جميع الآفاق ، فسعدت بنظره الجدود ، وتظاهرت ببركاته الميامن والسعود واصبح غصن المعالي بيمنه مورقا ، وعلى الملة من يمن أرائه تمائم من سن الحواد ثورقى ، فآثاره توفي على ضياء الصباح ، وعزماته تزري بمضاء المهندة الصفاح ، وماثره تفوت شأو الثناء وغاية الامتداح . فالله تعالى يحفظ النعمة على الخلافة الحافظية ، ويوزع شكره على سبوغها كافة البرية بكرمه وفضله ومنه وطوله.

ولما امعن بهرام في الهرب وجدت العساكر المنصورة وراءه في المطلب وضاقت عليه المسالك ، وتيقن أنه في كل وجهة يقصدها هالك ، عاد لمكارم الدولة وعواطفها وسأل امانا على نفسه من متالفها ، فشملته الرحمة وكتب له الأمان فعاودته النعمة ، واختلط برجال العساكر المنصورة ، وصار حظه بعد أن كان منحوسا من الحظوظ الموفورة.
وأما اعتذار الكاتب عما وجه اليه بأن من الكلام ما اذا نقل من لغة الى لغة أخرى اضطرب معناه فاختل معناه ، ولاسيما ان غرس فيه لفظ ليس في إحدى اللغتين ، فقد أبان فيما نسب اليه السهو فيه عن وضوح سببه ، وقد قبل عذره ولم تفك يده على التمسك به •

وأما ما سيرته الى خزائن امير المؤمنين تحفة وهدية ، وانبت به عن همة بدواعي المجد ملية ، فانه وصل وتسلم كل صنف منه متولي الخزائن المختصة به بعد عرضه على الثبت المعطوف كتابك عليه

وموافقته ،وقد أجري رسولك في إكرامه وملاحظته على افضـل مـا يعتمد مع مثله بمنزلة من ورد من جهتـه ، وعلى قـدر مـن وصـل برسالته • وقد سير أمير المؤمنين مـن أمـراء دولتـه ، ووجـوه المتقدمين بحضرته ، الأمير المؤتمـن المنصـور المنتجـب ، مجـد الخلافة ، تاج المعالي ، فخر الملك ، مـو لى الدولة وشـجاعها ، ذا النجابتين ، خالصة أمير المؤمنين ، ابا منصور جعفرا الحـافظي ، رسولا بهذه الاجابة ، لما هو معروف من سـداده ، ومـوصوف مـن مستوفق قصده ومسـتصوب اعتمـاده ، والقـى إليه مـا يذكره ويشرحه ، وعول عليه فيما يشافه بـه ويوضـحه ، وأصـحبه مـن سجاياه والطافه ما تضمنه الثبت الواصـل على يده ، إبـانة لمحلك عنده وموقفك منه ، ومكانك لديه ، وأمير المؤمنين متـطلع الى ورود كتبك متضمنة من سار انبائك وطيب أخبارك ما يسكن الى معرفته ، ويثق بعلم حقيقته ، فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى •

تعميم صدر عن يوسف بن تاشفين بشأن اتخاذه للقب أمير المسلمين

(من الحلل الموشية ص ٢٩ ـ ٣٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد الكريم وعلى اله وصحبه وسلم تسليما •

من امير المسلمين، وناصر الدين، يوسف بن تاشفين •
الى الاشياخ والاعيان والكافة والخاصة من اهل « الفلانه » ادام الله كرامتهم بتقواه ، ووفقهم لما يرضاه •
سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته •

اما بعد : حمداً لله اهل الحمد والشكر ، ميسر اليسر ، وواهب النصر ، والصلاة على محمد المبعوث بنور الفرقان والذكر ، وانا كتبناه اليكم من حضرتنا العلية بمراكش حرسها الله ، في منتصف محرم سنة ست وستين واربعمائة ، وانه لما من الله علينا بالفتح الجسيم ، واسبغ علينا من انعمه الظاهرة والباطنة ، برود النعيم ، وهدانا وهداكم الى شريعة نبينا محمد المصطفى الكريم ، صلى الله عليه وعلى اله افضل الصلاة واتم التسليم ، راينا أن نخصص انفسنا بهذا الاسم ، لنمتاز به عن سائر أمراء القبائل ، وهو« أمير المسلمين وناصر الدين » فمن خاطب الحضرة العلية السامية ، فليخاطبها بهذا الاسم ان شاء الله تعالى ، والله ولي العدل بمنه وكرمه ، والسلام•

رسالة جوابية من المتوكل على الله بن الأفطس الى الفونسو السادس

(من الحلل الموشية ص ٣٦ ـ ٣٧)

وقد وصل الينا من عظيم الروم كتاب مدع في المقادير ، وأحكام العزيز القدير ، يرعد ويبرق ، ويجمع تارة ويفرق، ويهدد بجنوده الوافرة ، واحواله المتضافرة ، ولو علم أن لله جنودا أعز بهم ملة الاسلام ، واظهر بهم دين نبينا محمد عليه السلام :
« اذلة علي المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم(٣٧) » ، بالتقوى يعرفون ، وبالتوبة يتضرعون وينصرون ، ولئن لمعت من خلف الروم بارقة فباذن الله« وليعلم المؤمنين(٣٨) »« وليميز الله الخبيث من الطيب(٣٩) »« وليعلمن المنافقين(٤٠) » •

واما تعييرك للمسلمين فيما وهن من أحوالهم ، وظهر من اختلالهم ، فبالذنوب المركوبة ، والفرقة المكتوبة ، ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الاملاك ، لعلمت أي صاب أذقناك ، كما كانت أباؤك مع ابائنا تتجرعه ، فلم تزل تذيقها من الحمام ، وضروب الآلام ، شر ما تراه وتسمعه ، وأداء المال تتوزعه ، وبالامس كانت قطيعة المنصور(٤١) على سلفك اهداء ابنته اليه ، مع الذخائر التي كانت تفد في كل عام عليه •

واما نحن ، وان قلت أعدادنا ، وعدم من المخلوقين استمدادنا ، فما بيننا وبينك بحر نخوضه ، ولا صعب نروضه ، الا سيوفا تشهد بحدتها رقاب قومك ، وجلادا تبصره في ليلك ويومك ، وبالله تعالى وملائكته المسومين ، نتقوى عليك ، ونستعين ، ليس لنا سوى الله

مطلب ، ولا لنا الى غيره مهرب ، وما « تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين(٤٢) »: نصر عليكم ، فيالها من نعمة ومنة ، أو شهادة في سبيل الله ، فيالها من جنة ، وفي الله العوض مما به هددت ، وفرج يبتر ما مددت ، ويقطع بك فيما أعددت •

رسالة المتوكل على الله بن الأفطس الى يوسف بن تاشفين يستنجد به

(من الحلل الموشيه ص ٣٤ ـ ٣٥)

لما كان نور الهدى ـ ايدك الله ـ دليلك ، وسبيل الخير سبيلك ، ووضحت في الصلاح معالمك ، ووقفت على الجهاد عزائمك ، وصح العلم بأنك لدولة الاسلام أعز ناصر ، وعلى غزو الشرك اقدر قادر ، وجب أن تستدعى لما أعضل الداء ، وتستغاث فيما احاط بالجزيرة من البلاء.

فقد كانت طوائف العدو تطيف بها عند افراط تسلطها واعتدائها وشدة ظلمها ، واستشرائها ، تلاطف بالاحتيال وتستنزل بالاموال ويخرج لها من كل ذخيرة ، وتسترضى بكل خطيرة •

ولم يزل دابها التشطط والعناد ،ودابنا الاذعان والانقياد ، حتى نفد الطارف والتلاد ، واتى على الظاهر والباطن النفاد ، وايقنوا الآن بضعف المنن ، وقويت أطماعهم في افتتاح المدن ، واضرمت في كل جهة نارهم ، ورويت من دماء المسلمين أسنتهم وشفارهم ، ومن اخطأه القتل منهم ، فإنما هم في أيديهم أسارى وسبايا يمتحنونهم بأنواع المحن والبلايا ، وقد هموا بما أرادوه من التوثب ، وأشرفوا على ما أملوه من التغلب ، فيالله ، وياللمسلمين ، ايسطو هكذا بالحق الافك ، ويغلب التوحيد الشرك ، ويظهر على الايمان الكفر ، ولايكشف هذه البلية إلا النصر •

الا ناصرا لهذا الدين المهتضم ، الا حاميا لما استبيح من حمى الحرم ؟ وانا لله على ما لحق عبيده من ثكل ، وعزه من ذل ،فانها الرزية التي ليس فيها عزاء ، والبلية التي ليس مثلها بلاء •

ومن قبل هذا ماكنت خاطبتك ، أعزك الله بالنازلة في مدينة قورية (٤٣) ، أعادها الله للاسلام ، وأنها مؤننة للجزيرة بالخلاء ولمن فيها من المسلمين بالجلاء ،ثم مازال ذلك التخاذل والتدبير يتزايد ، حتى تخلطت القضية ، وتضاعفت البلية ، وتحصلت بيد العدو مدينة سرية (٤٤) ، وعليها قلعة تجاوزت حد القلاع في التحصن والامتناع ، وهي من المدينة كنقطة الدائرة ، تدركها من جميع الجهات ، دائرة بنواحيها ، ويستوى في فىء الارض بها قاصيها ودانيها ، وما هو إلا نفس خافق ، ورمق زاهق ، استولى عليه عدو مشرك ، وطاغية منافق ، ان لم تدركوها بجماعتكم عجالا ، وتبادروا ركبانا ورجالا ، وتنفروا نحوها خفافا وثقالا ، وما أحضكم على الجهاد بما في كتاب الله ، فانكم له أتلى ، ولا بما في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانكم الى معرفته أهدى ، وفي كتابي هذا(الذي يحمله اليكم) الشيخ الفقيه الواعظ (مسائل مجملة)يفصلها ويشرحها ، ومشتمل على نكت هو يبينها لكم ويوضحها فإنه - لما توجه نحوك احتسابا ، وتكلف المشقة اليك طالبا ثوابا - عولت على بيانه ، ووثقت بفصاحة بيانه ، والسلام.

رسالة من الفونسو السادس الى المعتمد بن عباد وجواب المعتمد عليها

(من الحلل الموشية ص ٣٨ ـ ٤١)

من الكنبيطور ، ذي الملتين ، الملك الفاضل ، الأذفنش بن شانجه ، الى المعتمد بالله سدد الله أراءه ، وبصره مقاصد الرشاد : سلام عليك ، من مشيد ملك شرفته القنا ، ونبتت في ربعه المنى ، فاعتز الرمح بعامله ، والسيف بساعد حامله ، وقد ابصرتم ما نزل بطليطلة وأقطارها ، وما سار بأهلها حين حصارها ، فأسلمتم اخوانكم ، وعطلتم بالدعة زمانكم ، والحذر من أيقظ باله ، قبل الوقوع في الحبالة ، ولولا عهد سلف بيننا ، نحفظ ذمامه ، ونسعى بنور الوفاء أمامه ، لنهض بنا نحوكم ناهض العزم ورائده ، ووصل رسول الغزو ووارده ، لكن الانذار ، يقطع الأعذار ، ولايعجل الا من يخاف الفوت فيما يرومه ، أو يخشى الغلبة على ما يسومه ، وقد حملنا الرسالة اليكم القرمط البر هانس ، وعنده من التسديد الذي يلقى به أمثالك ، والعقل الذي يدبر به بلادك ورجالك ، مما أوجب استنابته فيما يدق ويجل ، وفيما يصلح لافيما يخل وانت عندما تأتيه من أرائك ، والنظر بعد هذا من ورائك ، والسلام عليك ، يسعى بيمينك وبين يديك .

ولما وصل هذا الكتاب الى المعتمد بن عباد ، جاوب عنه بخطه من نظمه ونثره ، بما نصه:

الذل تأباه الكرام ودينننا
لك ما ندين به من البأساء
سمناك سلما ما أردت وبعد ذا
نغزوك في الاصباح والامساء

الله أعلى من صليبك فادرع
لكتيبة حطمتك في الهيجاء

سوداء غابت شمسها في غيمها
فجرت مدامعها بفيض دماء

مابيننا الا النزال وفتنة
قدحت زناد الصبر في الغماء

فلتقدمن اذا لقيت أسنة
زرقا ترى بالوجنة الوجناء

في ابيات كثيرة.

وبعد ذلك : من المنصور بفضل الله ، المعتمد على الله ، محمد بن المعتضد بالله ، ابى عمرو بن عباد ، الى الطاغية الباغية اذفنش بن شانجة ، الذي لقب نفسه بملك الملوك ، وسماها بذى الملتين ، قطع الله دعواه.

سلام على من اتبع الهدى ، اما بعد :

فإنه اول ما نبدأ به من دعواه ، أنه « ذو الملتين » والمسلمون أحق بهذا الاسم ، لأن الذي تملكوه من أمصار البلاد ، وعظيم الاستعداد ، ومجبى المملكة ، لاتملكه قدرتكم ، ولاتعرفه ملتكم ، وانما كانت سنة سعد أيقظ منها مناديك ، واغفل عن النظر السديد جميل مباديك ، فركبنا مركب عجز نسخه الكيس ، وعاطيناك كؤوس دعة ، قلت في اثنائها : ليس ، ولاتستحي ان تأمر بتسليم البلاد لرجالك ، وانا لنعجب من استعمالك برأي لم تحكم أنحاؤه ، ولاحسن انتحاؤه ، واعجابك بصنع وافقتك فيه الأقدار ، واغتررت بنفسك أسوأ الاغترار ، أما تعلم انا في العدد والعديد ، والنظر السديد ، ولدينا من كماة الفرسان ، وجيل الانسان ، وحماة الشجعان ، يوم يلتقي الجمعان ، رجال تدرعوا الصبر وكرهوا الكبر ، تسيل نفوسهم على حد الشفار ، وتتعاهم الهام في القفار (٤٥) يديرون رحى المنون بحركات العزائم ، ويشفون من خبط الجنون بخواتم العزائم (٤٦) قد أعدوا لك

ولقومك جلادا ، رتبه الاتفاق ، وشفارا حدادا ، شحذها الاصـفاق ، وقد يأتي المحبوب من المكروه ، والندم من عجلة الشرور، نبهت مـن غفلة طال زمانها ، وايقظت من نومـه تجـدد امـانها ، ومتـى كانت لاسلافك الاقدمين مـع اسـلافنا الاكرمين يد صـاعدة ، أو وقفـة متساعدة ، الا ذل تعلم مقداره ، وتتحقق مثاره ، والذي جـراك على طلب ما لا تدركه قوم كالحمـر :« لايقـاتلونكم جميعـا الا في قـرى محصنة او مـن وراء جـد ر (٤٧) » ، ظنوا المعـاقل تعقـل ، والدول لاتنتقل ، وكان بيننا وبينك من المسـالمة ، مـا اوجـب القعـود عن نصرتهم ، وتدبير أمرهم ، ونسأل الله سبحانه المغفرة فيما اتيناه في أنفسنا وفيهم ، من ترك الحزم ، واسلامهم لأعاديهـم ، والحمـد لله الذي جعل عقوبتنا تـوبيخك وتقـريعك ، بمـا الموت دونه ، وبـالله نسـتعين عليك ، ولانسـتبطيء في مسـيرتنا اليك ، والله ينصر دينه الكريم :« ولو كره الكافرون »(٤٨)، والسلام على من علم الحق فاتبعه واجتنب الباطل وخدعه.

رسالتا استصراخ من المعتمد بن عباد الى يوسف بن تاشفين وجواب يوسف عليهما

(من الحلل الموشية ص ٤٥ ـ ٥٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم تسليما

الى حضرة الامام ، امير المسلمين ، وناصر الدين ، محيي دعوة الخليفة ، الامام أمير المسلمين ، أبي يعقوب يوسف بن تاشفين .

من القائم بعظيم اكبارها ، الشاكر لاجلالها ، المعظم لما عظم الله من كريم مقدارها ، اللائذ بحرمها ، المنقطع الى سمو مجدها ، المستجير بالله ، وبطولها ، محمد بن عباد .

سلام الله الكريم يخص الحضرة العلية ، المعظمة السامية ، ورحمة الله وبركاته .

وكتب المنقطع الى كريم سلطانها من اشبيلية غرة جمادى الأولى سنة تسع وسبعين واربعمائة ، وانه أيد الله أمير المسلمين ، ونصر به الدين ، انا نحن العرب في هذه الأندلس ، قد تلفت قبائلنا ، وتفرق جمعنا ، وتغيرت أنسابنا ، بقطع المادة عنا من معيننا ، فصرنا شعوبا لاقبائل ، وأشتاتا لاقرابة ولاعشائر ، فقل ناصرنا ، وكثر شامتنا ، وتوالى علينا هذا العدو المجرم اللعين أنفنش ، وأناخ علينا بكلكله ، ووطئنا بقدمه ، واسر المسلمين ، وأخذ البلاد والقلاع والحصون ، ونحن اهل هذه الأندلس ليس لأحد منا طاقة على نصرة جاره ، ولالاخيه ، ولو شاؤوا لفعلوا ، الا أن الهوان منعهم عن ذلك ،

وقد ساءت الأحوال ، وانقطعت الآمال ، وانت أيدك الله ، ملك المغرب ابيضه واسوده ، وسيد حمير ، ومليكها الأكبر ، واميرها وزعيمها (٤٩) ، ونزعت بهمتي اليك ، واستنصرت بالله ثم بك ، واستغثت بحرمكم ، لتجوزوا لجهاد هذا العدو الكافر ، وتحيوا شريعة الاسلام وتذبوا عن دين محمد عليه الصلاة والسلام ، ولكم بذلك عند الله الثواب الكريم ، والأجر الجسيم ، ولاحول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، والسلام الكريم على حضرتكم السامية ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

الى الملك المؤيد بفضل الله امير المسلمين ،وناصر الدين ،وزعيم المرابطين ، أبي يعقوب بن تاشفين نور الله به الآفاق ، وجمع به الجيوش والرفاق.

من الملك المفضل بنعمة الله ، المستجير برحمة الله ، المعتمد على الله ، محمد بن عباد ، سلام على حضرة تجرد ايمانها ، واشتهر امانها ، اما بعد :

فإن الله سبحانه أيد دينه بالاتفاق والائتلاف ، وحرم مسالك الشتات ودواعي الاختلاف ، وانعم على عباده بأمير جديد « وقوم أولى بأس شديد »(٥٠) وتطول علينا بمعلوم جدك ، ومشهور جدك ، وقد جعلك رحمة يحيي غيثها ربوع الشريعة ، وخلقك سلما الى الخير وذريعة ، وقد طرأ على الاسلام حادث انسى كل هم ، وهمت النكبات بوقوعه وهم ، وذلك عدو أطمعه في البلاد شتات وبين ، واختلاف سببه لم تطرف له في الدعة عين ، يقوى ونضعف ، ويتفق ونختلف ، وننام مطمئنين من آفات الزمان ، وتناسخ الأمان ، وقد جاءنا ابراقة وارعاده ، ووعده وايعاده ، لنسلم له المنابر والصوامع ، والمحارب والجوامع ، ليقيم بها الصلبان ، ويستنيب بها الرهبان ، ومما يطمعه استمالته ايانا بالدعة ، واملاؤه في الرحب والمتعة ، استجرارا لما أبطنه ، واهجاما علينا وطنه .

وقد وطد الله لك ملكا شكر الله عليه ، جهادك ، وقيامك بحقه

واجتهادك ، ولك من نصر الله خير باعث ، يبعثـك الى نصر مناره ، واقتباس نوره وناره ، وعندك من جنود الله من يشتري الجنة بحياته ويحضر الحرب بألاته ، فإن شـئت الدنيا فقـطوف دانية ، وجنات عالية وعيون أنية وإن أردت الآخرى فجهاد لايفتـر ، وجـلاد يحـز الغلاصم ويبتر ، هذه الجنة أدخرها الله لظلال سـيوفكم ، واجمـال معروفكم ، نستعين بالله و ملائكته ، وبكم على الكافرين ، كما قـال الله سبحانه ، وهو أكرم القائلين :« قاتلوهم يعـذبهم الله بـأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين (٥١) .

والله يجمعنا على كلمة التوحيد ننصرها ،ونعمة الاسلام نشكرها ورحمة الله نتحد ثبها وننشرها ،والسلام الموصـول الجـزيل على أمير المسلمين ،وناصر الدين ،ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

من أمير المسلمين ، وناصر الدين ، محيي دعوة أمير المؤمنين .
الى الأمير الأكرم المؤيد بنصر الله ، المعتمد على الله ، ابي القاسم ابن عباد ، أدام الله كرامته بتقواه ، ووفقه لما يرضاه .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، اما بعد :

فانه وصل خطابكم المكرم ، فوقفنا على ما تضمنه من استدعائنا لنصرتك ، وما ذكرته من كربتك ، وما كان من قلة حماية جيرانك ، فنحن يمين لشمالك ، ومبادرون لنصرتك وحمايتك ، وواجب علينا ذلك من الشرع ، وكتاب الله تعالى ، وإنه لايمكننا الجواز الا أن تسلم لنا الجزيرة الخضراء ، تكون لنا ، لكي يكون جوازنا اليك على أيدينا متى شئنا ، فإن رأيت ذلك فأشهد به على نفسك ، وابعث الينا بعقودها ، ونحن في اثر خطابك ، إن شاء الله ، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

رسالة الفونسو السادس الى يوسف بن تاشفين ورد يوسف عليها قبل وقوع معركة الزلاقة

(من كتاب اعمال الأعلام للسان الدين ابن الخطيب ج ٣ ص ٢٣٩ - ٢٤٠)

من امير النصرانية أذفونش بن فرلند إلى يوسف بن تاشفين ، اما بعد فانك اليوم امير المسلمين ببلاد المغرب وسلطانهم ، واهل الأندلس قد ضعفوا عن مقاومتي ومقابلتي ، وقد اذللتهم بأخذ الجزية منهم وبالقتل والأسر والذل والقهر ، وانا لا اقنع إلا بأخذ البلاد وقد وجب عليك نصرهم لأنهم أهل ملتك ، فأما أن تجوز إلي ، وأما أن ترسل إلي المراكب أجوز اليك ، فان غلبتني كان ملك الأندلس والمغرب اليك ، وان غلبتك انقطع طمع الأندلس من نصرك اياهم فان نفوسهم متعلقة بنصرتك لهم ».فلما وصل اليه كتابه امر أن يكتب له على ظهر كتابه:«من امير المسلمين يوسف الى أذفونش ، امـا بعد فان الجواب ما تراه بعينك لا ما تسمعه باذنك ، والسلام على من اتبع الهدى ، واردف الكاتب بيت أبي الطيب :

ولا كتب إلا المشرفية والقنا
ولا رسل إلا الخميس العرمرم

رسالة من الفونسو السادس الى يوسف بن تاشفين

(حسب رواية صاحب الحلل الموشية ص ٤٢ - ٤٣)

من أمير الملتين أذفنش بن شانجة بن فراندة إلى الأمير يوسف بن تاشفين ، أما بعد :

فلا خفاء على ذي عينين انك أمير المسلمين ، بل الملة المسلمة ، كما انا امير الملة النصرانية ، ولم يخف عليك ما عليه رؤساؤكم بالأندلس من التخاذل ، والتواكل ، والاهمال للرعية ، والاخلاد الى الراحة ، وانا أسومهم الخسف ، ، فأخرب الديار ، واهتك الأستار ، وأقتل الشبان ، واأسر الولدان ، ولا عذر لك في التخلف عن نصرهم ، ان امكنتك فرصة هذا ، وانتم تعتقدون أن الله تبارك وتعالى ، فرض على كل واحد منكم قتال عشرة منا ، وأن قتلاكم في الجنة ، وقتلانا في النار ، ونحن نعتقد ان الله اظفرنا بكم ، واعاننا عليكم ، ولا تقدرون دفاعا ، ولا تستطيعون امتناعا ، وبلغنا عنك أنك في الاحتفال ، على نية الاقبال فلا أدري أكان الجبن يبطىء بك ، أم التكذيب بما أنزل اليك ، فان كنت لا تستطيع الجواز ، فابعث إلي ما عندك من المراكب لأجوز اليك ، وأنا اقاتلك في أحب البقاع إليك ، فإن غلبتني فتلك غنيمة جلبت اليك ونعمة مثلت بين يديك ، وان غلبتك كانت لي اليد العليا ، واستكملت الامارة ، والله يتم الارادة .

فأمر أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين ، أن يكتب اليه على ظهر كتابه : جوابك يا اذفنش ما تراه لا ما تسمعه ، ان شاء الله ، وأردف الكتاب ببيت أبي الطيب المتنبي :

ولا كتب الا المشرفية والقنا
ولا رسل الا الخميس العرمرم (٥٢)

رسالتا بشارة بنصر الزلاقة من المعتمد بن عبـاد الى اهـل اشبيلية

(من الحلل الموشية ص ٦٣- ٦٦)

لما فرغ الناس من القتال في الزلاقة ، تناول ابن عباد اضبارة كاغد ، على عرض الأصبع وكتب فيها سطرين :«الى ابني الرشيد وفقه الله

اعلم انه التقت جموع المسلمين بالطاغية اذفنش اللعين ، ففتح الله للمسلمين ، وهزم على ايديهم المشركين ، والحمد لله رب العـالمين ، فاعلم بذلك من قبلك من اخواننا المسلمين ، والسلام .

وكان ذلك عند الزوال من الجمعة ، وعلق الاضبارة في جناح حمام كان احتمله معه لهذا الحال ، فكان الناس باشبيلية اقنط مـا كان في ذلك اليوم ، فوصل الحمام من يومه ، وقـرئت على الناس بمسـجد اشبيلية ، فعم السرور ، وكثر الدعاء......

ولما كان يوم الجمعة الثاني عشر لرجـب سـنة تسـع وسـبعين واربعمائة ، سنى الله أمـرا يسر اسـبابه ، وفتـح لنا الى الفـرج والفتوح بابه ، وعطف علينا القابل للتوب ، الغـافر للذنب ، والتقينا مع الطاغية البـاغية ، الذي أجـاب الموت داعيه واخـزى التـوفيق مساعيه ، بعد غدر ابداه ، وجـرى فيه مـداه ، وكان تـواعدنا معـه لنلتقي في سواه ، فأتى والنقض يجرر ذيل مخزاه ، والغيب يشـهد عليه بما ارداه ،والغدر يعلمنا انه طعمة مـن نواه ، فـاستبشرنا انه ابتدا بالغدر الذي يرديه ، وتعجل سلوك طـريق لا تهـديه ، وتحققنا انها مقدمة فتح سبقت ، ونواسم سـعد عبقـت ، والنصر لا تخفـى دلائله ، واليمن لا تسـتره غلائله ، فتـدارك اخـوانا المسـلمون بالنصاف ، وتصافحوا بالاعتراف والانصـاف ، وجـرت البسـائط

ذيول الزرد وشكرت الشفار فعل الصـقيل الفـرند ، ولما احلولك ليل الحرب واغطش ، وغار ماء ثبجها فـأعطش ، طلع فجـر السـعادة فانجح ، ونادى من كتب السلامة : أصبح ، أصبح ، وعن قريب طلعت شمسها تشرق ، وتهلك الكافرين وتحرق ، وليس دونها حجاب يستر شعاعها ، ويحجب لماعها ، ولما تسامتت الرؤوس ، واحـدق الرئيس بالمرؤوس ،ظللنا نرتب الجماجم ، وكأنها من أعجب احلام نائم ، ولما صعد المؤذنون أكواما بنتها أيدي الأيد من هاماتهم وحصدتها بواتر قطعتها بلاماتهم ، أعلنوا بكلمة الأخلاص فوق آذان وعت ، ماكانت عنه صمت ، وأدمغة أنزلها الندم على مـاكانت بـه همـت ، وقـرت العيون وانشرحت الصدور ،« وأشرقـت الأرض»(٥٣) كلهـا بهـذا النور ، وهذا وفقكم الله فتح الفتوح ، أنذر بين يدي نجـواه (٥٤) ، بنصر يعجز عنه الحصر.

وقد كان في أول اللقاء جولة على المسلمين ، قضى الله بـالشهادة فيها ، لمن اهتم بأمانيها ، ثم انزل سكينته ، فخطبت نصال المسلمين، رقاب الكافرين ، فانكحتها ابـكارا ، صـانتها حجـال المغـافر ، وحجبتها ستور الطوارق عن عيون البواتر ، ولا مهر الا ما نووه من كرم نفوس ، جادت متطوعة ، ومشـت الى الخيرات مسرعة فنفلهـم الله انفالا ، ووعدهم بالنصر ، فأوفى لهم .

فتلقوا رحمكم الله هذه النعم بالشكر ، كما تلقينا ، وقولوا الحمد لله رب العالمين على نعم اصبحنا فيهـا ، وامسـينا ، والله يصـلها بالتأييد ، ويتبعها بالتوفيق والتسديد ، والسلا م .

ولما قضى الله بهـذا الفتـح الجليل ، والصـنع الجميل ، اقـام المسلمون في جمع اسلابهم ، وضم عددهم مدة أيام ، فامتلات أيديهم بالغنائم الوافرة ، والسبي الكثير ، واكتسبت الناس فيها مـن الات الحروب ، والأموال ، وسيوف الحلى ، ومناطق الذهب والفضـة مـا أغناهم .

وكان يوما لم يسمع بمثله من يوم اليرموك والقادسية ، فياله من فتح ما كان أعظمه ، ويوم كبير ما كان أكرمه ، فيوم الزلاقة ثبت قدم

الدين بعد زلاقها ، وعادت ظلمة الحق الى اشراقهـا ، نفسـت مخنق الجزيرة بعض التنفس ، واعتز بها رؤوساء الأنداس ، فجـزى الله أمير المسلمين ، وناصر الدين ، أبا يعقوب يوسـف بـن تـاشفين ، افضل الجزاء ، بما بل من أرماق ، ونفس مـن خناق ، وصـل لنصر هذه الجزيرة من حبـل ، وتجشـم الى تلبية دعائهـا ، واسـتبقاء ذمائها (٥٥)، من حـزن وسـهل ، حتـى هـزم على يده اعداء الله المشركون . وظهر أمر الله وهم كارهون .

رسالتنا بشارة بنصر الزلاقة ارسلتنا الى اشبيلية

(من الذخيرة لابن بسام ق ٢ ج ١ ص ٢٤١)

كتبت صبيحة يوم السبت الثالث عشر من رجب ، وقد أعز الله الدين وأظهر المسلمين ، وفتح لهم بفضله على يدي مسعانا الفتح المبين ، بما يسر الله في أمسه وسناه ، وقدره سبحانه وقضاه ، من هزيمة اذفونش بن فرذلند ، أصلاه الله – إن كان طالع الجحيم ، ولا أعدمه – إن كان أمهل – العيش الذميم كما قنعه الخزي العظيم ، واتيان القتل على اكابر رجاله وحماته ، واخذ النهب في سائر اليوم والليلة المتصلة به الى جميع محلاته ، وحضور العدد الوافر بين يدي رؤوسهم ، ولم يحتز منها إلا ما قرب ، وامتلاء الأيدي مما قبض ونهب ، واتخذ الناس هاماتهم صوامع يؤذنون عليها ، ويشكرون الله تعالى على ما صنع فيها ، والتتبع بعد أثارهم ، وتمادي الطلب من وراء فرارهم ، والذي لا مرية فيه أن الناجي منهم قليل ، والمفلت من سيوف الهند بسيوف الجوع والبعد مقتول ولم يصبني بحمد الله إلا جرح أشوى ، وعنت رغب حسن المآل عندي وزكى ، فلا يشتغل لك بال ، ولاتتوهم فيه غير ما أشرت اليه ، والحمد لله على ما صنع حق حمده ، وهو أهل المزيد الذي لايرجى الا من عنده.

وقد علم ماكنا عليه قبل مع عدو الله أذفونش بن فرذلند قصمه الله ، من تطأطؤنا واستعلائه ، وتقامئنا وانتخائه ، وانا لم نجد لدائه دواء ، ولا لبلائه انقضاء ، ولا لمدة الامتحان به فناء ، إلى أن سنى الله تعالى من استصراخ امير المسلمين وناصر الدين ، أبي يعقوب يوسف بن تاشفين ، معقلي الأحمى – أيده الله – ما سنى ، وأدنى من نأي دياره وشحط مزاره ما أدنى فلم أزل أصل بيني وبينه الأسباب ، واستفتح إلى ما كنت أتخيل من نصره الأبواب ، الى أن

ارتفعت الموانع قبله ، وانتهجت السبل القصية له ، ثم أجـاز – على بركة الله وعونه – يريش ويبري ، وصار بعد قـدما يخلق ويفـري ، ويتتبع وجوه الحزامة كيفما اتجهت ويستقري ، وانا أنجده بوسعي واسعده على حسب ما يطيقـه ذرعي ، الى أن صرنا معشر الحلفـاء ببطليوس – حرسها الله – واتفق رأينا بعـد تشـاور على قصـد قورية – حرسها الله – وسمع العدو – لعنه الله – بـذلك فصـمد من محتشده اليها في جيوش تملأ الفضاء ، وتسد الهواء ، وتمنع أن تقع على ما تحت راياته ذكاء ، قد تحصنوا بالحديد من قـرونهم إلى اقدامهم ، واتخذوا من السلاح ما يزيد في جـراتهم واقـدامهم ، ولما أشرف على جنابها ، ولسنا بها ، ودنا من أعلامها ، ولم يتجه لنا بعد ما اردنا من المامها ، دعاه تعاظمه إلى مواجهة سبيلنا ، وحمله نفجه وتهوره على السلوك في مدرج سيولنا .

وفي فصل منها : فـدنونا اليه بمحـلاتنا – نصرهـا الله – ثـم اضطربناها بإزائه ، واطللنا عليه براياتنا حتى كدنا نركزهـا بفنائه – لعنه الله – ما اعتمدناه من إصغاره وإخزائه ، فأجمع مضـطرا على اللقاء ، وقدم بعض أخبيته دهشا في الرقعة التي كانت بيننا على صغرها من بساطة الفضاء ، وقـد تيقـن أنه إن أخـذ المسـلمون مصافهم ، ورتبوا في مواقعهم كوافهم ، اصطلم عن اخره جمعـه ، و اجتث أصله وفرعه ، فاهتبل فيما قدره غرة ، وحمـل ولم يكن – بحمد الله – ما اسـتشعره مـرة ، فتنادى المسـلمون بشـعارهم المنصور ، واقبلوا عليه وعلى من معـه في حـال مـؤذنة بـالظهور و الوفور ، فتواقف قليلا الجمعان ، وتجول مليا الفريقان وللسـيوف حكمها ، ومن الحتوف حدها المفهـوم ورسـمها ، ثـم صـدق أمير المسلمين وناصر الدين – ايده الله – الحملة ، وصدم في جمـع لم يكثـر عدد الجملة ، فلم يلبـث اعداء الله ان ولوا الأدبـار ، واستصرخوا الفرار ، واتبعهم خيل المسـلمين – نصرهـم الله – بقية اليوم والليلة ، تقتلهم في كل غور ونجد وتقتضي أرواحهم على حالين مـن كالئ ونقـد ، ولم يخلص منهـم على أيدي المتبعين – أجرهم الله – إلا من سيلتهمه البعد ، ويأتي على حشاشته الجهد ،

و اما محلتهم فانتهبت في أول وهلة ، وشربت بأسرها في نهلة .

وفي فصل منهما :

ولم يصب بحمد الله من المسلمين - وفرهم الله - على هول المقام ، وشدة الاقتحام ، كثير ، ولا مات من أعلامهم تحت تلك الجولة إلا عدد يسير ، فإن كان أذفونش - لعنه الله - لم يمت تحت السيوف بددا فسيموت لا محاله أسفا وكمدا ، ونحمد الله على مايسره من هذا الفتح الجليل وسناه ، ومنحه من هذا الصنع الجميل وأولاه .

رسالة تهنئة من أبي عبيد البكري الى المعتمد بن عباد بعد نصر الزلاقة

(من الذخيرة لابن بسام ق٢ ج١ ب٢٣٧)

أطال الله بقاء سيدي ومولاي الجليل القدر ، الجميل الذكر ، ذي الأيادي الغر ، والنعم الزهر ، وهنأ ما منحه من فتح ونصر ، واعتلاء وقهر ، بطابع السعد يا مولاي أبت ، وبسانح اليمن عدت ، وبكنف الحرز عذت ، وفي سبيل الظفر سرت ، وبقدم البر سعيت ، وبجنة العصمة أتيت ، وبسهم السداد رميت وأصميت ، صدر عن أكرم المقاصد ، وأشرف المشاهد وعود بأجل ما ناله عائد ، وأب به وارد ، فتوح أضحكت مبسم الدهر ، وسفرت عن صفحة البشر ، وردت ماضي العمر ، وأكبت واري الكفر ، وهزت أعطاف الأيام طربا ، وسقت أقداح السرور نخبا ، وثنت آمال الشرك كذبا ، وطوت أحشاء الطاغية رهبا ، فذكرها زاد الراكب وراحة اللاغب ، ومتعة الحاضر ونقلة المسافر :

بها تنفض الأحلاس في كل منزل
وتعقد أطراف الحبال وتطلق

شملت النعمة ، وجبرت الأمة ، وجلت الغمة ، وشفت الملة ، وبردت الغلة ، وكشفت العلة.

كان داء الاشراك سيفك واشت
دت شكاة الهدى وكان طبيبا

فغدا الدين جديدا ، والاسلام سعيدا ، والزمان حميدا ، وعمود

الدين قائما ، وكتاب الله حاكما ، ودعوة الايمان منصـورة ، وعين الملك قـريرة فهنأ الله مـولانا وهنأنا هـذه المنح البهية مطالعها ، الشهية مـواقعها المشـهورة آثـارها ، المأثـورة أخبارها ، ونصر الله أعلامه ففي البـر تحـل وتعقـد ، وعضـد حسامه ، فبالقسط يسل ويغمـد وأيد مـذاهبه فبـالتحزم تسـدى وتلحم ، وأمد كتائبه ففي الله تسرج وتلجـم.فـكم فـادح خـطب كفاه ، وظلام كرب جلاه ، وميت حق أحياه ، وحي باطل ارداه وكم جاحم ضلالة أطفأ ناره ، وناجم فتنة قلم اظفـاره ، ومغلول اسـنة أرهف شفاره ومستباح حرمة حمى ذماره.

فلله هذه المساعي الكريمـة ، والمنازع القـويمة ، المتبلجـة عن ميمون النقيبة ومحمود العزيمة ، فقد تمثل بها العهد الأول والقـرن الأفضل الذي اخـرج الناس يأمـرون بـالمعروف وينهـون عن المنكر ، والذي سطع هذا السراج ، وانتهج هذا المنهاج ، فلا زالت الفتوح تتوالى عليه ، وصنائع الله تتصل لديه ، إدالة مـن مشـاقيه وإزالة لمحاربيه ، وإبـادة لمناوئيه ، وإن أجـل هـذه النعـم في الصدور ، وأحقها بالشكر الموفور ، ما من الله به سـلامة مـولاي التي هي جامعة لعز الدين ، وصلا حكافة المسلمين ، بعد ان صـلى من الحرب نيرانها ، فكان اثبت اركانها ، واصبر اقرانها :

وقفت وما في الموت شك لواقف
كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة
ووجهك وضاح وثغرك باسم

فلله الحمد والابداع والالهام ، وله المنة وعلينا متـابعة الشـكر والدوام ، وفازت الكف الكليم ، بـأعلى قـداح المكلوم لدى المقـام الكريم ، وإنها لهي التالية للأصبع الدامية ، في المنزلة العالية :

بصرت بالراحة العليا فلم ترها
تنال إلا على جسر من التعب

الخطاب الذي بعث به يوسف بن تاشفين الى أشياخ المغرب حول معركة الزلاقة (نقلا عن روض القرطاس المنسوب لابن ابي زرع)

« أما بعد حمدا لله تعالى المتكفل بنصر أهل دينه الذي ارتضاه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد افضل رسله واكرم خلقه واسراه ، فإن العدو الطاغية لعنه الله لما قربنا من حماه وتواقفنا بإزائه ، لقناه الدعوة وخيرناه بين الاسلام والجزية والحرب ، فاختار الحرب ، فوقع الاتفاق بيننا وبينه على الملاقاة في يوم الاثنين الرابع عشر لرجب ، وقال : الجمعة عيد المسلمين والسبت عيد اليهود وفي عسكرنا منهم خلق كثير ، والأحد عيدنا نحن ، فتفرقنا على ذلك ، وأضمر اللعين خلاف ما شرطناه ، وعلمنا أنهم أهل خدع ونقض عهود ، فأخذنا أهبة الحرب لهم ، وجعلنا عليهم العيون ليرفعوا إلينا أحوالهم ، فأتتنا الأنباء في سحر يوم الجمعة (الحادي؟) الثاني عشر من رجب المذكور بأن العدو قد قصد بجيوشه نحو المسلمين ، يرى أنه قد اغتنم فرصته في ذلك الحين ، فانتدبت إليه ابطال المسلمين وفرسان المجاهدين ، فتعشته قبل أن يتعشاها وتغدته قبل أن يتغداها ، وانقضت جيوش المسلمين في جيوشهم انقضاض العقاب على عقيرته ، ووثبت عليهم وثوب الأسد على فريسته ، وقصدنا برايتنا السعيدة المنصورة ، في سائر المشاهد المشهورة ، في جيوش لمتونة نحو الفنش ، فلما ابصر النصارى رايتنا المشتهرة المنتشرة ، ونظروا إلى مراكبنا المنتظمة المظفرة ، وغشيتهم فروق الصفاح ، واظلتهم سحائب الرماح ، وزلزلت حوافر خيولهم رعود الطبول بذلك الفياح ، التحم النصارى بطاغيتهم الفنش ، وحملوا على المسلمين حملة منكرة ، فتلقاه المرابطون بنية صادقة

خالصة ،وهمم عالية ، فعصفت ريح الحرب ، ووكفت ديم السيوف والرماح بالطعن والضرب ، وطاحت المهج ، واقبل سيل الدماء في هوج ، ونزل من سماء الله على أوليائه النصر العزيز والفرج ، وولى الفنش مطعونا في إحدى ركبتيه طعنة افقدته إحدى ساقيه في خمسمائة فارس من مائة وثمانين الف فارس ومائتي الف راجل ، قادهم الله إلى المصارع والحتف العاجل ، وتخلص لعنه الله إلى جبل هنالك ، ونظر النهب والنيران في محلته من كل جانب ، وهو من أعلى الجبل ينظرها شزرا ، لم يجد عنها صبرا ، ولا يستطيع عنها دفاعا ولا لها نصرا ، فأخذ يدعو بالثبور والويل ، ويرجو النجاة في ظلام الليل ، وأمير المسلمين بحمد الله قد ثبت في وسط مراكبه المظفرة ، تحت ظلال بنوده المنتشرة ، منصور الجهاد مدفوع الأعداء ، يشكر الله تعالى على ما منحه من نيل السؤال والمراد ، وقد سرح الغارات في محلاتهم تهدم بناءها وتستلم ذخائرها واسبابها وتريه راي العين دمارها ونهابها ، والفنش ينظر إليها نظر المغشى عليه ، ويعض غيظا واسفا على أنامل كفيه ، وحين تمت الهزيمة وتتابع الفرار ، عاد رؤساء الأندلس المنهزمون نحو بطليوس والفار ، وتراجعوا حذرا من العار ، ولم يثبت منهم غير زعيم الرؤساء والقواعد ، ابو القاسم المعتمد بن عباد ، فأتى إلى أمير المسلمين وهو مهيض الجناح ، مريض عناء وجراح ، فهنأه بالفتح الجميل ، والصنع الجليل ، وتسلل الفنش تحت الظلام ، فارا لا يهدأ ولا ينام ، ومات من الخمسمائة فارس الذين كانوا معه بالطريق أربعمائة ، فلم يدخل طليطلة إلا في مائة فارس ، والحمد لله على ذلك كثيرا ، وكانت هذه النعمة العظيمة ، والمنة الجسيمة ، يوم الجمعة الثاني عشر لرجب سنة تسع وسبعين واربعمائة.

رسالة يوسف بن تاشفين الى الزيريين في افريقية سنة ٤٧٩ هـ ـ ١٠٨٣

حول الجواز الى الأندلس ومعركة الزلاقة (من مخطوط الاسكوريال رقم ٤٨٨ ـ ٤٩ و ـ ٥٣ ظ)

«الحمد لله الذي من علينا بالاسلام ، وفضلنا بمحمد نبيه عليه السلام ، احمده حمدا يوجب المزيد من الائه والسبوغ من سرابله ونعمائه ، كان من قضائه ـ جل ثناؤه وتقدست أسماؤه ـ لما اراد قمع المردة الطغاة من زناتة وغيرهم في بلاد المغرب سبب لنا اليهم المطلب فقفونا اثارهم واخلينا منهم ديارهم ، وكذلك نفعل بالقوم الظالمين ، فقومنا الدين ، ومهدناها للمسلمين ، فصفت لنا ضمائرهم ، وخلصت الى الله تعالى نياتهم وسرائرهم حتى وصلنا طنجة الركاب ، واذقنا برغواطة سوم العذاب ، ففتح الله لنا وبنا ، وهو خير الفاتحين واسرع الحاسبين لااله غيره وهو ارحم الراحمين .

ولما بلغنا من استحواذ النصارى ـ دمرهم الله ـ على بلاد الأندلس ومعاقلها ، وإلزام الجزية لرؤسائها واستئصال اقاليمها ، وإيطائهم البلاد دارا دارا لا يتخوفون عسكرا يخرج اليهم ، فيبدد جمعهم ، ويفل حدهم ، وهم مع ذلك كله يقتلون الشيب والشبان ، ويأسرون النساءوالصبيان ، فخوطبنا على الجواز الى الأندلس من جميع الأحواز ، المرة بعد المرة ، والوينا الأعذار الى وقت الأقدار ، ولم نجد للجواز بابا ، ولاالدخول البحر أسبابا ، فانضم لنا منهم الرئيس الأجل المعتمد على الله ،المولى بنصر الله ،احسن الله في كل الأمور عونه ،واقر بكل صالخة عينه ـ فعزمنا على الغزو وجوزنا للعدو اسو دا ضارية وسباعا عادية

وشيبا وشبانا ، بسواعد قوية ، وقلوب في سبيل الله نقية ، قد عرفوا الحروب وجربوها ، فهي أمهم وهم بنوها ، يتلمظون تلمظ الفهود ، ويزأرون اليها زئير الاسود ، فشحنا بهم القوارب ، واوسعناهم على ظهور المراكب ، فخرجنا في مرسى الجزيرة الخضراء من دياره ، وفقه الله ، ففزع الناس من كل افق اليهم ، ووفدوا من كل قطر اليهم ، متعجبين من هيأتهم محتقرين لزيهم ونغماتهم ، لايروعهم منهم حاشى الخيل والدرق ، وهم مع ذلك لاينالون الا بعد جف الريق ومسح العرق ، وقدروا أنهم طعم للسيوف وغرض للحتوف وسعد للأرماح ونهب للسلاح فكل استصغرهم ، والجميع منهم احتقرهم ، وتبلغ الينا أخبارهم وأقوالهم وتنتهي الينا افعالهم ، ثم أتبعناهم جيشا بعد جيش بخيول كالفحول ، عليها الكهول ، وعدد من كل أمرد ، على أجرد يتسابقون الى اللقاء في الفضاء ، تسابق الحين والقضاء ، ومع هذا كله فان أهل الأندلس مستبشرون بنصرهم على أيدينا وازاحة غيمتهم بسببنا ، وعساكرنا تتزيد ، وجوازنا يتأكد ، وكان أخر من جاز منا ومعنا قطعة من صنهاجة بني عمي ، فعسر البحر حينئذ للجواز ، واضطربت فيه الأمواج ، فاستخرنا الباري تعالى جده ، وعظم اسمه ، إن كان في جوازنا خيرة للمسلمين أن يسهل علينا ، فما استكملت من كلامي حتى سهل الله المركب وقرب المطلب ، فخرجنا من الحين في مرسى الجزيرة الخضراء المذكورة والتأم شعبنا مع من جاز من عساكرنا ، فعملنا على السير ، وكان قد تقدم الينا بالعدوة من قبل الأذفونش أمير النصارى رسالة يخاطبنا فيها بالجواز الينا اذ عجزنا عنه ، وفرقنا منه - نعطوه - المراكب ونسلموا - اليه الشواني والقوارب ليرد علينا ويقاتلنا في مأمننا ، فلم نلتفت اليه ، ولاعرجنا عليه . ووصلنا أيدينا بالرئيس الأجل المعتمد على الله المؤيد بنصر الله ، واستوثقنا منه غاية استيثاق ، وبنينا معه على اللحاق بهم ، والورود عليهم ، ونحن في ذلك كله لما نقل الينا ، وورد علينا من رؤساء الأندلس ، مستبطئين سريرة المخبتين لابسين كسوة

الصالحين ، وقلوبنا شتى ، حتــى لحقنا إشــبيلية حضرة عمــرت ببقائه ، وقد تجمع له من جنوده أعداد ، ومن حشــمه وعبيده وخيله ورجله أجناد ،فصرنا الى مدينة بطليوس ،واقمنا بها أياما منتظرين لوفد الرؤ ساء من جميع قظار اللأندلس ،فــأخبرنا وصــح عندنا أن كل واحد منهم مشتغل مع قطعة كثيرة من النصارى ، قد تغلبــوهم على حصونهم ، وأذلوهم في بلادهم واضــعفوهم وشــجعوهم على مرادهم ، فحمــدنا الله تعــالى ، ودعونا بتيســير المراد واســتنقاذ العباد ، فجمعنا عساكرنا وسرنا اليه ، وصرنا الى قفل قورية مــن بلاد المسلمين ، صرفهــا الله ، فســمع بنا وقصــد قصــــدنا وورد ورودنا ، واحتــل بفنائهــا منتــظرا لنا فبعثنا اليه نحضـــه على الاسلام ، ودخوله في ملة محمد عليه السلام ، أو ضرب الجزية عليه وإسلام ما كان من المال والبيوت لديه ، كما أمرنا الله تعــالى وبين لنا في كتابه ، من إعطاء الجــزية عن يد وهــم صــــاغرون فـــأبى وتمرد ، وكفر ونخر وعمل على الاقبال علينا ، وحث في الورود علينا فلحقنا وبيننا وبينه فــراسخ فلمــا كان بعــد ذلك ، بـــرزنا عليه

أياما ، فلم يجبنا ، فبقينا وبقــوا ، ونحــن نخـــرج الطـــلا ئع

اليه ، ونتابع الوثوب عليه ، وبنينا على لقائه يوم الخميس لاحــدى عشرة ليلة خلت لرجب سنة تسع وسبعين واربعمائة فلمــا كان يوم الجمعة ثانية ورد علينا بكتائب قد مــلأت الآفــاق ، وتقلبــت تقلب الحتوف للأحداق قد اســتلموا الدروع للكفــاح ، وربــطوا ســوقهم الألواح ، وبطونهم مــلأى مــن الخمــور يقــدرون أن الدائرة علينا تــدور ، ونحــن في أخبيتنا صــبيحة اليوم المذكور ، كل مناســـــاه وجميعنا لاه ، فقصد أشدهم شوكة ، واصلبهم عودا ، وانجدهم عديدا محلة المعتمد على الله المؤيد بنصر الله وفقه الله ، عماد رؤساء الأندلس وقطبهم لايقــدرون عســكرا الا عســكره ، ولارجــالا الا رجــاله ، ولاعديدا الا عديده ، وداود مــــن اصــــحابنا منا الى إزائه ، فهبطوا اليه لفيفا واحدا ، كهبوط السيل ، بسوابق الخيل فلما رآهم من كان معه من جنده ومن جميع الطبقــات ، الذين كانوا يذخرون من قبله الأموال والضياع ، اســتكت أذانهــم واضــطربت

اضلاعهم ودهشـــت أيديهـــم ، وزلزلت اقـــدامهم وطـــارت قلوبهم ، وصاروا كركب الحمير ، فروا يطلبـون معقـلا يعصـمهم ولاعاصم الا الله ، ولاهاربا منه الا اليه ، فلحقوا من بـطليوس بالكرمات ، لما عاينوا من الأمور المعضلات ، واسـلموه ـ ايده الله ـ وحده في طرف الأخبية مع عدد كثير من الرجـالة والرمـاة ، قـد استسلموا للقضاء فوثبوا عليه وثب الأسد على الفرائس ، يعظمون الكنائس ، فحبسهم حينا وحده مع من اليه ممن ذكرناه ، وبسطوا منهم الأرض ، ولم يبق من الكل الا البعض ولجأ في الأخبية ، بعـد ان عاين المنية ، وتخلصه الله بنيته في المسلمين وبلغ أمنيته ، بعـد أن وقف وقفة بطل مثله ، لاأحد يرد عليه ، ولا فارس من فـرسانه وعبيده يرجع اليه ، لايروعه أحد منهم فيهزم ، ولايهابهم فيسأم ثم قصدت كتيبة سوداء كالجبـل العـظيم أو الليل البهيم عسـكر داود واخبيته فجالوا فيها جولانا ، وقتلوا من الخلق الوانا ، واستشهد الكل بحمـد الله ، وصـاروا الى رضـوان الله ، ونحـن في ذلك كله غافلون ، حتى ورد علينا وارد ، وقصد الينا قاصد ، فخرجنا مـن وراء الشعب ، كقطع اللهب ، بجميع من معنا ، على الخيل المسومة العراب ، يتسابقن الطعن والضراب ، فلما رأونا ، ووقعت أعينهـم علينا ظنوا ان الدائرة فينا ولدينا ، وانا طعـم اسـيافهم ، ولقـاء رمـاحهم ، فـكبرنا وكبـر الكل معنا ، مبتهلين لله وحـده لاشريك له ، ونهضنا للمنون الذي لابد منه ولامحيص لأحد عنه ، وقلنا هذا اخـــر يومنا مـــن الدنيا فلنمـــوتوا شـــهداء ، فحملوا علينا كالسهام ، فثبـت الله اقـــدامنا ، وقـــوى افـــئدتنا ، والملائكة معنا ، والله تعـالى ولي النصر لنا ، فـولوا هـاربين ، وفـــروا ذاهلين ، وتساقط اكثرهم بقدر الله تعالى دون طعنة تلحقه ولاضربة تثخنه ، واضعف الرعب ايديهم ، فطعناهم بالسمهرية دون الوخـز بالابر ، وضاقت بهم الأرض بما رحبت حتى أن هاربهم لا يرى غير شي الا ظنه رجـــلا ، وفتـــكت فيهـــم الســـيوف ، على رغم الأنوف ، فو الله لقد كانت تقع على الدروع فتفريها وعلى البيضـات فتبريها ، وزرقوا الرجالة منا على خيلهم الرماح ، فشـكوهم بهـا

فرمحت بهم ، فما كنت ترى منهم فـارسا الا وفـرسه واقـف على راسه لايسـتطيع الفـرار ، الكل يجـر عنانه ، كأنه معقـل بعقالة ، ونحن راكبـون على الجـواد الميمـون العـربي المصون ، السابق اللاحق المعد للحقائق وما منا الا مـن له جـرابان فيه سيفان وبيدنا الثالث عسى أن يحدث من حـادث ، فصـاروا في الأرض مجدلين ، موتى معفـرين ، وقـد تـراجع الناس بعـد الفرار ، وامنوا من العثـار ، وتضـافروا مـع عسـكرنا وغيرهم ، يقطعون رؤوسهم ، وينقلونها بإزاء المحـلات حتـى علت كالجبال الراسيات ، عدد لايقدر ، ومدد لايحزر ، والتجريد فيهـم والأيدي متعاودة لبطونهم ، واستأصلنا أكابـرهم ، وحلنا دون اباطيلهم وأمانيهم ، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون ، وانقطع من عسكرهم نحو الفي رجـل أو اقـل ، والأنفـوذش فيهـم على ماأخبرنا ، قد أثخنوا جراحا بإزاء محـلاتهم ، يرتـادون الظـلام للهروب في المقـام ، ووالله لقـد كان الفـرسان والرجـالة يدخلون محلتهم ، ويعثرون في أخبيتهـم ، وينتهبـون أزودتهـم ، وهـم ينظرون شزرا نظر التيوس الى شفار الجـزارين الى ان جـن الليل وارخى سد وله ، ولوا هاربين ، وأسلموا رحايلهم صاغرين ، فكم من دلاص على البقاع ساقطة ، وخيول على النقاع رائضة . ولقـد ارتبط كل فارس منا الخمسـة الأفـراس أو أزيد ، وأمـا البغـال والحمير فأكثر من ذلك ، وامـا الثياب والمتـاع فناهيك ، والأسرة بأوطية الحـرير ، والثياب والأوبـار عدد ليلهـم ولايكلون مـن الانتقال ، ولايسأمون من تشريط الأموال ، ولحقوا (قورية) ومنها حيث رحلها أم قشعمهم فصححنا ضمائرنا ، واخلصـنا للمعتمـد على الله نياتنا وسرايرنا ، ورجعنا بحمـد الله غانمين منصـورين

ولم يستشهد منا الا الفرقة التي قدر الله عليها بذلك ، وقـدرنا أن الكل منهم هلك لقلة معرفتهم وجهالتهم بقتال النصارى ، وتـراميهم للشهادة ، قدس الله أرواحهم ، وكرم مثواهم وضريحهم ، وجعـل الجنة ميعادا بيننا وبينهم ، وفقدنا من أكابرنا نحـو عشرين رجـلا ممن اشـتهرت نجـدته في المغـرب ، وانقلب خير منقلب ، ولحقنا

اشبيلية حضرته عمرت ببقـــائه ، واقمنا عنده اياما ، ورفعنا عنه مودعين لاتوديع قاطع ، ولايمنعنا منه متــى احـب مــانع ، ولحقنا الجزيرة الخضراء ، ونحن نريد اشياء اسأل الله تمامها وإنجــازها وأن يسهل المراد ويوفقنا للسداد ، ومتى تنفس منهـم متنفس ، او رجع الى احــدهم نفس ، يذكرون مـــالقوا ، ويتـــذاكرون مـــا بقوا ، و(سنستدرجهم من حيث لايعلمــون ، واملي لهــم إن كيدي متين . (٥٦)حتى لايبقــى على اديم الأرض منهـم حــي ، ولايحس منهم انس ، والحمد لله رب العالمين على مــا قضى وخــول واعطــى.

وهذا كله منا منه علينا لامنا منا عليه ، وصــلى الله على محمــد خــاتم النبيين وقــائد الغـــر المحجلين الى جنات الله النعيم ، وآله الطيبين وسلم تسليما ، والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته .

رسالة من يوسف بن تاشفين الى المستعين بالله أحمد ابن يوسف بن هود صاحب الثغر الأعلى

(من الحلل الموشية ص ٧٥)

من امير المسلمين ،وناصر الدين يوسف بن تاشفين ،إلى المستعين بالله احمد بن هود ،أدام الله تأييده ،من حضرة مراكش ، حيث ايات شرفك ، وماثر سلفك ،ونحن نحمد الله بجميع المحامد ،ونستهديه أحسن الموارد ، ونسأله أتم الفوائد ، وأنجح المقاصد ، ونصلي على سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم صفوة أوليائه ، وخاتم أنبيائه ، وأما الذي عندنا – أيدك الله – لجانبك الكريم ، وبحرك الطامي ،ومجدك الصميم ، ومحلك المعلوم فود صريح ، وعقد – في ذات الله تعالى – صحيح ، ووردنا نشأة السيادة والنبل والنباهة والفضل ،أبو مروان عبد الملك ،ابنك ولادة وتنسبا ،وابننا ودادا وتقربا ،زاد الله به عينك قرة ، ونفسك مسرة ،ومعه خاصتك الوزيران : أبو الأصبغ ،وأبو عامر ، اكرمهما الله بتقواه ،وكلا وفيناه حق نصابه ، واتيناه بره من بابه ،وأديا الينا كتابك الجليل الخطير المقبول المبرور ، فوقفنا منه على وجه شخوصهما ، وأصغينا في تفصيل جملته الى تخليصهما ، فألقينا اليهما مراجعة في ذلك ما لقنوه إ، وسفرنا إلهما عن وجه قصدنا فيه حتى استبانوه ، وجملته الوفاق ، وجماعة الانتظام في سلك ما يرضي الله تعالى والاتساق ، إن شاء الله تعالى ، والسلام .

رسالة البابا غريغوار السابع الى صاحب قلعة بني حماد

(عن تاريخ المغرب الدبلوماسي لعبد الهادي التازي ج ٥ ص ١٩٤ ـ ١٩٥)

من عند الراهب غريغوار ،خادم عباد الله ،إلى الناصر ملك موريطانيا من إقليم ستيف بإفريقيا .. تحية وبركة بابوية .

لقد تفضلت فخامتكم بالكتابة إلينا في هذه السنة طالبين منا ان نرسم كاهنا وذلك حسب القوانين التي تفرضها علينا المسيحية ،فبادرنا باختيار الأسقف سرفان لأن طلبكم هذا كان صائبا . وبعثتم لنا في نفس الوقت بهدايا ،كما أنكم احتراما لبيتر ـ امير الرسل ـ وحبا لنا قد حررتم الأسرى المسيحيين ووعدتم ايضا بالعفو عن الآخرين الذين قد يوجدون عندكم .

إن الله خالق كل شيء والذي بدونه لانستطيع شيئا ، قد الهمكم الطيبة وهيأكم لهذا العمل النبيل .

إن الله العلي القدير الذي يحب السلام لكل الناس ولايريد أن يهلك احدا ،لا شيء احب إليه تعالى اكثر من حبنا لبعضنا ،بعد حبنا له سبحانه وكذلك من التمعن في هذا المبدا : « عامل غيرك بما تحب ان تعامل به »

فينبغي لنا ان نمارس فضيلة المحبة هذه اكثر من غيرنا من الشعوب .فنحن جميعا ،على أوجه مختلفة ، نعبد إلها واحدا ، وإننا كل يوم نسبح بحمده ونجل فيه خالق العصور ورب العالمين .
فعندما اخبرنا شرفاء مدينة روما بالصنيع الذي الهمكم الله إياه ،قد اعجبوا بسمو قلبكم واذاعوا مدحكم ، وإن اثنين من بينهم هما

اللذان يشاركانا الأكل والشراب عادة ،البيرك وسنسيون ،وقد تربيا معنا في قصر روما منذ كانا في سن المراهقة .

وهما يودان ،بحمية ،أن يربطا معكم صداقة ومـودة ، وسـيكونان سعيدين بإرضائكم في هذه البـلاد .سـيبعثان لكم ببعض رجـالهم ليبرهنوا لكم على مدى تقدير أسيادهم لخبرتكم ولعظمتكم وليظهروا لكم رغبتهم في خدمتكم هنا .

وإننا نوصي جلالتكم بهم ونطلب منكم أن تكنوا لهم الحـب والوفـاء مثل الحب والتفاني الذي سنخصكم دائما به وبأي أمير يعينكم .
إن الله العلي القدير يعلم أن عبادته تلهم الصداقة التي محضناكم بها .

وكم نتمنى لكم السلامة والنصر في هذه الدنيا وفي الآخرة ، وإننا نتوسل إليه تعالى من اعماق قلوبنا أن لايأخذكم إليه إلا بعـد عمـر طويل ، إلى صدر ونعيم سيدنا ابراهيم عليه السلام » .

رسالة يوسف بن تاشفين الى صاحب قلعة بني حماد يقرعه فيها على تعامله مع البابوية

(من الذخيرة لابن بسام ق ٢ ج ٢ ص٢٥٧)

ورد كتابك الذي انفذته من وادي منى منصرفك من الوجهة التي استظهرت عليها بأضدادك ،وأجحفت فيها بطارفك وتلادك ،واخفقت من مطلبك ومرادك ،فوقفنا على معانيه ،وعرفنا المصرح به والمشار إليه فيه ،ووجدناك تتجنى وتثرب على من لم يستوجب التثريب ،وتجعل سيئك حسنا ، ومنكرك معروفا ، وخطاك صوابا بينا ،وتقضي لنفسك بفلج الخصام ، وتوليها الحجة البالغة في جميع الأحكام ،ولم تتأول أن وراء كل حجة ادلتها ما يدحضها ،وإزاء كل دعوى أبرمتها ما ينقضها ،وتلقاء كل شكوى صححتها ما يموضها ،ولولا استنكاف الجدال ، واجتناب تردد القيل والقال ، لنصصنا فصول ما يبطله ،ويخجل من ينتحله ،حتى لايدفع لصحته دافع ولا ينبو عن قبول أدلته راء ولا سامع ، ولايختلف اعترافا به دان ولاشاسع .

وفي فصل منها :وننشدك الله الذي ماتقوم السماء والأرض إلا بأمره ،الم نكن عندما نزغ الشيطان بينك وبين أبي عبد الله محمد ابن يوسف رحمه الله ، وتفاقم الشنآن ، قد توفرنا على ماكان بالحال من إقلاق ، وتأخرنا عما كانت النصبة تستقدم من بدار أو سباق ، ولم نمد الجهة حق إمدادها ولاكثرنا فوق ما كان يلزم من جماهير اعدادها ولاعدلنا عن جهاد المشركين ، ولا أقبلنا إلا على مايحوط حرب المسلمين ، رجاء أن يثوب استبصار ، أو يقع إقصار ، وأنت خلال ذلك تحتفل وتحشد ، وتقوم بحمية وتقعد ،

وتبرق غضبا وترعد ، وتستدعي ذؤبان العرب وصعاليكهم من مبتعد ومقترب ، فتعطيهم ما في خزائنك جزافا ، وتنفق عليهم من كنزه أولئك إسرافا ، وتمنح أهل العشارات مئين وأهل المئين الافا كل ذلك تعتضد بهم ، وتعتمد على تعصبهم لك وتألبهم ، وتعتقد أنهم جنتك من المحاذير وحماك دون المقادير ، وتذهل عما في الغيب من أحكام العزيز القدير .

ونحن أثناء ما فعلت ، وخلال ما عقدت وحللت ، نؤم العدو ـ قصمه الله ـ فنجبهه ونكافحه ، ونقعده ونناطحه ، ونتحيفه من أقطاره ونفزوه بدءا وتعقيبا في عقر داره إلى أن استجمعت أخيرا واستجشت وتراجعت إلى عرفانك وأجهشت ولولا ماؤك الذي ثمدوه ، وشارفوا إلى أن يستنفدوه ، ما أووا لشكواك ، ولزادوك ضغنا على إبالة بلواك ، وإنك لمتداو منهم بسم ، ومستريح إلى غم ، فبلغت معهم ما بلغت ، وأرغت بهم ما أرغت ، واستقبلتنا بما أثبت عن العدو ولقد أخذناه بمخنقه ، وأضفنا أنشوطة وهق الهزي على عنقه ، وأشفى على انقطاع ذمائه ورقمه ، ففرجت عنه كربة لم يظنها تنفرج ، ونهجت له منها وجه مخلص لم يحسبه ينتهج ، وأخليت وجهه لأذى المسلمين يبدئه ويعيده وبسطت فيهم يده وكانت في جامعة تقصره عما يريده ، ولو أن صاحب رومة المشتمل معه بعباءه الكفر والشرك المنتحل ما ينتحل من كلمة الزور والافك ، يكون مكانك جوارنا ، ويصاقب كما صاقبت قاصية دارنا ، ما أتى من نصره فوق ما أتيت ولاتولى من انتشاله ، والسعي في استقلاله ، إلا بعض ما توليت ، ولا أنحى على المسلمين من مضاره إلا بدون ما أنحيت ، ولا بغاهم خبالا بأكثر مما بغيت .

وما في تلك الجزيرة ـ عصمها الله ـ من صالح ولاطالح إلا ما يعرضك على الله تعالى ويرفع إليه فيك عقيرته بالشكوى ، وكل ما سفك من دم ، وانتهك من محرم واستهلك من ذمم ، فإليك منسوب ، وعليك محسوب ، وفي صحيفتك مكتوب وموعد الجزاء غدا وإنه لقريب فانظر ما أنجح أثرك ، واربح متجرك ، واصلح موردك ومصدرك ... » .

عهد من الخليفة العباسي القائم بأمر الله ليوسف بن تاشفين

وهذه نسخة « الرسالة البرنامج » بعد البسملة الشريفة (٥٧) :
هذا ما عهد به عبد الله ووليه ، عبد الله القائم بأمر الله أمير المؤمنين ، إلى فلان حين انتهى إليه ما هو عليه من ادراع جلابيب الرشاد ، في الاصدار والايراد . واتباع سنن من أبدى واعاد ، فيما يجمع خير العاجلة والمعاد : والتخصيص من حميد الأنحاء والمذاهب ، بما يستمد منه اصناف الآلاء والمواهب والتحلي من السداد الكامل ، بما فاز فيه بامتطاء الغارب من الجمال والكاهل واتضح ما هو متشبث به من صحة الدين واليقين ، والمواظبة من اكتساب رضا الله تعالى على ما هو اقوى الظهير والمعين : في ضمن ما طوى عليه ضلوعه . وادام لهجه به وولوعه : من موالاة لأمير المؤمنين يدين لله تعالى بها ، ويرجو النجاة من كل مخوف باستحكام سعيها : ومشايعة لدولته ساوى فيها بين ما أظهر واسر ، وامل في اجتناء ثمرها كل ما ابهج وسر ، فولاه الصلاة

بأعمال المغرب ،والمعاون ،والأحداث ،والخراج ،والضياع ،والجهبذة والصدقات ،والجوالي ،وسائر وجوه الجبايات ،والعرض ،والعطاء والنفقة في الأولياء ،والمظالم ،واسواق الرقيق ،والعيار في دور الضرب ،والطرز ،والحسبة ،ببلاد كذا وكذا : سكونا الى استقلاله بأعباء ما استكفاه اياه ،واستقباله النعمة عليه في ذلك بكل ما ينشر ذكره ويطيب رياه ،وثيقة بكونه للصنيعة اهلا ،وبأفياء الطاعة الامامية مستظلا ،وتوفره على مايزيده بحضرة امير المؤمنين حظوة ترد باع الخطوب عنه قصيرا ،وتمد مقاصده من التوفيق بما يضحي له في كل حالة نصيرا ،وعلما بما في اصطناعه من مصلحة تستدير

اهلتها ،وتستنير من شبه الغي شواهدها وادلتها ، والله تعالى يصل مرامي أمير المؤمنين بالاصابة ويعينه على ما يقر كل امرىء في حقه ويحله نصابه ،ويحسن له الخطرة في كل ما يغدو له ممضيا ،ولمطـايا الاجتهاد في فعله منضيا ومـا تـوفيق أمير المؤمنين إلا بـالله ،عليه يتوكل واليه ينيب .

وأمره باعتماد تقوى الله تعالى في الاعلان والاسرار ، وبـاعتقاد الواجب من الاذعان بفضلها والاقـرار ، وأن يأوي منهـا إلى امنع المعاقل واحصنها ، ويلوي عنان الهدى فيهـا إلى أجمـل المقـاصد واحسنها ، ويجعلها عمـدته يوم تعـدم الأنصـار ، وتشـخص الأبصار ، ليجتني من ثمرها ما يقيه مصارع الخجل ، ويجتلي مـن مطالعها ما يؤمنه من طوارق الوجل ، ويرد بها من رضا الله تعـالى أصفى المشارب ويجد فيها من ضوال المنى أنفس المواهب ، فإنهـا أبقى الزاد ، وأدعى في كل امر إلى وري الزناد ، وقد خص الله بهـا المؤمنين من عباده ، وحض منهـا على مـا هـو أفضـل عدة المرء وعتاده ، فقال تعالى :(يا أيها الذين أمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) (٥٨) .

وأمره أن يأتم بكتاب الله تعالى مستضيئا بمصباحه ، مسضيما لسلطان الغي بالوقوف عند محظوره ومباحه ، ويقصد الاسـتبصار بمواعظه وحكمه والاستدرار لصوب التـوفيق في الرجـوع إلى متقنه ومحكمه ، ويجعله أميرا على هواه مطاعا وسميرا لا يرى أن يكشف عنه قناعا ، دليلا إلى النجاة من كل ما يخـاف أثـامه وسـبيلا إلى الفوز في اليوم الذي يسفر عن فصل الحساب لثامه ، ويتحقق مـوقع الحظ في إدامة درسه ، وصلة يومه في التأمل بـاسمه ، فإنه يبـدي طريق الرشد لكل مبدىء في العمـل بـه معيد :(وإنه لكتـاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) (٥٩)
وأمره أن يحـافظ على الصـلوات قـائما بشروطهـا وحدودها ، وشـائما بـروق التـوفيق في اداء فـروضها وحقوقها ، ومسارعا إليهـا في أوقـاتها بنية عائفـة مناهـل الكدر

والرنق ، عارفة بما في إخـلاصها مـــن نصرة الهـــدى وطـــاعة الحق ، وموفرا عليهـــا مـــن ذهنه ، مـــاالحظ كامـــن في طيه وضمنه ، وموفيا لها من الركوع والسجود ، ماالرشاد فيه صـادق الدلائل والشهود ، متجنبا أن يلهيه عنهـا مـن هـواجس الأفـكار ووساوس القلب العون منها والابكار ، وما يقف فيه مـوقف المقصر الغالط ، وينزل فيه منزلة الجاحد للنعم الغـامط ، وقـد أمـر الله تعالى بها وفرضها على المؤمنين واوجبها وحث من إقـامتها ، على المساجد ما يفضي إلى صلاح المقاصد واستقامتها ، فقـال عز مـن قائل :(فـأقيموا الصــلاة إن الصــلاة كانت على المؤمنين كتـــابا موقوتا) (٦٠) .

وامره بالسعي في أيام الجمع إلى المساجد الجامعة ، وفي الأعياد الى المصليات الضاحية ، بعد أن يتقدم في عمارتها ، وإعداد الكسوة لها ، بما يؤدي إلى كمال حلاها ، ويحظى من حسن الذكر بـأعذب الموارد واحلاها ، ويوعز بـــالاستكثار مـــن المكبـــرين فيهـــا والقوام ، وترتيب المصابيح العائدة على شــمل جمــالها بــالاتساق والانتظام ، فإنها بيوت الله تعالى التي تتلى بها اياته ، وتعلى فيها اعلام الشرع وراياتـــــه .وأن يقيم الدعوة على منابــــرها لأمير المؤمنين ، أدام الله تعالى بــه الامتــاع ، واحســن عن ســـاحته الدفاع ، ثم لنفسه جاريا في ذلك على ماالف من مثله ، وســالكا منه اقوم مسالك الاهتداء وسبله ، وقد بين الله تعالى ما في عمارتها من دلائل الايمان ، والفوز بما يعطي من سخط الله تعالى أوثق الأمان في قوله سبحانه :(إنما يعمر مساجد الله من أمن بالله واليوم الآخر واقام الصلاة وأتـى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى اولئك أن يكونوا من المهتدين) (٦١) وقال في الحث على السعي إلى الجوامع التـــي يذكر فيها اسمه ، ويظهر عليها منار الاســلام ورســمه (يا أيهــا الذين أمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله)(٦٢).

وامره أن يعتمد في إخراج الزكاة ما امر الله تعالى به ، وهدى منه ارشد فعل وأصــوبه ، ويقــوم بــذلك القيام الذي يحيطـــه بجميل

الذكر ، وجزيل الأجـــر ، ويشـــهد بـــزكاء المغـــرس وطيب النجر ، ويقصد في أداء الواجب منه مـــا يصـــل أمســـه في التـــوفيق بيومه ، ويطلق الألسنة بحمده ويكفها عن لومه ، متجنبا من إخـــلال بما نص عليه في هذا البـــاب ، أو إهمـــال فيه لما يليق بـــذوي الديانة واولي الألباب ، ومتوخيا في المسارعة إليه مـــا يتـــطهر بـــه مـــن الأدناس ، ويتوفر به حسن الأحدوثة عنه بين الناس ، فقد جعل الله تعالى الزكاة من الفروض التي لا سبيل إلى المحيد عنهـــا ، ولا دليل في الفوز أوفى منها ، وامر رسوله صلى الله عليه وسلم بأخذها مـــن امنه ، وابان عن كونهـــا ممـــا يجتنى كل مـــرغوب فيه مـــن ثمرته ، ووصل له في ذلك بما يوجب فضل المسابقة إلى قبوله :لما فيه من الحظ الكامل في استنارة غرره وحجـــولة ، في قـــوله ســـبحانه : (خذ من اموالهم صدقة تزكيهم بها وصل عليهم إن صـــلاتك ســـكن لهم والله سميع عليم)(٦٣) .

وامره ان يهذب مـــن الدنس خـــلاله ، ويصـــل بـــاقواله في الخير افعاله ، ويمتنع من تلبية داعي الهوى المضل ، ويتبع سنن المتفـــيء بالهدى المستظل ، ويقبض يده عن كل محرم تـــوثق أشراكه وتـــوبق غوائله ، وتؤذن بسوء المنقلب شواهده ودلائله ، ويجعل له من نهاره رقيبا على نفسه يصونها عن مراتع الغي ومـــطارحه ، وامينا يصـــد عن مسارب الاثم ومسارحه ، فإنها لا تزال امارة بالسوء إن لم تقد الى جدد الرشد ، وتقم لها سوق من الوعظ فيها أقصى الغاية والأمر فالسعيد من أضحى لها عند سورة الغضب وازعا ، وانحى عليهـــا بلوم يغدو معه عن كل ما يســـخط الله تعـــالى نازعا ،وأن يتنزه عن النهي لما هوله مرتكب والأمر بما هو له مجتنب اذ كان ذلك بـــالهجنة خاليا وبين المرء وبين مقاصد هـــديه حـــائلا ،قـــال الله تعـــالى: (اتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم وانتم تتلون الكتاب افـــلا تعقلون)(٦٤) .

وامـــر ان يضـــفي على مـــن قبله مـــن اولياء أمير المؤمنين وجنوده ، اصناف جلابيب الاحسان وبروده ، ويخصهم من جـــزيل

حبائه بما يصلون منه إلى أبعـد المدى ويملكون بـه نواصي الآمـال ويدركون قواصي المنى ، ويميز من ادى واجبه في الطـاعة وفـرضه وأبدى صفحته في الغناء بين يديه بمزيد من الاشتمال يرهق بصـيرة كل منهم في التوفر في ما وافقـه ، ووصـل بأذفـه في التقـرب إليه سابقه ، ويدعو المقصر إلى الاستبصار في اعتماد ما يلحق فيه رتبـة من فازت في الحظوة قـداحه ، وفـاتت الوصـف غرره في الزلفـة وأوضاحه ، ليمرح به في الاغتذاء بلبان النعمة ، كمـا انتهـج بهـا مسترشدا ، وطالبا ضوال الراي الثاقب ومنشدا وقد بين الله فضل المشورة التي جعلها لقاحا ، وفي حنادس الشكوك مصـباحا ، حيث امر رسوله صلى الله عليه وسلم بها ، وبعثه منها على أسد الأفعال واصوبها ، فقال تعالى :(وشاورهم في الأمر فإذا عزمـت فتـوكل على الله) (٦٥) .

وامره ان يعدل في الرعايا قله ، ويحلهـم مـن الأمـن هضـابه وقلله ، ويمنحهم من الاشتمال ، ما يحمـي بـه أمـورهم مـن الاختلال ، ويحوي به طيب الذكر بحسـب مـا اكتسـب مـن رضى الأنحاء والخلال ، ويضفي على المسلم منهم والمعاهد من ظل رعايته ما يساوي فيه بين القوي والضعيف ، ويلحق التليد منهم بالطريف : ليكون الكل وادعين في كنف الصـون ، راجعين الى الله تعـالى في إمدادهم بالتوفيق وحسن الطاعة والعـون . وأن ينظـر في مـظالمهم نظرا ينصر الحق فيه ، وينشر علم العدل في مطاويه ، وينصف معـه بعضهم من بعض ، وينصب به بهم مـن اهتمـامه أسـنى قسـم وحظ ، ملينا لهم في ذلك جانبه ،ومبينا ما يظل بـه كاسـب الأجـر وجالبه ،ويزيل عنهم ما شرعه ظلمة الغلمان بتلك الأعمـال . ويديل من تلك الحال باستئناف ما يوطئهم كواهل الآمال ، جامعا لهم بين الدليل والبرهان ، قال الله تعالى :(إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعـظكم لعلكم تذكرون) (٦٦) .

وامره بأن يكون بالمعروف أمرا ، وعن المنكر زاجرا ، ولله تعالى

في إحياء الحق وإماتة الباطل متاجرا . وأن يشد من الساعين في ذلك والداعين إليه ، ويعد القيام بهذه الحال من افضل ما يتقرب بـه الى الله تعالي يوم العرض عليه . ويتقدم بتعطيل ما في أعماله من المواخير ودحضها ، وإزالة اثارها ومحوها ، فإنها مواطن بالمخازي أهله ، ومن مشارب المعاصي ناهله ، وقد أسست على غير التقوى مبانيها ، واخليت من كل ما يرضي الله تعالى مغانيها ، وقد أبان الله تعالى عن فضل الطائفة التي ظلت بالمعروف أمرة وعن المنكر ناهية ، وضنت بما ترى فيه عن مقاصد الخير ذاهلة لاهية ، فقال :(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)(٦٧) .

وامره أن يرتب لحماية الطرقات من يجمع الى الصرامة والشهامة ، سلوك محاج الرشاد والاستقامة ، ويجعل التعفف عن ذميم المراتع شاهدا بتوفيق الله إياه، وعائدا عليه بما تحمد مغبته وعقباه ، ويأمر بحفظ السابلة ، واختصاصهم بالحراسة السابغة الشاملة ، وحماية القوافل واردة وصادرة ، واعتمادها بما تغدو به الى السلامة مفضية صائرة :لتحرس الدماء مما يبيحها

ويريقها ،والأموال مما يقصد فيه سبيل الاضاعة وطريقها وأن يخوفهم نتائج التقصير ،ويعرفهم مناهج التبصير ،وأن عليهم رقباء يلاحظون أمورهم ويوضحونها : ليكون ذلك داعيا الى التحوط والتحرز ،واعتماد الميل الى جانب الصحة والتحيز . ويوجب لهم من بعد ما يكفي أمثالهم مثله ،ويكف ايديهم عن الامتداد الى ماتذم سبله فإن أخل أحدهم بما حد له ،أو مزج بالسوء عمله جزاه بحسب ذلك وموجبه . قال الله تعالى:(من يعمل سوءا يجز به)(٦٨)وامره أن يتقدم الى نوابه في الأعمال بوضع الرصد على من يجتاز بها من العبيد الاباق والاستظهار عليهم بحسب العدل والاستحقاق ،واستعلام اماكنهم التي فصلوا عنها ،ومواطنهم التي بعدوا منها ،فاذا وضحت احوالهم وبانت ،وانحسمت الشكوك في بابهم وزالت ، اعادوهم الى مواليهم أبوا أم شاءوا .وأن يقصدوا انشاد الضوال ،ويجتهدوا من

اظهار امرها بما يغدو جمال الذكر به في الظلال ،ويتجنبوا أن يمتطوا ظهورها بحال ،أو يمدوا أيديهم الى منافعها في اسرار وإعلان ،حتى اذا حضر اربابها سلمت اليهم بالنعوت والأوصاف ،واجري الأمر في ذلك على ما يضحي به علم العدل عالي المنار حالي الأعطاف ،فقد أمر الله تعالى بأداء الأمانات الى اهلها وهدى من ذلك الى اوضح محاج الصحة وسبلها فقال :(إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى اهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل)(٦٩) .

وامره أن يختار النظر في المعاون والأجلاب من يرجع الى دين يحميه من مهاوي الزلل والصلف ، عن مد اليد الى أسباب المطامع ، وكلاف بما تعود على ما كلف إياه بصلاح مشرق المطالع ؛ ومعرفة بما وكل اليه كافية وافية ، ولما يوجب الاستزادة له ما حية نافية ؛ و يوعز اليهم بالتشمير في طلب الذعار ، من جميع الأماكن والاقطار ، وحسم مواد العار في بابهم والمضار ، وان يمضوا فيهم حكم الله بحسب مقاصدهم في الضلال، وتجري امورهم على قانون الشرع المنير في حنادس الظلام، ممتنعين ان يراقبوا من لم يراقب الله تعالى في فعله ، ويجانبوا الصواب بقبول الشفاعة فيمن شهدت آثاره بذميم سبله ؛ وإذا وقع الظفربجان قد كشف في الغي قناعه ، واظهرت مساعيه إباءة من إجابة داعي الرشد وامتناعه ،اقيم حد الله تعالى فيه من غير تعد للواجب ، ولاتعر من ملابس السالكين للجد اللاحب (ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون)(٧٠) .

وامره ان يوعز الى اصحاب المعاون بأن يشدوا من القضاة والحكام ، ويجدوا في إجراء امورهم على اوفى شروط الضبط والاقدام ، ويأمرهم بحضور مجالسهم لتنفيذ احكامهم وإمضائها، والمسارعة الى حث مطايا التشمير في ذلك وانضائها ، والتصرف على امثلتهم في إحضار الخصوم اذا امتنعوا ، وسوقهم الى الواجب اذا زاغوا عنه وانحرفوا ، وان يتقدم بإمداد عمال الخراج بما يؤدي الى قوة أيديهم في استيفاء مال الفيء واجتبائه، واعتماد ما

ينصر الحقوق في مطاويه واثنائه ، اذ كان في ذلك من الصلاح الجامع وكف المضار وحسم المطامع ، ما المعونة عليه واجبة ، وللتوفيق مقارنة مصاحبة ، قال الله تعالى : (وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله ان الله شديد العقاب)(٧١)

وامره بعرض من تضمه الحبوس من اهل الجرائم والجرائر ، وتأمل احوالهم في الموارد والمصادر والرجوع الى متولي الشرطة في ذكر صورة كل منهم والسبب في حبسه والتعيين من ذلك على ما يعرف به صحة الأمر من لبسه ، فمن الفي منهم للذنوب الفا ، وعن سنن الصواب منحرفا ، ترك بحاله ، وكف بإطالة اعتقاله عن مجاله في ميادين ضلاله ، وان وجد منهم من وجب عليه الحد ، أقيم فيه بحسب ما يقتضي الحق ، ومن اعترضت في بابه شبهة تجوز اسقاط الحد عنه ودرأه ، اعتمد الحاقه في ذلك بمن اتصل اليه صوب الاحسان ودره،ومن لم يكن له جرم وتظهر صحة شاهده ودليله ، قدم الأمر في إطلاقه وتخليه سبيله ، وان غدا لأحدهم سعي في الفساد واضح وبان ، وغوى به في محاربة الحق وخان قوبل بما امر الله تعالى به في كتابه حيث يقول :(إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا ان يقتلوا أو يصلبوا او تقطع أيديهم وارجلهم من خلاف او ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم) (٧٢) .

وأمره باختيار المرتب للعرض والعطاء ، والنفقة في الأولياء من ذوي المعرفة والبصيرة ، والمشهورين في العفة بتساوي العلانية والسريرة ،وممن تحلى بالأمانة جيدة ،واعتضد بطريقه في الرشاد تليده وكان بما يسند اليه قيما ،وفي الكفاية ثاويا مخيما وإن يتقدم اليه بضبط حلى الرجال وشيات الخيول ، وان يقصد في كل وقت من تجديد العرض ما يشهد بالاحتياط السابغ الأهداب والذيول ، فإذا وضح وجه الاطلاق ، وسلم مال الاستحقاق ، كانت التعرفة على قدر المنازل في التقديم والتأخير ، وبحسب الجرائد التي تدل على الصغير من ذلك والكبير ، ومتى طرق احدهم ماهو محتوم على خلقه ، أعاد على بيت المال من رزقه بقدر قسطه وحقه ، وأن يلزمهم

إحضار جياد الخيول وخيار الشكك ، ويأخذهم من ذلك بأوضح ما نهج المرء الطريق فيه وسلك.فإن اخل أحدهم بما يلزمه البروز فيه يوم العرض ، أو قصر في القيام بالواجب عليه الفرض ، حاسبه بذلك من الثابت باسمه ، والمطلق برسمه ، تنبيها له على تلافي الفارط ، وتبصيرا في البعد عن مقام المخطي الغالط ، اذ كان في قوتهم وكمال عدتهم ارهاب الأعداء والأضداد والأمداد ، قال الله تعالى :(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) (٧٣) .

وامره باختيار عمال الخراج ، والضياع ، والأعشار، والجهبذة والصدقات ، والجوالي وان يكونوا محتضنين من الأمانة والكفاية بما يقع الاشتراك في علمه ، ومتقمصين من ملابس العفة ما تحمد العواقب في ضمنه ، ومتميزين بما يغنيهم عن الأفكار بنتائج الاتعاظ والاعتبار ،ويغريهم بالاستمرار على السنن المنجي لهم من مواقف التنصل والاعتذار . وأن يأمر عمال الخراج بجباية الأموال ، على اجمل الوجوه والأحوال ، سالكين في ذلك جددا وسطا ، يحمي من مقام من ضعف في الاستخراج أوسطا ، و(ان يتقدم) الى الناظرين في الضياع بتوفية العمارة حقها والزراعة حدها ، والتوفير من حفظ الغلات الحاصلة على ما يقتضي فيه أرشد المذاهب واسدها ، متحرزين من أمر ينسبون فيه الى العجز والخيانة ، فكل من الحالين مجز في وضوح أدلة الفساد ومخز، والى الجهابذة بقصد الصحة في القبض والتقبيض وحفظ النقد و من التدليس والتلبيس ، اداء للأمانة في ذلك ، واهتداء فيه الى اقوم المسالك ، والى سعاة الصدقات بأخذ الفرائض من مواشي المسلمين السائمة دون العاملة والجزي في ذلك على السنة الكاسبة للمحمدة الوافية الكاملة ، متجنبين من أخذ فحل الابل وأكولة الراعي ، وعقائل الأموال المحظورة على سائر الأسباب والدواعي ، فإذا استوفيت على المحدود من حقها ، أخرجت في المنصوص عليه من وجهها وسبلها ، والى جباة جماجم اهل الذمة بأخذ الجزية منهم في كل سنة ،على قدرات ذات ايديهم في الضيق

والسعة ،وبحسب العادة المألوفة المتبعة ،ممتنعين من مطالبة الذسوان ومن لم يبلغ الحلم من الرجال ومن علت سنه على الاكتساب وتبتل من الرهبان ،ومن غدا فقره واضح الدليل والبرهان، وفاء بالعهد المسؤول ،وتلقيا لأمر الله تعالى بالقبول حيث يقول :(واوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا)(٧٤) .

وأمره أن يرد أمر المظالم وأسواق الرقيق ودور الضرب والطرز والحسبة الى من عضد بالظلف الورع ، وانتظم له شمل الهدى واجتمع : فكان ذا معرفة بما يحرم ويحل ، وبصيرة يتفيأ بها من عوارض الشبه ويستظل ، وأن يكون النظر في ذلك مضاهيا للحكم ملائما ، ولن يقوم به الا من لايرى عاذلا له في فعله لائما . وان يتقدم الى من يلي المظالم بتسهيل الاذن للخصوم في الدخول عليه ، وتمكين كل منهم من استيفاء الحجة بين يديه ، والتوصل الى فصل ما بينهم بحسب ما يقود الحق اليه ، وان يقصد فيما وقع الخلف معهم فيه ، والكشف الذي يقوم به ويستوفيه ، فان وضح له الحق أنفذه وقطع به ، والا ردهم الى مجالس القضاء لامضاء ذلك على مقتضى الشرع وموجبه والى المرتبين في أسواق الرقيق بالتحفظ فيما يبتاع ويباع ، وأن يستعمل في ذلك الاقتفاء للسنن الجميل والاتباع: ليؤمن اختلاط الحر بالعبد ، وتحرس الأنساب من القدح والفروج من الغضب ، في ضمن حفظ الأموال ، والمنع من مزج الحرام بالحلال ، والى ولاة العيار بتصفية عين الدرهم والدينار من الغش والاذغال ، وصون السكك من تداول الأيدي الغريبة لها بحال من الأحوال متحذرين من الاغترار بما ربما وضح الفساد فيه عند الاعتبار ،ومانعين التجار المخصوصين بالايراد من كل قول مخالف للايثار في الصحة والمراد ،ومعتمدين اجراء الأمر فيما يطبع على القانون بمدينة السلام ،من غير خلاف لمستقر القاعدة في ذلك ومتسق النظام ،وأن يثبت ذكر امير المؤمنين ،وولى عهده في المسلمين على ما يضرب من الصنفين معا ،والمسارعة في ذلك الى الأفضل مابادر اليه المرء وسعى ،والى المستخدمين في الطرز بملاحظة احوال

المناسج والأشراف عليها ،واخذ الصناع بالتجويد على العادة التي يجب الانتهاء اليها ،واثبات اسم امير المؤمنين على مايذسج من الكسا والفروش والأعلام والبنود ،جريا في ذلك على السنن المرضي والمنهاج المحمود والى من يراعي الحسبة الشريفة بالكشف عن أحوال العوام في الأسواق ،والانتهاء في ذلك الى ما ينتهي به من شمل الصلاح الى الانتظام والاتساق ،وان يتقدم اليهم بما يوجب من تعيير ما يختص بهم من المكاييل والموازين ،وحملها على قانون الصحة الواضحة الدلائل والبراهين ،وان يقصد تبصيرهم مواضع الحظ في الاستقالة ،ويحذرهم مواقع الانتقام الذي لاتفيد فيه اسباب الاستصفاح والاستقالة ،فان عرف من أحد منهم اقداما على ادغال فيما يزن أو يكيل ،قوبل من التأديب بما هو الطريق الى ارتداعه والسبيل ،قال الله تعالى · (ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون)(٧٥) .

وامره أن يعرف قدر النعمة التي ضفت عليه برودها، وحلت جيدة عقودها ، وزفت منه الى أوفى أكفائها ، وحفت بجزيل القسم من جميع اكنافها وارجائها ، وأن يقابلها بالاخلاص في الطاعة يساوي فيه بين ما يبدي ويسر ، وسعي في الخدمة يوفي على كل مجاز ومبر ويبدأ امام مايتوخاه بأخذ البيعة لأمير المؤمنين وولى عهده على نفسه وولده ، وكافة الأجناد والرعايا في بلده ، عن نية صفت من الكدر والقذى ووفت للتوفيق بما ضمنت من خذلان البغي ونصرة الهدى ، ويتبع ذلك بالحقوق في كل خدمة ترضى ، والوقوف عند الأوامر الامامية في كل مايؤدي الى الوفاق ويفضي ، وان يحمل الى حضرة امير المؤمنين من الفيء والغنائم ما أوجبه الله تعالى وفرضه ، من غير تأخير لما يجب تقديمه من ذلك ولاتقصير منه فيما يقتضي التلافي والاستدراك : ليأمر امير المؤمنين بصرفه في سبيله المشار اليها ، ووجوهه المنصوص عليها ، قال الله تعالى :(واعلموا إنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل)(٧٦) .

ثم إن أمير المؤمنين اثر أن يضاعف له من الاحسان ، ما يقتضيه مقاله لديه من وجيه الرتبة والمكان ، وشرفه بما يرفل من حلاه في حلل الجمال ، وتكفل له علاه ببلوغ منتهى الآمال : وأبوأه بما اولاه محلا تقصر عن الوصول إليه الأقدام ، وتعجز عن حل عراه الأيام ، ولقبه بكذا ، واذن له في تكنيته عن حضرته ، وتأهيله من ذلك لما يتجاوز قدر أمنيته : إنافة به على من هو في مساجلته من الأقران طالع ، وإضافة للنعمة في ذاك إلى ما اقترن بها فيما هو لاشمل الفخر عنده جامع ، وأنفذ لواء يلوي يه الى الطاعة ابي الاعناق ، ويحوي به من العز مالنواره وافية الاشراق .

فتلق يافلان هذه الصنيعة الغراء ، والمنحة التي اكسبت زنادك الايراء: بالاستبشار التام ، والاعتراف فيها بسابغ الطول والانعام : واشع ذكر ذلك عند كل أحد ، وانته في الابانة عنه إلى ابعد امد : وأعتمد مكاتبة حضرة امير المؤمنين متسميا ، ومن عداه متلقبا متكنيا ؛ وتوفر على شكر تستدر به صوب المزيد ، وتستحق به إلحاق الطريف من الاحسان بالتليد ، والله تعالى يقول : (لئن شكرتم لأزيدنكم)(٧٧) .

هذا عهد أمير المؤمنين إليك ، والحجة لك وعليك : قد أوضح لك (فيه) الصواب ، وأذل به الجوامح الصعاب : وحباك منه بموهبة كفيلة بخيري البدء والمعاد ، وفيه فيها المنى بسابق الضمان والميعاد : وضمنه من مواعظه ما هدى به الى كل ما الجني ثمره ، وغدا محظيا بما تروق اوضاحه في المجد وغرره : ولم يألك فيه تجملا يكسبك الفخر النامي ، ويجعل ذكرك زينة المحفل والنادي : وتقديما ينبيء عما خصصت به من المنح المشرقة اللالي ، واكراما يبقى صيته على تقضي الايام والليالي ، وتبصيرا يقي من فلتات القول والعمل ويرتقي المستضيء بانواره الى ذرى الامن من دواعي العثار والزلل ، فاصغ الى ما حواه ، اصغاء الفائز بأوفى الحظ ، وتدبر فحواه ، الناطق بفضل الحث على الهدى والحض ، وكن لأوامر امير المؤمنين فيه محتذيا ، ومن تجاوز محدوده في مطاويه

محتميا ، وبمواعظه الصادقة معتبرا وفي العمل بما قارن الحق مستبصرا ، تفز بالغنم الاكبر وبالسلامة في المورد والمصدر ، واياك واعتماد ما تذم فيه مكاسبك ، فان لك بين يدي الله تعالى موقفا يناقشك فيه ويحاسبك .

واعلم ان امير المؤمنين قد قلدك جسيما وخولك جزيلا عظيما ، فلا تنسى نصيبك من الله تعالى غدا ، ولاتجعل لسلطان الهوى المضل عليك يدا ، وان خفي عليك الصواب في بعض ما انت بصدده ، او اعترض فيه من الشبه ما يحول بينك وبين طريق الرشاد وجدده ؛ فطالع حضرة امير المؤمنين به ، واستنجد الله في ذلك بأسد راي و اصو به ، يبدلك من الشك يقينا ، ويبد لك ما يغدو لكل خير ضمينا ؛ ان شاء الله تعالى .

نص المذكرة التي رفعها ابـن العـربي الى الخليفـة المستظهر بالله العباسي (٤٨٧ _ ٥١٢ ها/ ١٠١٤ _ ١١١٨ م) يلتمس تقليدا خلافيا ليوسف بن تاشفين ، والرد الخلافي مع رد الوزير ابـن جهير (٧٨)

الخادم بالأدعية ، تقبلها الله ، ابن العربي الأندلسي .
بسم الله الرحمن الرحيم عليه توكلي :

أسعد الله الدنيا وأهلها بدوام انوار المواقـف المقـدسة النبـوية الامامية المستظهرية ، وضاعف مـددها ولارى المسـلمين أمـدها بغرائب مجد تبدعها حوادث ايام تذلل صعابها ، ومستأنف سـعود تحرس جنابها ، ولازالت الأيام التي هي لأيامهـا غرر ، وفي إكليل الخلافة درر للدهر تمائم ، وفي المحل غنائم ، والحمد لله الذي جعل للمواقف المقـدسة النبـوية الامـامية المسـتظهرية شرائط السواد ، وخصها بالمجد المؤثل المطول بالانتساب ، كابرا عن كابـر الى اعلى خندف فهي أعلاها عمادا ، واوراها في مـواقف الفضـل زنادا ، أورمة الرسـالة ، وجـرثومة الخـلافة ، اليهـا ينزع هاشم ، وعنها أخذت المكارم ، مفـاخر شـهد لهـا الكتـاب المنزل ، وعهد بتخليدها مخبـرا عن الوحـي في اله وعقبـه النبـي المرسل قد آمنت بعصمة الله من الغير ، وتحققت أواخرها على سنن أولها في هداية البشر بحسن السير ، أوزعنا الله الشكر على مـامن به من توفيقنا للتمسك بعـراها الوثيقـة ، والاهتـداء بهـداها الى واضح الطريقة ، فهم في الدين أمتنا ويوم الدين وسيلتنا ، استعملنا الله من طاعته وطاعتهم بما يؤدي الى مـرضاته ومـرضاتهم ، انه الموفق الهادي لارب غيره .

وإن الخادم بالأدعية المتقبلة للمواقف المقدسة النبوية الامامية المستظهرية ، الهمه الله منها لما يسمع فيرفع بمنه لما علم بموجب الشرع ان بيعة الامام العادل من اركان الديانة ،ومما يتعين ما يحتمل من رعاية الأمانة هاجر الى ذلك بنفسه وبابنه المسترق القن من اقصى المغارب ،معتقدا أن عمله فضل القرب والرغائب ،واحتمل برد الهواء وظمأ الهواجر ،واقتحم دون ذلك مسالك بلغت فيها القلوب الحناجر ،ولم يثنه بحر يزخر ولا فقر يذعر ،يحتسب في ذلك اثره ،ويرجو أن يقيل الله يوم الجزاء عثره ،الى ان انتهى هو وابنه الى مدينة السلام ،لازالت محروسة من غير عاصمة لمن التجأ اليه من مهتضمي الأنام .

ولم يزل الخادم بالأدعية المتقبلة بحول الله يتوسل بهجرته ، ويتقرب بخلوص علانيته ، ويسأل تشريف رقاعه ، بملاحظتها ، والنظر من انقطاعه رغبة في الحظ الجسيم ، الى ان وصل الى المجلس السامي ، وخدم البساط العالي ، زاده الله تشريفا وتعظيما ، وانهى اغراض وفادته ومقاصد ارادته ، فنفذت الأوامر الشريفة أدام الله سموها وتشريفها واضفى على الجميع ستر سلطانها وكنف احسانها بقبول وسائله والحاح مطالبه ، وافاضة الاحسان عليه .

ولما بسط له في الأمل ، كان هو وابنه في محل الكرامة والجذل ، بدأ بعرض ما هو عليه ناصر الدين ، وجامع كلمة المسلمين ، القائم بدعوة مولانا امير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى ابائه الطاهرين ، الأمير أبو يعقوب يوسف بن تاشفين المتحرك بالجهاد ، المتجهز الى المسلمين باستئصال فئة العناد ، وملة الفساد ، قام بدعوة الامامة العباسيةوالناس اشياع وقد غلب عليهم قوم دعوا الى انفسهم ليسوا من الرهط الكريم ، ولامن شعبة الطاهر الصميم ، فذبه جميع من كان في افق قيامه بالدعوة الامامية العباسية ، وقاتل من توقف عنها مذ اربعين عاما الى ان صار جميع من في جهة المغارب على سعتها وامتدادها له

طاعة ، واجتمعت بحمد الله على دعوته الموفقة الجماعة ، فيخطب الآن للخلافة ، بسط الله انوارها ، واعلى منارها على اكثرمن الفي منبر وخمسمائة منبر ، فإن طاعته ، ضاعفها الله من اول بلاد الله الافرنج ، استأصل الله شأفتهم ، ودمر جملتهم الى آخر بلاد السوس مما يلي بلاد الله غانة وهي بلاد معادن الذهب ، والمسافة بين الحدين المذكورين مسيرة خمسة أشهر ، وله وقائع في جميع اصناف الشرك من الافرنج وغيرهم قد فللت غربتهم وقللت حزبهم والفت جموعه حربهم ، وهو مستمر على مجاهدتهم ، ومضايقتهم في كل أفق وعلى كل الطرق وقد استرجع كثيرا من المعاقل التي استباحها الروم من امور المسلمين وسبت اهلها قبل حصول تلك الجهات في حكم سلطانه وكانت ثغور المسلمين بها مستضامة ، وقد اعادها جده بحمد الله الى اولها ، واحترمت لحرمة المسلمين والاسلام ، وعز سلطانه ، وهذا دابه وهجيراه الذي لاعمل له سواه .

وعدة جيوشه اذا جمعها لحركته ستون الف فارس ، وكان امله مواصلة حماية دين المسلمين ، واقباله على مجاهدة المشركين ، الا ان الحائل المانع دون ذلك لاتفاقه ، ولم يزل محافظا على ماهو عليه من اقامة الدعوة السعيدة ، الاعتراف بجمل النعم الوافدة العديدة بفضل الله . ولقد وصل الى ديار المشرق في هذا العام قاض من قضاة المغرب يعرف بابن القاسم ،وذكر من حال هذا الأمير ما يؤكد ما ذكرته ،ويؤيد ما شرحته ، واشاع القاضي المذكور ذلك بمكة ، وصل الله تشريفها وتعظيمها ، وذكر لي أن الروم على شفا جرف من تضييقه عليهم ، وحصاره لهم ، وقد تكرر اعلام الخادم بذلك لما تلزمه من طاعة اولي الأمر لاسيما هذا الأمير ، وقد خص بفضائل منها الدين المتين ، والعدل المستبين ، وطاعة الامام ، وابتدا جهاده بالمحاربة على اظهار دعوته ، وجمع المسلمين على طاعته ، والارتباط بحماية ثغور المسلمين ، وهو ، ممن يقسم بالسوية ، ويعدل في الرعية ووالله ما في طاعته مع سعتها دان منه ، ولاناء عنه من البلاد ما يجري فيه على أحد من المسلمين رسم

مكس ، وسبل المسلمين أمنة ، ونقوده من الذهب والفضة سـالمة من الشرب ، مطرزة بـاسم الخـلافة ، ضـاعف الله تعـظيمها وجلالها .

هذه حقيقة حالة ، والله يعلم اني ما اسهبت ولاالغوت ، بـل لعلي اغفلت او قصرت ، ولمولانا أمير المؤمنين المستظهر بالله ، صلوات الله عليه وعلى ابائه الطاهرين ، الطول العميم في الأمر ، تشريفـه بقبول تأميله ، وفي الاشارة اليه بمـا يقـوي امـره ، ويشـد ازره ، ويؤيد سلطانه ، ويعلي شأنه ، مجريا له على السنن الكريم الطول العميم . فوالله ما في الأمراء ولاقي شيع النصحاء الأولياء من يجوز في الولاء وصحة الانتمـاء سـبقه ، ولايلبس مـن النصـيحة طرقه ، والله يمنحه من الخلافة المقدسة المبنية على الطرق النبوية ما يصل يده ويقوي أيده ويشد عضده بمنه وطوله .

وضراعة الخادم بالأدعية المتقبلة لنفسه ولابنه المسترق القن بعـد الامتنان بإباحة الصدر لهما الى الوطن ، فقد بعدا عنه سبعة أعوام واقاما في الجناب المخصب الظليل والكنف الرحب المأهـول مـدة عامين ، يستدران النعم الحافلة جمـلا بعـد جمـل ، ويكرعان في المشارب الجمة العذبة عللا بعد نهل ، فلله الهـام الشريعـة التـي مسحت على شكايتها من عدوان الأيام بيد شيم الكرام ، فـأزاحت عنهما جميع الشكايات و الآلام وهذه نبذة من الصـنائع المشـكورة وفلذة من جزيل الأجر عبقة بأرج النشر ، وان الشكر ليقل في جانبها ويقصر عن أنزر لازمها فانها ضـمنت حياة نفسـين وأشرت دفيني رسمين ، فكأنها قد أجبت ضعف الورى ونشرت امثل المسـتودعين في الثرى فمن أحيا النفس الواحدة(فكأنما أحيا الناس جميعا)(٧٩)وعند الله تعالى كفاء ما أولاه مولانا الامام المستظهر بـالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى ابائه الاكرمين من جميل الفعل وجـزيل مـا أتاه في سبيل الفضل ، والخادم العامر القلب هـو وعقبـه بـالمحبة الناصفة والطاعة الخالصة صـادر في جملة الحـامدين ويرجـو أن لايكون مقصرا عن درجة السابقين ويضرع في وسمه ووسـم المملوك

ابنه عين التشريف السـامي ، لازال القمـم(٨٠)الكرام تيجانا على قسماتهم العـز والكرامـة عنوانا ليعيد حيث جـلا الى النبـاهة ذكرهما ، والي البر والكرامة قـدرهما ، ويظهـر مـزية وفـادتهما ورعاية هجرتهما ويثبت لهما من المفـاخر مـا يحبـذ عليه البـر الموازر ، ويتضاءل له الحسود المكاشر ، ويبقى للشريعة على مـر الأيام ، ويضرع ان يتضـمن التشريف العـزيز بثبـوت اسـمه في الديوان الشريف ضاعف الله علاه ونماه بما خص بـه والمملوك ايسر من الكرامات والنعمة ، وانه متى وفد هو او ابنه المملوك كان للوافد منهما تجددا على مر الأيام مؤكدا مخلدا حسب العـادة الكريمـة له ولسلفه الأكرمين رضي الله عنهم أنهم متى أنعموا بنعمة ، أو خصوا بكرامة ومنة ثبتت مؤبدة ، وجددت مخلدة ، وليمتثل بالأمر العـالي والتشريف السامي فيهما جميع مـن يردان عليه في كل الآفـاق مـن جميع الأطباق وامتثالالما يعد لهمامن الاكرام واحتمالا على ماتأصل بجنبتيهما من التنويه والانعام ، وأن ذلك يرثه الخلف منا عن السلف وتكون لنا مزية التشرف بالوصول إلى مهاد العـز المأمـول ، لاأعدم الله مولانا الامام المستظهر بالله امير المؤمنين ، صـلوات الله عليه وعلى أبائه المنتجبين مبرة تتضاعف بها المعالي ، وسـعادة تحـرز أسنى الأماني، وكفاية يستمد بها حـرية الأيام والليالي، فـذلك بيده وغير معجزه ، وهو المنعم الجواد ، وكل خير من طـوله مسـتفاد ، لاشريك له ، ولاتوفيق إلا به والحمد لله حق حمده ، وصـلواته على سيد المرسلين رسوله وعبـده وعلى آله الطيبين ، وعتـرته المنتجبين الراشدين ، أباء أمير المؤمنين صلوات الله عليهـم اجمعين إلى يوم الدين ، (وحسبي الله ونعم الوكيل) (٨١) .

رد الخلافة

فراجعه عنه على ظهره بتوقيع عزيز أعدد أسطره سبعة وثلاثون سطرا بخط فسيح كتابي مليح بين السطر الأول منه والثاني منه العلامة العزيزة بخط أمير المؤمنين بالقلم الغليظ بمداد ممسك« المستظهر بالله»:

عرضت هذه القصة بمفاوز العز والعصمة، ومواقف الامامة المطهرة المكرمة ، زاد الله في جلالها وسبوغ ظلالها ، فخرجت المراسم الشريفة بأن ذلك الولي الذي أضحى بحبل الاخلاص معتصما ولشرطه ملتزما ، وإلى أداء فروضه مسابقا . وكل فعله فيما هو بصدده للتوفيق مساوقا ، لاريبة في اعتقاده ، ولاشك في تقلده من الولاء ، طويل نجاده ، إذ كان من غدا بالدين تمسكه ، وفي الزيادة عنه مسلكه ، حقيقيا بأن يستتب صلاح النظام على يده ، ويستشف من يومه حسن العقبى في غده ، وأفضل ما نحاه ، وعليه من الاجتهاد دار رحاه ، جهاد من يليه من الكفار وإتيان ما يقضي عليهم بالاجتياح والبوار ، اتباعا لقوله تعالى : (الذين يلونكم من الكفار)(٨٢) فهذا هو الواجب اعتماده ، الذي يقوم به الشرع عماده ، وأن يؤلف شمل من في جملته من الأجناد على الطاعة الامامية التي هي العروة الوثقى والذخر الأبقى ، واستقراء قوله تعالى والعمل به ، والبدار إلى التشبث بسببه (يا أيها الذين أمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم)·(٨٣) .

وليكن دابه الجهاد فيما يكسب عند الله تعالى الزلفى ، ويمنحه من رضاه القسم الأكمل الأوفى ، «يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا » .(٨٤) وأن يختص رافعها وولده بالارعاء الذي يضفو عليهما برده ، ويصفو لهما ورده ، ليظهر عليهما من المهاجرة جميل الأثر ويؤول أمرهما فيما يرجو أنهما إلى استقامة النظام وضم النشر ،

فليقابل الأمر الأسنى في ذلك بامتثال واحتذاء مطاع المثال إن شـــاء الله .

وكتب في رجب سنة إحدى وتسعين وأربعمائة .

من الوزير الأجل السيد الأعدل ، عميد الدولة بهذه الملة ، شرف الأمة ، ولي النعمة ، خلاصة امير المؤمنين محمد بن محمد بن جهير ، إلى أمير المسلمين ، ومناصر الدين ، القائم بدعوة أمير المؤمنين ، أزكي الرغائب بأرض المغارب ، أبي يعقوب يوسف بن تاشفين ، أطال الله بقاءه ، ومدته ، وضاعف بسطته ، وكبت أعداءه ، وحسدته ، أمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

كتابي من حضرة مولانا امير المؤمنين ، ابي العباس ، المستظهر بالله ، ادام الله ايامها ، واوضح اعلامها ، واعز انصارها ، واعلى منارها ، الأحوال مستقيمة بإقبال دولته ، منتظمة بيمن تدبيره وسياسته ، تجري على افضل ما عودها الله تعالى من نفاذ الأمر ، ومضائه ، وانبساط السلطان واعتلائه ، ونحن مقابلون نعمته بالشكر ، والاعتراف ، مستديمون مددها بالعدل ، والانصاف ، متحققون إجابة رغبتنا في توفيق أولياء مولانا المخلصين ، واهل الطاعة من كافة المسلمين لما يقرب من طاعته ، ويوزع شكر نعمته ، السابغة عليهم بولايته ، فلقد استخلف عليهم عنه اكرم مستخلف وعطف عليهم بولايته افضل مستعطف ، فأصبح وقد اطاعته الأمة العاصية وامكنته الغايات فذلل الصعب وراب الشعب ، وقرب النازح ، وارضى الجامح ، وقوم المائد واصلح الفاسد ، وأعاد معالم الحق عامرة بعد دثورها ، ومشاربه صافية بعد ركودها وبضائع الخير نافقة بعد كسادها واحوال الأمة صالحة بعد فسادها ، مبتغيا فيما أتاه الله مصلحة اخراه ، غير ناس نصيبه من دنياه ، طامحا بطرفه إلى اعلى الدرجات ، في داريه ، آخذا بافضل الاقبال في حاليه ، فلباس التقوى شعاره ، والعمل الصالح دثاره ، نهاره مقسوم بين تلاوة القرآن وإقامة إحسان ، وغوث مكروب ، وفك عار محروب ، وسد ثغر ، وصلاح أمر ، وتدبير شرق وغرب ، وبر وبحر ، فأعين الرعية قائمة بشهادته ، وانفس البرية مستريحة

باجتهاده ، ولاجرم ان الله يصلح باله ويحسن ماله تصديقا لما قـال جل جلاله : (يا ايها الذين امنوا اتقوا الله وقـولوا قـولا سـديدا، يصلح لكم اعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما)(٨٥) وحقيق لمن جمعت فيه هذه الأخلاق الطاهرة ونطق القرآن بأمانته الباهرة فإن الله تعـالى (وعد الله الذين امنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما اسـتخلف الذين مـن قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعـد خـوفهم أمنا يعبدونني لايشركون بي شيئا)(٨٦) فالحمد لله الذي أنجز لأمير المؤمنين ما وعده وحقق له التمكن وايده وأمـن السـبل بخـلافته ، واقام الحق بإمامته ، وسخر له من أوليائه من تنفذ بطاعته أوامره ، ويؤازره على فعل الخيرات ويضافره وينشر رحمته ودعوته ، ويظهر سعده وكلمته ، وينتهي إلى ما فرض سبحانه عليه مـن طـاعة ولاة الأمر المقترنة بطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسـلم إذ يقـول تعالى : (يا ايها الذين امنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسـول وأولي الأمر منكم)(٨٧). استمناحا لنعم الله التي لاتحد ، واستمدادا مـن عوارفه التي لاتنفد ، ولما كان الأمير أطال الله بقائه ، وادام تمكينه ورفعته وسموه وسلطته ، وكبـت عدوه وحسـدته ممـن صـح عنده خلوص عقد ولايته ولزوم طاعته لأمير المؤمنين والعزوف عن أعدائه وإظهار العدل في الرعية ، فخرا بارائه وتمسكا بما أمر الله تعالى به من مجاهدة أعدائه وتحريض عساكر الاسلام على مجاهدة عدوهـم وبذل نفوسهم ومشاركته لهم في نعيمهم وبؤسهم ، وما فتح الله لأمير المؤمنين على يده من ثغور الاسلام بجزيرة الأندلس وما جاورها مما كان العدو قد تغلب عليه واستباحه ، واستأصل شأفته واجتاحه عند اختلاف الخوارج بها وتباين مقـاصدهم وعدولهـم عن الواجـب في مصادرهم ومواردهم ، انهيت إلى المواقف المقدسة العلية الشريفـة النبوية المستظهرية زاد الله في جلالها وامتداد ظـلالها هـذه الجملة فخرج من الشكر للأمير اطـال الله بقـاءه واعلاه وأحمـد طـرائقه وحسن سيرته وجميل مقـاصده والدعاء بمثـابرته على جهـاد عدو المسلمين وتصديق ما جاء به عن سيد المرسلين « لايزال أهل الغرب

على الحق ظاهرين » وذلك لنصوع عقائدهم في خلوص اليقين واقترار مذهبهم على صحة الدين ، على يد الشيخ الفقيه أبي محمد عبد الله بن محمد المعروف بابن العربي وابنه الفقيه أبي بكر محمد أدام الله عزتهما ما يزدهي به الغافر وتتأرجح به سطور الدفاتر وتنتعش به جدود العواثر ، ولقد بالغ هذا الفقيه وولده في الثناء على الأمير وأطنبا في وصف ما يعتمده من لزوم قوانين العدل والانصاف ،

ومجانبة طرق العسف والاعتساف ، ولما كان راينا في هذه الطائفة التي تأخذ في الحدود الشرعية بقولها وتستوصي في السياسة السلطانية برايها ، جميلا ، وتميزنا بالبر لمن انسنا منه الطريقة القويمة وجنوحنا إلى من عرفناه بصدق العزيمة ، شكرنا لأمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، اقتداء بهذه الطائفة في أرائه ورجوعا إلى قولهم في الحالة ، أخذا باراء المواقف المقدسة زادها الله مضاء وامتثالا لقصدها ، وكذلك هذا الفقيه وولده المقدم ذكرهما مما شاهدنا من خلالهما وحسن هديهما بما يقتضي تقريبهما وادناهما ، فرايناهما واعتمدنا برهما وإكرامهما واصدرنا هذه الجملة القاضية باحلال الأمير محله المنيف على استحقاقه الاجلال والتشريف نظرا لمقالهما وإحسانا ، وتعطفا عليهما وامتنانا ، فليعتمد الأمير أطال الله بقاءه مصالح امورهما ، وليتوخ ما تعود باستقامة شؤونهما وليولهما حسن موقع النيابة عنه وليبدلهما صفحة الاقبال بمنه ، وليلزم تقوى الله فيما يجري من الأمور على يديه وليراقبه تعالى فيما فرض من احوال الرعية إليه ، وليعلم أن المصير والمرجع إليه ويطالع بأخباره وما احتاج إلى علم من بجهته إن شاء الله ، وكتب في عشر من رجب سنة إحدى وتسعين واربعمائة والحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد نبيه وسلامه وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الخطاب الذي وجهه ابن عربي الى حجة الاسلام الامام الغزالي ورد الغزالي عليه ، مع رسالة بعث بها الغزالي الى يوسف بن تاشفين(٨٨)

قال ابن العربي :

وكان من اشهر من لقينا من العلماء في الآفاق ، ومن سارت بذكره الرفاق ، لطول باعه في العلم ورحب ذراعه ، الامام ابو حامد ابن محمد الطوسي الغزالي ، فاستدعينا منه فتيا وكتبا ، اختصرت لفظ الفتيا لوقت ضاق عن تقييدها ، لكن انبه على معناها وهو في علم الامام ماذكر في وصف خلال أمير المسلمين وناصر الدين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين أمير المغربين الأندلس والعدوة ، وما أوضحت لديه من إعزاز الدين ، والذب عن المسلمين وهو حميري النسب وقبيله المرابطون ، قد وقفوا انفسهم على الجهاد . وقد كانت جزيرة الأندلس قد تملكها من تاريخ ابتداء الفتنة سنة اربعمائة ، عدة ثوار تسوروا على البلاد وضعف أهلها عن مدافعتهم ، وتلقبوا بألقاب الخلفاء ، وخطبوا لأنفسهم ، وضربوا النقود بأسمائهم ، واثاروا الفتنة بينهم لرغبة كل واحد منهم في الاستيلاء على صاحبه ، واستنابوا الفساق من الأرقاء ، والصنائع الطلقاء في محاربة بعضهم بعضا واستنجدوا بالنصارى عندما اعتقد كل واحد منهم انه أحق من صاحبه ، وعند ذهاب شوكة المسلمين ، وحينما انكشف للنصارى ضعف المسلمين ، وعلموا المداخل والمخارج إلى بلاد المسلمين . طلبوا المعاقل واخذوا بالحرب كثيرا منها من غير مؤونة ولامشقة ، ثم لجأ الباقي من المسلمين إلى المرابطين واستصرخوهم فلباهم امير المسلمين ووصل إلى البحر ، فاستوقف بعض الرؤساء وفاء للمشركين ، وحنقا على المسلمين في استدعائهم له ، ووصل الأمير إلى غرب الأندلس فمنحه الله النصر ،

وألجم الكفار السيف ثم عاود الجواز في العام الثالث من هذا الفتح ، فتهيبه العدو ، وتحصن منه ، ولم يخرج للقائه مع تثاقل الرؤساء عنه ، وعثر لأحدهم على خطاب يشجع العدو على اللقاء ، واستولى على من قدر عليه من الرؤساء عن البلاد والمعاقل وبقيت طائفة من رؤساء الثغر الشرقي من جزيرة الأندلس ، حالفوا النصارى أو صاروا معهم إلبا ، ودعاهم أمير المسلمين إلى الجهاد ، والدخول في بيعة الجمهور ، فقالوا لاجهاد إلا مع إمام من قريش ، ولست به ، أو مع نائبه عن إمام وما أنت ذلك ، فقال أنا خادم الامام العباسي ، فقالوا له أظهر لنا تقديمه إليك ، فقال أوليس الخطبة في جميع بلادي له ؟ فقالوا ذلك احتيال ، ومردوا على النفاق . فهل يجب قتالهم ؟ وإذا ظفر بهم كيف الحكم في أموالهم ؟ وهل على مسلم حرج في قتالهم ؟ وهل على الامام العباسي أن يبعث له بمنشور يتضمن تقديمه له على جهادهم ، فإنهم إنما خرجوا عليه بأن الأمير خادمه وهو يخطب له على أكثر من ألفي منبر ، وتضرب السكة باسمه إلى غير ذلك . ومتى وصف نفسه قال : لست مستبدا ، وإنما أنا خادم أمير المؤمنين المستظهر ، وهذا أشهر من أن يؤكد بالتحلية ، وأظهر من أن يجدد بالتزكية .

فللشيخ الامام الأجل الزاهد الأوحد أبي حامد أتم الأجر ، وأعم الشكر في الانعام بالمراجعة في هذا السؤال إن شاء الله
فأجاب الامام الغزالي رضوان الله عليه :

لقد سمعت من لسانه وهو الموثوق به الذي يستغنى مع شهادته عن غيره ، وعن طبقة من ثقاة المغرب الفقهاء وغيرهم ، من سيرة هذا الأمير أكثر الله في الأمراء أمثاله ، ما أوجب الدعاء لأمثاله . أصاب الحق في إظهار الشعار الامامي المستظهري ، حرس الله على المستظهرين ظلاله ، وهذا هو الواجب على كل ملك استولى على قطر من أقطار المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، فعليهم تزيين منابرهم بالدعاء للامام الحق . وإن لم يكن قد بلغهم صريح التقليد من الامام أو تأخر عنهم ذلك لعائق . وإذا نادى الملك المستولي

بشعار الخلافة العباسية ، وجب على كل الرعايا والرؤساء الاذعان والانقياد ، ولزمهم السمع والطاعة وعليهم أن يعتقدوا أن طاعته هي طاعة الامام ، ومخالفته مخالفة الامام وكل من تمرد واستعصى وسل يده عن الطاعة ، فحكمه حكم الباغي ، وقد قال الله تعالى : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله)(٨٩)والفيئة إلى أمر الله ، الرجوع إلى السلطان العادل المتمسك بولاء الامام الحق المنتسب إلى الخلافة العباسية فكل متمرد على الحق ، فإنه مردود بالسيف إلى الحق ، فيجب على الأمير واشياعه قتال هؤلاء المتمردة عن طاعته ، لاسيما وقد استنجدوا بالنصارى المشركين اوليائهم ، وهم أعداء الله في مقابلة المسلمين الذين هم أولياء الله ، فمن أعظم القربات قتالهم إلى أن يعودوا إلى طاعة الأمير العادل المتمسك بطاعة الخلافة العباسية .

ومهما تركوا المخالفة ، وجب الكف عنهم ، وإذا قاتلوا ، لم يجز ان يتتبع مدبرهم ، ولاأن يذفف على جريحهم بل مهما سقطت شوكتهم وانهزموا ، وجب الكف عنهم أعني عن المسلمين منهم دون النصارى الذين لايبقى لهم عهد مع التشاغل بقتال المسلمين . وأما ما يظفر به من أموالهم فمردود عليهم أو على وريثهم ، وما يؤخذ من نسائهم وذراريهم في القتال مهدرة لاضمان فيها ، وحكمهم بالجملة في البغي على الأمير المتمسك بطاعة الخلافة ، المستولي على المنابر والبلاد بقوة الشوكة ، حكم الباغي على نائب الامام .

فإنه وإن تأخر عنه صريح التقليد لاعتراض العوائق المانعة من وصول المنشور بالتقليد فهو نائب بحكم قرينة الحال ، إذ يجب على إمام المصر ان يأذن لكل إمام عادل استولى على قطر من اقطار الأرض ، في ان يخطب عليه ، وينادي بشعاره ، ويحمل الخلق على العدل والنصفة ، ولاينبغي ان يظن بالامام توقف في الرضا بذلك والاذن فيه .

وإن توقف في كتبه المنشور ، فالكتب قد يعوق عن إنشائها

وإيصالها المعاذير ، وأما الاذن والرضى بعدما ظهــر حــال الأمير في العدل والسياسة وابتغاء المصلحة للتفويض والتعيين ، فلا رخصة في تركه وقد ظهر حال هذا الأمير بالاستفاضة ظهورا لايشك فيه وإن لم يكن عن إيصال الكتاب وإنشائه عائق ، وكانت هذه الفتنة لاتنطفىء إلا بأن يصل إليهم صريح الاذن والتقليد بمنشور مقرون بما جــرت العادة بمثله في تقليد الأمراء ، فيجب على حضرة الخلافة بذل ذلك . فإن الامام الحق عاقلة أهل الاسلام ، ولايحل له ان يترك في أقــطار الأرض فتنة ثائرة إلا ويسعى في إطفائها بكل ممكن . قال عمر رضي الله عنه « لو تركت جرباء على ضفة الفرات لم تطل بالهناء ، فــأنا المسؤول عنها يوم القيامة » . وقال سليمان بن عبد الملك يوما وقــد احدق به الناس : « قد كثر الناس » . فقــال عمــر بــن عبــد العزيز « خصماؤك يا أمير المؤمنين » ، يعني أنك مسؤول عن كل واحد منهم إن ضيعت حق الله فيهم أو اقمته . فلا رخصة في التوقف عن إطفاء الفتنة في قرية تحوى عشرة . فكيف في اقاليم واقــاليم إلا أن يعوق عن ذلك عائق ، ويمنع منه مانع المواقف القدسية الامــامية المستظهرية حرس الله جلالها ابصر بها . ونحن نعلم أن لانســتجيز التوقف على إطفاء هذه الفتنة إلا لعذر ظاهر وجب على أهل الغــرب ان لايعتقدوا في حضرة الخــلافة إلا ذلك ، فإن المســافة إذا بعــدته وتخللها المارقون عن ربقة الحق ، لم يبعد ان يقتضي الرأي الشريف صيانة الأوامر الشريفة عن أن تمد اليها أعين أعداء الدولة فضلا عن أيديهم.

واما من يستجيز التوقف فيها عن غير عذر عن التقليد لأمير قــد ظهرت شوكته وعرفت سياسته ، وتناطقت الألسن بعدله ، ولم يعرف في ذلك القطر من يجري مجراه . ويسد في هذا الحال مسده ، فهــذا اعتقاد فاسد في حضرة الخلافة حاشاها من أن تنسب إلى قصــور ، او تقتضي في نصرة اهل العدل المتمسكين بخــدمتها ، والمعتصــمين بعروتها ، القائمين في اقطار الأرض بإنفــاذ شــعائرها وأوامــرها المعلومة بقرائن الأحوال ، فهذا حكم كل امير عادل في اقطار الأرض وحكم من بغى عليه ، والله أعلم .

رسالة الغزالي الى يوسف بن تاشفين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة على سيد المرسلين وسائر النبيين وعلى آله واصحابه اجمعين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليوم من سلطان عادل خير من عباده سبعين سنة »... وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سبعة يظلهم الله بظله يوم لاظل إلا ظله»، وعد الامام العادل اولهم ، ونحن نرجو أن يكون الأمير جامع كلمة الاسلام وناصر الدين ظهير أمير المؤمنين من المستظلين بظل عرشه يوم لاظل إلا ظله فإنه منصب لاينال إلا بالعدل في السلطنة ، وقد آتاه الله السلطان وزينه بالعدل والاحسان ولقد استطارت في الآفاق محامد سيره ومحاسن أخلاقه على الاجمال حتى ورد الشيخ الفقيه الوجيه أبو محمد عبد الله بن عمر بن العربي الأندلسي الاشبيلي حرس الله توفيقه فأورد من شرح ذلك وتفصيله ما عطر به ارجاء العراق ، فانه لما وصل إلى مدينة السلام وحضرة الخلافة لم يزل يطنب في ذكر ما كان عليه المسلمون في جزيرة الاندلس من الذل والصغار والحرب والاستصغار بسبب استيلاء أهل الشرك وامتداد أيديهم إلى الاسلام بالسبي والقتل والنهب ،وتطرقهم إلى اهتضام اهل الاسلام بما حدث بينهم من تفرق الكلمة واختلاف آراء الثوار المحاولين للاستبداد بالامارة ، وتقاتلهم على ذلك حتى اختطف من بينهم حماة الرجال بطول القتال والمحاربة والمنافسة ، وأفضى الأمر بهم إلى الاستنجاد بالنصارى حرصا على الانتقام.إلى أن اوطنوهم بيضة الاسلام،وكشفوا إليهم الأسرار حتى أشرفوا على التهائم والأغوار فرتبوا عليهم الجزاء وجزوهم شر الجزاء ، ولما استنفدوا من عندهم الأموال أخذوا في نهب المناهل وتحصيل المعاقل ،

واستصرخ المسلمون عند ذلك بالأمير ناصر الدين وجامع كلمة المسلمين ظهير أمير المؤمنين ابن عم سيد المرسلين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين ، واستصرخه معهم بعض الثوار المذكورين ليأسهم عن مداراة المشركين ، فلبى دعوتهم ، وأسرع نصرتهم وأجاز البحر بنفسه ورجاله وماله ، وجاهد في الله حق جهاده ، ومنحه الله تعالى استئصال شافة المشركين والافراج عن حوزة المسلمين جزاه الله تعالى افضل جزاء وأمده بالنصر والتمكين ، وذكر متابعته العدوة إلى جهة أخرى بعد ثلاثة اعوام من هذه الغزوة المشهورة ، وقتل كل من ظهر من النصارى بالجزيرة المذكورة من الخارجين لامداد ملوكها على عادتهم او من سراياهم في أي جهة يمموا من جهات المسلمين وقذف الله الرعب في قلوب المشركين حتى اغناه ذلك عن جر العساكر والجنود وعقد الألوية والبنود ، وذكر أن اولئك الثوار لما أيقنوا قوة الأمير ناصر الدين وغلبته لحزب المشركين وسألهم رفع المظالم عن المسلمين التي كانت مرتبة عليهم لجزية المشركين وإمدادهم بها لهم مداراة لبقاء إمرتهم عادوا إلى ممالاة المشركين وألقوا إليهم القول في جهة الأمير وجرأوهم على لقائه، وصح ذلك عنده وعند المسلمين ، فسأله المسلمون عند ذلك إنزال هؤلاء الثوار عن البلاد وتداركها ومن فيها من المسلمين قبل أن يسري الفساد ، ففعل ذلك ، ولما تملكها ورفع المظالم واظهر فيها من الدين المعالم وبدد المفسدين واستبدل بهم الصالحين ورتب الجهاد وقطع مواد الفساد ، ثم اضاف إلى ذكر ذلك ما شاهده من تلك السجية الكريمة في إكرام اهل العلم وتوقيره لهم ، وتزينه بإسمهم واتباعه لما يفتون إليه من احكام الله تعالى واوامره ونواهيه وحمله عماله على السمع والطاعة ، وتزيين منابر المملكة الجديدة والقديمة بالخطبة لأمير المؤمنين أعز الله أنصاره ، وإلزامه للمسلمين البيعة ، وكانوا من قبل منكبين عن البيعة ، والنداء بشعار الخليفة إلى غير ذلك مما شرحه من عجائب سيرته ومحاسن احواله ومكارم اخلاقه ، وكان منصبه في غزارة العلم ورصانة العقل ومتانة الدين تقتضي التصديق له في روايته ، والقبول لكل ما يورده من صدق كلمته ، وما افاضه من هذه الفضائل إلى حضرة الخلافة أعز الله انصارها ،

فوقع ذلك موقع الاحماد ، ثم ذكر مع ذلك توقف طائفة من الثوار الباقين في شرق الأندلس عن مشايعة الأمير ناصر الدين ومتابعته ، وانهم حالفوا النصارى واستنجدوا بهم فأعلن المسلمون بالدعاء عليهم والتبرؤ منهم ليتوب عليهم أو ليقطع شافتهم •

وكتب هذا الشيخ سؤالا على سبيل الاستفتاء ، وافتيت فيه بما اقتضاه الحق واوجبه الدين واعجلني المسير الى سفر الحجاز وتركته مشمرا عن ساق الجد في طلب خطاب شريف من حضرة الخلافة يتضمن شكر صنيع الامير ناصر الدين في حمايته لثغور المسلمين ويشتمل على تسليم جميع بلاد المغرب اليه ليكون رئيسهم ورؤوسهم تحت طاعته ، وان من خالف امره فقد خالف امر امير المؤمنين ابن عم سيد المرسلين ، ويتعين جهاده على كافة المسلمين ولم يبالغ احد في بث مناقب قوم مبالغة الشيخ الفقيه ابي محمد في بث مناقب الامير واشياعه المرابطين ، ولقد شاع دعاؤه في المشاهد الكريمة بمكة حرسها الله لحضرة الأمير وجماعة المرابطين ، ولم يقنعه ما فعله بنفسه الى ان كلف جميع من رجا بركة دعائهم الدعاء في تلك المشاهد الكريمة ، والمناسك العظيمة واعلن بالدعاء لأمير بلده الأمير الاجل ابي محمد سير بن ابي بكر وفقه الله تعالى وذكر من فضله وحسن سيرته وتلطفه بالمسلمين ورفع جميع النوائب عنهم ما جهر به الى النفوس.ولقد دعي الشيخ الفقيه الى المقام ببغداد على البر والكرامة والاتصال باسباب تشرف بها من حضرة الخلافة فأبى الا الرجوع الى ذلك الثغر يلازمه للجهاد مع الامراء وفقهم الله تعالى.
ولو اقام لفاز بالحظ الاوفى من التوقير والاكرام ، وما اجدر مثله بأن يوفي حظه من الاحترام وولده الشيخ الامام ابو بكر قد احرز من العلم في وقت تردده علي مالم يحرزه مع طول الامد ، وذلك لما خص به من نقاية الذهن ، وذكاء الحس واتقاد القريحة ، وما يخرج من العراق الا وهو مستقل بنفسه حائز منصب السبق بين اقرانه.ومثل هذا الوالد والولد قمن بالاكرام في الوطن ، وقد تميز بمزاية التوفيق من الاعيان في الغربة ، والله يحفظ من حفظهما ويرعى من رعاهما ، فرعاية امثالهما من اداب الدين المعينة على امير المسلمين

وقد قال المحسنون : فليستوص من ظفر بهـم منهـم خيرا ، وكم دخل قبلهما العراق ويدخل بعدهما من تلك البـلاد النائية ومـا يذكر محاسنهما ولا يدفع مساويهما . وقد انتهى الشيخ الفقيه مـن ذلك الى مالا يمكن ان يلحق ثناؤه فضـلا عن ان يزاد عليه والله تعـالى يعمر بهما اوطانهما ويصلح شأنهما ويوفق الامير ناصر المسـلمين ليتوسل الى الله تعالى في القيامة باكرام اهل العلم فهي اعظم وسيلة عند رب العـالمين.ونسـأل الله ان يخلد ملك الامير ويؤيده تخليدا لاينقطع أبد الدهر، ولعل القلوب تنفر عن هذا الدعاء وتستمطر لملك العباد التأييد والبقاء، وليس كذلك فان ملك الدنيا اذا تـزين بـالعدل فهو شبكة الاخرة ، فالسلطان العادل اذا انتقل من الدنيا انتقل مـن سرير الى سرير اعظم منه ومن ملك الى ملك اجل وارفـع منه(واذا رأيت ملكا ثـم رأيت نعيمـا وملكا كبيرا) (٩٠) مهمـا وفي العـدل في الرعية والنصفة في القضية فقد خلد ملكه وايد سلطانه ، وقد وفـق له بحمد الله ومنه. والحمد لله رب العالمين وصلوات على سيدنا محمـد خاتم النبيين واله اجمعين.

رسالة من الامام الطرطوشي صاحب كتاب سراج الملوك الى يوسف بن تاشفين (٩١)

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن الوليد الطرطوشي الى الأمير أبي يعقوب بن تاشفين سلام عليك

اما بعد ، فاني احمد الله اليك الذي لااله إلا هو ، واشكره لديك كثيرا كما هو اهله ، واخصك من مواعظه وحكمه ما إن اخذت به نجوت من عظيم ما ركبت إن شاء الله تعالى ، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

قال الله سبحانه: «ياداوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق» ، (٩٢) ، الى قوله« يوم الحساب» ، قال سلمان الفارسي رضي الله عنه: أتعلمون من الخليفة؟ الخليفة هو الذي يقضي بكتاب الله ، ويشفق على الرعية شفقة الرجل على أهله.

وقال سبحانه وتعالى :«الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة واتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر»(٩٣) الخ ، فمن مكنه الله في الأرض، وآتاه الله سلطانا ولم يفعل ما أمر الله تعالى به في هذه الآية ، خفنا أن لايكون من أهلها ، لأن الله تعالى وصف هذه الأمة ، اذا فتح الله تعالى عليهم الأرض وأهلك عدوهم ، باقامة الصلاة وايتاء الزكاة وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من أحد يلي عملا-أو قال سلطانا-إلا اهتز به الصراط حين يركبه حتى يزول كل عظم عن

حقه ،فإن كان محسنا نجا ، وإن كان مسيئا هوى سبعين خــريفا ، فلما بلغ ذلك عمر بن الخــطاب رضي الله عنه قــال . ومــن يرغب في العمل بعد هذا ؟ قال له أبو ذر رضي الله عنه : مــن ســلب الله أنفــه وأصعر خده .

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما مــن وال يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم الا حــرم الله تعــالى عليه الجنة . وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للعباس عمــه لما قال له أمرني على امارة ، فقــال له رســول الله صــلى الله عليه وسلم : يا عباس ياعم رسول الله ، نفس تحييهــا خير مــن امــارة لاتحصيها ، إن الامارة حسرة وندامة يوم القيامة ، فإن استطعت أن لاتكون أميرا فافعل .

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وســلم قــال : الا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته ومســؤول عن رعيته ، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولدها وهــي مســؤولة عنهم ، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسؤول عنه ، الا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، ولقد بلغ هذا من نفــوس الصــحابة والخلفاء الراشدين والأئمة المهتدين مبلغا ذهلت له عقولهم وطــاشت حلومهم ، فروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر بــطريق مــكة فأبصر راعيا يرعى بمكان جدب فناداه : أيا راع ، قد رأيت مكانا هو أخصب من مكانك فالحق به ، ثم قال : كل راع مسؤول عن رعيته .

وقال علي رأيت عمر بن الخطاب يغدو على قتب فقلت : الى أين ؟ فقال : بعير من ابل الصدقة قد ند وأنا أطلبه ، فقلت : أذللت الخلفاء بعدك يا أمير المؤمنين ، فقال : لاتلمني يا أبا الحسن ، فوالذي بعــث محمدا بالنبــوة لو أن سخلة ذهبت بشاطىء الفرات لأجد بها حسرة يوم القيامة ، الا إنه لاحرمة لوال ضيع المسلمين .

يا أبا يعقوب ، لقد بليت بأمر لو حملته السموات لانفــطرت ، ولو حملته النجــوم لانكدرت ، ولو حملتــه الأرض والجبــال لتــــزلزلت

وتدكدكت ، إنك حملت الأمانة التي عرضت (على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها) (٩٤) .

فروي أن ادم صلوات الله عليه ، لما استخلفه الله تعالى في الأرض على ذريته وما فيها من الأنعام ، وعهد اليه عهودا أمره فيها ونهاه ، فقام فيها بأمر الله سبحانه الى أن حضرته الوفاة ، فسأل الله سبحانه أن يعلمه من يستخلفه ويقلده من الأمانة ما قلده ، فأمر أن يعرض ذلك على السموات بالشرط الذي اخذ عليه من الثواب إن اطاع ، ومن العقاب إن عصا ، فأبين أن يقبلنه شفقا من عقابه ، ثم امره أن يعرضه على الجبال والأرض فأبينه ايضا ، ثم امره أن يعرضه على ولده فقبله ولده على شرط أن له الثواب إن أطاع ، والعقاب إن عصا ، فوبخه الله تعالى على مسارعته الى قبول ذلك ، فقال:« وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا» (٩٥) بعقابه وماتقلد لربه وكان الغرض تخييرا لا ايجابا.

وروي ان عمر بن عبد العزيز لما افضت اليه الخلافة ، سمعوا في منزله بكاء عاليا ، فسئل عن البكاء فقيل : إن عمر خير جواريه ، وقال : قد نزل بي أمر شغلني عنكن ، فمن احبت أن أعتقها عتقتها ومن احبت ان أمسكها لم يكن لهانصيب مني ، قال : فبكين يأسا منه ، ثم دعا افاضل المسلمين في زمانه ،وعلماءهم في وقته : سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب ورجاء بن حيوة ، فقال لهم : اني قد ابتليت بهذا الأمر فأشيروا علي ، فعد الخلافة بلاء ، وانت ونظراؤك تعدون هذا البلاء نعمة ، فقال له سالم بن عبد الله : يا أمير المؤمنين ، إن أردت النجاة من عذابها فصم عن الدنيا ، وليكن افطارك فيها الموت ، وقال محمد بن كعب : إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين لك أبا وأوسطهم عندك أخا واصغرهم ولدك ، فوقر أباك وارحم أخاك وتحنن على ولدك ، وقال له رجاء بن حيوة :إن أردت النجاة من عذاب الله أحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، واكره لهم ما تكره لنفسك ، ثم مت متى شئت .

واني لأخاف عليك اشد الخوف ، فاتق الله يا ابا يعقوب في امة

محمد الله ، فإن لك مع الله تعالى موقفا يسائلك فيه عنهم شخصا شخصا ،ذكرا وأنثى ، صغيرا وكبيرا ، حرا وعبدا ، مسلما وذميا ، فأعد لذلك المقام كلاما ، ولذلك السؤال جوابا ، فالذي نفسي بيده إن ذلك (لحق مثل ماانكم تنطقون) (٩٦) .

روى عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما منكم من أحد إلا ويخلو بربه ليس بينه وبينه ترجمان ، ولاتزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن خمسة : عن عمره فيما افناه ، وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من اين اكتسبه وفيما انفقه ، وماذا عمل بما علم .

واعلم يا أبا يعقوب انه لايزني فرج في ولايتك ومدى سلطانك وطول عمرك إلا كنت المسؤول عنه والمرتهن بجريرته ، وكذلك لايشرب فيها نقطة مسكر إلا وانت المسؤول عنها ، ولاينتهك فيها عرض امرىء مسلم إلا وانت المطالب به ، ولايتعامل فيها بالربى إلا وانت المأخوذ به ، وكذلك سائر المظالم ، وكل حرمة انتهكت من حرمات الله تعالى فعدتها عليك ، لأنك قادر على تغييرها ، فأما ما خفي من ذلك ولم يكن ظاهرا يراه المسلمون فأنت المبرأ منه إن شاء الله تعالى ، الا ترى الى عمر بن الخطاب كيف اشفق أن يطالبه الله ببعير من إبل الصدقة ، وانما هو البعير للمسلمين ، فركب على بعيره وجعل يطلبه بنفسه ، ولاعذر لك عند الله تعالى أن تقول : لم يبلغني فإنك اذا احتجبت عن المسلمين فكيف تعلمه وتراه ، قال الله تعالى :"كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون" (٩٧) من تركهم الانكار ، وانما قاله لقوم سخط عليهم ، هذا بين الأكفاء والنظراء ، فما ظنك بين الولاة والأمراء . قال الله سبحانه :"يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولايظلم ربك أحدا" (٩٨) جاء في التفسير: الصغيرة التبسم.والكبيرة الضحك.

ولقد بلغني ان عبد الله العمري لما حج لقي هارون الرشيد في الطواف فقال : يا هارون فنظر اليه الرشيد فعرفه فقال : لبيك يا

عما ه ، فقال : كم ترى ها هنا من خلق ؟ قال : لايحصـيهم إلا الله تعالى ، قال : فاعلم أيها الرجل أن كل واحد منهم يسأل عن خـاصة نفسه وأنت وحدك تسأل عنهم كلهم ، فـانظر كيف تـكون ، فبـكى هارون الرشيد بكاءا شديدا فجعلوا يعطونه منديلا يمسح به دموعه ، قال له: والله يا هارون أن الرجل ليسرع في مـال نفسـه فيسـتحق الحجر عليه ، فكيف بمن يسرع في مال المسلمين؟

ولما دخل طاووس اليماني على سليمان بن عبد الملك قال . يا أمير المؤمنين هل تدري من أشد الناس عذابا يوم القيامة ؟ قال سليمان : قل فقال : أشد الناس عذابا يوم القيامـة ، مـن أشركه الله في ملكه فجار في حكمه ، فاستلقى سليمان بن عبـد الملك على سريره بـاكيا حتى قام عنه جلساؤه.

وقال ابو بكر الصديق رضي الله عنه : إن الملك اذا ملك زهـده الله في ماله ، ورغبة في مال غيره ، وأشرب قلبه الاشفاق من الفقر ، فهـو يسخط على القليل ، ويحسده على الكثير ، حتى اذا قضى الله نحبـه حاسبه بأشد حسابه وأقل عفوه.

فاحذر يا أبا يعقوب أن ترد على جنة عرضها السموات والأرض فلا يكون لك فيها موقف قدم ، عاذنا الله واياك من هـذا الموقـف ، ولقد بلغني يا أبا يعقـوب أنك احتجبـت عن المسـلمين بـالحجارة والطين ، واتخذت دونهم حجابا ، وان طالب الحاجة ليظل يومه ببابك فما يلقاك ، كأنك لم تسمع قول الله عز وجل :« ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق»(٩٩) قال الحسن: لا والله ما كان رسـول الله صلى الله عليه وسلم تغلق دونه الحجب ، ولايغدى عليه بالجفان ولايراح عليه بها ، ولكنه كان بارزا ، من أراد أن يلقى رسـول الله صلى الله عليه وسلم لقيه ، وكان يجلس بالأرض ويوضع طعـامه في الأرض ، ويلبس الغليظ ، ويركب الحمار ، ويردف عليه عبده ، ويلعق أصابعه ، وكان يقول : من رغب عن سنتي فليس مني ، قال الحسن: فما أكثر الراغبين عن سنته التاركين لها.

وكان عمر بـن الخـطاب رضي الله عنه يأخـذ درتـه ويمشي في

الأسواق ، ويتفقد أمور رعيته ، وكان يعس ليلا في سكك المدينة مع عبد الرحمن بن عوف وغيره من الصحابة رضي الله عنهم يحفظون عورات المسلمين ،فروي عنه أنه استعمل سعد بن ابي وقاص على الكوفة ، فبلغه أن سعدا اتخذ قصرا وجعل عليه بابا ، وقال انقطع التصويت ، فأرسل اليه محمد بن مسلمة وقال : اذا رايت سعدا فأحرق عليه بابه ، فأتى الكوفة واخرج زنده واستورى ناره ثم أحرق الباب ، فجعل سعد يعتذر ويحلف بالله ما قال ، فقال له محمد بن مسلمة : تفعل ما أمرتك به وتورى عذك القول .

يا ابا يعقوب ! ولقد بلغني انك استأثرت على المسلمين بالحظ الوافر من حطام الدنيا وزخرفها ، فلبست الناعم ، وأكلت اللين ، وتمتعت بلذاتها وشهواتها كانك لم تسمع قول الله عز وجل "اذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها"(١٠٠)أو لم تسمعه سبحانه يقول لنبي الله صلى الله عليه وسلم :"ولاتمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه"(١٠١) .

ولقد روت عائشة رضي الله عنها قالت : لقد كان يمر علينا الشهران والثلاثة ، ما توقد في بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم نار ، قيل فما كان عيشكم ؟ قالت : الأسو دان ، التمر والماء.

ولقد روي ان فاطمة رضي الله عنها قالت : خبزنا من شعير فجئت منه بكسرة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما هذا يافاطمة ؟ فقلت : رغيف خبزته يا رسول الله ، ولم تطب نفسي أن آكله حتى اجيك بهذه الكسرة ، فقال : اما انه أول طعام دخل جوف ابيك منذ ثلاثة أيام ، هذا لو شركوك في خفض العيش لنهيت عنه ، لأن الله تعالى اخذ على الائمة مثل ما روي عن يوسف صلى الله عليه وسلم انه كان يأكل الشعير ، ويطعم الخشكار ، ويطعم المسلمين الحواري ؟ وكان يجوع نفسه ، فقيل له : أتجوع وبيدك خزائن الأرض ؟ : فقال اخاف ان أشبع فأنسى الجائعين .

وروي ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، لما افضت اليه الخلافة قال: إني انزلت نفسي في مال الله سبحانه بمنزلة ولي اليتيم ، إن

استغنيت استعففت ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف ، وروي عنه أنه قال : أخبركم بما يحل لي من مال الله سبحانه ، استحل منه حلتي ؛ حلة الشتاء ، وحلة القيظ ، وما احج عليه واعتمر ، وقوتي وقوت عيالي ، كقوت رجل من قريش لا من اغنيائهم ولا من فقرائهم ، ثم انا بعد رجل من المسلمين يصيبني ما اصابهم ، فكيف والفقراء ببابك يتضاغون وذوو الحاجات يترددون ، وأهل الديون والغرم في السجون محبوسون مأسورون ، وأموال المسلمين تحت يديك ، وفي قبضتك ، اما سمعت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من ترك مالا فلورثته ، ومن ترك كلا فعلينا ، اما سمعت قول الله تعالى: (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) (١٠٢) الآية إلى قوله الغارمين

يا أبا يعقوب ! إنه قد كبرت السن وانحلت القوى (واشتعل الراس شيبا)(١٠٣) وارتحلت الدنيا مدبرة ، وجاءت الآخرة مقبلة ، وحان الفراق ،« والتفت الساق بالساق»(١٠٤) ،« وجاءت سكرة الموت بالحق»(١٠٥) . فالبدار البدار الى حياة لاموت فيها وشباب لاهرم معه ، وصحة لاسقم فيها. قال الله تعالى:"ولاتحسبن الذين قتلوا في سبيل الله اموأتا بل أحياء عند ربهم يرزقون)(١٠٦)الى قوله: « ومن فضله».

يروى عن ابن عباس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : لما اصيب إخوانكم يوم أحد ، جعل الله ارواحهم في أجواف طير خضر ترد انهار الجنة ، وتأكل من ثمارها وتسرح من الجنة حيث شاءت ، وتأوي إلى قناديل من ذهب تحت العرش ، فلما رأوا طيب مقيلهم ومطعمهم ومشربهم ، ورأوا ما أعد الله لهم من الكرامة ، قالوا : ياليت قومنا يعلمون بما نحن فيه من النعيم ، وما صنع الله بنا ، كي يرغبوا في الجهاد ولاينكلوا عنه . فقال الله تعالى : أنا مخبر عنكم ، ومبلغ اخوانكم ، ففرحوا بذلك واستبشروا ، فأنزل الله تعالى ولاتحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل احياء) ـ الآية. وقال جل من قائل :(إن الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) (١٠٧) الى قوله:« الفوز العظيم» ، فما ظنك بتجارة الله مشتريها يوشك والله أن لاتبور.

وقال جل من قائل :(يا أيها الذين آمنوا هــل أدلكم على تجــارة تنجيكم من عذاب أليم) فلو قطع هذا لانقطعت الأعيان في البحــث عن هذه ، لأن الله بفضله وكرمه بين مراده من ذلك ، فقال :"تؤمنون بالله ورسوله" الى قوله:"إن كنتم تعلمون" (١٠٨) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :« مثل المجــاهد في ســبيل الله كمثل الصائم القائم لا يفتر من صلاة ولاصيام حتى يرجع ».

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « تــكفل الله لمن جاهد في سبيل الله لا يخرجه مــن بيتــه إلا الجهــاد في ســبيل الله وتصديق كلمته أن يدخله الله الجنة أو يرده الى مسكنه الذي خــرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة » وقال رســول الله صــلى الله عليه وسلم :« لولا أن أشــق على أمتــي لأحببــت أن لاأتخلف عن سرية تخرج في سبيل الله ،ولكني لاأجد ما أحملهم عليه ، ويشق عليهــم أن يتخلفوا بعدي ، والذي نفسي بيده لوددت أن أقاتل في سبيل الله فأقتل ثم أحيا فأقتل ، ثم أحيا فــأقتل ، والذي نفسي بيده لايكلم أحــد في سبيل الله ، والله أعلم بمن يكلم في ســبيله ، إلا جــاء يوم القيامــة وجرحه يثعب دما : اللون لون الدم والريح ريح المسك ».

وقال أنس بن مالك : استشهد عمي يوم أحــد وكان قــد غاب عن بدر فقال يا رسول الله : إن أشهدني الله قتــال المشركين ليرين مــا أصنع ،فلما كان يوم أحد قال : إني لأجد ريح الجنة من دون أحــد ، قال : فما استطعت يا رسول الله ما أصنع،فوجدنا بضــعا وثمــانين ضربة بالسيف أو طعنة بالرمح أو رمية بالنبل ، ومثل به المشركون ، فنزل فيه وفي أمثاله : (من المؤمنين رجال صدقوا مــا عاهــدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ومابدلوا تبديلا) (١٠٩).

واعلم يا أبا يعقوب أن الله تعــالى فــرض الجهــاد على كافــة المسلمين ولايرده جور جائر ، ولافسق فاسق الى أن تقوم الساعة ، قال الله تعالى :"قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر" (١١٠)الى قوله:"صاغرون" ، فلم يرخص لهذه الأمة في تــرك جهــاد عدوهــم إلا

باعطاء الجزية أو كلمة الاسلام ، وهذه الآية نسخت كل آية في كتاب الله تعالى تتضمن أعراض عن المشركين ، وروى أبو بكر الصديق رضي الله عنه قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :« ما ترك قوم الجهاد إلا عمهم العذاب ».

فجهاد الكفار فرض عليك فيما يليك من ثغور بلاد الأندلس ، لأنك اقرب الملوك اليها ، وعندك الكراع والسلاح ولأمة الحرب وآلتها وجيوش المسلمين وحماة البيضة طائعون لك ، وكذلك كل من بنواحيك وجنبات أعمالك من المجاهدين والمقاتلين وأولي البطش والقوة ، وانت في حرج من تضييع من في ثغور أرض الأندلس من جماعة المسلمين والحرم والذراري أفلا تأسيت بمن سافر اليها وأمضى المضي من أرض الحجاز من حماة المسلمين ومجاهديهم حتى استفتحوها وبثوا فيها كلمة الاسلام وشهادة التوحيد ، فكيف بمن يناسخها ويجاورها .

يا أبا يعقوب ! إذا أردت الظفر بالعدو ، فعليك بالعدل في الرعية ، فقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، إن وفدا من الوفود قدم عليه بالفتوح فقال له عمر : متى لقيتم عدوكم ؟ فقال : من أول النهار.
قال: فمتى انهزموا ؟ فقال : من آخر النهار ، فقال عمر : إنا لله وإنا اليه راجعون ، وقام الشرك للايمان من أول النهار حتى اعتدل النهار ؟ والله إن كان هذا إلا عن ذنب أحد ثتموه بعدي او أحدثته بعدكم ، ولقد استعملت يعلى بن أمية على اليمن استنصر لكم بصلاحه.

وكتب ابو بكر الصديق رضي الله عنه الى جنده بالشام « وإنما يؤتي العشرة آلاف واكثر ، اذا أتوا ، من تلقاء الذنوب ، فاحترسوا من الذنوب ».

ومما اتحفك به ، وهو خير لك من طلاع الأرض ذهبا ، لو انفقته في سبيل الله ، حديث رواه الأئمة الثقاة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فروى مسلم في كتابه الصحيح (نقل العدل عن العدل)

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :« لاتزال طائفة من أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى يأتي امر الله » ، والله أعلم هل أرادكم رسول الله صلى الله عليه وسلم معشر المرابطين أو أراد بذلك جملة أهل المغرب ، وما هم عليه من التمسك بالسنة والجماعة وطهارتهم من البدع والأحداث في الدين والاقتفاء لآثار السلف الصالح رضي الله عنهم ، وإنا لنرجو أن تكون أولى سابقيه ينهون عن الفساد في الأرض .

ولقد كنا في الأرض المقدسة جبر الله مصابها تترى علينا أخبارك وما قمت به من أداء فريضة الله تعالى في جهاد عدوه ، واعزاز دينه وكلمته ، وكان من هناك من العلماء والفقهاء وحماة الدين والعباد والزهاد والمنقطعين الى الله تعالى يدعون الله سبحانه في نصرك وتأييدك والفتح على يدك ، فلئن كنت تستنصر بجنود أهل الأرض ، فقد كنا نستنصر بجنود أهل السماء ، حتى قدم علينا الأرض المقدسة ، الفقيه أبو محمد عبد الله بن العربي وابنه الفقيه الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله فذكرا من سيرتك في جهاد العدو أهلكه الله تعالى في تلك الأندية والمحافل والخلق والمجالس ، وصبرك على مكافحة العدو ومصابرته ، واعزازك للدين وأهله ، والعلم وحملته ، مازاد المسلمين بصيرة الدعاء لك ، وحسن الاعتقاد فيك ، حتى تمنينا أن نجاهد الكفار معك ، ونكثر سواد المسلمين بحلتك ، نسأل الله تعالى الذي يهب الجزيل من فضله أن يهبنا واياك الشهادة في سبيله ، ثم اليه سبحانه نضرع أن يريك الحق حقا فتتبعه ، والباطل باطلا فتجتنبه ، فصلاح الرعية بصلاح الراعي .

والفقيه أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي ممن صحبنا أعواما يدارس العلم ويمارسه ، بلوناه وخبرناه ، وهو ممن جمع العلم ووعاه ، ثم تحقق به ورعاه ، وناظر فيه وجد حتى فاق أقرانه ونظراءه ، ثم رحل الى العراق فناظر العلماء وصحب الفقهاء ، وجمع من مذاهب العلم عيونها ، وكتب من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى صحيحه وثابته ، والله تعالى يؤتي الحكمة من

يشاء ، وهو وارد عليك بما يسرك ، فاشدد عليه يديك ، واحفظ فيه وفي أمثاله وصية الله سبحانه لنبيه عليه السلام ، قال الله سبحانه وهو أجل القائلين :"واذا جاءك الذين يؤمنون بأياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة"(١١١) .

والحمد لله رب العالمين ، والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وآله الطيبين الطاهرين ، وسلم وشرف وكرم ، وافضل وأنعم .

الحواشي والهوامش

الفصل الأول

من أجل دور السريان قبل الاسلام في بلدان الشرق الاقصى وغيرها ، انظر كتاب « ثقافة السريان في القرون الوسطى » تأليف نينا بيغوليفسكايا ، ترجمة عربية ـ ط . دمشق ١٩٩٠ ص ٣٨ ـ ٤٦

٢ ـ انظر كتابي التاريخ عند العرب ـ ط . دمشق ١٩٧٤ ص ١٥٩ ـ ١٨٨ حيث عدة نصوص مدروسة حول نشوء البحرية العربية وفتح جزيرة قبرص أيام الخليفة الراشدي عثمان بن عفان

٣ ـ ابن عبد الحكم ١٧١ ـ ١٧٣ تاريخ خليفة ١ / ١٤٩ ـ ١٥٠ رياض النفوس ١ / ٧ ـ ٩ جوليان ١ / ٢٧٩ ـ ٢٩٥ ـ ٣٢١ ـ ٣٤٠ البيان المغرب ١ / ٢٠١ . تاريخ المغرب العربي ٣ ـ ٩٤ المغرب عبر التاريخ ١٤ ـ ٨٧ قادة فتح المغرب العربي ١ / ١١ ـ ٤٨

٤ ـ تاريخ خليفة ١ / ١٦٤ ـ ١٦٥ .

ابن عبد الحكم ١٨٣ ـ ١٨٧ . الكندي ١١ ـ ١٤ .

رياض النفوس ١ / ١٤ ـ ٢٧ البيان المغرب ١ / ٣ ـ ١٠ تاريخ المغرب العربي ٩٨ ـ ١٢١ .

المغرب عبر التاريخ ٩٢ ـ ٩٣ . قادة الفتح . ١ / ٥٤ ـ ٧٤

٥ ـ تاريخ خليفة ١ / ٢٣٤ ـ ٢٣٨ . ابن عبد الحكم ١٨٠ ـ ١٨٣ . البلاذري ٢٢٧ ـ ٢٣١ .

الكندي ١٤ ـ ٣٤ . رياض النفوس : ١ / ٢٨ ـ ٣٢ . البيان المغرب ١ / ١٠ ـ ١٣ تاريخ المغرب العربي ١٢ ـ ١٢٤ . المغرب عبر التاريخ ٩٢ ـ ٩٣

٦ ـ تاريخ خليفة ١ / ٢٤١ ـ ٢٤٤ . الطبري . ٥ / ٢٢٩ . البلاذري ٢٢٩ . ابن عبد الحكم . ١٩٢ ـ ١٩٤ . ابو العرب ٧١ ـ ٧٢ . رياض النفوس ١ / ٣٠ . الاستقصاء ١ / ٧٥ ـ ٧٨ البيان المغرب ١ / ١٠ ـ ١٥ . رحلة التجاني ٦٥ ـ ٦٨ تاريخ المغرب العربي ١٢١ ـ ١٣٢ . المغرب عبر التاريخ ٩٣ ـ ١٩٤ . قادة الفتح ١ / ٧٥ ـ ٨٩ .

٧ ـ تاريخ خليفة . ١ / ٢٤٧ ـ ٢٦٦ . الطبري ٥ / ٢٤٠ . ابن عبد الحكم . ١٩٤ ـ ١٩٦ . أبو العرب ٥٦ ـ ٥٩ . البلاذري ٢٣٠ . الرقيق : ٧ . رياض النفوس ١ / ٣١ ـ ٣٣ . الاستقصاء : ١ / ٧٨ ـ ٨١ . البيان المغرب . ١ / ١٣ ـ ١٦ . تاريخ المغرب العربي : ١٤٢ ـ ١٥٠ . المغرب عبر التاريخ . ٩٤ . قادة الفتح : ١ / ٩٠ ـ ١٠٦ .

٨ ـ تاريخ خليفة ١ / ٢٦٩ ـ ٢٧٢ . الطبري ٥ / ٢٤٠ . البلاذري : ٢٣٠ . ابن عبد الحكم . ١٩٧ ـ ١٩٨ . أبو العرب : ٥٧ . الكندي : ٣٨ ـ ٤٠ . رياض النفوس . ٣٣ . البيان المغرب : ١٠ / ١٧ . الاستقصا . ١ / ٨٠ ـ ٨١ تاريخ المغرب العربي ١٤٩ ـ ١٥٢ . المغرب عبر التاريخ ٩٤

٩ ـ أبو العرب . ٥٦ ـ ٦٤ . الرقيق . ٧ ـ ١٧ البلاذري ٢٣٠ ابن عبد الحكم ١٩٤ ـ ١٩٩ . رياض النفوس ١ / ٣٣ ـ ٤٤ . البيان المغرب ١ / ١٧ / ١٩ . الاستقصا ١ / ٨١ ـ ٨٤ . تاريخ المغرب العربي . ١٥٣ ـ ١٦٩ . المغرب عبر التاريخ ٩٥ ـ ٩٦ . قادة الفتح . ١ / ٩٧ ـ ١٣٦ .

١٠ ـ ابن عبد الحكم ٢٠٠ . البلاذري ٢٣٠ ـ ٢٣١ . الرقيق ١٧ ـ ٢٢ رياض النفوس : ١ / ٤٦ ـ ٤٨ . البيان المغرب ١ / ٢٠ ـ ٢٤. تاريخ المغرب العربي ١٧٢ ـ ١٧٩ . المغرب عبر التاريخ : ٩٦ قادة الفتح ١٥٠ ـ ١٧٠ .

١١ ـ تاريخ خليفة ١ / ٣٤٠ ـ ٣٤٥ ، ٣٩٢ . أبو العرب : ٨١ ـ ٨٢ البلاذري ٢٣١ ابن عبد الحكم : ٢٠٣ . الرقيق . ٢٣ ـ ٣٧ . رياض النفوس . ١ / ٤٨ ـ ٥٧ . البيان المغرب ١ / ٢٢ ـ ٣١ . الاستقصا . ١ / ٩٢ ـ ٩٥ . تاريخ المغرب العربي ٢٠٦ ـ ٢١٧ المغرب عبر التاريخ . ٩٧ ـ ٩٩ . قادة الفتح : ١ / ٢٢١ ـ ٢٤٠ .

١٢ ـ تاريخ خليفة . ١ / ٣٩٢ ، ٣٩٧ ، ٤٠٠ . البلاذري ٢٢٩ ـ ٢٣٢ ابن عبد الحكم ٢٠٣ ـ ٢٠٤ . الرقيق . ٣٨ ـ ٣٠ . البيان المغرب ١ / ٣٢ ـ ٤٣ الاستقصا ١ / ٩٥ ـ ٩٧ . تاريخ المغرب العربي : ٢٠٦ ـ ٢١٧ . المغرب عبر التاريخ ٩٧ ـ ٩٩ قادة الفتح . ١ / ٢٢١ ـ ٢٤٠ .

١٣ ـ ط . دار رياض الريس ـ لندن ١٩٩١ .

١٤ ـ ابن عبد الحكم . ٢٠٤ ـ ٢١١ . تاريخ خليفة ١ / ٤٠٤ ـ ٤٠٩ . الطبري ٦ / ٤٦٨ ـ ٤٨١ . الاغاني ١٧ / ٣٠٤ . ابن القوطية . ٢٨ ـ ٣٧ . أخبار مجموعة . ٢ ـ ١٩ . الرقيق . ٤١ ـ ٥٧ . البلاذري ٢٣٢ . سراج الملوك ٥٠٦ ـ ٥٠٧ . ابن عساكر ١٧ / ٢٠٥ و ـ ٢٠٨ و . المعجب ٩ ـ ١٢ . جذوة المقتبس . ٤ ـ ٦ . ابن الكردبوس ٤٢ ـ ٥٢ . ابن الشباط . ١٣١ ـ ١٣٥ . ذكر بلاد الاندلس ٤٤ ـ و . ظ البيان المغرب ١ / ٣٦ ـ ٤٣ ، ٢ / ٥ ـ ٢٩ . ابن خلدون . ٦ / ٢٢٠ . نفح الطيب . ١ / ٢١٤ ـ ٢٥٩ الاستقصاء ١ / ٩٦ ـ ١٠٠ب . رينو . ٣٩ ـ ٤٤ . ارسلان ٢٨ ـ ٤٧ . جوليان ١ / ٣٢١ ـ ٣٢٣ . دوزي ١٣١ ـ ١٣٤ . تاريخ المغرب العربي : ٢١٤ ـ ٢٢٧

١٥ ـ ابن عبد الحكم ٢١١ ـ ٢١٥ . تاريخ خليفة : ١ / ٤٣٠ . العذري : ٤ ـ ٧ ابن القوطية ٣٧ ـ ٣٨ . أخبار مجموعة . ١٩ ـ ٢٢ . الرقيق ٥٨ ـ ٦١ . البيان المغرب : ٢ / ٣٠ ـ ٣٢ . المعجب : ١٢ ـ ١٣ جذوة المقتبس ٦ . ذكر بلاد الأندلس ٤٤ ـ ظ الاستقصا ١ / ١٠٠ . أرسلان ٤٧ . رينو : ٤٤ . المسلمون في أوروبا ٩٤ ـ ١٠١ . تاريخ المغرب العربي ٢٣٠ ـ ٢٣١ .

١٦ ـ ابن عبد الحكم ١٢٦ ـ ٢١٧ . ابن القوطية : ٣٩ . أخبار مجموعة ٢٢ ـ ٢٥ . البيان المغرب ٢ / ٣٣ ـ ٣٥ . المقري . ١ / ٢٢٠ . الاستقصا ١ / ١٠٥ رينو ٥٠ ـ ٧٢ . أرسلان : ٧١ ـ ١٠٤ . طرخان ١٠٢ ـ ١١٦ الحجي : ١٨٥ ـ ٢٠٣ .

١٧ ـ أخبار مجموعة . ٣٠ ـ ٦٧ . ابن القوطية : ٣٨ ـ ٤٦ . ابن عبد الحكم . ٢١٦ ـ ٢٢٥ . الرقيق ـ ط . أولى ـ ١٠٤ ـ ١٢٢ . البلاذري ٢٣٣ . البيان المغرب . ١ / ٤٨ ـ ٦٤ ، ٢ / ٣٩ ـ ٥٥ . نفح الطيب ١ / ٢٢٠ ـ ٢٢٣ . الاستقصا ١ / ١١٨ . رينو . ٧٢ ـ ٨٥ . دوزي : ١٣٨ ـ ١٧٦ . أرسلان ٧١ ـ ١١٣ . الحجي . ٢٠٣ ـ ٢٠٦

١٨ ـ ابن القوطية . ٤٥ ـ ٦٥ العذري . ١ ، ٢٥ ـ ٢٦ ، ١٠١ ، ١١٧ ـ ١٢٠ . اخبار مجموعة : ٤٦ ـ ١٢١ . ابن الابار : ١ / ٣٥ ـ ٤٢ . الرقيق : ١٢٣ ـ ١٤٨ . البيان المغرب ١ / ٦٥ ـ ٧٨ ، ٢ / ٥٦ ـ ٩٠ . جذوة المقتبس . ٩ ـ ١٠ . ذكر بلاد الاندلس ٤٥ . و ـ ٤٩ . و . ابن الكردبوس : ٥٥ ـ ٥٧ . الاستقصا : ١ / ١١٩ . المعجب :

١٦ ـ ١٨ . نفح الطيب ٠ ١ / ٣٠٦ ـ ٣١٣ . دوزي ١٦٨ ـ ٢٣٦ ارسلان ٠ ١٢٠ ـ ١٢٣ .
ريذو ٠ ٨٦ ـ ١٠٧ . طرخان : ١٢٠ ـ ١٣٨ .

١٩ ـ ابن القوطية . ٦٤ ـ ٦٧ . اخبار مجموعة ١٢٠ ـ ١٢٤ . العـذري ٠ ٢٦ ، ٩٠ ، ٩١ ، ١٠١ ، ١٥٣ ، ١٧١ . البيان المغـرب ٢ / ٩١ ـ ١٠١ جـذوة المقتبس ١١ . ابـن الابـار ١ / ٤٢ ـ ٤٣ . المعجـب ١٩ . نفـح الطيب . ١ / ٣١٣ ـ ٣١٧ . ارسـلان ٠ ١٢٦ ـ ١٢٩ .
ريذو . ١٠٨ ـ ١١٤ . طرخان ١٣٩ ـ ١٤١ .

٢٠ ـ ابن القـوطية ٠ ٦٧ ـ ٨٠ . اخبـار مجمـوعة ٠ ١٢٤ ـ ١٣٥ . العـــذري . ٢٧ ، ٩٣ ، ١٠٩ ـ ١١١ . جذوة المقتبس ٠ ١١ ابن الابـار ٠ ١ / ٤٣ ـ ٥٠ المعجـب ٠ ١٩ ـ ٢٢ نفـح الطيب ٠ ٣١٧ ـ ٣٢٢ . البيان المغـرب ٠ ٢ / ١٠٢ ـ ١٢٠ ارسـلان ١٣٢ ـ ١٤٦ . ريذو ١١٥ ـ ١٣٢ .

٢١ ـ ابن القوطية : ٨٠ ـ ٩١ . اخبـار مجمـوعة ٠ ١٣٥ ـ ١٤١ المقتبس ٠ ١٦٣ ـ ٢٢٩ .
العـذري : ٥ ـ ٦ ، ٢٩ ـ ٣٠ ، ٩٣ ، ٩٨ ـ ١٠٠ جـذوة المقتبس ٠ ١١ . البيان المغـــرب ٠ ٢ / ١٢١ ـ ١٤٠ ابن الابار . ١ / ١١٣ ـ ١١٩ . نفح الطيب ١ / ٣٢٢ ـ ٣٢٨ ارسلان .
١٣٩ ـ ١٥٩ ريذو . ١٣١ ـ ١٣٨ .

٢٢ ـ ابن القوطية ٠ ٩٦ ـ ١٣٣ . اخبـار مجمـوعة . ١٤١ ـ ١٥٣ . العـذري . ٢٧ ـ ٣٩ ، ٤١ ـ ٤٩ ـ ٥٣ ـ ٦٥ . جذوة المقتبس ١١ ـ ١٢ . وصلنا جزء مـن المقتبس لابـن حيان عن عهد الامير عبد الله نشر في فـرنسا ثـم أعيد نشره في الدار البيضـاء . ١٩٩ . البيان المغـــرب ٠ ٢ / ١٤١ ـ ٢٣٤ . ابن الابار : ١ / ١١٩ ـ ١٣٤ . نفح الطيب ١ / ٣٢٨ ـ ٣٢٩ . ارسلان ٠ ١٥٦ ـ ١٦٧ .

٢٣ ـ ريذو : ١٤٥ ـ ١٩٩ ارسلان ٠ ١٦٠ ـ ٢٠٣ . طرخان ١٥٢ ـ ١٥٨ .

٢٤ ـ خير التفاصيل عن الشطر الأكبر من عهد عبد الرحمن الناصر في الجـزء الخـامس مـن المقتبس لابن حيان ـ ط . مدريد ١٩٧٩ . اخبـار مجمـوعة ٠ ١٥٣ ـ ١٦٥ . البيان المغـرب ٢ / ٢٣٤ ـ ٣٤٧ . العـــــــــــذري ٩ ـ ١٥ ، ٣٩ ـ ٤٥ ، ٦٧ ـ ٨٦ ـ ١٠٦ ، ١١٢ ، ١٢٢ ـ ١٢٤ ، ١٧٥ . البكري . ٧٢ . ابن الابـار ٠ ١ / ١٩٧ ـ ٢٠٠ . جـذوة المقتبس ٠ ١٣ .
نفح الطيب . ١ / ٣٣٠ ـ ٣٥٨ . ارسلان ٠ ١٦٨ ـ ١٨٢ . مدخل إلى تاريخ الحروب الصـليبية ٣٢١ ـ ٣٤٤

٢٥ ـ العـذري . ١٠٦ ، ١٢١ ، ١٢٣ . ابـن حيان ط . بيروت ١٩٦٥ ١٩ ـ ٢٤٣ جـذوة المقتبس ١٣ ـ ١٧ . البيان المغرب . ٢ / ٣٤٨ ـ ٣٧٦ . الحلة السـيراء ١ / ٢٠٠ ـ ٢٠٦ .
نفح الطيب : ١ / ٣٥٨ ـ ٣٧٢ . ارسلان ١٨٢ ـ ١٨٥ .

٢٦ ـ لسان الدين ابن الخطيب ـ أعمال الاعلام . ١ / ١٤٤ .
٢٧ ـ المعجب ٠ ١٠١ ـ ١٠٢ .
٢٨ ـ الذخيرة لابن بسام ٠ ق ٤ م ١ ص ١٤٧ ـ ١٤٩ .
٢٩ ـ الحلة السـيراء . ٢ / ٥٤ ـ ٧٠ . المعجـب . ٧٠ ـ ١٤٦ . دوزي ـ دول الطـــوائف . ٦ ـ ٣٨ . الحجي ٠ ٣٢٣ ـ ٣٩١ .

الفصل الثاني

١ ــ ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض ــ نشر دار الحياة بيروت ج ٤ ص ٧٠٢ .
٢ ــ بيوتات فاس الكبرى ــ ط الرباط ١٩٧٢ ص ٤٤ ــ ٤٥ .
٣ ــ المدارك ج ٤ ص ٧٠٦ . مجلة البينة ــ العدد الثالث ــ الرباط تموز ١٩٦٢ ص ٦٧ « بحث عبد القادر رزمامة عن أبي عمران الغفجومي »
٤ ــ مجلة البينة . البحث نفسه ص ٦٧ ومن أجل أوضاع فاس في أيام أبي عمران انظر الأنيس المطرب في روض القرطاس » المنسوب لابن أبي زرع . ط الرباط ١٩٧٣ ص ١٠٢ ــ ١١٨
٥ ــ اهتم بهذا الموضوع عدد كبير من المؤرخين العرب المتقدمين وكان مدار أبحاث عدد كبير من المستشرقين والعرب في عصرنا ، انظر من ذلك تاريخ ابن خلدون ــ ط . بيروت ١٩٥٨ ج ٤ ص ١٣٠ ــ ١٣٢ لسان الدين ابن الخطيب ــ أعمال الاعلام (نشر القسم الثالث منه باسم تاريخ المغرب في العصر الوسيط ــ الدار البيضاء ١٩٦٤) ص ٧٢ ــ ٧٦ عبد الواحد المراكشي ــ المغرب في تلخيص أخبار المغرب . ط . القاهرة ١٩٤٩ ص ٢٢٤ ــ ٢٢٥ ابن ميسر ــ أخبار مصر ــ ط . القاهرة ١٩٨١ ص ١٧ ابن عذاري ــ البيان المغرب ــ ط . بيروت ١٩٨٠ ج ١ ص ٢٧٣ ــ ٣٧٤ ــ ٣٨٠ . حسن حسني عبد الوهاب ــ خلاصته تاريخ تونس ــ ط . تونس ١٩٦٨ ص ١١١ ــ ١١٣ شارل أندي جوليان ــ تاريخ افريقيا الشمالية ــ ترجمة عربية ــ ط . تونس ١٩٧٨ ج ٢ ص ٩٠ ــ ٩٩ . عفيفي محمود ابراهيم ــ بنو زيري وعلاقتهم السياسية بالقوى الاسلامية في حوض البحر المتوسط ط القاهرة ١٩٨٩ ص ٨١ ــ ٨٥ .

٦ ــ روض القرطاس ص ١٢٢ ــ ١٢٣ .
٧ ــ بيوتات فاس الكبرى ص ٤٥.
٨ ــ بيوتات فاس ص ٢٧ ــ ٢٨
٩ ــ مجهول الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ــ ط الدار البيضاء ١٩٧٨ ص ٢٣ .
١٠ ــ البكري ص ١٦٤ ــ ١٦٦ .
١١ ــ نهاية الأرب ج ٢٤ ، ط القاهرة ١٩٨٣ ص ٢٥٣ ــ ٢٥٩
١٢ ــ الكامل لابن الأثير ــ ط . القاهرة (مطبعة الاستقامة) ج ٨ ص ٧٤ .
١٣ ــ الكامل ج ٨ ص ٧٥ .
١٤ ــ التشوف إلى رجال التصوف التادلي ــ ط . الرباط ١٩٥٨ ص ٦٦ .
١٥ ــ بيوتات فاس ص ٢٨ .
١٦ ــ روض القرطاس ص ١٢٢ .
١٧ ــ روض القرطاس ص ١٢٤
١٨ ــ روض القرطاس ص ١٢٤ .
١٩ ــ روض القرطاس ص ١٢٢
٢٠ ــ روض القرطاس ص ١٢٤ ــ ١٢٥ .
٢١ ــ سورة آل عمران ــ الآية : ١٩٩ .
٢٢ ــ في كتاب رياض النفوس للمالكي مادة ممتازة حول الحياة في الاربطة أحسن استغلالها وعرضها المرحوم حسن حسني عبد الوهاب في كتابه أوراق .

٢٣ ـ ابن خلدون ج ٦ ص ٣٧٤
٢٤ ـ روض القرطاس ص ١٢٥ ـ ١٢٦
٢٥ ـ روض القرطاس ص ١٢٦
٢٦ ـ روض القرطاس ص ١٢٦ .
٢٧ ـ انظر محمد عبد الهادي شعيرة ـ المرابطون ـ ط القاهرة ١٩٦٩ ص ١٥ ـ ١٦ الحبيب الجنحاني ـ المغرب الاسلامي ـ الحياة الاقتصادية والاجتماعية ـ ط تونس ١٩٧٨ ص ١٤٣ ـ ٢١٧ .
٢٨ ـ الشريف الادريسي ـ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ـ ط . القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية ج ١ ص ٢٢٣ . البكري ص ١٦٤ . الحلل الموشية ص ١٧ . ابن خلدون ج ٦ ص ٣٧٠ ـ ٣٧١ . الاستقصا للناصري ج ٢ ص ٣ . عبد الوهاب بن منصور ـ قبائل المغرب ، ط . الرباط ١٩٦٨ ص ٣٢٨ ـ ٣٣٥
٢٩ ـ نزهة المشتاق ج ١ ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ .
٣٠ ـ البكري ص ١٦٤ ـ ١٦٦ .
٣١ ـ أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري ـ كتاب الجعرافية(نشر في دورية المعهد الفرنسي بدمشق العدد ٢١ سنة ١٩٦٨) ص ١٨٩
٣٢ ـ من المفيد العودة إلى دراسة ماك كول حول « الروايات التاريخية عن تاسيس سجلماسة وغانة » ترجمة عربية ، ط الدار البيضاء ١٣٩٥ هـ . المغرب العربي للحبيب الجنحاني ـ ص ١٤٣ ـ ١٩٠
٣٣ ـ المغرب العربي الجنحاني ص ١٩٣ ـ ١٩٤ .
٣٤ ـ الادريسي ص ٢٢٦ . عصمت عبد اللطيف دندش ـ دور المرابطين في نشر الاسلام في غرب أفريقيا ـ ط . بيروت ١٩٨٨ ص ٣٢ ـ ٣٦ .
٣٥ ـ روض القرطاس ص ١٢٦
٣٦ ـ روض القرطاس ص ١٢٦ اعمال الاعلام ص ٢٢٨ .
٣٧ ـ البكري ص ١٦٦ ـ ١٦٧ .
٣٨ ـ روض القرطاس ص ١٢٧ .
٣٩ ـ البكري ص ١٩٦٨ الجنحاني ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ روض القرطاس ص ١٢٧ .
٤٠ ـ روض القرطاس ص ١٢٧ ـ ١٢٨ اعمال الاعلام ص ٢٢٩ . البكري ص ١٦٧ البيان المغرب ج ٤ ص ١٣ . ابن الاثير ج ٨ ص ٧٥ . نهاية الارب ج ٢٤ ص ١٣ . ابن الاثير ج ٨ ص ٧٥ . نهاية الارب ج ٤ ص ٢٦٠ الحلل الموشية ص ٢٢ . بيوتات فاس الكبرى ص ٢٩ . ابن خلدون ج ٦ ص ٣٧٥ .
٤١ ـ البكري ص ١٦٧ .
٤٢ ـ النويري ج ٢٤ ص ٢٦١ . البكري ١٦٧
٤٣ ـ البكري ص ١٦٧ ـ ١٦٨ .
٤٤ ـ صالح بن قربة ـ المسكوكات المغربية من الفتح الاسلامي إلى سقوط دولة بني حماد ـ ط . الجزائر ١٩٨٦ ص ٥٣٥ ـ ٥٣٨ .
٤٥ ـ نهاية الأرب ج ٢٤ ص ٢٦١ • المسكوكات المغربية ص ٥٣٧ •
٤٦ ـ نهاية الارب ج ٢٤ ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠ .
٤٧ ـ البكري ص ١٧٠ . روض القرطاس ص ١٣٤ . بيوتات فاس الكبرى ص ٢٩ . النويري ج ٢٤ ص ٢٥٩ ـ ٢٦١ اعمال الاعلام ص ٢٣٢ . ابن خلدون ج ٦ ص ٣٧٦ ـ ٣٧٧ البيان المغرب ج ٤ ص ١٦ ـ الحلل الموشية ص ٢٣ . الاستقصاء ج ٢ ص ١٤ ـ ٢١ . قبائل المغرب ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣ .
محمود اسماعيل ـ مغربيات ـ ط . فاس ١٩٧٧ ص ١٥ ـ ٥٤ . رجب محمد عبد

الحليم ـ دولة بني صالح في تامسنا ـ ط . القاهرة ١٩٩١ ص ١٠٠ ـ ١٠١ . محمد عبد الهادي شعيرة ـ المرابطون ـ ط . القاهرة ١٩٦٩ ص ٦٤ ـ ٦٥ بندش ص ٨٨ ـ ١٠٣ . جوليان ج ٢ ص ١٠٦ ـ ١٠٨ .

٤٨ ـ روض القرطاس س ص ١٣٥ .

٤٩ ـ روض القرطاس ص ١٣٥ . ابن عذاري ح ٤ ص ٢٣ ـ ٢٤ . الحلل الموشية ص ٢٥ .

٥٠ ـ روض القرطاس ص ١٣٥ . ابن خلدون ج ٦ ص ٣٧٧ . أعمال الأعلام ص ٢٣٣ . الاستقصا ج ٢ ص ٢٢ . العباس بن ابراهيم ـ الاعلام بمن حل مراكش وأغمات من الاعلام ـ ط . الرباط ١٩٧٤ ج ١ ص ٢٠٤ .

٥١ ـ المسكوكات المغربية ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨ . قبر أبي بكر بن عمر في منطقة تكانت في ولاية تجكجا التي كانت تعرف باسم الولاية التاسعة في موريتانيا .

٥٢ ـ الكامل لابن الاثير ج ٨ ص ٧٦ . نهاية الأرب ج ٢٤ ص ٢٦١

الفصل الثالث

١ ـ نزهة المشتاق ج ١ ص ٢٢٥ . روض القرطاس ص ١٣٦ . الحلل الموشية ص ص ٢٤ .
٢ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان ـ ط . القاهرة . ١٣١ ه ج ٢ ص ٣٦٥ .
٣ ـ الزهري ـ الجعرافية ص ١٩١ ـ ١٩٢ .
٤ ـ الحلل الموشية ص ١٥ ـ ١٦ .
٥ ـ الحلل الموشية ص ١٦ ـ ٢٣ .
٦ ـ روض القرطاس ١٣٨ ـ ١٣٩ .
٧ ـ مراكش من التاسيس إلى لخر العصر الموحدي ـ من منشورات جامعة القاضي عياض ـ ط . الدار البيضاء ص ١٥ ـ ١٩ (بحث الدكتور احمد التوفيق) وص ٢١ ـ ٢٥ (بحث ليفي بروفنسال) وص ٧١ (بحث الدكتور الكريم الصوصي مولاي ابراهيم) .
٨ ـ وفيات الأعيان ح ٢ ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦ .
٩ ـ مراكش من التاسيس إلى لخر العصر الموحدي ص ٧٢ ـ ٧٣ .
١٠ ـ وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٧٠ . مراكش ص ٧٢ .
١١ ـ وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٦٥ .
١٢ ـ تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٤٣٤ .
١٣ ـ وصف إفريقيا اليون الافريقي ـ ترجمة عربية ـ ط . الرياض ١٣٩٩ ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ .
١٤ ـ البيان المغرب ٤٠ ص ٢٨ . الحلل الموشية ص ٢٨ .
١٥ ـ البكري ص ١٤١ .
١٦ ـ روض القرطاس ص ١٤١ .
١٧ ـ روض القرطاس ص ١٣٨ ـ ١٣٩ .
١٨ ـ الحلل الموشية ص ٢٥ .
١٩ ـ البيان المغرب ٤ ص ٢٩ ـ ٣٠ .
٢٠ ـ جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس لعلي الجزنائي ـ ط . الرباط ١٩٦٧ ص ٤٠ ـ ٤١ . روض القرطاس ص ١٤١ . الحلل الموشية ص ٢٨ . البيان المغرب ج ٤ ص ٢٨ . أعمال الأعلام ص ٢٣٥ . تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٣٧٩ . الاستقصا ح ٢ من ٢٧ ـ ٢٩ .
٢١ ـ روض القرطاس ص ١٤١ الجزنائي ص ٤١ .
٢٢ ـ الحلل الموشية ص ٢٨ ـ ٣٣ . روض القرطاس ص ١٤٠ ـ ١٤٣ . الاستقصا ح ٢ ص ٢٨ ـ ٣١ .
٢٣ ـ وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٦٦ .
٢٤ ـ روض القرطاس ص ١٤٢ .
٢٥ ـ الحلل الموشية ص ٢٩ . البيان المغرب ج ٤ ص ٢٧ ـ ٢٨ .
٢٦ ـ جذوة المقتبس للحميدي ـ ط . القاهرة ١٩٥٢ ص ٢٨ ـ ٢٩ ، ٧٣ .
٢٧ ـ الذخيرة لابن بسام ج ١ ، ط . القاهرة ١٩٣٠ ص ٤٢ .
٢٨ ـ أعمال الأعلام للسان الدين ابن الخطيب ح ١ ، ط . بيروت ١٩٥٦ ص ٥٩ .
٢٩ ـ ابن عذاري ـ البيان المغرب ـ ط . بيروت ١٩٨٠ ح ٢ ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨ .
٣٠ ـ ابن بسام ق ٤ ج ١ ، ط . القاهرة ١٩٤٥ ص ٤٠ .

٣١ ـ ابن عذاري ج ٢ ص ٢٥٧ ـ ٢٦٠ .
٣٢ ـ ابن عذاري ج ٢ ص ٢٦٥ .
٣٣ ـ أعمال الأعلام ج ١ ص ٥٨ ـ ٦٦ . وامتلك في مكتبتي على نسخة مصورة عن مخطوطة ذكر بلاد الاندلس .
٣٤ ـ البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨١ ـ ٢٨٣ .
٣٥ ـ أعمال الاعلام ج ١ ص ٦٥ .
٣٦ ـ البيان المغرب ج ٢ ص ١٨١ ـ ٢٨٦ .
٣٧ ـ مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس للفتح بن خاقان الاشبيلي ـ ط . بيروت ١٩٨٣ ص ٣٨٨ ـ ٣٨٩
٣٨ ـ مذكرات الأمير عبد الله ـ أو كتاب التبيان ـ ط القاهرة ١٩٥٥ ص ١٦ ـ ١٨ .
٣٩ ـ مذكرات الأمير عبد الله ص ١٨ .
٤٠ ـ أعمال الاعلام ج ١ ص ٨٠ ـ ٨١ البيان المغرب ٢ ص ٢٩٣ ، ٣٠١ .
٤١ ـ البيان المغرب ج ٣ ص ٣ .
٤٢ ـ البيان المغرب ج ٣ ص ٣ .
٤٣ ـ البيان المغرب ج ٣ ص ٣ .
٤٤ ـ البيان المغرب ج ٣ ص ٣٨ .
٤٥ ـ البيان المغرب ج ٣ ص ٣٨ .
٤٦ ـ البيان المغرب ج ٣ ص ٣٨ ـ ٣٩ .
٤٧ ـ البيان المغرب ج ٣ ب٣٨ ـ ٥٠ .
٤٨ ـ أعمال الاعلام ج ١ ص ١٤٥ ـ ٢٣٠ .
٤٩ ـ المعجب ص ٧٠ ـ ٧٥ ، ٩٢ ـ ٩٣ .
٥٠ ـ تاريخ الاندلس لابن الكردبوس ـ ط . مدريد ١٩٧١ ص ٧٤ ـ ٧٦ .
٥١ ـ ازهار البساتين في اخبار الاندلس على عهد المرابطين والموحدين تأليف جان دجيروم طارو ، ترجمة عربية ـ ط . الرباط ١٣٤٩ هـ . ص ٢٣ .
٥٢ ـ الفخري في الآداب السلطانية ـ ط . القاهرة ـ مطبعة محمد علي صبيح ـ ص ٦٥
٥٣ ـ مذكرات الأمير عبد الله ص ٧٣ .
٥٤ ـ مذكرات الأمير عبد الله ص ٧٣ .
٥٥ ـ مذكرات الأمير عبد الله ص ٧٣ .
٥٦ ـ مذكرات الأمير عبد الله ص ٧٥
٥٧ ـ ملوك الطوائف المستشرق دوزي ـ ترجمة عربية ـ ط . القاهرة (بلا تاريخ) ص ٥٠٦ ـ ٢٠٧ .
٥٨ ـ الذخيرة لابن بسام (ط . بيروت) ق ٤ . ج ١ ص ١٦٥
٥٩ ـ ملوك الطوائف ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ .
٦٠ ـ ابن الكردبوس ص ٨٧ ـ ٨٩ .
٦١ ـ ابن الكردبوس ص ٧٦ ـ ٧٨ .
٦٢ ـ ابن الكردبوس ص ٨٩ .
٦٣ ـ الحلل الموشية ص ٤١ ـ ٤٢ .
٦٤ ـ ابن الكردبوس ص ٨٩ .
٦٥ ـ الحلل الموشية ص ٣٣ .
٦٦ ـ مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠١ ـ ١٠٢ .
٦٧ ـ ابن الكردبوس ص ٨٩ ـ ٩٠ .
٦٨ ـ مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٢ .

٦٩ ـ الحلل الموشية ص ٤٢ ـ ٤٣ .
٧ ـ الحلل الموشية ص ٣٣
٧١ ـ الحلل الموشية ص ٣٨ .
٧٢ ـ الحلل الموشية ص ٤٩ ـ ٥٠ .
٧٣ ـ الحلل الموشية ص ٤٤ ـ ٤٥
٧٤ ـ الحلل الموشية ص ٥١ .
٧٥ ـ مذكرات الامير عبد الله ص ١٠٣ .
٧٦ ـ مذكرات الامير عبد الله ص ١٠٢
٧٧ ـ مذكرات الامير عبد الله ص ١٠٢ ـ ١٠٣
٧٨ ـ مذكرات الامير عبد الله ص ١٠٣ .
٧٩ ـ الحلل الموشية ص ٥١ .
٨٠ ـ لاتمتلك المملكة المغربية الآن أيا من الطرفين فهما موزعان بين انكلترا واسبانيا
٨١ ـ روض القرطاس ص ١٤٥ ـ ١٤٦
٨٢ ـ الحلل الموشية ص ٥١ ـ ٥٢
٨٣ ـ من مدن الثغر الادنى قريبة من ماردة   الروض المعطار
٨٤ ـ من مدن الثغر الاعلى
٨٥ ـ الحلل الموشية ص ٣٤ ـ ٣٥
٨٦ ـ مذكرات الامير عبد الله ص ١٠٤ .
٨٧ ـ مذكرات الامير عبد الله ص ١٠٤
٨٨ ـ الحلل الموشية ص ٥٦
٨٩ ـ مذكرات الامير عبد الله ص ١٠٤ ـ ١٠٥
٩٠ ـ مذكرات الامير عبد الله ص ١٠٥
٩١ ـ روض القرطاس ١٤٦ .
٩٢ ـ الحلل الموشية ص ٥٣ ـ ٥٤ .
٩٣ ـ الحلل الموشية ص ٥٧
٩٤ ـ الحلل الموشية ص ٥٩
٩٥ ـ الحلل الموشية ص ٥٩ ـ ٦٠ .
٩٦ ـ ابن الكردبوس ص ٩٤
٩٧ ـ مذكرات الامير عبد الله ص ١٠٦
٩٨ ـ مذكرات الامير عبد الله ص ١٠٦   روض القرطاس ص ١٤٦ ـ ١٤٩   الحلل الموشية ص ٦٠ ـ ٦٢   الروض المعطار « مادة زلاقه »
٩٩ ـ الذكري ص ١٦٦
١٠٠ ـ الحلل الموشية ص ٦١ ـ ٦٢
١٠١ ـ الروض المعطار، مادة زلاقة
١٠٢ ـ الحلل الموشية ص ٦٥ ـ ٦٦
١٠٣ ـ مذكرات الامير عبد اللهص ١٠٦ ـ ١٠٧
١٠٤ ـ الحلل الموشية ص ٦٦
١٠٥ ـ روض القرطاس ص ١٥١ ـ ١٥٢
١٠٦ ـ انظر الملاحق

الفصل الرابع

١ ـ مذكرات الامير عبد الله ص ١٠٧
٢ ـ الحلل الموشية ص ٦٧ .

٣ ـ الحلل الموشية ص ٦٧ .
٤ ـ الحلل الموشية ص ٦٧ .
د ـ الحلل الموشية ص ٦٧ .
٥ ـ روض القرطاس ص ١٥٢ .
٦ ـ الحلل الموشية ص ٦٧ ـ ٦٨ .
٧ ـ مذكرات الامير عبد الله ص ١٠٨ .
٨ ـ روض القرطاس ص ١٥٢ .
٩ ـ الحلل الموشية ص ٦٩ ـ ٧٠ .
١٠ ـ مذكرات الامير عبد الله ص ١٠٩ ـ ١١١ .
١١ ـ مذكرات الامير عبد الله ص ١١٦ ـ ١٢٩ .
١٢ ـ المعجب ص ١٣٨ ـ ١٣٩ .
١٣ ـ مذكرات الامير عبد الله ص ١٢٦ .
١٤ ـ مذكرات الامير عبد الله ص ١١٦ ـ ١٢١ .
١٥ ـ المؤنس في أخبار إفريقية وتونس لابن أبي دينار ـ ط . تونس ١٩٦٧ ص ١٠٨ .
١٦ ـ الحلل الموشية ص ٧١ .
١٧ ـ سورة الاسراء ـ الآية : ٨١ .
١٨ ـ سورة الاسراء ـ الاية : ٨١ .
١٩ ـ مذكرات الامير عبد الله ص ١٤٦ ـ ١٥٠ .
٢٠ ـ مذكرات الامير عبد الله ص ١٤٩ ـ ١٥٠ .
٢١ ـ مذكرات الامير عبد الله ص ١٥٠ ـ ١٦١ .
٢٢ ـ مذكرات الامير عبد الله ص ١٦٢ ـ ١٦٣ .
٢٣ ـ الحلل الموشية ص ٧١ ـ ٧٢ .
٢٤ ـ مذكرات الامير عبد الله ص ١٦٤ ـ ١٦٥ .
٢٥ ـ مذكرات الامير عبد الله ص ١٦٥ ـ ١٦٧ .
٢٦ ـ مذكرات الامير عبد الله ص ١٦٨ ـ ١٦٩ .
٢٧ ـ المعجب ص ١٣٩ .
٢٨ ـ مذكرات الامير عبد الله ص ١٦٩ .
٢٩ ـ مذكرات الامير عبد الله ص ١٦٩ ـ ١٧١ . المعجب ص ١٤٠ ـ ١٤٢ . الحلل الموشية ص ٧٢ ـ ٧٤ . روض القرطاس ص ١٥٤ ـ ١٥٥ . نهاية الارب ج ٢٤ ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ .
٣٠ ـ المعجب ص ١٤٣ ـ ١٤٤ .
٣١ ـ مذكرات الامير عبد الله ص ١٧١ .
٣٢ ـ ازهار البساتين ص ٧١ ـ ٧٢ .
٣٣ ـ مذكرات الامير عبد الله ص ١٦٧ ـ ١٦٨ .
٣٤ ـ روض القرطاس ص ١٥٥ ـ ١٥٦

٣٥ ـ مذكرات الامير عبد الله ص ١٧٢ .
٣٦ ـ مذكرات الامير عبد الله ص ١٧٣ .
٣٧ ـ مذكرات الامير عبد الله ص ١٧٣ ـ ١٧٤ .
٣٨ ـ مذكرات الامير عبد الله ص ١٧٥ .
٣٩ ـ الحلل الموشية ص ٧٥ ـ ٧٦ .
٤٠ ـ الحلل الموشية ص ٨١ ـ ٨٢ . وتم الاستيلاء على الثغر الاعلى من قبل المرابطين سنة ٥٠٣ هـ/ ١١٠٩ م ، بعد وفاة يوسف بن تاشفين وولاية ابنه علي بن يوسف ، وبذلك غدت ديار الاندلس كلها ولاية مغربية .
٤١ ـ الحلل الموشية ص ٧٧ ـ ٧٨ .
٤٢ ـ المعجب ص ١٦٣ ـ ١٦٤
٤٣ ـ المعجب ص ١٦٢ ـ ١٦٣ .
٤٤ ـ الحلل الموشية ص ٨١ ـ ٨٣ .
٤٥ ـ ازهار البساتين ص ٧٥ ـ ٧٦ .

الفصل الخامس

١ ـ انظر كتابي التاريخ عند العرب ـ ط . دمشق ١٩٧٤ ص ١٦٠ ـ ١٨٨

٢ ـ البحر المتوسط لاميل لودفيغ ـ ترجمة عربية ط . القاهرة ١٩٥٢ ص ٤٢٢ ـ ٤٢٤ .

٣ ـ ابن عذاري ج ١ ص ١٠٦١ . الدولة الاغلبية لمحمد الطالبي ـ ترجمة عربية ، ط ، بيروت ١٩٨٥ ص ٤٣٢ ـ ٤٢٥ . المسلمون في جزيرة صقلية لاحمد توفيق المدني ـ ط . الجزائر ١٣٦٥ ص ٥٢ ـ ٥٦ .

٤ ـ جمع المرحوم الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب مادة جيدة حول هذا الموضوع في كتابه أوراق فليراجع .

٥ ـ رياض النفوس للمالكي ـ ط . بيروت ١٩٨٣ ج ١ ص ٢٥٤ ـ ٢٧٣ المقفى المقريزي ـ ط . بيروت ١٩٩١ ج ٢ ص ٥٩ ـ ٦٢ البيان المغرب ح ١ ص ١٠٢ ـ ١٠٣ .

٦ ـ الكامل لابن الاثير ج ٥ ص ١٨٦ ـ ١٨٧ .

٧ ـ رياض النفوس ج ١ ص ٢٥٤ ـ ٢٧٣ . أعمال الاعلام ج ٣ ص ١٠٩ ـ ١١١ والمقفى للمقريزي ج ٢ ص ٥٩ ـ ٦٢ . البيان المغرب ج ١ ص ١٠٢ ـ ١٠٣ الكامل لابن الاثير ج ٥ ص ١٨٦ ـ ١٨٨ . المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا لاحمد توفيق المدني ص ٥٧ ـ ٦٣ . تاريخ صقلية الاسلامية لعزيز احمد ـ ترجمة عربية ، ط ليبيا ١٩٨٠ ص ١٣ ـ ١٥ . الدولة الاغلبية لمحمد الطالبي ـ ط . بيروت ١٩٨٥ ص ٤٣١ ـ ٤٦٧ .

٨ ـ المكتبة الصقلية ص ٤ ، ٢٥ ـ ٢٧ .

٩ ـ المكتبة الصقلية ص ٧٤ ـ ٧٥

١٠ ـ المكتبة الصقلية ص ٢٥ ـ ٧٤ .

١١ ـ أعمال الأعلام ح ٣ ص ١٠٩ ـ ١٢١ . المكتبة الصقلية ص ١٦٣ ـ ٥٤٥ المدني . ص ٦١ ـ ١٠٠ . عزيز أحمد ص ١٣ ـ ٣١ العرب في صقلية ص ٣١ ـ ٥٧ . تاريخ المسلمين في البحر المتوسط لحسين مؤنس ـ ط . القاهرة ١٩٩١ ص ٦٦ ـ ٧٦ . بيزنطة ومسلمو جنوب ايطاليا وصقلية لوديع فتحي عبد الله . ط . الاسكندرية ١٩٩٢ ص ٧ ـ ٢٨ . الدولة الاغلبية ص ٤٤٩ ـ ٥٩٩ .

١٢ ـ أضواء جديدة على المرابطين لعصمت عبد اللطيف دندش ـ ط . بيروت ١٩٩١ ص ١١ ـ ٣٦ .

١١ ـ أعمال الاعلام ج ٣ ص ١٢٣ .

١٤ ـ أعمال الاعلام ج ٣ ص ١٢٩ ـ ١٣٠ . المكتبة الصقلية ص ٤٧٩ ـ ٤٨٥ . المدني ص ١٢٣ ـ ١٦٤ . عزيز أحمد ص ٣٧ ـ ٤٨ العرب في صقلية ص ٤٤ ـ ٤٩

١٥ ـ المكتبة الصقلية ص ٢٥ ـ ٢٦ .

١٦ ـ القوى البحرية والتجارة في حوض البحر المتوسط لأرشيد بالد لويس ـ ترجمة عربية ، ط . القاهرة ص ٣٧٩ ـ ٣٨٠ .

١٧ ـ درس تاريخ جزر البليار بشكل جيد في كتاب جزر الاندلس المنسية للدكتور عصام سالم سيسالم ، ط . بيروت ١٩٨٤

١٨ ـ مقدمة ابن خلدون ص ٤٤٩ ـ ٤٥٠

١٩ ـ مقدمة ابن خلدون ص ٤٤٧ ـ ٤٥٠ .

٢٠ ـ الولاة والقضاة للكندي ـ ط . بيروت ١٩٠٨ ص ١٥٨ .

٢١ ـ الكندي ص ١٥٤ ـ ١٦٤ .

٢٢ ـ الكندي ص ١٦٥ ـ ١٧٢
٢٣ ـ كتابي تاريخ العرب والاسلام ـ ط بيروت ١٩٧٥ ص ٤٦٦ .
٢٤ ـ روض القرطاس ص ٤٧ .
٢٥ ـ الحلة السيراء ـ ط القاهرة ١٩٦٣ ج ١ ص ٤٥
٢٦ ـ الكندي ص ١٨٣ ـ ١٨٤ .
٢٧ ـ العرب والروم لفـازلييف ـ تـرجمة عربية ـ ط القـاهرة ص ٥٥ . الامبـراطورية البيزنطية وكريت الاسلامية لاسمت غنيم ـ ط جدة ١٩٧٧ ص ٤١ ـ ٤٢ .
٢٨ ـ العرب والروم ص ٧٥ غنيم ص ٤٣
٢٩ ـ العرب والروم ص ٥٨ . غنيم ص ٤٥ ـ ٤٦
٣٠ ـ فازلييف ص ٦٠ ـ ٦١ غنيم ص ٤٩ ـ ٥٧ .
٣١ ـ غنيم ص ١٩٤ ـ ٢٠٦ .
٣٢ ـ مقدمة ابن خلدون ص ٤٥٠ ـ ٤٥٤ .

حواشي الملاحق

١ ـ سورة محمد ـ الآية : ٣٥ .
٢ ـ عبد الرحمن بن عبد العزيز النصراني ، وتسمية المصادر المسيحية « كرستو بـولوص » .
٣ ـ كذا بالاصل ، والصحيح « عبد الله » .
٤ ـ زيد مابين الحاصرتين من نهاية الأرب للنويري ج ٢٤ ص ٢٥٧ .
٥ ـ انحنى أمامه مسلما عليه .
٦ ـ بداية سقط بالاصل ـ انظر اتعاظ الحنفا ج ٢ ص ١٩٩ .
٧ ـ التليس كيل للقمح يساوي ١٥٠ رطلا ، أو ثماني ويبيات .
٨ ـ أي المخازن .
٩ ـ ميخائيل الخامس (١٠٤١ ـ ١٠٤٢) .
١٠ ـ جاء بعد ميخائيل الخامس قسطنطين التـاسع (١٠٤٢ ـ ١٠٥٤) بعـد زواجـه مـن الامبراطورة العجوز زوي .
١١ ـ الجؤجؤ هو الصدر . القاموس .
١٢ ـ زيد ما بين الحاصرتين من اتعاظ الحنفا ج ٢ ص ٢٤٠
١٣ ـ زيد ما بين الحاصرتين من اتعاظ الحنفا ج ٢ ص ٢٤١ .
١٤ ـ من كتاب التشوف للتادلي ص ٦٦ ـ ٦٧ .
١٥ ـ نقلا عن كتاب الاسلام في المغرب والأندلس لليفي بروفنسال ص ١١٥ ـ ١١٨ .
١٦ ـ من كتاب رسائل اندلسية ص ٢٢٥ ـ ٢٤٣ ، والباجي هو أبو الوليد سليمان بن خلف (٤٠٣ ـ ٤٧٤ هـ) كان أعظم علماء المالكية في الاندلس ، وأعظمهم نتاجا في عصره ، له تـرجمة جيدة في تاريخ دمشق لابن عساكر .
١٧ ـ زيادة اقتضاها السياق .
١٨ ـ سورة فصلت ـ الآية : ٤٢ .
١٩ ـ سورة الاعراف ـ الآية : ٤٣ .
٢٠ ـ سورة آل عمران ـ الآية : ٥٨ .
٢١ ـ سورة المؤمنون ـ الآية : ٥١ .
٢٢ ـ سورة النساء ـ الآية : ١٦٥ .
٢٣ ـ سورة النساء ـ الآية : ١٥٧ .
٢٤ ـ سورة التوبة ـ الآية : ٣٣ .
٢٥ ـ سورة هود ـ الآية : ٨٨ .
سورة البقرة ـ الآية : ٢٠ .
٢٧ ـ سورة الأسراء ـ الآية : ٨٨ .
٢٨ ـ سورة الفرقان ـ الآية : ٢٧ .
٢٩ ـ سورة النبا ـ الآية . ٤٠ .
٣٠ ـ سورة هود ـ الآية . ١٨ .
٣١ ـ سورة آل عمران ـ الآية : ٦٤ .
٣٢ ـ سورة آل عمران ـ الآية : ٦١ .
٣٣ ـ سورة طه ـ الآية : ٤٧ .

٣٤ ـ من كتاب المجالس والمسايرات للقاضي النعمان ص ٤٤٢ ـ ٤٤٦ .
٣٥ ـ سورة الانفال ـ الآية ٥٨ .
٣٦ ـ سورة الحجرات ـ الآية ٣ .
٣٧ ـ سورة المائدة ـ الآية ٥٤ .
٣٨ ـ سورة آل عمران ـ الآية ١٦٦ .
٣٩ ـ سورة الانفال ـ الآية ٣٧ .
٤٠ ـ سورة العنكبوت ـ الآية ١١ .
٤١ ـ القطيعة عند المغاربة المال المفروض على العدو كل عام ، ويقابله في اصطلاح المشارقة « الهدنة » ، وكلاهما نوع من أنواع الجزية ضمنت بها المهادنة من المسلمين .
٤٢ ـ سورة التوبة ـ الآية ٥٢ .
٤٣ ـ من مدن الثغر الأدنى في غرب الأندلس ، قريبة من ماردة ـ الجغرافية لابن سعيد ص ١٧٩ الروض المعطار للحميري
٤٤ ـ من مدن قشتالة القديمة ، وكانت ضمن بلدان الثغر الأعلى
٤٥ ـ كانت العرب قبل الاسلام ترى أن الهامة طائر يخرج من رأس الميت ، وكانوا يقولون إن القتيل تخرج هامه من هامته ـ أي من رأسه ـ فلا تزال تقول : اسقوني ، اسقوني ، حتى يقتل قاتله
لسان العرب .
٤٦ ـ أي التمائم ـ ج تميمة ـ التي يكتبها الساحر ، ومنها جاء اسم العزام
٤٧ ـ سورة الحشر ـ الآية ١٤ .
٤٨ ـ سورة التوبة ـ الآية ٣٢ .
٤٩ ـ كان آل عباد من أسرة رفعت نسبها إلى المناذرة ملوك الحيرة ، الذين كانوا من أصل يماني ، ومعروف أن حمير التي نسب الملثمون أنفسهم إليها من أصل يماني ، وكانت دولة حمير آخر دولة حكمت اليمن قبيل ظهور الاسلام ، ولذلك قام ابن عباد بمخاطبة يوسف بن تاشفين هكذا .
٥٠ ـ سورة الفتح ـ الآية ١٦ .
٥١ ـ سورة التوبة ـ الآية ١٤ .
٥٢ ـ ديوان المتنبي ط . بيروت ١٩٢٦ ص . ٥
٥٣ ـ سورة الزمر ـ الآية ٦٩ .
٥٤ ـ انظر سورة المجادلة ـ الآيتان ١٢ ـ ١٣ .
٥٥ ـ الذماء بقية الروح .
٥٦ ـ سورة الأعراف ـ الآيتان ١٨٢ ـ ١٨٣ .
٥٧ ـ من كتاب صبح الأعشى للقلقشندي ج ١٠ ص ٣١ ، نقلا عن رسائل ابن موصلايا كاتب الخليفة القائم
٥٨ ـ سورة آل عمران ـ الآية . ١٠٢ .
٥٩ ـ سورة فصلت ـ الآية . ٤٢ .
٦٠ ـ سورة النساء ـ الآية . ١٠٣ .
٦١ ـ سورة التوبة ـ الآية ١٨ .
٦٢ ، سورة الجمعة ، الآية ٩٠ .
٦٣ ـ سورة التوبة ـ الآية . ١٠٣
٦٤ ـ سورة البقرة ـ الآية ٤٤ .
٦٥ ـ سورة آل عمران ـ الآية . ١٥٩ .
٦٦ ـ سورة النحل ـ الآية ٩٠ .

٦٧ ـ سورة آل عمران ـ الآية · ١١٠
٦٨ ـ سورة النساء ـ الآية ١٢٣ .
٦٩ ـ سورة النساء ـ الآية ٥٨ .
٩٦ ـ سور النساء ـ الآية · ٥٨ .
٧٠ ـ سورة البقرة ـ الآية : ٢٢٩ .
٧١ ـ سورة المائدة ـ الآية ٢ .
٧٢ ـ سورة المائدة ـ الآية · ٣٣ .
٧٣ ـ سورة الأنفال ـ الآية : ٦٠ .
٧٤ ـ سورة الاسراء ـ الآية . ٣٤ .
٧٥ ـ سورة المطففين ـ الآية .١
٧٦ ـ سورة الأنفال ـ الآية : ٤١ .
٧٧ ـ سورة ابراهيم ـ الآية ٧ .
٧٨ ـ نقلا عن مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم ١٠٢٠ .
٧٩ ـ سورة المائدة ـ الآية · ٣٢ .
٨٠ ـ كذا بالأصل ولا وجه لها .
٨١ ـ سورة آل عمران ـ الآية ١٧٣ .
٨٢ ـ سورة البقرة ـ الآية · ١٢٣ .
٨٣ ـ سورة النساء ـ الآية . ٥٩ .
٨٤ ـ سورة آل عمران ـ الآية . ٣٠ .
٨٥ ـ سورة الأحزاب ـ الآيتان : ٧٠ ـ ٧١ .
٨٦ ـ سورة النور ـ الآية : ٥٥ .
٨٧ ـ سورة النساء الآية : ٥٩ .
٨٨ ـ نقلا عن المخطوط الرباطي نفسه رقم ١٠٢٠ .
٨٩ ـ سورة الحجرات ـ الآية : ٩
٩٠ ـ سورة الانسان ـ الآية · ٢٠ .
٩١ ـ نقلا عن المخطوط الرباطي نفسه رقم ١٠٢٠.
٩٢ ـ سورة ص ـ الآية · ٢٦ .
٩٣ ـ سورة الحج ـ الآية . ٤١ .
٩٤ ـ سورة الأحزاب ـ الآية . ٧٢ .
٩٥ ـ سورة الاحزاب ـ الآية · ٧٢
٩٦ ـ سورة الذاريات ـ الآية : ٢٣ .
٩٧ ـ سورة المائدة ـ الآية · ٧٩ .
٩٨ ـ سورة الكهف ـ الآية . ٤٩ .
٩٩ ـ سورة الفرقان ـ الآية · ٧
١٠٠ ـ سورة الأحقاف ـ الآية · ٢٠ .
١٠١ ـ سورة طه ـ الآية : ١٣١ .
١٠٢ ـ سورة التوبة ـ الآية . ٦٠ .
١٠٣ ـ سورة مريم ـ الآية · ٤ .
١٠٤ ـ سورة القيامة ـ الآية · ٢٩ .
١٠٥ ـ سورة القيامة الآية ١٩ .
١٠٦ ـ سورة آل عمران ـ الآية · ١٦٩
١٠٧ ـ سورة التوبة ـ الآية : ١١١ ؤ

١٠٨ ـ سورة الصدف ـ الآية ١٠ .
١٠٩ ـ سورة الأحزاب ـ الآية . ٢٣ .
١١٠ ـ سورة التوبة ـ الآية · ٢٩ .
١١١ ـ سورة الأنعام ـ الآية ٥٤ .

جريدة بأهم المصادر والمراجع

- المصادر :

ابن الآبار : أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م) .

كتاب التكملة . القاهرة ١٩٥٦ م .

- الحلة السيراء ، جزءان ، تحقيق د . حسين مؤنس القاهرة ١٩٦٣ م .

- المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي . القاهرة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧ م .

ابن الأثير : أبو الحسن علي بن محمد الجزري (ت ٦٣٥ هـ / ١٢٣٣ م) .

- الكامل في التاريخ . بيروت ١٣٨٦ ه / ١٩٦٦ م .

- ابن الأحمر (اسماعيل) بيوتات فاس الكبرى - الرباط ١٩٧٢ .

ابن أبي أصيبعة :

- عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٢٠ ، ١٢٩٩ هـ/ ١٨٨٢ م .

الأصفهاني :

- خريدة القصر وجريدة العصر . قسم المغرب والأندلس . تحقيق محمد المرزوقي - محمد العمروسي المطوي - الجيلاني بن الحاج يحيى . تونس ١٩٧١ م .

اماري ميشيل :

- المكتبة العربية الصقلية ، ليبزغ ١٨٧٥ م .

البكري : عبد الله بن عبد العزيز المرسي (ت ٤٨٧ هـ / ١٠٨٤ م) .

- المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب (نشره دي سلان وهو مأخوذ من كتاب المسالك والممالك . الجزائر ١٩١١ م) .

ابن بسام : أبو الحسن الشنتريني (ت ٥٤٣ هـ / ١١٤٧ م) .
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة . تحقيق إحسان عباس . بيروت ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .
ابن بشكوال : أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت ٥٧٨ هـ/١١٨٣ م) .
- الصلة في تاريخ أئمة الأندلس ، الدار المصرية للتأليف والنشر ١٩٦٦ م .
البيذق : أبو بكر الصنهاجي (القرن السادس الهجري) .
- أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين . تصحيح وترجمة لافي بروفنسال باريس ١٩٢٨ م .
التطيلي .
- ديوان الأعمى التطيلي ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٣ م .
ابن تغري بردي .
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٣٥ م .
جان وجيروم طارو :
- أزهار البساتين في أخبار الأندلس والمغرب . ترجمة أحمد بلا فريج ومحمد الفاسي . الرباط ١٣٤٩ هـ .
ابن جبير : محمد بن أحمد الأندلسي (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) .
- رحلة ابن جبير . القاهرة ١٩٥٥ م .
الجزنائي : أبو الحسن علي .
- زهرة الآس في بناء مدينة فاس . نشر ألفريد بيل . الجزائر ١٩٢٣ م .
ابن الحداد الأندلسي .
- ديوان ابن الحداد الأندلسي . تحقيق يوسف علي طويل . بيروت ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م .
الحموي (ياقوت الحموي ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م) .

- معجم البلدان . دار صادر بيروت .
الحميدي · أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عيد الله (ت ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م) .
- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس . تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ، القاهرة ١٣٧٢هـ / ١٩٥٢ م .

الحميري : (عبد المنعم السبتي (توفي أواخر القرن التاسع الهجري) .
- الروض المعطار في أخبار الأقطار . تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٧٥ م .
- صفة جزيرة الأندلس ، تحقيق ليفي بروفنسال . القاهرة ١٩٦٢ م .
ابن حوقل .
- صورة الأرض ، ليدن ١٩٢٨ م .
ابن خاقان : أبو نصر الفتح محمد القيسي الاشبيلي (ت ٥٣٥ هـ / ١١٣٤ م) .
- قلائد العقيان في محاسن الأعيان . في طبعتين ، الطبعة الأولى صدرت بالقاهرة . ١٣٢هـ الطبعة الثانية تصحيح عبد سليمان الحرايري ١٢٧٧هـ .
ابن الخطيب : لسان الدين محمد بن عبد الله (ت ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م) .
- اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام . نشر منه الجزء الخاص بتاريخ الاندلس في بيروت ١٩٥٦ م ، تحقيق ليفي بروفنسال ، وبعنوان « تاريخ إسبانيا الاسلامية » . ونشر الجزء الخاص بتاريخ المغرب وصقلية ، في الدار البيضاء عام ١٩٦٤ م ، تحقيق أحمد مختار العبادي وإبراهيم الكتاني ، بعنوان « تاريخ المغرب في العصر الوسيط » .
- الاحاطة في أخبار غرناطة . حققه محمد عبد الله عنان . القاهرة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣ م .
- رقم الحلل في نظم الدول ، تونس ١٣١٧هـ .

ابن خفاجة . تحقيقي السيد مصطفى غازي ، الاسكندرية ١٩٦٠ م .
ابن خلدون : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) .
ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ١٠ ، ٤ ، ٦ ، طبعة بيروت ١٩٥٩ م ، ١٩٦١ م .
ابن خلكان : شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) .
ـ وفيات الأعيان وأنباء الزمان ، تحقيق محيي الدين عبد الحميد .
القاهرة ١٩٥٠ م ، طبعة أخرى تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٨ م .
ابن أبي دينار : محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني (أواخر القرن الحادي عشر الهجري) .
ـ المؤنس في أخبار افريقية وتونس ، تحقيق محمد شمام ، تونس ١٩٦٧ م .
ابن دراج القسطلي :
ـ ديوان ابن دراج القسطلي . نشر محمود مكي ، دمشق ١٩٦١ م .
ابن أبي زرع الفاسي :
ـ الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، الرباط ١٩٧٣ م .
الزجالي :
ـ أمثال العوام في الأندلس ، تحقيق محمد بن شريفة ، فاس المغرب ١٩٧١ .
الزركشي : أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللؤلؤي (القرن التاسع عشر) .
ـ تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق محمد ماضور ، تونس ١٩٦٦ م .

- ابن زيدان :
- العز والصولة في معالم نظام الدولة - نشر عبد الوهـاب بـن منصور . الرباط ١٩٦١ م .
الزيري : (الامير عبد الله بن بلقين الزيري) .
- مذكرات الأمير عبد الله ، المسماة بكتاب التبيان . تحقيق ليفي بروفنسال . مصر ١٩٥٥ م .
- رسائل أندلسية . تحقيق د . فوزي عيسى . كلية الآداب جامعة الاسكندرية ١٩٨٩ م .
- رسائل ومقامات أندلسية . تحقيق فوزي سعد عيسى .
ابن رشد :
- مسائل أبي الوليد بن رشد . تحقيق ودراسة محمد بن الحبيب التجكاني . لنيل درجة الماجستير . دار الحديث الحسنية . الربـاط مطبوعة على الآلة الكاتبة ١٩٧٧ م .
ابن رشد القرطبي :
- المقدمات الممهـدات . جـزان . تحقيق سـعيد أعراب. بيروت ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨ م .
ابن سعيد المغربي :
- بسط الأرض بـالطول والعـرض . تحقيق خـوان قـــرنيط خينيس . تطوان ١٩٥٨ م .
- المغرب في حلى المغرب . جزان ، القاهـرة ١٩٥٣ م .
السلاوي : أبو العبـاس أحمـــد بـــن خـــالد الناصري (ت ١٣٥١هـ / ١٨٩٧ م) .
- الاســـتقصا لأخبـــار دول المغـــــــرب الأقصى ، الدار البيضاء ١٩٥٤ م .
ابن صاحب الصلاة : عبد الملك (٥٩٤ هـ / ١١٠٢ م) .
- تاريخ المن بالامامة على المستضعفين ، السفر الثاني ، تحقيق عبد الهادي التازي .

الضبي : أبو جعفـــر أحمـــد بـــن يحيى القـــرطبي (ت ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م) .

- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس . دار الكاتب العربي ١٩٦٧ م .
الطرطوشي : أبو بكر (ت ٥٢٠ هـ/ ١١٣٥ م) .
- الحوادث والبدع . تحقيق محمد الطالبي . تونس ١٩٥٩ م .
- سراج الملوك . تحقيقي جعفر البياتي . لندن .
العاملي :
- الزهرات المنثورة في نكت الأخبار المأثورة . تحقيق محمود علي مكي ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤ م ، مصر الجديدة ، نوفمبر ١٩٧٨ م .
ابن عبد ربه :
- العقد الفريد . تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٩٥٣ م
ابن عبد الرفيع :
- معين الحكام على القضايا والأحكام . تحقيق محمد بن قاسم ابن عياد ، بيروت ١٩٨٨ م .
ابن عبدون : محمد بن أحمد التجيبي :
- ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب . تحقيق ليفي بروفنساك ، المعهد العلمي للآثار الشرقية القاهرة ١٩٥٥ م .
ط ابن عذاري : أبو العباس أحمد بن محمد (كان حيا ٧١٢ هـ/ ١٣١٢ م) .
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب . قطعة تتعلق بتاريخ المرابطين نشرها ويثي ميراندا في مجلسة هسبيرس ١٩٦١ م .
- البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب . القسم الثالث . عني بنشره امبروسي هويس مراندة ، محمد بن تاويت ، محمد إبراهيم الكتاني . تطوان ١٩٦٠ م .
ابن العربي : أبو بكر (ت بفاس ٥٤٣ هـ/ ١١٤٨ م) .
- العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي (ص) . تحقيق محب الدين الخطيب . القاهرة ١٣٧١ م .

الغنية . فهـرست شـيوخ القـاضي عياض ٤٧٦ ـ ٥٤٤هـ / ١٠٨٣ ـ ١١٤٩ م .
تحقيق مـاهر جـرار ، دار الغـرب الاسـلامي . بيروت ١٤١٢هـ / ١٩٨٢ م .
ابن قزمان : ديوان ابن قـزمان . فـ كور نيطـي ، المعهـد العربي للثقافة ، مدريد ١٩٨٠ م .
القرشي :
ـ معالم القربة في أحـكام الحسـبة . تحقيق محمـد محمـود شعبان ـ صديق حمـد ـ عيسى المطيعـي . الهيئة العـامة المصرية للكتاب سنة ١٩٧٦ م .
ابن القطان : أبو الحسـن علي بـن محمـد الكناني الفـاسي (ت ٦٣٨هـ / ١٢٣٠ م) .
ـ نظم الجمان في أخبـار الزمـان . تحقيق محمـود مـكي ، الرباط ١٩٦٤ م ، بيروت ١٩٩٠ م .
القفطي :
ـ أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، القاهرة ١٣٢٦ هـ
ابن القلانسي :
ـ تـاريخ دمشـق . تحقيق د . سـهيل زكار . دمشق ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ م .
ابن الكردبوس :
ـ كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء ـ القسم الخاص بالأندلس . نشر وتحقيق أحمد مختار العبادي ، مدريد ١٩٧١ م .
ليفي بروفنسال :
ـ مجموع رسائل موحدية مـن إنشـاء كتـاب الدولة المؤمنية . الرباط ١٩٤١ م .
الماوردي : أبو الحسن علي بـن محمـد البصري البغـدادي (٤٥٠ هـ/ ١٩٥٧ م) .
ـ الأحكام السلطانية والولايات الدينية . تصـحيح الغسـاني ، القاهرة ١٩٠٩ م .

- تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك ، تحقيق رضوان السيد ، بيروت ١٩٨٧ م .

المجيلدي :

- كتاب التيسير في أحكام التسعير . تحقيق موسى لقبال ، الجزائر ١٩٨٢ م .

المراكشي · ابن عبد الملك (ت ٧٠٣هـ / ١٣٠٤ م) .

- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة . السفرين الرابع والخامس . تحقيق الدكتور إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٤ م .

المراكشي · عبد الواحد (كان حيا في الربع الاول من القرن السادس الهجري / الثاني عشر ميلادي) .

- المعجب في تلخيص أخبار المغرب . تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، القاهرة ١٩٤٩ م .

مقديش : - نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار . تحقيق علي الزواوي . محمد محفوظ ، بيروت ١٩٨٨ م .

المقري · شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١هـ / ١٦٣١ م) .

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . بيروت .

- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ، تحقيق عبد السلام الهراس وسعيد أحمد أعراب . المحمدية ١٩٨٠ م .

المكناسي ·

- جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الاعلام بمدينة فاس . الرباط ١٩٧٣ م .

الملزوزي (عبد العزيز) نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك - الرباط ١٩٦٣

مؤلف مجهول

- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية . حققه د . سهيل زكار . أ . عبد القادر زمامة . الدار البيضاء ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩ م .

مؤلف مجهول :
- الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، الجزائر ١٩٢٠ م .
مؤلف مجهول .
- كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس . تحقيق أمبروزيو أويثي ميراندا ، مدريد ١٩٦٥ م.
مؤلف مجهول :
- مفاخر البربر . تحقيق ليفي بروفنسال ، الرباط ١٩٣٤ م .
النباهي :
- المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا . القاهرة .
النويري : شهاب (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) .
- نهاية الأرب في فنون الأدب . دار الكتب ، القاهرة .
الونشريسي .
- المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل افريقية والأندلس والمغرب . نشر وزارة الأوقاف . المملكة المغربية ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
- المراجع :
ابراهيم المفيفي محمود - بنوزيري وعلاقتهم السياسية بالقوى الاسلامية في حوض البحر المتوسط . القاهرة ١٩٨٩ .
أحمد أمين . ظهر الاسلام . القاهرة ١٩٥٣ م .
أرسلان (شكيب) الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، جزآن ، القاهرة ١٩٣٦ م .
تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزر البحر المتوسط . القاهرة (عيسى البابي الحلبي وشركاه)
ارشيبالد لويس . القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط .
ترجمة محمد أحمد عيسى .
أرنست كونل . الفن الاسلامي . ترجمة أحمد موسى ، بيروت ١٩٦٦ م .

اسرائيل ولفنسون . موسى بن ميمون . القاهرة ١٩٣٦ م .
اعراب (سعيد) مع القاضي أبي بكر بن العربي . بيروت ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .
اشباخ . تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين . جزآن ، ترجمة محمد عبد الله عنان . القاهرة ١٩٤٠ ـ ١٩٤١ م .
الأصيبعي . الشرطة في النظم الاسلامية والقوانين الوضعية . دراسة مقارنة بين الشريعة والقانون . طرابلس ١٣٩٩ هـ / ١٩٩٠ م .
البتنوني (محمد لبيب) رحلة الأندلس . ترجمة محمود عبد العزيز سالم ، القاهرة .
البعلي (فؤاد) فلسفة اخوان الصفا الاجتماعية والأخلاقية . بغداد ١٩٥٨ م .
بوز (فارس) الأوضاع الداخلية للأندلس وعلاقاتها بالمغرب في ظل المرابطين . رسالة ماجستير . دمشق .
التازي . التاريخ الدبلوماسي للمغرب . المجلد الخامس . جزآن ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧ م .
التليدي . المطرب في مشاهير أولياء المغرب ، طنجة ١٩٨٧ م .
الحجي . التاريخ الأندلسي من الفتح إلى سقوط غرناطة ، بيروت ١٩٧٦ م .
حسن إبراهيم حسن . تاريخ الاسلام السياسي ، ج ٤ القاهرة ١٩٦٧ م .
حسين . تاريخ المغرب والاندلس في عصر المرابطين دولة علي ابن يوسف المرابطي ، الاسكندرية ١٩٨٦ م .
حمادة . الوثائق السياسية والادارية ١٤٠٠هـ / ١٩٨١ .
دندش . أضواء جديدة على المرابطين ، بيروت ١٩٩١ م .
دندش . الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني . دار الغرب الاسلامي ، بيروت ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .

دوزي . ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الاسلام . ترجمة كامل الكيلاني ، القاهرة ١٣٤١ هـ/ ١٩٣٣ م .

ديورانت . قصة الحضارة ج ٤ . ترجمة محمد بدران ، القاهرة .

رينو (جوزيف) الفتوحات الاسلامية في فرنسا وايطاليا وسويسرا . بيروت ١٩٨٤ .

زغلول . محمد بن تومرت وحركة التجديد في المغرب والاندلس ، بيروت ١٩٧٣ م .

زكار ، التاريخ العباسي والاندلسي ، دمشق ١٤٠١هـ/ ١٩٨٢ م .

سالم (سحر عبد العزيز سالم) مدينة قادس ودورها في التاريخ السياسي والحضاري كلية الآداب جامعة الاسكندرية ١٩٩٠

سالم (عبد العزيز السيد سالم)محمد أبو الفضل . تاريخ مدينة المرية الأندلسية . الاسكندرية ١٩٨١ م .

شرارة (عبد اللطيف) أبو الوليد ابن زيدون ، بيروت ١٩٨٨ م .

الشكعة . الأدب الأندلسي . بيروت ١٩٧٢ م .

الشيخ (محمد محمد موسى) دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس حتى أواخر القرن العاشر الميلادي . الاسكندرية ١٩٩٠

طرخان المسلمون في أوروبا العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٦ م

العبادي . دراسات في تاريخ المغرب والأندلس . الاسكندرية ١٩٦٨ م .

العبادي .الصقالبة في إسبانيا ، مدريد ١٣٧٣ هـ/ ١٩٥٣ م .

العبادي . صور وبحوث من التاريخ الاسلامي ، القاهرة ١٩٥٣ م .

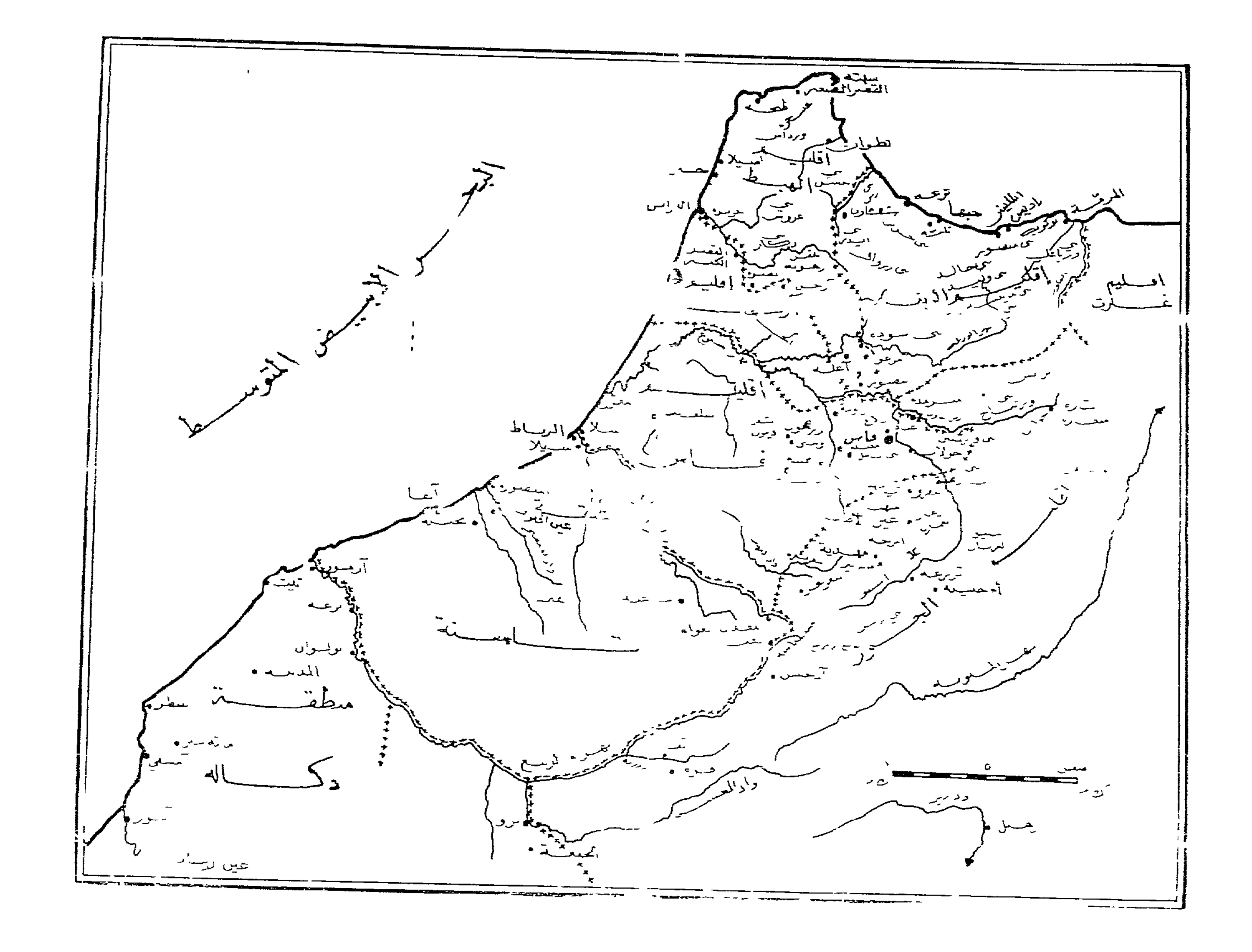
علام . دولة الموحدين بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي . القاهرة ١٩٧١ م .

عنان . أندلسيات . الكتاب العشرون ١٩٨٨ م .
عنان . عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ، وهو العصر الثالث مـــن كتـــاب دولة الاســـــلام في الاندلس ، القاهرة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٤ م .
عنان . نهـاية الأندلس وتـاريخ العـرب المتنصرين . العصر الرابـــع مـــن كتـــاب دولة الاســـــلام في الأندلس . القاهرة ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦ م .
غنيم (اســـمت) الامبراطـــــورية البيزنطية وكريت الاسلامية ـ جدة ١٩٧٧ .
فازلييف ـ العرب والروم . القاهرة (دار الفكر العربي) .
قربه (صالح بن) المسكوكات المغربية . الجزائر ١٩٨٦ .
كول (ماك) الروايات التـاريخية عن تـأسيس سـجلماسة وغانة . الدار البيضاء (دار الثقافة)
لقبال (موسى) الحسبة المذهبية في بلاد المغـرب . نشـأتها وتطورها . الجزائر ١٩٧١ .
محمود (حســن أحمـد محـــود) قيام دولة المرابـــطين . القاهرة ١٩٥٧ م .
محمـــود (منى حســن) المســلمون في الأندلس وعلاقتهـم بالفرنجة . القاهرة ١٩٨٦ .
مؤنس (حســين) تــاريخ الجغـــرافية والجغـــرافيين في الأندلس . القاهرة ١٩٨٦ م .

المحتوى

٣ ـ توطئة
٥ ـ الفصل الاول ـ المغرب والاندلس من الفتح حتى العصر المرابطي
٨ ـ فتح المغرب
٢١ ـ فتح الاندلس والتوسع في اوربة
٣٦ ـ عصر الولاة
٥٨ ـ عصر الامارة الاندلسية
٦١ ـ عبد الرحمن الداخل
٧٣ ـ هشام الرضا
٧٥ ـ الحكم الربضي
٨٠ ـ عبد الرحمن الثاني
٨٤ ـ من الامارة الى الخلافة
٩٥ ـ عبد الرحمن الثالث واعلان الخلافة
١٠٠ ـ الحكم الثاني
١٠٢ ـ هشام الثاني والاستبداد العامري
١٠٧ ـ الفصل الثاني ـ قيام حركة المرابطين
١٣٧ ـ الفصل الثالث ـ يوسف بن تاشفين وقيام دولة المرابطين بالمغرب والجوار الاول الى الاندلس
١٨٦ ـ الفصل الرابع ـ يوسف بن تاشفين وتوحيد الاندلس وازالة دولة الطوائف
٢٠٩ ـ الفصل الخامس ـ العرب والصراع للسيطرة على البحر المتوسط
٢٤٤ ـ ملاحق الكتاب
٢٤٦ ـ اسد بن الفرات
٢٤٩ ـ جرجي الانطاكي
٢٥٢ ـ جعفر بن محمد الكلبي
٢٥٥ ـ جعفر بن يوسف الكلبي (تاج الدولة)
٢٥٦ ـ جوهر الصقلي
٢٥٩ ـ الحسن بن علي ـ الوزير اليازوري
٢٩٥ ـ الحسن بن عمار الكلبي
٣٠١ ـ محمد بن حسن الكلبي
٣٠٢ ـ واجاج بن زلو
٣٠٣ ـ رسالة جوابية من الخليفة الحكم المستنصر الى الامبراطور البيزنطي تيوفيل
٣٠٦ ـ رسالة الراهب يشوع ورد الباجي عليها
٣٢٦ ـ رسالتا المعز لدين الله الفاطمي الى الامبراطور البيزنطي بشأن كريت والى كافور الاخشيدي حول الشأن نفسه
٣٢٧ ـ رسالة من الخليفة الحافظ الفاطمي الى روجر المتغلب على صقلية
٣٣٦ ـ تعميم صدر عن يوسف بن تاشفين بشأن اتخاذه لقب امير المسلمين
٣٣٧ ـ رسالة جوابية من المتوكل على الله بن الافطس الى الفونسة السادس
٣٣٩ ـ رسالة المتوكل على الله بن الافطس الى يوسف بن تاشفين يستنجد به

٣٤١ ـ رسالة من الفونسو السادس الى المعاتمد بن عباد وجوابه عليها
٣٤٤ ـ رسالتا استصراخ من المعتمد بن عباد الى يوسف بن تاشفين وجوال يوسف عليهما
٣٤٩ ـ رسالة من الفونسو السادس الى يوسف بن تاشفين
٣٥٠ ـ رسالتا بشارة بنصر الزلاقة من المعتمد بن عباد الى اهل اشبيلية
٣٥٣ ـ رسالتا بشارة بنصر الزلاقة ارسلتا الى اشبيلية
٣٥٦ ـ رسالة تهنئة من أبي عبيد البكري إلى المعتمد بن عباد بعد نصر الزلاقة
٣٥٨ ـ الخطاب الذي بعث به يوسف بن تاشفين الى اشياخ المغرب حول معركة الزلاقة
٣٦٠ ـ رسالة يوسف بن تاشفين إلى الزيريين في افريقية
٣٦٦ ـ رسالة من يوسف بن تاشفين الى المستعين بالله احمد بن يوسف بن هود
٣٦٧ ـ رسالة البابا غريغوار السابع الى صاحب قلعة بني حماد
٣٧١ ـ عهد من الخليفة العباسي القائم بأمر الله ليوسف بن تاشفين
٣٨٤ ـ نص المذكرة التي رفعها ابن العربي الى الخليفة المستظهر
٣٩٤ ـ الخطاب الذي وجهه ابن عربي الى حجة الاسلام الامام الغزالي
٣٩٨ ـ رسالة الغزالي الى يوسف بن تاشفين
٤٠٢ ـ رسالة من الامام الطرطوشي الى يوسف بن تاشفين
٤١٣ ـ الحواشي والهوامش
٤٣٠ ـ جريدة المصادر والمراجع


البحر الابيض المتوسط
سبتة
تطوان
ترغة
المزمة
اقليم غارت
الرباط
سلا
فاس
تامسنا
آزمور
منطقة
دكالة
وادي العبيد